«مَوَاعِظُ حَسَنَةٌ وَدُرُوسٌ مُهِمَّةٌ لِعُمُومِ المُسْلِمِينَ فِي رَمَضَانَ»

جمعٌ وترتيبٌ مِن خُطَبِ وَمُحَاضَرَاتِ الشَّيْخِ العَلَّامَة:

أَبِي عَبْدِ اللهِ مُحَمَّد بن سَعِيد رَسْلَان -حَفِظَهُ اللهُ-.

إِنَّ الْحَمْدَ لِلَّهِ نَحْمَدُهُ، وَنَسْتَعِينُهُ وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِاللَّـهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللَّـهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَا هَادِيَ لَهُ.

وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّـهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ.

وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ ﷺ.

أَمَّا بَعْدُ:

فَإِنَّ أَصْدَقَ الْحَدِيثِ كِتَابُ اللَّـهِ، وَخَيْرَ الْهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَشَرَّ الْأُمُورِ مُحْدَثَاتُهَا، وَكُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ، وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ، وَكُلَّ ضَلَالَةٍ فِي النَّارِ.

أَمَّا بَعْدُ:

فَهَذِهِ بَعْضُ المَوَاعِظِ الحَسَنَةِ وَالدُّرُوسِ المُهِمَّةِ لِعمُومِ المُسْلِمِينَ، فِي العَقِيدَةِ وَالعِبَادَةِ وَالْأَخْلَاقِ وَالسُّلُوكِ، وَهِيَ جَمْعٌ وَتَرْتِيبٌ مِن خُطَبِ وَمُحَاضَرَاتِ الشَّيْخِ العَلَّامَة: أَبِي عَبْدِ اللهِ مُحَمَّد بن سَعِيد رَسْلَان -حَفِظَهُ اللهُ-.

جَمَعَهَا وَرَتَّبَهَا إِخْوَانُكُم القَائِمُونَ عَلَى صَفْحَةِ وَمَوْقِعِ تَفْرِيغَاتِ العَلَّامَة رَسْلَان عَلَى الشَّبَكَةِ العَنْكَبُوتِيَّةِ؛ لِيَسْتَفِيدَ مِنْهَا إِخْوَانُنَا الأَئِمَّةُ وَالدُّعَاةُ وَطَلَبَةُ الْعِلْمِ فِي مِصْرَ وَخَارِجِهَا -حَفِظَ اللَّهُ جَمِيعَ بِلَادِ الْمُسْلِمِينَ-، وَأَيْضًا لِيَنْتَفِعَ بِهَا عُمُومُ الْمُسْلِمِينَ بِفَضْلِ اللهِ وَمِنَّتِهِ وَكَرَمِهِ وَجُودِهِ وَرَحْمَتِهِ.

نَسْأَلُ اللهَ الْإِخْلَاصَ وَالقَبُولَ، وَأَنْ يَنْفَعَنَا اللهُ بِهَا وَالمُسْلِمِينَ فِي كُلِّ مَكَانٍ، وَأَنْ يَجْزِيَ الشَّيْخَ خَيْرَ الجَزَاءِ وَأَنْ يُبَارِكَ فِي عُمُرِهِ وَعِلْمِهِ.

وَالحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ.

*****

«الْمَوْعِظَةُ الْأُولَى»

«رَمَضانُ شَهْرُ مَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ»

إنَّ الْحَمْدَ لِلَّهِ نَحْمَدُهُ، وَنَسْتَعِينُهُ وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِاللَّـهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللَّـهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَا هَادِيَ لَهُ.

وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّـهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ.

وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ ﷺ.

أَمَّا بَعْدُ:

«خَصَائِصُ شَهْرِ رَمَضَانَ»

فَرَمَضَانُ هو الشَّهْرُ الذي خَصَّهُ اللهُ -جلَّ وَعَلَا- بِنُزُولِ القُرْآنِ فيه؛ بَل كَمَا ثَبَتَ عن النبيِّ -صلى الله عليه وآله وسلم-: فَإِنَّ التَّوْرَاةَ والإنجيلَ والزَّبُورُ وكذلك القرآنُ المَجِيدُ؛ كلُّهَا نَزَلَت في شَهْرِ رَمَضَان، فهذا الشهرُ خَصَّهُ اللهُ ربُّ العالمين بنزولِ الوحي المَعْصُومِ فيه؛ هدايةً للناسِ، وفُرْقَانًا بَيْنَ الحقِّ والباطلِ، ونِبْرَاسًا يُنِيرُ دَيَاجِيرَ ظُلْمَةِ المَرْءِ في سَعيِهِ في هذه الحياةِ بِكُلِّ ما فيها من الآلامِ والأحزانِ، وبكُلِّ ما فيها من الهمومِ والغمومِ والأنكادِ، وبكلِّ ما فيها من المخاطرِ والمكائدِ -من مكائدِ النَّفْسِ والشيطانِ والكُفارِ والمُجرمين، وكُلِّ صَادٍّ عن سبيلِ ربِّ العالمين-.

فهذا الشهرُ خَصَّهُ اللهُ ربُّ العالمين بخصائصَ باهرة، وأنزلَ فيه الآياتِ المُبهرة، وجعلَ اللهُ ربُّ العالمين فيه رُكنًا من أركانِ دينِ الإسلامِ العظيم، وهو الصيام، كما في حديثِ ابن عمر -رضي اللهُ عنهما- في «الصحيحين» عن النبي ﷺ قال: «**بُنِيَ الإِسْلاَمُ عَلَى خَمْسٍ: شَهَادَةِ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ، وَإِقَامِ الصَّلاَةِ، وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ، وَالْحَجِّ، وَصَوْمِ رَمَضَانَ**».

وفي شهرِ رمضانَ بَعَثَ اللهُ ربُّ العالمين نبيَّهُ الخاتمَ مُحمدًا -صلى الله عليه وآله وسلم- برسالةِ الإسلامِ العظيمِ إلى الناسِ كافة، وهو خاتَمُ النبيين والمُرسلين -صلى الله عليه وعلى آله وسلم-.

في شهرِ رمضان مع ما فيه من الصلاةِ بالقيام، مع ما فيه من إحسانِ الصيام، ومِن تلاوةِ القرآنِ والذِّكْرِ والجُودِ والعطاءِ والبِرِّ، بكُلِّ ما فيه من الخِصال؛ إذا ما فُعِلَت إيمانًا واحتسابًا؛ يكونُ الشهرُ مُكَفِّرًا لِمَا بينه وبينَ الشهرِ الذي بعدهُ، كما قال الرسولُ ﷺ: «**الصَّلَوَاتُ الْخَمْسُ، وَالْجُمْعَةُ إِلَى الْجُمْعَةِ، وَرَمَضَانُ إِلَى رَمَضَانَ مُكَفِّرَاتٌ مَا بَيْنَهُنَّ إِذَا اجْتُنِبَتِ الْكَبَائِرُ**». والحديثُ عند مسلمٍ في «الصحيح».

إنَّ العبدَ الصالحَ يستقبلُهُ ويدومُ على ذلك، يستقبلُهُ بالتوبةِ النَّصوحِ ويدومُ عليها، وبعزيمةٍ صادقةٍ يدومُ عليها؛ على أنْ يغتنمَهُ، وألَّا يُضيِّعَ منه شيئًا، وعلى الإنسانِ أنْ يجتهدَ في شَغْلِ الأوقاتِ بالأعمالِ الصالحات؛ لأنه لا يدري أَيَدُورُ العامُ دَورتَهُ حتى يكونَ من أهلِ الصيامِ مِن قَابِلٍ، أم يكونُ مُغيَّبًا تحت طبقاتِ التراب؟

فذلك غَيْبٌ لا يعلمهُ إلا الله، وعلى المرءِ السعيُ، وبَذْلُ المجهودِ فيما آتاهُ اللهُ ربُّ العالمين من الأسبابِ، راجيًا من اللهِ -جلَّ وعلا- القَبول(١).

---

(١) «**خُطْبَة: رَمَضَان كَيْفَ نَحْيَاهُ - الجمعة ١٥ من رمضان ١٤٣٣هـ / ٢٠١٢/٨/٣م**»

«حُسْنُ الخُلُقِ مِنْ كُبْرَى غَايَاتِ دِينِنَا»

حَصَرَ النبيُّ ﷺ الغايةَ مِن البعثةِ المحمديةِ في تمامِ صالحِ الأخلاقِ، فقالَ ﷺ: «**إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأُتَمِّمَ صَالِحَ الأَخْلَاقِ**».

أخرجَهُ البخاريُّ في «الأدبِ»، والحاكمُ، وأحمدُ، وصححَهُ الشيخُ أحمد شاكر والشيخُ الألبانيُّ وغيرُهُما.

فلا عَجَبَ إذن أنْ يكونَ حُسْنُ الخُلُقِ غايةَ الغاياتِ في سَعْيِ العَبدِ لاستكمالِ الصفاتِ على أساسٍ مِن التوحيدِ المَكينِ، وثابتِ الإخلاصِ واليقين.

وقد كان إمامُ الأنبياءِ ﷺ في «حُسْنِ الخُلُقِ» على القمةِ الشامخةِ، وفوقَ الغايةِ والمُنتهى، فكان كما قال عنه ربُّهُ -عزَّ وجلَّ-: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤].

وهو ﷺ مع ذلك لا يَنْفَكُّ يدعو ربَّهُ في قيامِ الليلِ بقولِهِ: «**اللَّهُمَّ اهْدِنِي لأَحْسَنِ الأَخْلاقِ، فَإِنَّهُ لا يَهْدِي لأَحْسَنِهَا إِلَّا أَنْتَ، وَاصْرِفْ عَنِّي سَيِّئَهَا لَا يَصْرِفُ عَنِّي سَيِّئَهَا إِلَّا أَنْتَ**».

رواهُ مسلمٌ عن عليٍّ -رضي اللهُ عنه-.

يطلبُ مِن ربِّهِ أنْ يُرشدَهُ لصوابِ الأخلاقِ، ويُوفِّقَهُ للتخلُّقِ به، وأنْ يصرفَ عنه قبيحَ الأخلاقِ ومذمومَ الصفاتِ، ويُبعِدَ ذلك عنه، مع أنهُ ﷺ على خُلُقٍ عظيمٍ، ومع أنَّ خُلُقَهُ القرآنُ الكريمُ.

أخبر سعدُ بن هشام بن عامرٍ أنه سألَ عائشةَ -رضي اللهُ عنها-، فقال: «قلتُ: يَا أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ، أَنْبِئِينِي عَنْ خُلُقِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ.

قَالَتْ: أَلَسْتَ تَقْرَأُ الْقُرْآنَ؟

قُلْتُ: بَلَى.

قَالَتْ: فَإِنَّ خُلُقَ نَبِيِّ اللَّهِ ﷺ الْقُرْآنُ». رواه مسلم.

ومعنى أنَّ خُلُقَهُ القرآنُ أنه يعملُ به، ويقفُ عند حدودِهِ، ويتأدبُ بآدابِهِ، ويعتبرُ بأمثالِهِ وقَصَصِهِ، ويتدبرُهُ، ويُحسِنُ تلاوتَهُ.

وإذا كان النبيُّ ﷺ مِن حُسنِ الخُلُقِ بهذه المثابةِ، وهو -مع ذلك- يسألُ الهدايةَ لأحسنِ الأخلاقِ، ويستعيذُ مِن سيِّئِهَا، فكيفُ يصنعُ مَن خُلُقُهُ إلى خُلُقِ النبيِّ ﷺ كقطرةٍ في بحرٍ أو دون ذلك؟!!

وكلُّ إنسانٍ -لا محالة- يجهلُ الكثيرَ مِن عيوبِ نَفْسِهِ، فإذا جَاهَدَ نَفْسَهُ أَدْنَى مجاهدةٍ حتى تَرَكَ فواحشَ المعاصي، فربما ظنَّ بنفسِهِ أنه قد هذَّبَ نفسَهُ، وصَفَّى أخلاقَهُ، وحسَّنَ خُلُقَهُ، واستغنى عن المجاهدةِ، واستنامَ إلى حُسنِ ظنِّهِ بنفسِهِ واتَّبَعَ هَوَاهُ(١).

«رَمَضَانُ شَهْرُ الصِّيَامِ وَمَكَارِمِ الأَخْلَاقِ»

قَالَ ابنُ القَيِّمِ -رَحِمَهُ اللهُ-: «إنَّ الصيام هو لِجَامُ الْمُتَّقِينَ، وَجُنَّةُ الْمُحَارِبِينَ، وَرِيَاضَةُ الْأَبْرَارِ الْمُقَرَّبِينَ، وَهُوَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ مِنْ بَيْنِ سَائِرِ الْأَعْمَالِ؛ فَإِنَّ الصَّائِمَ لَا يَفْعَلُ شَيْئًا، وَإِنَّمَا يَتْرُكُ شَهْوَتَهُ وَطَعَامَهُ وَشَرَابَهُ مِنْ أَجْلِ مَعْبُودِهِ، فَهُوَ تَرْكُ مَحْبُوبَاتِ النَّفْسِ وَتَلَذُّذَاتِهَا؛ إيثَارًا لِمَحَبَّةِ اللّهِ وَمَرْضَاتِهِ، وَهُوَ سِرٌّ -أي الصيامُ- بَيْنَ الْعَبْدِ وَرَبِّهِ، لَا يَطَّلِعُ عَلَيْهِ سِوَاهُ، وَالْعِبَادُ قَدْ يَطَّلِعُونَ مِنْهُ عَلَى تَرْكِ الْمُفْطِرَاتِ الظَّاهِرَةِ، وَأَمَّا كَوْنُهُ تَرَكَ طَعَامَه وَشَرَابَه وَشَهْوَتَه مِنْ أَجْلِ مَعْبُودِهِ؛ فَهُوَ أَمْرٌ لَا يَطَّلِعُ عَلَيْهِ الخلقُ، وَذَلِكَ حَقِيقَةُ الصّوْمِ.

---

(١) «باختصار من كتاب «حُسنِ الخُلُقِ» الطبعة الثالثة».

وللصومِ تأثيرٌ عجيب في حفظِ الجوارحِ الظاهرة والقُوى الباطنة، وحِمْيَتِها عن التخليطِ الجالبِ لها الموادَّ الفاسدة التي إذا استولت عليها أفسدتها، واستفراغِ الموادِّ الرديئةِ المانعةِ لها مِن صِحتِها، فالصومُ يحفظُ على القلبِ والجوارح صِحَّتَها، ويُعيدُ إليها ما اسْتَلَبَتْهُ منها أيدي الشهوات، فهو من أكبرِ العَوْنِ على التقوى.

كما قال اللهُ -جلَّ وعلا-: ﴿يا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُم لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٨٣].

وقال النبيُّ ﷺ: «**الصَّوْمُ جُنَّة**».

«احْذَرْ مُجَالَسَةَ الفَارِغِينَ فِي رَمَضَانَ وَفِي غَيْرِهِ»

واحْذَر مَجَالِسَ الفَارِغِينَ، وَاحْفَظ لِسَانَكَ مِن الغِيبَةِ والنَّمِيمَةِ وَفَاحِشِ القَوْلِ، واحْبِس لِسَانَكَ عن كلِّ ما يُغْضِبُ اللهَ، وَأَلْزِم نَفْسَكَ الكلامَ الطَّيِّبَ الجمِيلَ، وَلْيَكُن لِسَانُكَ رَطْبًا بِذِكْرِ اللهِ، وهي فرصةٌ لِلتزَوُّدِ مِن الطاعةِ والتَّفَرُّغِ للعبادةِ، وقد لا تَتَكَرَّرُ الفرصةُ؛ بَل قد تَمُوتُ قَبْلَ أَنْ تَعُودَ الفُرَصُ.

وَاعْلَم أَنَّ كلَّ يومٍ يَعِيشُهُ المُؤمِنُ فهو غَنِيمَةٌ.

نَسْأَلُ اللهَ -تَبَارَكَ وَتَعَالَى- أَنْ يَتُوبَ عَلَيْنَا أَجْمَعِينَ، وَأَنْ يَجْعَلَنَا في هذا الشهرِ مِن عُتَقَائِهِ مِن النَّارِ، وَأَنْ يُوَفِّقَنَا فيه لِمَا كَلَّفَنَا به وَنَدَبَنَا إليه نَبِيُّنَا ﷺ، وأنْ يَجْعَلَ ذلك على النَّحْوِ الذي يُرْضِيه، وَأَنْ يُحْسِنَ خِتَامَنَا أَجْمَعِينَ.

وَصَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ عَلَى نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ ﷺ(١).

---

(١) «خطبة: تطهير القلبِ في رمضان - الجمعة ٢ من رمضان ١٤٣٦هـ - الموافق ٢٠١٥/٦/١٩م».

«الْمَوْعِظَةُ الثَّانِيَةُ»

«الْإِخْلَاصُ»

إِنَّ الْحَمْدَ لِلَّهِ نَحْمَدُهُ، وَنَسْتَعِينُهُ وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِاللَّـهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللَّـهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَا هَادِيَ لَهُ.

وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّـهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ.

وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ ﷺ.

أَمَّا بَعْدُ:

«الإِخْلَاصُ للهِ والخَوْفُ مِنْهُ سُبْحَانَهُ»

فَإِنَّ القلب فِي سَيْرِهِ إلى الرَّبِّ كالطَّائِرِ له رأسٌ وجناحان، فإذا قُطِعَ رأسُ الطائرِ؛ هَلَكَ، وإذا غِيضَ جناحاه وكُسِرَا؛ صار عاجزًا، وصار عُرْضَةً لِتَنَاوُلِ كُلِّ صائدٍ وكاسِر، وأمَّا إذا ما سَلِمَ رأسُهُ وجناحاهُ؛ فإنَّه يصيرُ جَيِّدَ الطَّيَرَانِ؛ والقلبُ رأسُه: محبةُ اللهِ -جلَّ وعلا-، وجناحاه: الخوفُ والرجاء، فإذا ذَهَبَتِ المحبةُ؛ فكالطَّيْرِ تُقْطَعُ رأسُهُ، وإذا كُسِرَ جناحاهُ فذهب الخوفُ والرجاءُ؛ فكالطائرِ عُرْضَةً لِكُلِّ صائِدٍ وكاسِرٍ، وعُرضَةً لكل مُتَنَاوِلٍ مِنْ مُنَاوِشٍ مِنْ شيطانِ الإنسِ والجِنِّ على السواء.

عبد الله بن عمر -رضوان الله عليهما- رُفِعَ إليه يَوْمًا كوبٌ من ماء مُبَرَّدٍ، فلمَّا شربَ بَكَى.

فقيل: ما يُبْكيك؟

قال: ((ذَكَرْتُ آيةً في كتابِ اللهِ -جَلَّ وَعَلَا-: ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ﴾ [سبأ: ٥٤] قال: عَلِمْتُ لمَّا نظرتُ أنَّ أهلَ النارِ لا يشتهون سوى الماء))

لأن اللهَ -جلَّت قدرتُهُ- يقول في كتابه العظيم: ﴿وَنَادَىٰ أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ ۚ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [الأعراف: ٥٠].

قال: فتذكَّرتُ تِلك الشهوةَ لأهلِ النارِ في النار، وكيف حِيلَ بينهم وبين ما يشتهون.

وهذا الماءُ لنا في الحياةِ مبذول، ثم يصيرُ المرءُ بكُفْرِهِ بمعصيتِهِ إلى ما يَصِير، ثم ما زالَ يبكي بُكَاءً شديدًا، يتأثَّرُ جَسدُهُ بِبُكائِهِ شيئًا فشيئًا، حتى مَرِضَ أيَّامًا وعِيدَ، وعِيدَ أيّامًا يعودُه المسلمون -رحمةُ اللهِ عليهم أجمعينَ ورضوانُه-.

يقولُ الحسن وقد بَكَى يومًا -رحمةُ اللهِ عليه-: «أمَا إنِّي لأخشى أنْ يَطْرَحَنِي في النارِ ولا يُبَالي».

إِي نعم، لا مُعَقِب لحُكْمِه؛ يطرحُني في النار ولا يبالي؛ يفعل ما يشاء، وَيَحْكُمُ بما يريد، بيده مقاليدُ القُوَى والقُدَرِ، وهو على كلِّ شيءٍ قدير.

«إِخْلَاصُ النَّبِيِّ ﷺ وَبُكَاؤُهُ»

إنَّ الرسول ﷺ كما أخرج البخاري في «صحيحه» عن عبد الله بن مسعود -رضي الله عنه- قال: قال لي النبيُّ ﷺ يومًا: «**اقْرَأْ عليَّ القرآن**».

قال: قلت: أَقْرَأُ عليك، وعليك أُنْزِل؟!

قال: «**إنِّي أُحبُّ أنْ أَسْمَعَهُ مِنْ غيرِي**».

قال: فاستفتحتُ سورةَ النساء، حتى وصَلْتُ إلى قول الله –جلَّ وعلا-: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٤١].

قال: «**حسْبُك الآن**»، وكان صوتُهُ مُتَهَجِّجًا يغلبُهُ الانفعالُ، ويرتعُ في جَنَبَاتِ حروفِهِ البكاء.

قال: فالتفَتُّ، فإذا عيناهُ تَذْرِفَانِ ﷺ.

وعن مُطَرِّفِ بنِ عبدِ اللهِ عن أبيه -رضي الله عنه- قال: ((جِئتُ النبيَّ ﷺ يومًا وهو في الصلاة، ولِصَدْرِهِ أَزِيزٌ كَأَزِيزِ المِرْجَلِ مِن البكاء))

لأنَّ النبيَّ ﷺ أعرَفُ الخَلْقِ بالله -جل وعلا-، وهو يقْدُرُ اللهَ -جلَّت قدرتُه- حقَّ قَدْرِه، والنبيُّ ﷺ يسيرُ إلى ربِّهِ على جَنَاحَيْ الخوفِ والرجاء، وأمَّا المحبة؛ فَتَؤُزُّ القلبَ أزًّا في مسيرِهِ؛ بل في طَيَرانِه إلى مرضاةِ ربِّهِ -جلَّ وعلا-.

«أَيْ إِخْوَانِي؛ لِمِثْلِ هَذَا فَأَعِدُّوا»

أخرج الإمامُ أحمد في «مسنده»، وكذلك ابنُ ماجه في «سُنَنِه»، والبخاريُّ في «تاريخه» -رحمة الله عليهم جميعًا-: عن البراء بن عازب -رضي الله عنه-، قال: كُنَّا مع النبي ﷺ يومًا، فَرَأَى جماعةً اجتمعوا ناحيةً، فقال: «**عَلَامَ اجتمع هؤلاء؟**»

فقيل: إنهم اجتمعوا على قبرٍ يحفُرونهُ، فَبَدَرَ مِنَّا نبيُّنا ﷺ مُسْرِعًا، حتى جاء إلى شفيرِ القبرِ، فجَثَا عنده على رُكْبَتَيْه، وأَقْبَلَ بوجهِهِ على القبرِ.

قال البراءُ -رضي الله عنه-: فقلتُ أَسْتَقْبِلُه من جهةِ وجهِهِ لأنظرَ ما يصنع، قال: فاستقبلتُهُ، فإذا هو يبكي، وما زال يبكي حتى بلَّ الثَّرَى -حتى بَلَّ الترابَ النَّدِيَّ بدموعه المُتفجراتِ من قلبِهِ وفؤادِهِ ﷺ-.

قال: ثم الْتَفَتَ إِلَيْنَا، فقال: «**أَيْ إخواني؛ لِمِثْلِ هذا فأعِدُّوا**».

يقول النبي –صلى الله عليه وعلى آله وسلم- في مَلْمَحٍ عَمَلِيٍّ تطبيقِيٍّ واقِعِيٍّ مُبْصَرٍ مُشَاهَدٍ ملموسٍ محسوس؛ فإنَّ القبرَ كان يُعَدُّ لاستقبالِ ميِّتٍ، وقد فَتَحَ فاهُ، وفَغَر فِيهِ مِن أجلِ أنْ يَلْتَقِمَهُ ليُغَيِّبَهُ في جوفِهِ يترمَّمُ يتجَيَّفُ، ثم يصيرُ بَعْدُ تُرابًا، وهنالك عذابٌ عظيمٌ أو نعيمٌ مكينٌ؛ لا يدري ذلك ولا يَعْلَمُهُ إِلَّا اللهُ ربُّ العالمين.

ويجثو النبيُّ ﷺ على رُكْبَتَيْه عند القبرِ يبكي؛ عَلَام يَبْكِي ﷺ؟!

ألم يَغْفِرْ له ربُّهُ ما تَقَدَّمَ من ذنبِهِ وما تَأَخَّرَ؟

بلى؛ قد فَعَلَ؛ ولكنَّ -النبيَّ ﷺ يسيرُ إلى اللهِ ربِّ العالمين سَيْرَ العارفِ بجلالِ قَدْرِه، المُقَدِّرِ لعظيمِ سُلطانه، فما يزال يبكي حتى يَبُلَّ بدموعهِ الترابِ، ثم يَلْتَفِتُ إلَيْهم وإلَيْنا معًا: «أَيْ إخواني؛ لِمِثْلِ هذا فاعملوا، أَيْ إخواني؛ لِمِثْلِ هذا فأَعِدُّوا، أَيْ إخواني؛ لِمِثْلِ هذا المَنْزِل فاسْتَعِدُّوا»، يقولُها نبيُّنا ﷺ؛ لأنَّهُ أَعْرَفُ الخَلْقِ بالله -جلَّ وعلا-.

«العِبْرَةُ لَيْسَت بِالعَمَلِ فِي ذَاتِهِ وَلَكِن بِالإِخْلَاصِ فِيهِ»

قَالَ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ، أُولَٰئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ﴾ [المؤمنون: ٦٠-٦١].

تقول عائشةُ -رضوان الله عليها- كما في الحديثِ الثابتِ الصحيحِ عنها، أخرجهُ الترمذيُّ وأحمد وابنُ ماجه؛ تقول: قلتُ للنبي ﷺ في هذه الآية: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾؛ أَهُم الذين يُسْرِفُونَ ويَزْنُونَ ويسرقون؟!

قال: «**لا يا بِنْتَ أبي بكر، لا يا بِنْتَ الصِّدِّيق، إنهم الذين يصومونَ ويصلُّونَ ويتصدقونَ، ويخافونَ أَلَّا يتقبلَ اللهُ ربُّ العالمين منهم**»؛ لأنَّ العِبْرَةَ ليست بالعملِ في ذاتِهِ، وإنَّمَا العِبْرَةُ كُلُّ العِبْرَةِ في تَصْفِيَةِ العملِ مِن شوائِبِهِ، في تَصْفِيَةِ العمل مِمَّا يُحْبِطُهُ، في تَنْقِيَةِ العمل مِمَّا يُكَدِّرُه؛ العِبْرَةُ كُلُّ العِبْرَة في تَنْقيةِ العمل مِمَّا يُحْبِطُهُ، حتى يُرَدَّ على صاحبِهِ كما يُرَدُّ الثَّوبُ الخَلِقُ يُضْرَبُ به وجْهُهُ، يُقَالُ له: ضيَّعَكَ اللهُ كما ضَيَّعتني؛ لأنَّ اللهَ ربَّ العالمين يَنْظُرُ في خَلَلِ الأعمالِ، في خِلَالِها، في مَطَاويها، ينظرُ اللهُ ربُّ العالمين في ثنايا الأعمالِ، يبحثُ اللهُ ربُّ العالمين عن الإخلاصِ.

اللهُ ربُّ العالمين ينظرُ إلى الإخلاصِ هنالك مِنْ وراءِ الأعمالِ في دوافعِها، في بواعثِها، في الحوافزِ التي حَفَزَت إلى الإِتْيَانِ بها.

وأمَّا الأعمالُ في ظاهرِها؛ فإنَّها لا تقومُ عند اللهِ ربِّ العالمين بغير ساقٍ مَتِينٍ يحْمِلُهَا من الإخلاصِ بالقصدِ الأوَّلِ للهِ ربِّ العالمين وَحْده.

والنبيُّ ﷺ يُخْبِرُ: «**أَنَّ أقوامًا يَأْتُونَ يومَ القيامةِ بأعمالٍ بيضاءَ عظيمة كأمثالِ جِبَالِ تِهَامَةَ -مِنْ صلاةٍ وزكاةٍ وصيامٍ وصدقةٍ وحجٍّ وبرٍّ ووَصْلٍ وغيرِ ذلك مِنْ أمورِ الخير-، فَيَنْظُرُ اللهُ إليها، فَيَجْعَلُها هَبَاءً منثورًا**».

فقال الأصحابُ -رضوانُ الله عليهم- وَجِلِين: مَنْ يكونُ هؤلاء؟

«**أَمَا إنهم لمِنْكُم، ويقولون بمِثْلِ قولكم، ويعملون بمِثْلِ أعمالكم؛ ولكنهم قومٌ إذا خَلَوْا بِمَحَارِمِ اللهِ انتهكوها**»، قومٌ إذا خَلَوْا بِمَحَارِمِ اللهِ انتهكوها!!

وَيْحَك، أليس عليك مِنْ شهيد؟!!

أليس عليك مِنْ رقيب؟!!

أليس عليك مِنْ سميعٍ يسمعُ هَمْسَ الضميرِ في الضميرِ للضميرِ بالإتيانِ بما يريد؟!! وَيْحَك، أَلَا تَعْلَم بأنَّ اللهَ يرى؟!!

وَيْحَك، أَلَا تَعْلَم أنَّ اللهَ -تبارك وتعالى- هو السميع البصير!! يَعْلَمُ خائِنة الأَعْيُن وما تخفي الصدور؟!!

اللهُ ربُّ العالمين يريدُ من الأعمالِ حقَائِقَها، وحَقَائِقُهَا لا تقومُ إلَّا على الإخلاصِ فيها.

والنبيُّ ﷺ هو الذي أَتَى بالإخلاص كُلِّه ﷺ، وعَلَّم الأُمَّةَ كيف تكون مُخْلِصَةً لرَبِّها.

اللهُ ربُّ العالمين لا يقبلُ من العملِ إلا ما كان خالِصًا وأُرِيدَ به وجهُهُ.

اللهُ ربُّ العالمين أغنى الشركاءِ عن الشّرْك، فمن أشركَ معه غيرَهُ؛ وَكَلَهُ للذي أشركَ ولا يُبَالي.

اللهُ ربُّ العالمين يجعلُ المُنادي يُنادي يومَ القيامة على الخلائق في الموقِف: «أَلَا مَنْ كان عامِلًا شيئًا لغيرِ الله –جلَّ وعلا-؛ فَلْيَذْهَبْ إليه مِنْ أَجْلِ أنْ يُوَفِّيَهُ حقَّه».

أرأَيْت إنصافًا فوقَ هذا الإنصاف؟!!

أَسَمِعْتَ عن عدلٍ يُضَاهِي هذا العدلَ أو يُمَاثلُهُ أو يُقاربُهُ؟!!

حاشا وكلَّا.

«الإِخْلَاصُ رُوحُ الإِسْلَامِ»

أَلَا إِنَّ الإِخلاصَ هو رُوحُ دينِ الإسلام، وأمَا إنَّ نبيَّكم ﷺ قد حَضَّ عليه، ودلَّ عليه، وبيَّن أنَّ الإنسانَ لا يَتَحَصَّلُ مِنَ العملِ إلَّا على قَدْرِ نِيَّتِهِ، ﴿وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى﴾ [النجم: ٣٩]، وأنَّ اللهَ ربَّ العالمين سَيَبْعَثُهُ بينَ يديْهِ، ﴿وأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى﴾ [النجم: ٣٩]؛ مِن أجلِ الاختبارِ والامتحانِ والتفتيشِ في البواعِثِ، في النِّيَّات، في الضمائرِ، في مكْنوناتِ القلوبِ، وفي مُغَيَّباتِ الصدورِ، في تلك الأَطْوَاءِ التي قد انطوَت على ما انطوت عليه، لا تريدُ أنْ تُذْهِبَ عنها الرَّانَ، ولا تريد أنْ تَنفُضَ عن جَنَبَاتِها الأذى؛ فما الشَّأن إذَن؟!

إذا كان اللهُ ربُّ العالمين يُعْطِي ويَمْنَحُ، والنَّاسُ لا يَقبَلون، يرُدُّونَ على اللهِ ربِّ العالمين عَطِيَّته؛ ما الشأن إذَن؟!!

اللَّهُمَّ سلِّم وارحم، وأنت أرحمُ الراحمين.

نسأل اللهَ أنْ يرزقنا الإخلاص أجمعين، وأنْ يجمعنا مع النبي في الفردوسِ الأعلى من الجنة برحمتِهِ التي وسعت كلَّ شيء، وهو على كلِّ شيءٍ قدير.

وَصَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ عَلَى نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ ﷺ(١).

---

(١) «الإِخْلَاصُ رُوحُ الإِسْلَامِ - الجمعة ٢٩ من رمضان ١٤٢٥هـ الموافق ١٢-١١-٢٠٠٤م».

«المَوْعِظَةُ الثَّالِثَةُ»

«الرَّحْمَةُ»

إِنَّ الْحَمْدَ لِلَّهِ نَحْمَدُهُ، وَنَسْتَعِينُهُ وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِاللَّـهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللَّـهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَا هَادِيَ لَهُ.

وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّـهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ.

وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ ﷺ.

أَمَّا بَعْدُ:

«إِذَا جَاءَ رَمَضَانُ؛ فُتِّحَتْ أَبْوَابُ الرَّحْمَةِ»

فَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ -رضيَ اللهُ عنهُ- أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «**إِذَا جَاءَ رَمَضَانُ؛ فُتِّحَتْ أَبْوَابُ الْجَنَّةِ، وَغُلِّقَتْ أَبْوَابُ النَّارِ، وَصُفِّدَتِ الشَّيَاطِينُ**».

رَوَاهُ البُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ.

وَفِي رِوَايَةٍ لِمُسْلِمٍ: «**فُتِّحَتْ أَبْوَابُ الرَّحْمَةِ، وَغُلِّقَتْ أَبْوَابُ جَهَنَّمَ، وَسُلْسِلَتِ الشَّيَاطِينُ**».

«الرَّحْمَةَ وَصْفٌ مُشْتَرَكٌ بَيْنَ الأَنْبِيَاءِ -عَلَيْهِم السَّلَام-»

وَإِنَّ مَنْ سَبَرَ أحوالَ الأنبياءِ -عليهم الصلاةُ والسلام-؛ فإنه يَعرفُ أَنَّ الرحمةَ وَصْفٌ مُشتركٌ بينهم -صلى الله عليهم وسلم-، ومَن سَبَرَ أحوالَهم؛ وَجَدَ الرحمةَ مِن أَخَصِّ أوصافِ نبيِّنا مُحَمَّد ﷺ التي كانت تَغْلِبُ غَضَبَهُ، وله منها الحَظُّ الأَوْفَى، فإِنَّ اللهَ أَرْسَلَهُ لذلك وفي ذلك، كما قال -جلَّ وعلا-: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

«رَحْمَةُ النَّبِيِّ ﷺ»

لَقَد تَوَاتَرَت النصوصُ مِن سيرتِهِ وسُنَّتِهِ بما كان عليه من الرحمةِ والشفقةِ، وما جاء عنه مِن الأمرِ بها، والحثِّ على امتثالِهَا شيءٌ كَثِيرٌ يَعْسُرُ حَصْرُهُ واستقصاؤُهُ؛ لذلك اجْتَمَعَت عليه القلوبُ والأبدانُ، قال ربُّنَا -جَلَّ وَعَلَا- ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

وقد شَهِدَ له ﷺ عُلماءُ أهلِ الكتابِ؛ شَهِدَوا له بأنهُ رحمةٌ للعالمين.

فعَنْ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ -رضي الله عنه-، قَالَ: «خَرَجَ أَبُو طَالِبٍ إِلَى الشَّامِ وَخَرَجَ مَعَهُ النَّبِيُّ ﷺ -يعني: في صباه- فِي أَشْيَاخٍ مِنْ قُرَيْشٍ، فَلَمَّا أَشْرَفُوا عَلَى الرَّاهِبِ هَبَطُوا فَحَلُّوا رِحَالَهُمْ، فَخَرَجَ إِلَيْهِمُ الرَّاهِبُ وَكَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ يَمُرُّونَ بِهِ فَلَا يَخْرُجُ إِلَيْهِمْ وَلَا يَلْتَفِتُ.

قَالَ: فَهُمْ يَحُلُّونَ رِحَالَهُمْ، فَجَعَلَ يَتَخَلَّلُهُمُ الرَّاهِبُ حَتَّى جَاءَ فَأَخَذَ بِيَدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ.

فَقَالَ: هَذَا سَيِّدُ العَالَمِينَ، هَذَا رَسُولُ رَبِّ العَالَمِينَ، يَبْعَثُهُ اللَّهُ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ.

فَقَالَ لَهُ أَشْيَاخٌ مِنْ قُرَيْشٍ: مَا عِلْمُكَ؟

فَقَالَ: إِنَّكُمْ حِينَ أَشْرَفْتُمْ مِنَ العَقَبَةِ لَمْ يَبْقَ حَجَرٌ وَلَا شَجَرٌ إِلَّا خَرَّ سَاجِدًا وَلَا يَسْجُدَانِ إِلَّا لِنَبِيٍّ، وَإِنِّي أَعْرِفُهُ بِخَاتَمِ النُّبُوَّةِ أَسْفَلَ مِنْ غُضْرُوفِ كَتِفِهِ مِثْلَ التُّفَّاحَةِ». الحديثَ.

أخرجه الترمذيُّ وحَسَّنَهُ، والحاكمُ وصَحَّحَهُ على شرطِ الشيخين، وَصَحَّحَهُ الألبانيُّ في «صحيح السيرة».

فقد بيَّنَ النبي ﷺ أنَّ سببَ رحمةِ اللهِ -تبارك وتعالى- أنْ يَرْحَمَ الإنسانُ خَلْقَ اللهِ -جَلَّ وعلا-.

فعن جرير بن عبد الله -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ «**مَنْ لَا يَرْحَم النَّاسَ لَا يَرحَمهُ الله**». متفق عليه.

وعن عبد الله بن عمرو -رضي الله عنهما- قال: قال رسول الله ﷺ «**الرَّاحِمُونَ يَرْحَمُهم الرَّحْمَنُ، ارْحَمُوا مَن فِي الأَرْضِ يَرْحَمُكُم مَنْ فِي السَّمَاءِ**».

أخرجه أحمد وأبو داود والترمذي وغيرهم.

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ -رضي الله عنه- قال: أَبْصَرَ الْأَقْرَعُ بْنُ حَابِسٍ النَّبِيَّ ﷺ وَهُوَ يُقَبِّلُ الحسن.

فَقَالَ: إِنَّ لِي مِنَ الْوَلَدِ عَشَرَةً مَا قَبَّلْتُ أَحَدًا مِنْهُمْ.

فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**إنه مَنْ لَا يَرْحَمُ لَا يُرْحَمُ**». متفق عليه.

وعَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**أَنَا وَكَافِلُ الْيَتِيمِ فِي الْجَنَّةِ كَهَاتَيْنِ، وَأَشَارَ بإصبعيه يعني السَّبَّابَةِ وَالْوُسْطَى**». أخرجه البخاري.

وعن أبي هريرة -رضي الله عنه- قال: سمعت أبا القاسم ﷺ يقول: «**لا تُنْزَعُ الرحمةُ إلَّا مِن شَقِيٍّ**». رواه أحمد والبخاريُّ في «الأدب المفرد».

فكلُّ هذه النصوص القوليةِ والفعليةِ تدلُّ على استقرارِ الرحمةِ في نفسهِ ﷺ، حتى كانت ديدنه في الوعظِ والتذكير، ولكمالِ رحمتِهِ ولينِهِ ورِفقهِ؛ اجتمعت عليه قلوبُ العباد والْتَفَّتْ حولَهُ أبدانُهم، وقد كان يحتمل من أذى الناس الشيء العظيم ومع ذلك لا ينتقم، بل ولا يَضْجَر، فرحمتُه تسبق غضبه ﷺ.

فهو نبيُّ الرحمة ﷺ، ودينُهُ دينُ الرحمة، وهو داعٍ إلى الرحمة، وقد أرسلهُ اللهُ تعالى رحمةً للعالمين.

يا مَن لَهُ مِنَ الأَخلاقِ ما تَهوى العُلا   مِنهـا وَمـا يَتَعَشَّقُ الكُـبَراءُ
فَإِذا سَخَوْتَ بَلَغْتَ بِالجودِ المَدَى   وَفَعَلـتَ ما لا تَـفعَلُ البُـذَلَاءُ
وَإِذا عَفَوتَ فَقادِرًا وَمُقَـــدَّرًا   لا يَستَهـــينُ بِعَفْوِكَ الجُهَـــلاءُ
وَإِذا رَحِمْتَ فَأَنتَ أُمٌّ أَو أَبٌ   هَذانِ في الدُنيا هُمَا الرُحَماءُ
وَإِذا غَضِبْتَ فَإِنَّما هِيَ غَضْبَةٌ   في الحَقِّ لا ضِغنٌ وَلا بَغْضَاءُ
وَإِذا رَضيتَ فَذاكَ في مَرضاتِهِ   وَرِضا الكَثيرِ تَحَلُّمٌ وَرِياءُ
وَإِذا خَطَبتَ فَلِلمَنابِرِ هِـــزَّةٌ   تَعْرُو النَدِيَّ وَلِلقُلوبِ بُكاءُ
وَإِذا قَضَيتَ فَلا ارتِيابَ كَأَنَّمَا   جَاءَ الخُصومَ مِنَ السَماءِ قَضاءُ
وَإِذا حَمَيتَ الماءَ لَم يُورَد وَلَو   أَنَّ القَيَاصِرَ وَالمُلوكَ ظِمَاءُ
وَإِذا أَجَرْتَ فَأَنتَ بَيْتُ اللهِ لَم   يَدْخُل عَلَيهِ المُستَجيرَ عَداءُ
وَإِذا مَلَكتَ النَفسَ قُمتَ بِبِرِّها   وَلَوَ اَنَّ ما مَلَكَت يَداكَ الشاءُ
وَإِذا بَنَيتَ فَخَيرُ زَوجٍ عِشرَةً   وَإِذا ابتَنَيتَ فَدونَكَ الآباءُ
وَإِذا صَحِبتَ رَأى الوَفاءَ مُجَسَّمًا   في بُردِكَ الأَصحابُ وَالخُلَطاءُ
وَإِذا أَخَذْتَ العَهدَ أَو أَعطَيْتَهُ   فَجَميعُ عَهدِكَ ذِمَّةٌ وَوَفاءُ
وَإِذا مَشَيْتَ إِلَى العِدا فَغَضَنْفَرٌ   وَإِذا جَرَيتَ فَإِنَّكَ النَكباءُ
وَتَمُدُّ حِلمَكَ لِلسَّفيهِ مُدارِيًا   حَتَّى يَضيقَ بِعَرضِكَ السُفَهاءُ
في كُلِّ نَفسٍ مِن سُطَاكَ مَهابَةٌ   وَلِكُلِّ نَفسٍ في نَداكَ رَجاءُ

وَالرَّأيُ لَم يُنضَ المُهَنَّدُ دونَهُ   كَالسَّيفِ لَم تُضرِب بِهِ الآراءُ

الحَربُ في حَقٍّ لَدَيكَ شَريعَةٌ   وَمِنَ السُّمومِ النَّاقِعاتِ دَواءُ

وَالبِرُّ عِندَكَ ذِمَّةٌ وَفَريضَةٌ   لا مِنَّةٌ مَمنونَةٌ وَجَباءُ

جاءَت فَوَحَّدَتِ الزَكاةُ سَبيلَهُ   حَتَّى التَقى الكُرَماءُ وَالبُخَلاءُ

أَنصَفتَ أَهلَ الفَقْرِ مِن أَهلِ الغِنَى   فَالكُلُّ في حَقِّ الحَياةِ سَواءُ

مِن كُلِّ دَاعِي الحَقِّ هِمَّةُ سَيْفِهِ   فلِسَيفِهِ في الراسِياتِ مَضاءُ

سَاقِي الجَريحِ وَمُطعِمُ الأَسْرَى وَمَن   مِنَت سَنابِكَ خَيلِهِ الأَشلاءُ

إِنَّ الشَجاعَةَ في الرِجالِ غِلاظَةٌ   ما لَم تَزِنْهَا رَأفَةٌ وَسَخاءُ

وَالحَربُ مِن شَرَفِ الشُّعوبِ فَإِن بَغَوا   فَالمَجْدُ مِمّا يَدَّعونَ بَراءُ

وَالحَربُ يَبعَثُهَا القَوِيُّ تَجَبُّرًا   وَيَنوءُ تَحتَ بَلائِها الضُعَفاءُ

كَمْ مِنْ غَزَاةٍ لِلرَّسُولِ كَريمَةٍ   فيها رِضًى لِلحَقِّ أَو إِعلاءُ

كانَت لِجُندِ اللهِ فيها شِدَّةٌ   في إِثْرِهَا لِلعالَمِينَ رَخاءُ

ضَرَبوا الضَلالَةَ ضَربَةً ذَهَبَت بِها   فَعَلى الجَهالَةِ وَالضَلالِ عَفاءُ

دَعَموا عَلى الحَربِ السَلامَ وَطالَمَا   حَقَنَت دِماءٌ في الزَمانِ دِماءُ

وَصَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ عَلَى نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ ﷺ.

---

(١) «من خطبة: أهل القِبلة - الجمعة ١٣ من شعبان ١٤٣٧ هـ الموافق ٢٠/٠٥/٢٠١٦م».

«المَوْعِظَةُ الرَّابِعَةُ»

«التَّسَامُحُ»

إِنَّ الْحَمْدَ لِلَّهِ نَحْمَدُهُ، وَنَسْتَعِينُهُ وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِاللَّـهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللَّـهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَا هَادِيَ لَهُ.

وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّـهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ.

وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ ﷺ.

أَمَّا بَعْدُ:

«إِصْلَاحُ ذَاتِ البَيْنِ وَالتَّسَامُحِ بَيْنَ المُسْلِمِينَ»

فَقَدْ قَالَ رَبُّنَا -جَلَّ وَعَلَا-: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال: ١].

وهذه الآيات -يعني هذه الآية وَمَا تَلَاهَا في صَدْرِ السورةِ- إِنَّمَا نَزَلَت في قِصَّةِ «بَدْر» في أَوَّلِ غَنِيمَةٍ كبيرةٍ غَنِمَهَا المُسْلِمونَ مِن المُشْرِكِينَ، فَحَصَلَ بين بَعْضِ المُسْلِمِينَ فيها نِزَاعٌ، فَسَأَلُوا رسولَ اللهِ ﷺ عنها، فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى قَوْلَهُ: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ﴾ كيف تُقْسَمُ وَعَلَى مَن تُقْسَمُ؟

﴿قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ﴾: قُل لَهُم: الأنفالُ للهِ ورسولِهِ، يَضَعَانِهَا حَيْثُ شَاءَا، فَلَا اعتراضَ لكم على حُكْمِ اللهِ ورسولِهِ.، بل عليكم إذا حَكَمَ اللهُ ورسولُهُ، أَنْ تَرْضَوْا بِحُكْمِهِمَا، وَتُسَلِّمُوا الأمرَ لَهُمَا، وذلك دَاخِلٌ في قولِهِ ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ بامتثالِ أَوَامِرِهِ، واجتنابِ نَوَاهِيه.

﴿وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾: أَصْلِحُوا ما بَيْنَكُم مِن التَّشَاحُنِ، والتَّقَاطُعِ، والتَّدَابُرِ، بالتَّوَادُدِ، والتَّحَابِّ، والتَّوَاصُلِ، فَبِذَلِكَ تَجْتَمِعُ كَلِمَتُكُم، وَيَزُولُ مَا يَحْصُلُ -بِسَبَبِ التَّقَاطُعِ- مِن التَّخَاصُمِ والتَّشَاجُرِ والتَّنَازُعِ.

وَيَدْخُلُ في إصلاحِ ذَاتِ البَيْنِ، تَحْسِينُ الخُلُقِ لَهُم، والعَفْوُ عن المُسِيئِينَ مِنْهُم فإنه -بذلك- يَزُولُ كثيرٌ مِمَّا يكونُ في القلوبِ مِن البَغْضَاءِ والتَّدَابُرِ.

والأمرُ الجَامِعُ لذلك كلِّهِ قولُهُ -جَلَّ وَعَلَا-: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ فَإِنَّ الإيمانَ يَدْعُو إلى طاعةِ اللهِ ورسولِهِ، كَمَا أَنَّ مَن لم يُطِعِ اللهَ ورسولَه، فَلَيْسَ بِمُؤمِنٍ، وَمَن نَقَصَت طاعتُهُ للهِ ورسولِهِ، فذلك لِنَقْصٍ في إيمانِهِ.

وقال ربنا -جل وعلا-: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ (٨٥) إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ﴾ [الحجر: ٨٥-٨٦].

أي: مَا خَلَقْنَاهُمَا عَبَثًا بَاطِلًا، كما يَظُنُّ ذلك أعداءُ اللهِ، بل ما خَلَقْنَاهُمَا ﴿إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ الذي منه، أنْ تَكُونَا بما فيهما دَالَّتَيْنِ على كمالِ خَالِقِهِمَا، واقتدارِهِ، وَسَعَةِ رَحْمَتِهِ، وحِكْمَتِهِ، وعِلْمِهِ المُحِيطِ، وأنه الذي لا تَنْبَغِي العبادةُ إِلَّا له وَحْدَهُ لا شَرِيكَ له.

﴿وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ﴾ لا رَيْبَ فيها، لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ والأرضِ أَكْبَرُ مِن خَلْقِ النَّاسِ ﴿فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ﴾: وهو الصَّفْحُ الذي لا أَذِيَّةَ فيه، بل يُقَابِلُ إساءةَ المُسِيءِ بالإحسانِ، وَذَنْبَهُ بالغُفْرَانِ، لِتَنَالَ مِن رَبِّكَ جَزِيلَ الأَجْرِ والثَّوَابِ، فَإِنَّ كُلَّ مَا هُوَ آتٍ قَرِيبٌ.

والمأمورُ به هو الصَّفْحُ الجَمِيلُ، أي: الحَسَنَ الذي قد سَلِمَ مِن الحِقْدِ والأذِيَّةِ القوليةِ والفِعْلِيَّةِ، دونَ الصَّفْحِ الذي ليس بِجَمِيلٍ، وهو: الصَّفْحُ في غَيْرِ مَحَلِّهِ، فلا يُصْفَحُ حيثُ اقْتَضَى المَقَامُ العقوبةَ، كعقوبةِ المُعْتَدِينَ الظَّالِمِينَ، الذين لا يَنْفَعُ مَعَهُم إِلَّا العقوبة.

وَقَالَ -جَلَّ وَعَلَا-: ﴿وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزَغُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوًّا مُبِينًا﴾ [الإسراء: ٥٣].

وهذا مِن لُطْفِهِ تَعَالَى بِعِبَادِهِ حَيْثُ أَمَرَهُم بِأَحْسَنِ الأخلاقِ والأعمالِ والأقوالِ المُوجِبَةِ للسعادةِ في الدنيا والآخرةِ فَقَالَ -جَلَّ مِن قَائِلٍ-: ﴿وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾: وهذا أَمْرٌ بِكُلِّ كلامٍ يُقَرِّبُ إلى اللهِ مِن قِرَاءَةٍ وذِكْرٍ، وعِلْمٍ وَأَمْرٍ بِمَعْرُوفٍ ونَهْيٍ عن مُنْكَرٍ، وَكَلَامٍ حَسَنٍ لطيفٍ مع الخَلْقِ على اختلافِ مَرَاتِبِهِم وَمَنَازِلِهِم، وأنه إذا دَارَ الأمرُ بين أَمْرَيْنِ حَسَنَيْنِ فَإِنَّهُ يَأمُرُ بِإِيثَارِ أَحْسَنِهِمَا إنْ لم يمْكِنِ الجَمْعُ بَيْنَهُمَا.

والقَوْلُ الحَسَنُ دَاعٍ لكلِّ خُلُقٍ جميلٍ وعَمَلٍ صَالِحٍ، فَإِنَّ مَن مَلَكَ لِسَانَهُ مَلَكَ جَمِيعَ أَمْرِهِ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزَغُ بَيْنَهُمْ﴾ أي: يَسْعَى بين العبادِ بِمَا يُفْسِدُ عَلَيْهِم دينَهُم ودُنياهُم، فدواءُ هذا أنْ لا يُطِيعُوهُ في الأقوالِ غَيْرِ الحَسَنَةِ التي يَدْعُوهُم إليها، وأنْ يَلِينُوا فيما بينهم لِيَنْقَمِعَ الشيطانُ الذي يَنْزَغُ بينهم فإنه عَدوُّهُم الحقيقيُّ الذي ينبغي لَهُم أنْ يُحَارِبوهُ، فإنه يَدْعُوهُم ﴿لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾، وأَمَّا إخوانُهُم الذين اخْتَلَفُوا بينهم فَإِنَّهُم وإنْ نَزَغَ الشيطانُ فيما بينهم وَسَعَى في العَدَاوَةِ فَإِنَّ الحَزْمَ كل الحَزْمِ السَّعْيُ في ضِدِّ عَدوِّهِم وأنْ يَقْمَعُوا أَنْفَسَهُم الأَمَّارَةِ بِالسُّوءِ التي يَدْخُلُ الشيطان مِن قِبَلِهَا، فَبِذَلِكَ يُطِيعُونَ رَبَّهُم ويَسْتَقِيمُ أَمْرُهُم ويُهْدَوْنَ لِرُشْدِهِم.

«يُوسُفُ -عَلَيْهِ السَّلَامُ- مِثَالٌ فَرِيدٌ للصَّفْحِ الجَمِيلِ»

قَالَ رَبُّنَا -جَلَّ وَعَلَا- عن قَوْلِ يَعْقُوبَ -عَلَيْهِ السَّلَامِ-: ﴿يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَيْئَسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَيْئَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ (٨٧) فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُزْجَاةٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ (٨٨) قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ (٨٩) قَالُوا أَئِنَّكَ لَأَنْتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (٩٠) قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ (٩١) قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (٩٢)﴾ [يوسف: ٨٧-٩٢].

أي: قالَ يعقوبُ -عليه السلام- لِبَنِيهِ ﴿يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾ أي: احْرِصُوا واجْتَهِدُوا على التَّفْتِيشِ عَنْهُمَا ﴿وَلَا تَيْأَسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ﴾ فَإِنَّ الرَّجَاءَ يُوجِبُ للعَبْدِ السَّعْيَ والاجْتِهَادَ فِيمَا رَجَاهُ، وَأَمَّا الإِيَاسُ: فَيُوجِبُ له التَّثَاقُلَ والتَّبَاطُؤَ، وأَوْلَى مَا رَجَا العِبَادُ فَضْلَ اللهِ وَإِحْسَانَهُ، وَرَحْمَتَهُ وروْحُهُ.

﴿إِنَّهُ لَا يَيْئَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾: فَإِنَّهُم -لِكُفْرِهِم- يَسْتَبْعِدُونَ رَحْمَتَهُ، ورحمتُهُ بعيدةٌ منهم، فلا تَتَشَبَّهُوا بِالكافِرِينَ، وَدَلَّ هذا على أنه بِحَسَبِ إيمانِ العَبْدِ، يكونُ رجاؤُهُ لرحمةِ اللهِ وَرَوْحِهِ.

فَذَهَبُوا، ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا﴾ مُتَضَرِّعِينَ إِلَيْهِ ﴿يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُزْجَاةٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ﴾ أي: قد اضْطُرِرْنَا نحن وأهلُنَا وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مَدْفُوعَةٍ مَرْغُوبٍ عنها، لِقِلَّتِهَا، وَعَدَمِ وُقُوعِهَا المَوْقِعَ ﴿فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ﴾ مع عَدَمِ وَفَاءِ العِوَضِ، وَتَصَدَّق عَلَيْنَا بالزيادةِ عن الواجبِ ﴿إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ﴾ بِثَوَابِ الدنيا والآخرةِ.

فَلَمَّا انْتَهَى الأمرُ، وَبَلَغَ أَشُدَّهُ، رَقَّ لَهُم يوسفُ رِقَّةً شَدِيدَةً، وَعَرَّفَهُم بِنَفْسِهِ، وَعَاتَبَهُم فقالَ: ﴿هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾ أمَّا يوسفُ فَظَاهِرٌ فِعْلُهم فيه، وأَمَّا أَخُوهُ، فَلَعَلَّهُ -واللهُ أَعْلَمُ- قَوْلُهُم: ﴿إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ﴾، أو أنَّ الحَادِثَ الذي فَرَّقَ بينه وبين أَبِيهِ، هُم السَّبَبُ فيه، وَهُم الأصلُ المُوجِبُ له.

﴿إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ﴾: وهذا نَوْعُ اعتذارٍ لَهُم بِجَهْلِهِم، أو تَوْبِيخٌ لَهُم إذ فَعَلُوا فِعْلَ الجَاهِلِينَ، مع أنه لا يَنْبَغِي ولا يَلِيقُ منهم.

فَعَرَفُوا أنَّ الذي خَاطَبَهُم هو يوسفُ، فقالوا: ﴿أَئِنَّكَ لَأَنْتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا﴾ بالإيمانِ والتَّقْوَى، والتمكينِ في الدنيا، وذلك بِسَبَبِ الصَّبْرِ والتقوى فـ ﴿إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ﴾ أي: يَتَّقِي فِعْلَ مَا حَرَّمَ اللهُ، وَيَصْبِرُ على الآلامِ والمَصَائِبِ، وعلى الأوامرِ بِامْتِثَالِهَا ﴿فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾: فإنَّ هذا مِن الإحسانِ، واللهُ لا يُضِيعُ أَجْرَ مَن أَحْسَنَ عَمَلًا.

﴿قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا﴾ أي: فَضَّلَكَ عَلَيْنَا بِمَكَارِمِ الأخلاقِ، ومحاسنِ الشِّيَمِ، وَأَسَأْنَا إليكَ غايةَ الإساءةِ، وحَرَصْنَا على إيصالِ الأَذَى إليك، والتبعيدِ لك عن أَبِيكَ، فَآثَرَكَ اللهُ تعَالَى وَمَكَّنَكَ مِمَّا تُرِيدُ ﴿وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ﴾: وهذا غايةُ الاعترافِ منهم بالجُرْمِ الحَاصِلِ منهم على يُوسف.

فَقَالَ لهم يوسف -عليه السَّلَام-، كَرَمًا وَجُودًا: ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ﴾ أي: لا أُثَرِّبُ عَلَيْكُم ولا أَلُومُكُم ﴿يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾.

فَسَمَحَ لَهُم سَمَاحًا تَامًّا، مِن غَيْرِ تَعْيِيرٍ لَهُم على ذِكْرِ الذَّنْبِ السَّابِقِ، وَدَعَا لَهُم بالمَغفرةِ والرحمةِ، وهذا نهايةُ الإحسانِ الذي لا يَتَأَتَّى إلَّا مِن خَوَاصِّ الخَلْقِ، وَخِيَارِ المُصْطَفَيْنَ.

«مُقَابَلَةُ الإِسَاءَةِ بِالإِحْسَانِ مِن مَكَارِمِ الأَخْلَاقِ»

قالَ -جَلَّ وَعَلَا-: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ﴾ [المؤمنون: ٩٦].

وهذا مِن مَكَارِمِ الأخلاقِ، التي أَمَرَ اللهُ رسولَهُ بها فَقَالَ: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ﴾ أي: إذا أَسَاءَ إليك أَعْدَاؤُكَ، بالقَوْلِ والفِعْلِ، فلا تُقَابِلْهُم بِالإساءَةِ، مع أنه يجوز مُعَاقَبَةُ المُسِيءِ بِمِثْلِ إساءتِهِ، ولَكِنِ ادْفَع إساءَتَهم إليكَ بالإحسانِ مِنْكَ إِلَيْهِم، فَإِنَّ ذَلِكَ فَضْلٌ مِنْكَ على المُسِيءِ.

ومِن مَصَالِحِ ذلك، أنه تَخِفُّ الإساءةُ عنك في الحالِ وفي الاستقبالِ، وأنه أَدْعَى لِجَلْبِ المُسِيءِ إلى الحَقِّ، وأَقْرَبُ إلى نَدَمِهِ وَأَسَفِهِ، وَرُجُوعِهِ بِالتَّوْبَةِ عَمَّا فَعَلَ، وَيَتَّصِفُ العَافِي بِصَفَةِ الإحسانِ، وَيَقْهَرُ بذلك عَدُوَّهُ الشيطانَ، وَيَسْتَوْجِبُ الثَّوَابَ مِن الرَّبِّ، قَالَ تَعَالَى: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ* وَمَا يُلَقَّاهَا﴾ أي: وما يُوَفَّقُ لِهَذَا الخلُقِ الجَمِيلِ ﴿إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾.

وقولُهُ تَعَالَى: ﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ﴾ أي: بما يَقُولُونَ مِن الأقوالِ المُتَضَمِّنَةِ للكُفْرِ والتَّكْذِيبِ بِالحَقِّ، قَد أَحَاطَ عِلْمُنَا بِذَلِكَ، وَقَد حَلِمْنَا عنهم، وأَمْهَلْنَاهُم، وَصَبَرْنَا عَلَيْهِم، والحقُّ لنا، وتَكْذِيبُهُم لَنَا، فَأَنْتَ -يَا مُحَمَّد- يَنْبَغِي لكَ أنْ تَصْبِرَ على مَا يَقُولُونَ، وَتُقَابِلَهُم بالإحسانِ، هذه وظيفةُ العَبْدِ في مُقَابَلَةِ المُسِيءِ مِنَ البَشَرِ.

وَقَالَ -جَلَّ وَعَلَا-: ﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ (٣٤) وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ [فصلت: ٣٤-٣٥].

قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ﴾ أي: لا يَسْتَوِي فِعْلُ الحَسَنَاتِ والطَّاعَاتِ لأَجْلِ رِضَا رَبِّ الأَرْضِ والسَّمَاوَاتِ، ولا فِعْلُ السَّيِّئَاتِ وَالمَعَاصِي التي تُسْخِطُهُ ولا تُرْضِيهُ، ولا يَسْتَوِي الإحسانُ إلى الخَلْقِ، ولا الإِسَاءَةُ إليهم، لا في ذَاتِهَا، ولا في وَصْفِهَا، ولا في جَزَائِهَا ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ﴾.

ثُمَّ أَمَرَ بإحسانٍ خَاصٍّ، له مَوْقِعٌ كَبِيرٌ، وهو الإحسانُ إلى مَن أَسَاءَ إِلَيْكَ، فَقَالَ -جَلَّ وَعَلَا-: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ أي: فَإِذَا أَسَاءَ إِلَيْكَ مُسِيءٌ مِنَ الخَلْقِ، خُصُوصًا مَن له حَقٌّ كبيرٌ عليك، كالأقاربِ، والأصحابِ، ونحوِهِم، إساءَةً بالقولِ أو بالفِعْلِ، فَقَابِلْهُ بالإحسانِ إِلَيْهِ، فَإِنْ قَطَعَكَ فَصِلْهُ، وإِنْ ظَلَمَكَ فَاعْفُ عَنْهُ، وإِنْ تَكَلَّم فِيكَ غَائِبًا أو حَاضِرًا، فَلَا تُقَابِلْهُ، بَل اعْفُ عَنْهُ، وَعَامِلْهُ بِالقَوْلِ اللَّيِّنِ، وإِنْ هَجَرَكَ وَتَرَكَ خِطَابَكَ فَطَيِّبْ لَهُ كَلَامَكَ، وَابْذُل لَهُ سَلَامَكَ.

فَإِذَا قَابَلْتَ الإساءَةَ بِالإِحْسَانِ، حَصلَ فَائِدَةٌ عَظِيمَةٌ ﴿فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ أي: كأنه قَرِيبٌ شَفِيقٌ.

﴿وَمَا يُلَقَّاهَا﴾ أي: وما يُوَفَّقُ لهذِهِ الخَصْلَةِ الحَمِيدَةِ ﴿إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا﴾ نُفُوسَهُم على مَا تَكْرَهُ، وَأَجْبَرُوهَا على مَا يُحِبُّهُ اللهُ، فَإِنَّ النُّفُوسَ مَجْبُولَةٌ على مُقَابَلَةِ المُسِيءِ بِإِسَاءَتِهِ وَعَدَمِ العَفْوِ عَنْهُ، فَكَيْفَ بِالإِحْسَانِ؟!

فَإِذَا صَبَّرَ الإنسانُ نَفْسَهُ، وامْتَثَلَ أَمْرَ رَبِّهِ، وَعَرَفَ جَزِيلَ الثَّوَابِ، وَعَلِمَ أَنَّ مُقَابَلَتَهُ للمُسِيءِ بِجِنْسِ عَمَلِهِ، لا يُفِيدُهُ شيئًا، وَلَا يَزِيدُ العَدَاوَةَ إِلَّا شِدَّةً، وَأَنَّ إِحْسَانَهُ إليه لَيْسَ بِوَاضِعٍ قَدْرَهُ، بَلْ مَن تَوَاضَعَ للهِ رَفَعَهُ، هَانَ عَلَيْهِ الأمرُ، وَفَعَلَ ذلك مُتَلَذِّذًا مُسْتَحْلِيًا لَهُ.

﴿وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ لِكَوْنِهَا مِن خِصَالِ خَوَاصِّ الخَلْقِ، التي يَنَالُ بها العَبْدُ الرِّفْعَةَ في الدنيا والآخرة، التي هي مِن أكبرِ خِصَالِ مَكَارِمِ الأَخْلَاقِ.

والفَرْقُ بين العَفْوِ والذُّلِّ، أنَّ العفْوَ إسقاطُ حَقِّكَ جُودًا وَكَرَمًا وَإِحْسَانًا مع قُدْرَتِكَ على الانْتِقَامِ، فَتُؤْثِرُ التَّرْكَ رَغْبَةً في الإحسانِ وَمَكَارِمِ الأَخْلَاقِ، بِخِلَافِ الذُّلِّ، فَإِنَّ صَاحِبَهُ يَتْرُكُ الانتقامَ عَجْزًا وَخَوْفًا وَمَهَانَةَ نَفْسٍ، فَهَذَا مَذْمُومٌ غَيْرُ مَحْمُودٍ.

وَلَعَلَّ المُنْتَقِمَ بِالحَقِّ أَحْسَنُ حَالٍ مِنْهُ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ﴾ [الشورى: ٣٩]، فَمَدَحَهُم لِقُوَّتِهِم على الانتصارِ لِنُفُوسِهِم، وَتَقَاضِيهِم مِنْهَا ذلك، حتى إذا قَدَرُوا على مَن بَغَى عَلَيْهِم، وَتَمَكَّنُوا مِن استيفاءِ مَا لَهُم عَلَيْهِ، نَدَبَهُم إلى الخُلُقِ الشَّرِيفِ مِن العَفْوِ والصَّفْحِ، فَقَالَ: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ [الشورى: ٤٠]، **فَذَكَرَ المَقَامَاتِ الثَّلَاثَة:**

العَدْلُ وَأَبَاحَهُ، وَالفَضْلُ وَنَدَبَ إِلَيْهِ، وَالظُّلْمُ وَحَرَّمَهُ.

فَإِنْ قِيلَ: فَكَيْفَ مَدَحَهُم على الانتصارِ والعَفْوِ وَهُمَا مُتَنَافِيَانِ؟

قِيلَ: لَم يَمْدَحْهُم على الاستيفاءِ والانْتِقَامِ، وإنَّمَا مَدَحَهُم على الانتصارِ وهو القُدْرَةُ والقوةُ على استيفاءِ حَقِّهِم، فَلَمَّا قَدَرُوا نَدَبَهُم إلى العَفْوِ، قَالَ بَعْضُ السَّلَفِ في هذه الآيةِ: كانوا يَكْرَهُونَ أَنْ يُسْتَذَلُّوا، فَإِذَا قَدَرُوا عَفَوْا، فَمَدَحَهُم على عَفْوٍ بَعْدَ قُدْرَةٍ، لا عَفْوِ ذِلَّةٍ وَعَجْزٍ وَمَهَانَةٍ، وَهَذَا هو الكمالُ الذي مَدَحَ سُبْحَانَهُ به نَفْسَهُ في قَوْلِهِ: ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا﴾ [النساء: ٩٩].

عَن عَبْدِ اللهِ بن مَسْعُودٍ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- قَالَ: «كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ يَحْكِي نَبِيًّا مِنَ الأَنْبِيَاءِ، ضَرَبَهُ قَوْمُهُ فَأَدْمَوْهُ، وَهُوَ يَمْسَحُ الدَّمَ عَنْ وَجْهِهِ وَيَقُولُ: اللَّهُمَّ اغْفِر لِقَوْمِي فَإِنَّهُم لَا يَعْلَمُونَ». مُتفقٌ عليه.

فَالتَّسَامُحُ والعَفْوُ إنما يَكُونَا مِمَّن تَحَلَّى بالأخلاقِ الجميلةِ، وتَخَلَّى عَن الأخلاقِ الرذِيلَةِ.

وهذا إنما يكونُ مِمَّن تَاجَرَ مع اللهِ، وَعَفَا عن عبادِ اللهِ رحمةً بهم، وإحسانًا إليهم، وكراهةً لِحُصُولِ الشَّرِّ عليهم، ولِيَعْفُوَ اللهُ عنه، ويكونَ أَجْرُهُ على رَبِّهِ الكريم، لا على العَبْدِ الفَقِيرِ.

وَصَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ عَلَى نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ ﷺ(١).

*****

(١) «من خطبة: التسامح بين المسلمين - الجمعة ١١ من جمادى الآخرة ١٤٣٨هـ الموافق ١٠-٣-٢٠١٧م».

«المَوْعِظَةُ الخَامِسَةُ»

«الصِّدْقُ»

إِنَّ الْحَمْدَ لِلَّهِ نَحْمَدُهُ، وَنَسْتَعِينُهُ وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِاللَّـه مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللَّـهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَا هَادِيَ لَهُ.

وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّـهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ.

وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ ﷺ.

أَمَّا بَعْدُ:

«لا يَقُومُ دِينٌ ولا تَسْتَقِيمُ دُنْيَا إِلَّا بِالصِّدْقِ»

فإنه لا يَقُومُ دينٌ ولا تَسْتَقِيمُ دنيا إلا بالصدقِ، ولِعَظَمَةِ الصِّدْقِ وَجَلَالِهِ وحُسْنِهِ وَكَمَالِهِ؛ وَصَفَ اللهُ تعالى به نَفْسَهُ.

فَقَالَ سبحانه: ﴿قُلْ صَدَقَ اللَّـهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [آل عمران: ٩٥].

واللهُ تَعَالَى موصوفٌ بالصدقِ في ذَاتِهِ، وفي أقوالِهِ، وفي أفعالِهِ، وفي وَعْدِهِ، وفي وعيدِهِ، وفي أخبارِهِ، وفي شَرْعِهِ.

قالَ تعالى: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّـهِ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٨٧].

وقال تعالى: ﴿وَعْدَ اللَّـهِ حَقًّا وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّـهِ قِيلًا﴾ [النساء: ١٢٢].

وَقَالَ تَعَالَى -بعد أَنْ ذَكَرَ إرسالَ المُرْسَلِينَ-: ﴿ثُمَّ صَدَقناهُمُ الوَعدَ فَأَنجَيناهُم وَمَن نَشاءُ وَأَهلَكنَا المُسرِفينَ﴾ [الأنبياء: ٩].

وقد وَصَفَ اللهُ النَّبيينَ بالصِّدْقِ، وَأَيَّدَهُم بالآياتِ البَيِّنَاتِ والمُعْجِزَاتِ البَاهِرَاتِ؛ ليكونَ ذلك بُرْهَانًا على صِدْقِهِم، وإقامةً للحُجَّةِ على مُكَذِّبِيهِم.

وقالَ تَعَالَى في الثناءِ على نَبِيِّهِ الخَاتَمِ ﷺ: ﴿بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الصافات: ٣٧].

ووصف الله المؤمنين المتقين:

فقالَ تعالى -بعد أنْ ذَكَرَ جُمْلَةً مِن إيمانِهِم وأعمالِهِم-: ﴿أُولَـٰئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَـٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٧].

وَقَالَ -جَلَّ وَعَلَا-: ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّـهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب: ٢٣].

وقال تعالى: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّـهِ وَرِضْوَانًا وَيَنصُرُونَ اللَّـهَ وَرَسُولَهُ أُولَـٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ [الحشر: ٨].

وَأَمَرَ اللهُ تَعَالَى المؤمنين بِتَقْوَاهُ، وأنْ يكونوا مع الصادقين، فَقَالَ -جَلَّ وَعَلَا-: ﴿يا أَيُّهَا الَّذينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّـهَ وَكونوا مَعَ الصّادِقينَ﴾ [التوبة: ١١٩].

«مَعْنَى الصِّدْقِ»

قالَ العَلَّامَةُ الصَّالِحُ مُحَمَّد بن صالح -رَحِمَهُ اللهُ تعالى-: «والصِّدْقُ مَعْنَاهُ: مُطَابَقَةُ الخَبَرِ للواقعِ؛ هذا في الأصلِ، ويكونُ في الأخبارِ، فإذا أَخْبَرْتَ بشيءٍ وكان خَبَرُكَ مُطَابِقًا للواقع قِيلَ إنَّهُ صِدْقٌ، كأن تقولَ عن هذا اليوم: اليومُ يومُ الجُمُعَةِ، فهذا خَبَرٌ صِدْق؛ لأنَّ اليومَ يومُ الجُمُعَةِ، وإذا قُلْتَ اليومُ يومُ الاثنين، فهذا خَبَرٌ كَذِب، فالخَبَرُ إنْ طَابَقَ الوَاقِعَ فَهُوَ صِدْقٌ، وإنْ خَالَفَ الواقِعَ فهو كَذِبٌ.

وَكَمَا يكونُ الصِّدْقُ في الأقوالِ، يكونُ الصِّدْقُ أيضًا في الأفعالِ، فالصِّدْقُ في الأفعالِ هو أنْ يكونَ الإنسانُ باطِنُهُ مُوَافِقًا لِظَاهِرِهِ، بحيثُ إذا عَمِلَ عَمَلًا يكونُ مُوَافِقًا لِمَا في قَلْبِهِ، فَالمُرَائي مَثَلًا لَيْسَ بِصَادِقٍ؛ لأنه يُظْهِرُ للناسِ أنه مِن العَابِدِينَ وليس كذلك، والمُشْرِكُ مع اللهِ لَيْسَ بِصَادِقٍ؛ لأنه يُظْهِرُ أنه مُوَحِّدٌ وليس كذلك، والمُنافِقُ ليس بِصَادِقٍ، لأنه يُظْهِرُ الإيمانَ وليس بِمُؤمِنٍ، والمُبْتَدِعُ ليس بِصَادِقٍ؛ لأنه يُظْهِرُ الاتِّبَاعَ للرسولِ ﷺ وليس بِمُتَّبِعٍ.

المُهِمُّ أنَّ الصِّدْقَ: مُطَابَقَةُ الخَبَرِ للواقِعِ، وهو مِن سِمَاتِ المُؤمنين، وَمِن صِفَاتِهِم، وَعَكْسُهُ الكَذِبُ وهو مِن سِمَاتِ المُنَافِقِينَ وَمِن خِصَالِهِم».

قالَ ربُّنَا -جَلَّ وَعَلَا-: ﴿لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِنْ شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ [الأحزاب:٢٤].

فَقَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ﴾: فَدَلَّ ذلك على أنَّ الصِّدْقَ أَمْرُهُ عظيمٌ، وأنه مَحَلٌّ للجَزَاءِ مِنَ اللهِ -جَلَّ وَعَلَا-، إذنْ؛ عَلَيْنَا أنْ نَصْدُقَ، وعلينا أنْ نكونَ مِن الصَّادِقِينَ، وَعَلَيْنَا أنْ نَكونَ صُرَحَاءَ، عَلَيْنَا أنْ لا نُخْفِيَ الأمرَ عن غَيْرِنَا مُدَاهَنَةً وَمُرَاءَاةً.

فكثيرٌ مِنَ النَّاسِ إذا حَدَثَ له أمرٌ أو حَدَّثَ عن شيءٍ فَعَلَهُ وكان لا يُرْضِيهُ؛ كَذَبَ، وَقَالَ: مَا فَعَلْتُ!! لماذا؟!!

ينبغي عليك ألَّا تَسْتَحْيِيَ مِن الخَلْقِ، وألَّا تبارزَ الخَالِقَ -جَلَّ وَعَلَا- بِالكَذِبِ، قُلِ الصِّدْقَ ولا تُبَالِ بِأَحَدٍ، وأنت إذا عَوَّدْتَ نَفْسَكَ الصِّدْقَ، فَإِنَّكَ في المُسْتَقْبَلِ سَوْفَ تُصْلِحُ حَالَكَ، أَمَّا إذا أَخْبَرْتَ بِالكَذِبِ وَصِرْتَ تَكْتُمُ عنِ النَّاسِ وَتَكْذِبُ عَلَيْهِم، فَإِنَّكَ سَوْفَ تَسْتَمِرُّ في غَيِّكَ، وَلَكِنْ إذا صَدَقْتَ؛ فَإِنَّكَ سوف تُعَدِّلُ مَسِيرَكَ وَمِنْهَاجَكَ.

فعليك بالصِّدْقِ فيما لك وفيما عليك؛ حتى تكونَ مع الصادقينَ الذين أَمَرَكَ اللهُ أنْ تَكُونَ مَعَهُم: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ [التوبة:١١٩].

«الصِّدْقُ طَرِيقٌ إلى الجَنَّةِ»

عن عبد الله بن مسعود -رضي الله تعالى عنه- عن النبي ﷺ قال: «**إِنَّ الصَّدْقَ يَهْدِي إِلَى الْبِرِّ، وَإِنَّ الْبِرَّ يَهْدِي إِلَى الجَنَّةِ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيصْدُقُ حَتَّى يُكتَبَ عِنْدَ اللَّهِ صِدِّيقًا، وإِنَّ الْكَذِبَ يَهْدِي إِلَى الفجُورِ، وَإِنَّ الفجُورَ يَهْدِي إِلَى النَّارِ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَكْذِبُ حَتَّى يُكتَبَ عِنْدَ اللَّهِ كَذَّابًا**». والحديثُ في «الصَّحِيحَيْنِ».

عَلَيْكُم بِالصِّدْقِ؛ أي: الْزَمُوا الصِّدْقَ، والصِّدْقُ: مُطَابَقَةُ الخَبَرِ للوَاقِعِ.

والخَبَرُ يكونُ بِاللسانِ ويكونُ بالأركانِ:

١- **أمَّا بِاللسانِ:** فهو القَوْلُ.

٢-**وَأَمَّا بالأركانِ:** فهو الفِعْلُ.

وَلَكِن كيف يَكُونُ الكَذِبُ بِالفِعْلِ؟

إذا فَعَلَ الإنسانُ خِلَافَ مَا يُبْطِنُ؛ فهذا قد كَذَبَ بِفِعْلِهِ، فَالمُنَافِقُ مَثَلاً كَاذِبٌ لأنَّهُ يُظْهِرُ للناسِ أنه مؤمنٌ، يُصَلِّي مع النَّاسِ، ويصومُ مع النَّاسِ، وَيَتَصَدَّقُ ولكنَّهُ بَخِيلٌ، وَرُبَّمَا يَحُجُّ، فَمَن رَأَى أَفْعَالَهُ حَكَمَ عَلَيْهِ بِالصَّلَاحِ، وَلَكِنَّ هذه الأَفْعَالَ لا تُنْبِئُ عَمَّا في البَاطِنِ؛ فَهِيَ كَذِبٌ.

ولهذا يُقالُ: الصِّدْقُ يَكُونُ بِاللسانِ ويكونُ بالأركانِ، فَمَتَى طَابَقَ الخَبَرُ الوَاقِعَ فهو صِدْقٌ باللسانِ، وَمَتَى طَابَقَت أَعْمَالُ الجَوَارِحِ ما في القَلْبِ فهي صِدْقٌ بِالأَفْعَالِ.

ثُمَّ بَيَّنَ النبيُّ ﷺ عندما أَمَرَ بِالصِّدْقِ؛ بَيَّنَ عَاقِبَتَهُ، فَقَالَ ﷺ: «**إِنَّ الصِّدْقَ يَهْدِي إِلَى الْبِرِّ، وَإِنَّ الْبِرَّ يَهْدِي إِلَى الْجَنَّةِ**».

البِرُّ: كَثْرَةُ الخَيْرِ، وَمِنْهُ مِن أَسْمَاءِ اللهِ -جَلَّ وَعَلَا-: البَرُّ: أي كَثِيرُ الخَيْرِ والإحسانِ -عَزَّ وَجَلَّ-.

فالبِرُّ: يعني كَثْرَةَ الخَيْرِ، وهو مِن نَتَائِجِ الصِّدْقِ، وقولُهُ ﷺ: «**وَإِنَّ الْبِرَّ يَهْدِي إِلَى الْجَنَّةِ**»، فَصَاحِبُ البِرِّ يَهْدِيهِ بِرُّهُ إلى الجَنَّةِ، والجَنَّةُ غَايَةُ كُلِّ مَطْلَبٍ، ولهذا يُؤْمَرُ الإنسانُ أَنْ يَسْأَلَ اللهَ الجَنَّةَ وَيَسْتَعِيذَ به مِن النَّارِ ﴿فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾ [آل عمران: ١٨٥].

وقَوْلُ النَّبِيِّ ﷺ: «**وَإِنَّ الرَّجُلَ لِيَصْدُقُ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللَّهِ صِدِّيقًا**»، وفي روايةٍ: «**وَلَا يَزَالُ الرَّجُلُ يَصْدُقُ وَيَتَحَرَّى الصِّدْقَ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللهِ صِدِّيقًا**».

والصِدِّيقُ في المَرْتَبَةِ الثَّانِيَةِ مِن مَرَاتِبِ الخَلْقِ مِنَ الذينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِم، كَمَا قالَ اللهُ –جَلَّ وَعَلَا-: ﴿وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ﴾ [النساء: ٦٩]، فالرَّجُلُ الذي يَتَحَرَّى الصِّدْقَ يُكْتَبُ عِنْدَ اللهِ صِدِّيقًا.

ومَعْلُومٌ أن الصِّدِّيقِيَّة دَرَجَةٌ عَظِيمَةٌ لا يَنَالَهَا إِلَّا الأَفْذَاذُ مِنَ النَّاسِ، وتَكُونُ الصِّدِّيقِيَّة في الرِّجَالِ وتَكُونُ في النِّسَاءِ، قَالَ اللهُ –جَلَّ وَعَلَا-: ﴿مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ﴾ [المائدة: ٧٥].

وأَفْضَلُ الصِّدِّيقينَ في هذهِ الأُمَّةِ على الإطلاقِ بَعْدَ نَبِيِّهَا أَصْدُقُهم، وهو أُبو بَكْرٍ -رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهُ: عبد الله بن عثمان بن أبي قحافة، الذي اسْتَجَابَ للنبيِّ ﷺ حين دَعَاهُ إلى الإِسلامِ، ولم يَحْصُل عندَهُ أيُّ تَرَدُّدٍ وأيُّ تَوَقُّفٍ.

فَبِمُجَرَّدِ مَا دَعَاهُ الرسولُ ﷺ إلى الإسلامِ؛ أَسْلَمَ، وَصَدَّقَ النبيَّ ﷺ حينَ كَذَّبَهُ قَوْمُهُ، وَصَدَّقَ النبيَّ ﷺ حين أَخْبَرَ عن الإسراءِ والمِعْرَاجِ، وَكَذَّبَهُ النَّاسُ، وقالوا: كيف تذهبُ يا مُحَمَّدُ مِن مَكَّةَ إلى بَيْتِ المَقْدِسِ وَتَرْجِعُ في لَيْلَةٍ وَاحِدَةٍ، ثُمَّ تَقُولُ: إنكَ صَعِدْتَ إلى السَّمَاءِ؟

فهذا لا يُمْكِنُ، ثُمَّ ذَهَبُوا إلى أبي بَكْرٍ –رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- وَقَالُوا له: أَمَا تَسْمَعُ ما يقولُ صَاحِبُكَ؟

قال: وَمَاذَا قَالَ؟

قالوا: إنه قَالَ كذا وكذا.

فَقَالَ الصِّدِيقُ -رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عنه-: إنْ كانَ قَالَ؛ فَقَدْ صَدَقَ.

فَمُنْذُ ذَلِكَ اليوم سُمِّيَ بالصِّدِّيقِ -رَضِيَ اللهُ تَعالَى وَتَبَارَكَ عَنْهُ-.

«تَحْذِيرُ النَّبِيِّ ﷺ مِن الكَذِبِ»

وأمَّا الكَذِبُ فَإِنَّ النبيَّ ﷺ حَذَّرَ مِنْهُ، فَقَالَ: «**وَإِيَّاكُمْ وَالْكَذِبَ**».

إِيَّاكُم: للتَّحْذِيرِ؛ أي: احْذَرُوا الكَذِبَ، والكَذِبُ هو الإخبارُ بِمَا يُخَالِفُ الوَاقِعَ، سَوَاءٌ كانَ ذَلِكَ بِالقَوْلِ أو بِالفِعْلِ، فَالمُنَافِقُ نِفَاقًا أَكْبَرَ، الذي يُظْهِرُ الإسلامَ ويُبْطِنُ الكُفْرَ- كَاذِبٌ؛ لأنَّ ظَاهِرَهُ يَدُلُّ على أنه مُسْلِمٌ وهو كَافِرٌ، فهو كَاذِبٌ بِفِعْلِهِ.

وقَوْلُهُ ﷺ: «**وَإِنَّ الكَذِبَ يَهْدِي إِلَى الفُجُورِ**».

الفُجُورُ: الخروجُ عن طاعةِ اللهِ؛ لأنَّ الإنسانَ يَفْسُقُ وَيَتَعَدَّى طَوْرَهُ ويَخْرُجُ عن طاعةِ اللهِ تعالى إلى معصيتِهِ، وَأَعْظَمُ الفُجُورِ الكُفْرُ -عِيَاذًا بِاللهِ وَلِيَاذًا بِجَنَابِهِ الرَّفِيعِ-، فَإِنَّ الكَفَرَةَ فَجَرَةٌ، كَمَا قَالَ -جَلَّ وَعَلَا-: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ﴾ [عبس:٤٢].

وقَالَ -جَلَّ وَعَلَا-: ﴿كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ (٧) وَمَا أَدْرَاكَ مَا سِجِّينٌ (٨) كِتَابٌ مَرْقُومٌ (٩) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (١٠) الَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ﴾ [المطففين: ٧ ـ ١١].

وقَالَ -جَلَّ وَعَلَا-: ﴿وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ﴾ [الانفطار:١٤].

فَالكَذِبُ يَهْدِي إلى الفُجُورِ، والفُجُورُ يَهْدِي إلى النَّارِ -نَعُوذُ بِاللهِ تَعَالَى مِنْهَا-، وقَوْلُ النبيِّ ﷺ: «**وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَكْذِبُ**»، وفي لَفْظِ مُسْلِمٍ: «**لَا يَزَالُ الرَّجُلُ يَكْذِبُ وَيَتَحَرَّى الكَذِبَ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللهِ كذَّابًا**»، وَالكَذِبُ مِنَ الأُمُورِ المُحَرَّمَةِ، بَل هو مِن كَبَائِرِ الذنوبِ؛ لأنَّ الرسولَ ﷺ تَوَعَّدَ الكَذَّابَ بِأَنَّهُ يُكْتَبُ عِنْدَ اللهِ كذَّابًا.

وَمِن أَعْظَمِ الكَذِبِ:

مَا يَفْعَلهُ بَعْضُ النَّاسِ اليوم، يأتي بِالمَقَالَةِ كَاذِبًا يَعْلَمُ أَنَّهَا كَذِبٌ، لَكِن مِن أَجْلِ أنْ يُضْحِكَ النَّاسَ، وَقَد جَاءَ في الحديثِ الوعيدُ على هذا، فَقَد قَالَ النبيُّ ﷺ: «**وَيْلٌ لِلَّذِي يُحَدِّثُ فَيَكْذِبُ لِيُضْحِكَ بِهِ القَوْمَ، وَيْلٌ لَهُ، وَيْلٌ لَهُ**». أَخْرَجَهُ أبو داود بإسنادٍ حَسَنٍ.

وهذا وَعِيدٌ عَلَى أَمْرٍ سَهْلٍ عند كثيرٍ مِن النَّاسِ، يأتي بِالكَذِبَةِ وَيُلْقِي بِالكَلِمَةِ مِن أَجْلِ أنْ يُضْحِكَ بِهَا جُلَسَاءَهُ، يَكْتُبُ اللهُ تَعَالَى عَلَيْهِ بِذَلِكَ سَخَطَهُ إلى يومِ يَلْقَاهُ، كَمَا قَالَ رسولُ اللهِ ﷺ، فَالكَذِبُ كُلُّهُ حَرَامٌ، ولو كان مِن أَجْلِ هَذَا الذي مَرَّ؛ أي: مِن أَجْلِ أنْ يُضْحِكَ النَّاسَ، الكَذِبُ كلُّه حَرَامٌ، وَكُلُّهُ يَهْدِي إلى الفُجُورِ، ولا يُسْتَثْنَى مِنْهُ شَيْءٌ(١).

---

(١) «من خطبة: «لو صَدَقَ لكانَ خَيْرًا لَهُ» - خطبة الجمعة ١٠ من رجب ١٤٣٥ – ١٤/٢/٢٠١٤م».

فَالكَذِبُ يَكُونُ فِي القَلْبِ ويَكُونُ فِي اللسَانِ ويَكونُ فِي الجَوَارِحِ، يَكُونُ فِي الأَقْوَالِ وَيَكُونُ فِي الأَعْمَالِ وَيَكُونُ فِي الأَحْوَالِ، تَمَامًا كالصِّدْقِ، يَكُونُ فِي القَلْبِ، وَيَكُونُ فِي اللسَانِ، وَيَكُونُ فِي الجَوَارِحِ، يَكُونُ فِي الأَقْوَالِ وَيَكُونُ فِي الأَعْمَالِ وَيَكُونُ فِي الأَحْوَالِ كَذَلِكَ.

فَنَسْأَلُ اللهَ –تَبَارَكَ وَتَعَالَى- أَنْ يَجْعَلَنَا مَعَ الصَّادِقِينَ وَأَنْ يُجَنِّبنَا الكَذِبَ وَأَهْلَهُ، إِنَّهُ تَعَالَى عَلَى كُلِّ شَيءٍ قَدِيرٍ.

وَصَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ عَلَى نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ ﷺ(١).

---

(١) «من خطبة: «ما أحوجنا إلى الصدق» -الجمعة ٢٠ من ذي الحجة ١٤٣٤هـ الموافق ٢٥-١٠-٢٠١٣م».

«المَوْعِظَةُ السَّادِسَةُ»

«الأَمَانَةُ»

إنَّ الْحَمْدَ لِلَّهِ نَحْمَدُهُ، وَنَسْتَعِينُهُ وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِاللَّـهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللَّـهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَا هَادِيَ لَهُ.

وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّـهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ.

وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ ﷺ.

أَمَّا بَعْدُ:

«أَمْرُ اللهِ بِأَدَاءِ الأَمَانَاتِ وَالحِفَاظِ عَلَيْهَا»

فَقَدْ قَالَ اللهُ -جَلَّ وَعَلَا-: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ﴾ [الحج: ٣٨].

قال السعديُّ -رَحِمَهُ اللهُ-: ((هَذَا إِخْبَارٌ وَوَعْدٌ وَبِشَارَةٌ مِنَ اللهِ للذين آمنوا، أنَّ اللهَ يُدَافِعُ عنهم كُلَّ مَكْرُوهٍ، ويَدْفَعُ عنهم كلَّ شَرٍّ -بِسَبَبِ إيمَانِهِم- مِن شَرِّ الكُفَّارِ، وَشَرِّ وَسْوَسْةِ الشيطانِ، وشرورِ أَنْفُسِهِم، وَسَيِّئَاتِ أَعْمَالِهِم، ويَحمِلُ عنهم عند نزُولِ المَكَارِهِ مَا لا يَتَحَمَّلُونَ، فَيُخَفِّفُ عَنْهُم غَايَةَ التَّخْفِيفِ، وَكُلُّ مُؤمِنٍ له مِن هذه المُدَافَعَةِ وَالفَضِيلَةِ بِحَسبِ إيمَانِهِ، فَمُسْتَقِلٌّ ومُسْتَكْثِرٍ.

﴿إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ﴾ أي: خَائِنٍ فِي أَمَانَتِهِ التي حَمَّلَهُ اللهُ إِيَّاهَا، فَيَبْخَسُ حقوقَ اللهِ عليه، ويَخُونُهَا، وَيَخُونُ الخَلْقَ.

﴿كَفُورٌ﴾ بِنِعَمِ اللهِ، يُوَالِي عَلَيْهِ الإحْسَانَ، ويَتَوَالَى منه الكُفرُ والعِصْيَانُ، فَهَذَا لا يُحِبُّهُ اللهُ، بَل يُبْغِضُهُ ويَمْقُتُهُ، وسَيُجَازِيه على كُفْرِهِ وخِيَانَتِهِ.

ومفهومُ الآيةِ، أنَّ اللهَ يُحِبُّ كلَّ أَمينٍ قائِمٍ بِأَمَانَتِهِ، شَكُورٍ لِمَوْلَاهُ.

وَقَد مَدَحَ اللهُ تَعَالَى المُؤمنينَ، وَقَرَّرَ فَلَاحَهُم وَسَعَادَتَهُم، وبِأَيِّ شَيْءٍ وَصَلُوا إلى ذلك؛ فَذَكَرَ مِن صِفَاتِهِم: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ﴾ [المؤمنون: ٨].

قَالَ السَّعْدِيُّ -رَحِمَهُ الله-: أي مُرَاعُونَ لَهَا، ضَابِطُونَ، حَافِظُونَ، حَرِيصونَ عَلَى القِيَامِ بِهَا وتَنْفِيذِهَا، وَهَذَا عَامٌّ في جَمِيعِ الأَمَانَاتِ التي هي حَقٌّ للهِ تَعَالَى، والتي هي حَقٌّ للعِبَادِ.

قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [الأحزاب: ٧٢].

فَجَمِيعُ مَا أَوْجَبَهُ اللهُ عَلَى عَبْدِهِ أَمَانَةً، على العَبْدِ حِفْظُهَا بالقِيَامِ التَّامِّ بِهَا، وكذلك يَدْخُلُ في ذلك أَمَانَاتِ الآدِمِيينَ، كأمَانَاتِ الأَمْوَالِ وَالأَسْرَارِ ونَحْوِهِمَا، فَعَلَى العَبْدِ مُرَاعَاةُ الأَمْرَيْنِ، وَأَدَاءُ الأَمَانَتَيْنِ: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا﴾ [النساء: ٥٨].

وكذلك العَهْدُ يَشْمَلُ العَهْدَ الذي بَيْنَهُم وَبَيْنَ رَبِّهِم، والذي بَيْنَهُم وَبَيْنَ العِبَادِ، وهي الالتزاماتُ والعقودُ، التي يَعْقِدُهَا العَبْدُ، فعليه مُرَاعَاتُهَا والوَفَاءُ بِهَا، ويَحْرُمُ عليه التَّفْرِيطُ فِيهَا وَإِهْمَالُهَا.

قالَ اللهُ -جَلَّ وَعَلَا-: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا (٥٨) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا (٥٩)﴾ [النساء: ٥٨ – ٥٩].

قَالَ العَلَّامَةُ السَّعْدِيُّ -رَحِمَهُ اللهُ-: الأَمَانَاتُ: كُلُّ ما اؤتُمِنَ عليه الإنسانُ وَأُمِرَ بالقيامِ به، فَأَمَرَ اللهُ عِبَادَهُ بِأَدَائِهَا، أي: كَامِلَةً مُوَفَّرَةً، لا مَنْقُوصَةً وَلَا مَبْخُوسَةً، ولا مَمْطُولًا بِهَا، وَيَدْخُلُ في ذلك أَمَانَاتُ الولايَاتِ والأَمْوَالِ والأَسْرَارِ؛ والمَأْمُورَاتِ التي لا يَطَّلِعُ عليها إِلَّا اللهُ، وَقَد ذَكَرَ الفُقَهَاءُ على أنَّ مَن اؤتُمِنَ أَمَانَةً وَجَبَ عليه حِفْظُهَا في حِرْزِ مِثْلِهَا، قَالوا: لأنه لا يُمْكِنُ أَدَاؤُهَا إِلَّا بِحِفْظِهَا؛ فَوَجَبَ ذَلِكَ.

وفي قَوْلِهِ: ﴿إِلَىٰٓ أَهْلِهَا﴾ دَلَالَةٌ على أَنَّهَا لا تُدْفَعُ وتُؤَدَّى لِغَيْرِ المُؤتَمِنِ، وَوَكِيلُهُ بِمَنْزِلَتِهِ؛ فَلَو دَفَعَهَا لِغَيْرِ صَاحِبِهَا لَم يَكُن مُؤَدِّيًا لَهَا.

﴿وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾: وَهَذَا يَشْمَلُ الحُكْمَ بَيْنَهُم في الدِّمَاءِ، والأَمْوَالِ وَالأَعْرَاضِ، القَلِيلِ مِن ذَلِكَ وَالكَثِيرِ، عَلَى القَرِيبِ والبَعِيدِ، وَالبَرِّ والفَاجِرِ، والوَلِيِّ والعَدُوِّ.

والمُرَادُ بِالعَدْلِ الذي أَمَرَ اللهُ -عَزَّ وَجَلَّ- بِالحُكْمِ به، هو مَا شَرَعَهُ اللهُ على لِسَانِ رَسُولِهِ مِنَ الحدُودِ والأَحْكَامِ، وَهَذَا يَسْتَلْزِمُ مَعْرِفَةَ العَدْلِ لِيَحْكُمَ به، وَلَمَّا كانت هذه أَوَامِرَ حَسَنَةً عَادِلَةً قَالَ -جَلَّ وَعَلَا-: ﴿إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ وَهَذَا مَدحٌ مِنَ اللهِ لأَوَامِرِهِ وَنَوَاهِيهِ، لاشْتِمَالِهَا عَلَى مَصَالِحِ الدَّارَيْنِ وَدَفعِ مَضَارِّهِمَا؛ لأَنَّ شَارِعَهَا السَّمِيعُ البَصِيرُ الذي لا تَخْفَى عَلَيْهِ خَافِيَةٌ، يَعْلَمُ مِن مَصَالِحِ العِبَادِ مَا لَا يَعْلَمُونَ.

ثُمَّ أَمَرَ بِطَاعَتِهِ وَطَاعَةِ رَسُولِهِ، وذلك بامْتِثَالِ أَمْرِهِمَا الوَاجِبُ والمُسْتَحَبُّ، واجتنَابِ نَهْيِهِمَا، وَأَمَرَ بِطَاعَةِ أُولِي الأَمْرِ، وَهُم: الولاةُ على النَّاسِ، مِنَ الأُمَرَاءِ والحُكَّامِ والمُفْتِينَ، فَإِنَّهُ لا يَسْتَقِيمُ للنَّاسِ أَمْرُ دِينِهِم ودُنْيَاهُم إِلَّا بِطَاعَتِهِم والانْقِيَادِ لَهُم، طَاعَةً للهِ وَرَغْبَةً فِيمَا عِنْدَهُ، لَكِنْ بِشَرْطِ أَلَّا يَأْمُرُوا بِمَعْصِيَةِ اللهِ، فَإِنْ أَمَرُوا بذلك فَلَا طَاعَةَ لِمَخْلُوقٍ في مَعْصِيَةِ الخَالِقِ.

وَلَعَلَّ هذا هو السِّرُّ في حَذْفِ الفِعْلِ عِنْدَ الأَمْرِ بِطَاعَتِهِم وَذِكْرِهِ مَعَ طَاعَةِ الرَّسُولِ، فَإِنَّ الرَّسُولَ لَا يَأمُرُ إِلَّا بِطَاعَةِ اللهِ، وَمَنْ يُطِعْهُ فَقَد أَطَاعَ اللهَ، وَأَمَّا أُولُو الأَمْرِ فَشَرْطُ الأَمْرِ بِطَاعَتِهِم أَنْ لَا يَكُونَ مَعْصِيَةً.

ثُمَّ أَمَرَ بِرَدِّ مَا تَنَازَعَ النَّاسُ فيه مِنْ أُصُولِ الدِّينِ وفروعِهِ إلى اللهِ، وإلى الرسُولِ، أي: إلى كتابِ اللهِ وسُنَّةِ رَسُولِه؛ فَإِنَّ فيهما الفَصْلَ في جَمِيعِ المَسَائِلِ الخِلَافِيَّةِ، إِمَّا بِتَصْرِيحِهِمَا أو عُمُومِهِمَا؛ أو إيمَاءٍ، أو تَنْبِيهٍ، أو مَفْهُومٍ، أو عُمُومِ مَعْنىً يُقَاسُ عليه ما أَشْبَهَهُ؛ لأنَّ كِتابَ اللهِ وسُنَّةَ رسولِه عليهما بِنَاءُ الدِّينِ، ولا يَسْتَقِيمُ الإيمانُ إِلَّا بِهِمَا.

فَالرَّدُّ إليهما شَرْطٌ في الإيمان؛ لهذا قالَ: ﴿إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ فَدَلَّ ذَلِكَ على أَنَّ مَنْ لم يَرُدَّ إليهِمَا مَسَائِلَ النِّزَاعِ فَلَيْسَ بِمُؤمِنٍ حَقِيقَةً، بَلْ مُؤمِنٌ بِالطَّاغُوتِ، كَمَا ذكرَ في الآيةِ بَعْدَهَا.

﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: الردُّ إلى اللهِ ورَسُولِهِ ﴿خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ فَإِنَّ حُكْمَ اللهِ وَرَسُولِهِ أَحْسَنُ الأَحْكَامِ وَأَعْدَلُهَا وَأَصْلَحُهَا للنَّاسِ في أَمْرِ دِينِهِم وَدُنيَاهُم وَعَاقِبَتِهِم.

هذا دينُ اللهِ، دِينُ الإسلامِ الذي جَاءَ به مُحَمَّدٌ ﷺ لا غَدْرَ فيه ولا خِيَانَةَ فيه، وإِنَّمَا هو عَدْلٌ مُطْلَقٌ، وَحَقٌّ كَامِلٌ، وَأَمَانَةٌ شَامِلَةٌ(١).

---

(١) «من خطبة: مِصر وخيانة الأمانة - الجمعة ١٨شعبان ١٤٣٦هـ الموافق ٥/٦/٢٠١٥ م».

«عِظَمُ شَأْنِ الأَمَانَةِ وَإِخْبَارُ النَّبِيِّ ﷺ عَنْ رَفْعِهَا مِن النَّاسِ»

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ -رَضِيَ اللهُ تَعَالَى- عَنْهُ أنَّ أعرابيًا قال: يَا رَسُولَ اللهِ، مَتَى السَّاعَةُ؟

قَالَ ﷺ: «**إِذَا ضُيِّعَتْ الْأَمَانَةُ فَانْتَظِرِ السَّاعَةَ**».

قَالَ: كَيْفَ إِضَاعَتُهَا؟

قَالَ: «**إِذَا وُسِّدَ الْأَمْرُ إِلَى غَيْرِ أَهْلِهِ فَانْتَظِرِ السَّاعَةَ**».

وفي روايةٍ للبخاري: «**إِذَا أُسْنِدَ الْأَمْرُ إِلَى غَيْرِ أَهْلِهِ فَانْتَظِرِ السَّاعَةَ**».

قال الحافظ في «الفَتْح»: «إسنادُ الأمرِ إلى غَيْرِ أَهْلِهِ إنما يكونُ عند غَلَبَةِ الجَهْلِ وَرَفْعِ العِلْمِ، وذلك مِن جُمْلَةِ الإفراطِ، وَمُقْتَضَاهُ أنَّ العِلْمَ مَا دَامَ قَائِمًا فَفِي الأمْرِ فُسْحَةٌ».

والمرَادُ أَيْضًا مِنَ الأَمْرِ: جِنْسُ الأمُورِ التي تَتَعَلَّقُ بالدِّينِ، كالخِلَافَةِ، والإِمَارَةِ، والقَضَاءِ، والإِفْتَاءِ وَغَيْرِ ذلك، فإذا وُسِّدَت هذه الأمورُ إلى غَيْرِ أَهْلِهَا، فَإِنَّ فِي ذَلِكَ ضَيَاعَ الأُمَّةِ، وَذَهَابَ مَصَالِحِ المُسْلِمِينَ.

وَعَن زَيْدِ بن ثابتٍ -رَضِيَ اللهُ عَنهُ- قال: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «**أَوَّلُ مَا يُرْفَعُ مِن النَّاسِ الأَمَانَةُ -أَوَّلُ مَا يُرْفَعُ مِن النَّاسِ الأَمَانَةُ-، وَآخِرُ مَا يَبْقَى مِن دِينِهِم الصَّلَاةُ، وَرُبَّ مُصَلٍّ لَا خَلَاقَ لَهُ عِنْدَ اللهِ**».

حَسَّنَهُ في «صَحِيح الجَامِع»(١).

---

(١) «من خطبة: مِصر وخيانة الأمانة - الجمعة ١٨شعبان ١٤٣٦هـ الموافق ٢٠١٥/٦/٥ م».

وَأَخْرَجَ الشيخان بِسَنديْهِما مِن حديثِ حُذَيْفَةَ صَاحِب سِرِّ رسولِ اللهِ ﷺ، قَالَ: حَدَّثَنا النبيُّ ﷺ: «**أَنَّ الأَمانَةَ نَزَلَتْ في جَذْرِ قُلوبِ الرِّجالِ، ثُمَّ نَزَلَ القُرْآنُ فَعَلِمُوا مِنَ الْقُرْآنِ ثُمَّ عَلِمُوا مِنَ السُّنَّةِ**»، ثُمَّ حَدَّثَنا عَنْ رَفْعِ الأَمَانَةِ، فَقَالَ: «**يَنامُ الرَّجُلُ فَتُقْبَضُ الأَمانَةُ مِنْ قَلْبِهِ، فَيُصْبِحُ وقَدْ بقِيَ أَثَرُهَا فِي قَلْبِهِ كَمِثْلِ الْوَكْتِ، ثُمَّ يَنامُ النَّوْمَةَ فَتُقْبَضُ الأَمَانَةُ، فَيَبْقى أَثَرُها فِي قَلْبِهِ كَمَثَلِ أَثَرِ الْمَجْلِ كَجَمْرٍ دَحْرَجْتَهُ عَلى رِجْلِكَ، فَنَفِطَ فَأَصْبَحَ مُنْتَبِرًا وَلَيْسَ فِيهِ شَيْءٌ**»، ثم أخذَ حَصَاةً فَدَحْرَجَهَا على رِجْلِهِ ﷺ.

ثُمَّ قَالَ النبيُّ ﷺ: «**وَيُصْبِحُ النَّاسُ يَتَبايَعُونَ لاَ يَكَادُ أَحَدٌ يُؤَدِّي الأَمَانَةَ، حَتَّى إِنَّهُ لَيُقَالُ إِنَّ فِي بَنِي فُلاَنٍ رَجُلاً أَمِينًا؛ وَحَتَّى يُقَالَ لِلرَّجُلِ مَا أَعْقَلَهُ وَمَا أَظْرَفَهُ وَمَا أَجْلَدَهُ وَلَيْسَ فِي قَلْبِهِ مِن الإيمَانِ مِثْقَالُ حَبَّةِ خَرْدَلٍ**».

النبيُّ ﷺ يخبرُ أَنَّ الإيمانَ نزلَ في جَذْرِ -أي: في أصلِ- قلوبِ الرجالِ، ثم نزلَ القرآنُ فعَمِلوا مِنَ القرآنِ وعَمِلُوا مِنَ السُّنَّةِ، ثم حدَّثَهُم عن قَبْضِ الأمانةِ، عن قبضِ الإيمانِ مِن القلوب، يَنامُ الرَّجُلُ فَيُقْبَضُ الإيمانُ مِنْ قَلْبِهِ، وتُنْزَعُ الأمانةُ مِن فؤادِهِ، فيُصبحُ وليس في قلبِهِ مِنَ الأمانةِ إِلَّا كَمَثَلِ أَثَرِ الوَكْتِ؛ وهو الأثرُ اليسيرُ يبقى في الشيءِ علامةً باهتةً تكادُ تُخطِئُهَا العينُ.

ثُمَّ يَنامُ النَّوْمَةَ فَيُقبضُ الإيمانُ مِن قلبِهِ وتُقْبَضُ الأَمَانَةُ مِن فؤادِهِ، فيُصبِحُ وليس في قلبِهِ مِنَ الأمانةِ إِلَّا كَمِثْلِ أَثَرِ الْمَجْلِ: وهو ما يُصيبُ اليدَ مِنَ العملِ بالفأسِ ونحوِهَا فإذا هي مُنْتَبِرَةٌ قد نَفِطَت، وَتَجَمَّعَ الماءُ بين الجلدِ واللحمِ، فَنَفِطَ فَتَرَاهُ مُنْتَبِرًا وليس فيه شيء كالذي دَحْرَجْتَهُ على رِجلِكَ وَأَخَذَ حَصَاةً فَدَحْرَجَهَا على رِجْلِهِ ﷺ.

ثُمَّ أَخْبَرَ النبيُّ ﷺ أنَّ الأماناتِ تُنزَعُ مِنَ الناسِ حَتَّى تُصْبِحَ أَنْدَرَ مِن عَنْقَاءِ مَغْرَبٍ أو مِن الكِبريتِ الأحمرِ! لا يَكَادُ الرجُلُ الأمينُ يوجدُ في القومِ إلَّا على النُّدرةِ، يتحدثُ بِنُدْرَتِهِ النَّاسُ! يقولون: إنَّ فِي بَنِي فُلَانٍ رَجُلاً أَمِينًا؛ لنُدرتِهِ وعدمِ وجودِهِ وعِزَّتِهِ! «**يُقَالُ إِنَّ فِي بَنِي فُلَانٍ رَجُلاً أَمِينًا**».

ويخبرُ النبيُّ ﷺ في هذا الحديثِ أنَّ الأمانةَ عندما تُنزعُ مِن الناسِ تختلُّ المقاييس، فيُقال لِلرَّجُلِ مَا أَعْقَلَهُ وَمَا أَظْرَفَهُ ومَا أحسَنَهُ وَمَا أَجْلَدَهُ! وَلَيْسَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ حَبَّةِ خَرْدَلٍ مِن إيمان، وإنما هو الشكلُ الظاهرُ على غيرِ حقيقةٍ كالقبرِ له ظاهرٌ يسُرُّ وباطنٌ مِن دونِهِ يضُرُّ، يحوي الجِيَفَ(١).

«الأَمَانَةُ في العَمَلِ»

اللهُ ربُّ العالمين أمرَ بأداءِ الأماناتِ، وأداءُ الأماناتِ يدخلُ فيه كلُّ شيءٍ في الحياةِ، فالعباداتُ أمانةٌ، والخيانةُ فيها أنْ تُنْتَقصَ، فإذا انتقصَ الإنسانُ مِنَ العبادةِ فهو خائنٌ، والمعاملاتُ أمانةٌ، وما يُستَأْمَنُ عليه المرءُ أَمَانَةٌ، والسِّرُّ أمانةٌ، وكلُّ أمرٍ تعلَّقَ به أمرٌ ونهيٌ في دينِ اللهِ -تبارك وتعالى- فهو أمانةٌ، والخيانةُ فيه ألَّا يُؤتَى به على الوجهِ الشرعيِّ المطلوب.

فإذا كان إنسانٌ في عملٍ، فالعملُ الذي استُؤمِنَ عليه أَمَانَةٌ، فإذا خَانَ فيه فهو خائنٌ، وجزاءُ الخائنِ معلومٌ، وكلُّ مَن أُسنِدَ إليه عَمَلٌ؛ فَلَمْ يَأْتِ به على وَجْهِهِ فقَدْ أَكَلَ مِن حَرَامٍ إنْ كان مُتَحَصِّلًا مِن وَرَاءِ ذلك على أَجْرٍ -شَاءَ أَمْ أَبَى-(٢).

---

(١) «ملخص من خطبة: الأمانة».

(٢) «من خطبة: هدايا الموظفين الجمعة ٥ من ربيع الأول ١٤٣١هـ الموافق ١٩-٢-٢٠١٠م».

«التَّحْذِيرُ مِن الخِيَانَةِ والغَدْرِ»

قَالَ تَعَالَى: ﴿لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ﴾ [الأنفال: ٢٧].

فِخِيَانَتُهُم للهِ وَرَسولِهِ كانت بِإِظْهَارِ مَن أَظْهَرَ مِنْهُم للرَّسولِ ﷺ والمُؤمنِينَ الإيمَانَ في الظَّاهِرِ، وهو يَسْتَسِرُّ الكُفْرَ والغِشَّ لَهُم في البَاطِنِ، ويَدُلُّونَ المُشْرِكِينَ على عَوَرَاتِهِم، ويُخْبِرُونَهُم بِمَا خَفِيَ عَنْهُم مِن خَبَرِهِم، قيل:

نَزَلَت في مُنَافِقٍ كَتَبَ إلى أبي سُفْيَان يُطْلِعُهُ على سِرِّ المُسْلِمِينَ.

وقوله: ﴿وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ﴾ هي مَا يَخْفَى عن أَعْيُنِ النَّاسِ مِن فَرَائِضِ اللهِ، وقيل: هي الدِّينُ.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ -رَضِيَ اللهُ عَنهُ-، عَنِ رسولِ اللهِ ﷺ قَالَ: «**قَالَ اللهُ: ثَلاَثَةٌ أَنَا خَصْمُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، رَجُلٌ أُعْطِيَ بِي ثُمَّ غَدَرَ، وَرَجُلٌ بَاعَ حُرًّا فَأَكَلَ ثَمَنَهُ، وَرَجُلٌ اسْتَأْجَرَ أَجِيرًا فَاسْتَوْفَى مِنْهُ، وَلَمْ يُعْطِهِ أَجْرَهُ**». أخرجه البخاريُّ.

وعن عبد الله بن عمرو -رَضِيَ اللهُ عَنهُما-، قَالَ: قَالَ: رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**كَيْفَ أَنْتَ إِذَا بَقِيتَ فِي حُثَالَةٍ مِنْ النَّاسِ؟**»

قَالَ: قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ، كَيْفَ ذَلِكَ؟

قَالَ: «**إِذَا مَرِجَتْ عُهُودُهُمْ وَأَمَانَاتُهُمْ وَكَانُوا هَكَذَا** -وَشَبَّكَ يُونُسُ بَيْنَ أَصَابِعِهِ يَصِفُ ذَلكَ-».

قَالَ: قُلْتُ مَا أَصْنَعُ عِنْدَ ذَاكَ يَا رَسُولَ الله؟

قَالَ: «**اتَّقِ اللهَ -عَزَّ وَجَلَّ-، وَخُذْ مَا تَعْرِفُ وَدَعْ مَا تُنْكِرُ، وَعَلَيْكَ بِخَاصَّتِكَ وَإِيَّاكَ وَعَوَامَّهُمْ**». أَخْرَجَهُ بِهَذَا اللفْظِ أَحْمَدُ في «المُسْنَدِ»، وَصَحَّحَهُ الشَّيْخُ شَاكِرٌ وغيرُهُ.

وَعَنْ أَبِي سَعِيدٍ -رَضِيَ اللهُ تعالَى عَنهُ- قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**لِكُلِّ غَادِرٍ لِوَاءٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، يُرْفَعُ لَهُ بِقَدْرِ غَدْرِهِ، أَلَا وَلَا غَادِرَ أَعْظَمُ غَدْرًا مِنْ أَمِيرِ عَامَّةٍ**».

أَخْرَجَهُ البُخَارِيُّ ومُسْلِمٌ واللفظُ له(١).

«بَعْضُ صُوَرِ الخِيَانَةِ للوَطَنِ في هَذَا العَصْرِ»

فِي الأَحْوَالِ العَادِيَّةِ فِي زَمَنِ السِّلْمِ: لَو أَنَّ إِنْسَانًا اتَّخَذَ فَوْقَ سَطْحِ دَارِهِ عِدَّةً مِنَ المَصَابِيحِ فَأَوْقَدَهَا لَيْلًا طَوِيلًا؛ فَإِنَّهُ لَا يُلَامُ إِلَّا إِذَا كَانَ مُسْرِفًا، وَلَكِنْ فِي لَيْلِ الغَارَةِ لَو أَنَّهُ أَشْعَلَ عُودَ ثِقَابٍ وَاحِدٍ لَكَانَ خَائِنًا.

الآن مَعْنَى الخِيَانَةِ لِلْبَلَدِ؛ مَعْنَى الخِيَانَةِ لِلدِّينِ يَقَعُ بِأُمُورٍ كَثِيرَةٍ لَا يَلْتَفِتُ إِلَيْهَا أَحَدٌ، الَّذِي يُعِينُ عَدَوَّهُ عَلَى بَلَدِهِ خَائِنٌ بِلَا شَكّ، وَلَكِنَّ هَذِهِ الإِعَانَةَ عَلَى بَلَدِهِ؛ عَلَى شَعْبِهِ، عَلَى مُوَاطِنِيهِ، عَلَى تُرَاثِهِ، عَلَى حَضَارَتِهِ، عَلَى مَوْرُوثِهِ، هَذِهِ الأُمُورُ كُلُّهَا تَكُونُ فِي نِهَايَةِ الأَمْرِ بِطَرِيقَةٍ قَد لَا يَلتَفِتُ إِلَيْهَا أَحَدٌ.

التَّاجِرُ الَّذِي يَقُومُ بِالاحْتِكَارِ؛ هَذَا يُؤَدِّي فِي النِّهَايَةِ إِلَى زَلْزَلَةِ وَزَعْزَعَةِ اسْتِقْرَارِ هَذِهِ الأُمَّةِ؛ هَذَا خَائِنٌ، خَائِنٌ لِبَلَدِهِ، خَائِنٌ لِدِينِهِ، خَائِنٌ لِمُسْتَقْبَلِ هَذَا البَلَدِ، خَائِنٌ لأَبْنَائِهِ وَحَفَدَتِهِ.

الَّذِي إِذَا مَا ظَهَرَت أَمَامَهُ فُرْصَةٌ مِن أَجْلِ أَنْ يَسْتَحْوِذَ عَلَى العُمْلَةِ الصَّعْبَةِ، ثُمَّ يُخَبِّئُهَا حَتَّى لَو كَانَ البَاعِثُ الطَّمَعَ وَالجَشَعَ وَلَم يَكُن مُرِيدًا لِزَلْزَلَةِ اسْتِقْرَارِ البَلَدِ؛ هَذَا خَائِنٌ، خَائِنٌ للدِّينِ، خَائِنٌ لِهَذِهِ الأُمَّةِ، خَائِنٌ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ؛ لأَنَّ النَّتِيجَةَ وَاحِدَةٌ.

يَنْبَغِي عَلَيْنَا أَنْ نَكُونَ عَلَى قَدْرِ المَسْئُولِيَّةِ(٢).

---

(١) «من خطبة: مِصر وخيانة الأمانة - الجمعة ١٨شعبان ١٤٣٦هـ الموافق ٢٠١٥/٦/٥ م».

(٢) «مقطع: مِن صُوَرِ الخِيَانَةِ للوَطَنِ في هَذَا العَصْرِ».

«الأمانةُ تدخُلُ في كلِّ المَجَالَاتِ»

الأمانةُ تَدخُلُ المَجَالَاتِ كلَّهَا: الدِّينَ، والأَعْرَاضَ، والأَمْوَالَ، والأَجْسَامَ، والأرواحَ، وَالمَعَارِفَ، والعُلُومَ، والوِلَايَةَ، والوِصَايَةَ، والشهادَةَ، والقَضَاءَ، والكِتَابَةَ، كَمَا تَدْخُلُ نَقْلَ الحَدِيثِ، تَدْخُلُ الأَسْرَارَ والرِّسَالَاتِ، والسَّمْعَ وَالبَصَرَ وَسَائِرَ الحَوَاسِّ، ولكُلِّ وَاحِدَةٍ مِن ذلك تَفْصِيلٌ يُنَاسِبُهَا.

إنَّ اللهَ رَبَّ العَالَمِينَ عَرَضَ الأمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَالجِبَالِ، أَبَيْنَ أنْ يَحْمِلْنَهَا، أَشْفَقْنَ مِن حَمْلِهَا، تَصَدَّى لِحَمْلِهَا الإِنْسَانُ، إنهُ كانَ ظَلُومًا جهُولًا.

لكلِّ إنسان ظُلْمٌ بِحَسَبِهِ، وجَهْلٌ بِحَسَبِهِ؛ لا يَخْلُو إِنْسَانٌ مِن ظُلمٍ وجَهلٍ ﴿إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [الأحزاب: ٧٢].

أدِّ الأَمَانَةَ، لا تَخُن؛ كن أَمِينًا وَلَا تَخُن؛ لأَنَّ «**آيَةَ الْمُنَافِقِ أنه إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، إِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ، إِذَا اؤْتُمِنَ خَانَ**».

يقولُ رسولُ اللهِ ﷺ: «**اتَّقُوا اللهَ فِي النِّسَاءِ، فَإِنَّكُمْ أَخَذْتُمُوهُنَّ بِأَمَانِةِ اللهِ، وَاسْتَحْلَلْتُمْ فُرُوجَهُنَّ بِكَلِمَةِ اللهِ، وَإِنَّ لَكُمْ عَلَيْهِنَّ أَنْ لَا يُوطِئْنَ فُرُشَكُمْ أَحَدًا تَكْرَهُونَهُ**». الحديثُ عند مُسْلِمٍ في «الصَّحِيحِ».

عن عَبْدِ اللهِ بْنِ عَبَّاسٍ -رَضِيَ اللهُ عَنهُمَا- قَالَ: «أَخْبَرَنِي أَبُو سُفْيَانَ أَنَّ هِرَقْلَ قَالَ لَهُ: سَأَلْتُكَ مَاذَا يَأْمُرُكُمْ فَزَعَمْتَ أَنَّهُ يَأْمُرُ بِالصَّلاَةِ، وَالصِّدْقِ وَالْعَفَافِ، وَالْوَفَاءِ بِالْعَهْدِ، وَأَدَاءِ الأَمَانَةِ. قَالَ: وَهَذِهِ صِفَةُ نَبِيٍّ».

وَأَدَاءِ الأَمَانَةِ...

قالَ رسولُ الله ﷺ: «**أَدِّ الأَمَانَةَ إِلَى مَنِ ائْتَمَنَكَ وَلاَ تَخُنْ مَنْ خَانَكَ**».

وقال ﷺ: «**إِذَا حَدَّثَ الرَّجُلُ الْحَدِيثَ ثُمَّ الْتَفَتَ فَهِيَ أَمَانَةٌ**».

اؤتُمِنَ عَلى هذا الحَديثِ، مَا دَامَ قَدْ الْتَفَتَ، «**إِذَا حَدَّثَ الرَّجُلُ الْحَدِيثَ ثُمَّ الْتَفَتَ فَهِيَ أَمَانَةٌ**» -لَا تَخُونُوا أَمَانَاتِكُم-. أَخْرَجَهُ التِّرمِذيُ بإسنادٍ حَسَنٍ.

أَدُّوا الأَمَانَة؛ لَا تَخُونُوا اللهَ، لَا تَخُونُوا الرَّسُولَ، لَا تَخُونُوا البَلَدَ الإِسْلَامِيَّ الَّذِي أَظَلَّتُكُم سَمَاؤُه، وَأَقَلَّتُكُم أَرْضُه، وَرَواكُم مَاؤُه، وَاسْتَنْشَقْتُم هَوَاءَه، اتَّقُوا اللهَ فِيهِ، لَا تَخُونُوهُ، أَدُّوا الأَمَانَةَ فِيهِ فَإِنَّهُ أَمَانَةٌ فِي أَعْنَاقِكُم.

وَصَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ عَلَى نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ ﷺ(١).

---

(١) «من خطبة: مِصر وخيانة الأمانة - الجمعة ١٨شعبان ١٤٣٦هـ الموافق ٢٠١٥/٦/٥ م».

«المَوْعِظَةُ السَّابِعَةُ»

«العَدْلُ»

إنَّ الْحَمْدَ لِلَّهِ نَحْمَدُهُ، وَنَسْتَعِينُهُ وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِاللَّـهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللَّـهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَا هَادِيَ لَهُ.

وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّـهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ.

وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ ﷺ.

أَمَّا بَعْدُ:

«الإسلامُ هو دينُ العدلِ والإِحْسَانِ»

فالإسلامُ هو دينُ العدلِ والإِحْسَانِ؛ دينُ العَدْلِ الذي أَمَرَ المُسْلِمِينَ أنْ يَعْدِلُوا مَع إِخْوَانِهِم وَغَيْرِ إِخْوَانِهِم، أَمَرَهُم أَنْ يَلْتَزِمُوا العَدْلَ في جَمِيعِ حَيَاتِهِم، وَأَنْ يُحسِنُوا إلى النَّاسِ، فهذه الآيةُ التي تُعْتَبَرُ مِن أَجْمَعِ مَا نَزَلَ في القُرْآنِ الكَرِيمِ هيَ: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٩٠].

وَقد قَرَنَ اللهُ تعالى العَدْلَ فيها بِالإِحْسَانِ؛ لأنَّ العَدْلَ وَحْدَهُ قد يُؤدِّي إلى الجَوْرِ، فَمَن أَرَادَ أَنْ يَسْتَوفِيَ حَقَّهُ كَامِلًا قَد يَقَعُ فِيمَا لا يَحِلُّ كُلُّهُ، لَكِنَّهُ إذا أَخَذَ العَدْلَ ومَعَهُ الإِحْسَانُ تَرَكَ بَعْضَ مَا يَسْتَحِقُّهُ رَغْبَةً فِيمَا حَثَّهُ اللهُ تعالى عليه مِن الإحسانِ.

قَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة: ١٩٥].

وربُّنا -جَلَّ وَعَلَا- يَقُولُ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ﴾ [المائدة: ٨].

أي: شُهَدَاءَ بِالعَدْلِ، تَقُولُونَ العَدْلَ وَتَعْمَلُونَ بِهِ وتُطَبِّقُونَهُ عَلَى أَنْفُسِكِم وَعَلَى غَيْرِكِم.

قَالَ -جَلَّ وَعَلَا-: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [المائدة: ٨].

أي: لا تَحْمِلَنَّكُم عَدَاوَاتُكُم لِبَعْضِ النَّاسِ أَنْ تَجورُوا، ﴿اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾(١).

«أَمَرَ اللهُ بِأَدَاءِ الأَمَانَاتِ وَالحُكْمِ بِالعَدْلِ»

قَالَ اللهُ -جَلَّ وَعَلَا-: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا (٥٨) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا (٥٩)﴾ [النساء: ٥٨ – ٥٩].

قَالَ العَلَّامَةُ السَّعْدِيُّ -رَحِمَهُ اللهُ-: الأَمَانَاتُ: كُلُّ ما اؤتُمِنَ عليه الإنسانُ وَأُمِرَ بالقيامِ به، فَأَمَرَ اللهُ عِبَادَهُ بِأَدَائِهَا، أي: كَامِلَةً مُوَفَّرَةً، لا مَنْقُوصَةً وَلَا مَبْخُوسَةً، ولا مَمْطُولًا بِهَا، وَيَدْخُلُ في ذلك أَمَانَاتُ الولايَاتِ والأَمْوَالِ والأَسْرَارِ؛ والمَأْمُورَاتِ التي لا يَطَّلِعُ عليها إلَّا الله، وَقَد ذَكَرَ الفُقَهَاءُ أَنَّ مَن اؤتُمِنَ أَمَانَةً وَجَبَ عليه حِفْظُهَا في حِرْزِ مِثْلِهَا، قالوا: لأنه لا يُمْكِنُ أَدَاؤُهَا إِلَّا بِحِفْظِهَا؛ فَوَجَبَ ذَلِكَ.

---

(١) «من خطبة: تفجيرات بروكسل بين الغدر والخيانة - الجمعة ١٦ من جمادى الآخرة ١٤٣٧هـ الموافق ٢٥-٣-٢٠١٦م».

وفي قَوْلِهِ: ﴿إِلَىٰٓ أَهْلِهَا﴾ دَلَالَةٌ على أَنَّهَا لا تُدْفَعُ وتُؤَدَّى لِغَيْرِ المُؤتَمِنِ، وَوَكِيلُهُ بِمَنْزِلَتِهِ؛ فَلَو دَفَعَهَا لِغَيْرِ صَاحِبِهَا لَم يَكُن مُؤدِّيًا لَهَا.

﴿وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾: وَهَذَا يَشْمَلُ الحُكْمَ بَيْنَهُم في الدِّمَاءِ، والأَمْوَالِ وَالأَعْرَاضِ، القَلِيلِ مِن ذَلِكَ وَالكَثِيرِ، عَلَى القَرِيبِ والبَعِيدِ، وَالبَرِّ والفَاجِرِ، والوَلِيِّ والعَدُوِّ.

والمُرَادُ بِالعَدْلِ الذي أَمَرَ اللهُ -عَزَّ وَجَلَّ- بِالحُكْمِ به، هو مَا شَرَعَهُ اللهُ على لِسَانِ رَسُولِهِ مِنَ الحدُودِ والأَحْكَامِ، وَهَذَا يَسْتَلْزِمُ مَعْرِفَةَ العَدْلِ لِيَحْكُمَ به، وَلَمَّا كانت هذه أَوَامِرَ حَسَنَةً عَادِلَةً قَالَ -جَلَّ وَعَلَا-: ﴿إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ وَهَذَا مَدحٌ مِنَ اللهِ لأَوَامِرِهِ وَنَوَاهِيهِ، لاشْتِمَالِهَا عَلَى مَصَالِحِ الدَّارَيْنِ وَدَفعِ مَضَارِّهِمَا، لأَنَّ شَارِعَهَا السَّمِيعُ البَصِيرُ الذي لا تَخْفَى عَلَيْهِ خَافِيَةٌ، يَعْلَمُ مِن مَصَالِحِ العِبَادِ مَا لَا يَعْلَمُونَ.

ثُمَّ أَمَرَ بِطَاعَتِهِ وَطَاعَةِ رَسُولِهِ، وذلك بامْتِثَالِ أَمْرِهِمَا الوَاجِبُ والمُسْتَحَبُّ، واجتنَابِ نَهْيِهِمَا، وَأَمَرَ بِطَاعَةِ أُولِي الأَمْرِ، وَهُم: الولاةُ على النَّاسِ، مِنَ الأُمَرَاءِ والحُكَّامِ والمُفْتِينَ، فَإِنَّهُ لا يَسْتَقِيمُ للنَّاسِ أَمْرُ دِينِهِم ودُنْيَاهُم إِلَّا بِطَاعَتِهِم والانْقِيَادِ لَهُم، طَاعَةً للهِ وَرَغْبَةً فِيمَا عِنْدَهُ، لَكِنْ بِشَرْطِ أَلَّا يَأْمُرُوا بِمَعْصِيَةِ اللهِ، فَإِنْ أَمَرُوا بذلك فَلَا طَاعَةَ لِمَخْلُوقٍ في مَعْصِيَةِ الخَالِقِ، وَلَعَلَّ هذا هو السِّرُّ في حَذْفِ الفِعْلِ عِنْدَ الأَمْرِ بِطَاعَتِهِم وَذِكْرِهِ مَعَ طَاعَةِ الرَّسُولِ، فَإِنَّ الرَّسُولَ لَا يَأْمُرُ إِلَّا بِطَاعَةِ اللهِ، وَمَنْ يُطِعْهُ فَقَد أَطَاعَ اللهَ، وَأَمَّا أُولُو الأَمْرِ فَشَرْطُ الأَمْرِ بِطَاعَتِهِم أَنْ لَا يَكُونَ مَعْصِيَةً.

ثُمَّ أَمَرَ بِرَدِّ مَا تَنَازَعَ النَّاسُ فيه مِن أُصُولِ الدِّينِ وفروعِهِ إلى اللهِ، وإلى الرسُولِ، أي: إلى كتابِ اللهِ وسُنَّةِ رَسُولِه؛ فَإِنَّ فيهما الفَصْلَ في جَمِيعِ المَسَائِلِ الخِلَافِيَّةِ، إِمَّا بِتَصْرِيحِهِمَا أو عُمُومِهِمَا؛ أو إيمَاءٍ، أو تَنْبِيهٍ، أو مَفْهُومٍ، أو عُمُومِ مَعْنىً يُقَاسُ عليه ما أَشْبَهَهُ؛ لأَنَّ كِتابَ اللهِ وسُنَّةَ رسولِه عليهما بِنَاءُ الدِّينِ، ولا يَسْتَقِيمُ الإيمانُ إلَّا بِهِمَا.

فَالرَّدُّ إليهما شَرْطٌ في الإيمان؛ لهذا قالَ: ﴿إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ فَدَلَّ ذَلِكَ على أنَّ مَنْ لم يَرُدَّ إليهِمَا مَسَائِلَ النِّزَاعِ فَلَيْسَ بِمُؤمِنٍ حَقِيقَةً، بَلْ مُؤمِنٌ بِالطَّاغُوتِ، كَمَا ذكرَ في الآيةِ بَعْدَهَا.

﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: الردُّ إلى اللهِ ورَسُولِهِ ﴿خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ فَإِنَّ حُكْمَ اللهِ وَرَسُولِهِ أَحْسَنُ الأَحْكَامِ وَأَعْدَلُهَا وَأَصْلَحُهَا للنَّاسِ في أَمْرِ دِينِهِم وَدُنيَاهُم وَعَاقِبَتِهِم.

هذا دينُ اللهِ، دِينُ الإسلامِ الذي جَاءَ به مُحَمَّدٌ ﷺ لا غَدْرَ فيه ولا خِيَانَةَ فيه، وإِنَّمَا هو عَدْلٌ مُطْلَقٌ، وَحَقٌّ كَامِلٌ، وَأَمَانَةٌ شَامِلَةٌ(١).

«اتَّقُوا الظُّلْمَ وَعَوَاقِبِهِ الجَسِيمَةِ»

الإسلامُ حَرَّمَ الظُّلْمَ وَجَعَلهُ مِن كَبَائِرِ الذنوبِ وَتَوَعَّدَ الظَّالِمِينَ، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ (٤٢) مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ﴾ [ابراهيم: ٤٢-٤٣].

وَهدَّدَ اللهُ -جَلَّ وَعَلَا- الظَّالِمِينَ فَقَالَ -عزَّ مِن قَائِلٍ-: ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾ [الشعراء: ٢٢٧](٢).

---

(١) «من خطبة: مِصر وخيانة الأمانة - الجمعة ١٨شعبان ١٤٣٦هـ الموافق ٥/٦/٢٠١٥ م».

(٢) «من خطبة: تفجيرات بروكسل بين الغدر والخيانة - الجمعة ١٦ من جمادى الآخرة ١٤٣٧هـ الموافق ٢٥-٣-٢٠١٦م».

اللهُ -تبارك وتعالى- يُبيِّنُ لنا أنَّ مَن أنعمَ اللهُ -تبارك وتعالى- عليه بنعمةِ الإسلامِ؛ فأخلصَ الدين وأقامَ التوحيد؛ فلا خوفٌ عليهم ولا هُم يحزنون: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الأنعام: ٨٢].

في «صحيح البخاري» وعند مسلم أيضًا من روايةٍ أخرى: أنَّ الصحابة -رضي الله عنهم- لمَّا نزلت هذه الآية؛ فَزِعوا إلى رسولِ الله ﷺ، فقالوا: أيُّنا لم يظلم نفسَهُ يا رسول الله؟

فقال ﷺ: «**لَيْسَ ذَاكَ، أَلَم تَسْمَعُوا قَوْلَ لُقْمَان لابْنِهِ:** ﴿يَا بُنَيَّ لا تُشْرِكْ بِاللهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣]؟»

فَنَهَى اللهُ -تَبَارَكَ وَتَعَالَى- عَنِ الشِّرْكِ به، والشِّرْكُ به أَظْلَمُ الظُّلْمِ وَأَفْظَعُهُ وَأَعْظَمُهُ، وَأَمَرَ اللهُ -تَبَارَكَ وَتَعَالَى- بِالعَدْلِ، وَأَعْدَلُ العَدْلِ وَأَفْخَمُهُ وَأَقْوَمُهُ: تَوْحِيدُ اللهِ -جَلَّ وَعَلَا-.

لَقَد حَذَّرَ النبيُّ ﷺ الأمةَ من الظُّلمِ؛ لأن أَمْرَها لا يقومُ إلا على العدل، فالعدلُ أساسُ المُلك، وما حَمَى مَلِكٌ ولا سلطانٌ ولا حاكمٌ ولا أميرٌ مُلْكَهُ بمِثْلِ العدلِ.

إنَّ اللهَ يُقيمَ الدولةَ العادلةَ ولو كانت كافرة، ولا يُقيمُ الدولةَ الظالمةَ ولو كانت مسلمة.

قال رسول الله ﷺ: «**الظلمُ ظلماتٌ يوم القيامة**»، وهو حديثُ عبدِ اللهِ بنِ عُمرٍ -رضي الله عنهما- في «الصحيحين».

ومن حديثِ جابر يقول: قال رسول الله ﷺ: «**اتَّقُوا الظُّلْمَ؛ فَإِنَّ الظُّلْمَ ظُلُمَاتٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**».

يُبيِّنُ النبيُّ ﷺ أنَّ دعوةَ المظلوم ليس دونَها حجاب: «**واتَّقِ دَعْوَةَ المَظْلُومِ؛ فَإِنَّهُ لَيْسَ دُونَهَا حِجَابٌ**».

اتقِ دعوةَ المظلومِ ولو كان فاجرًا، ففجورُهُ على نفسِهِ.

اتق دعوةَ المظلوم؛ فإنها تصعدُ إلى السماءِ كأنها شرارة.

اتقِ دعوةَ المظلومِ ولو كان كافرًا.

شيءٌ لم يرضهُ اللهُ –تبارك وتعالى- لنفسِهِ، أفيرضاهُ من أحدٍ من خَلْقِهِ؟!

«**يَا عِبَادِي إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا؛ فَلَا تَظَالَمُوا**»، لا تظلموا أنفسَكم.

يقول الرسولُ ﷺ: «**مَن ظلمَ قِيدَ شِبرٍ مِن الأرضِ؛ طُوِّقَهُ من سبعِ أَرَضِينَ يوم القيامة**».

يقول النبيُّ ﷺ مُحَذِّرًا أنْ يركنَ الإنسانُ إلى المُهلة، فإنَّ اللهَ لا يعجلُ لعجلةِ أحد، ويُملي للظالمِ حتى إذا أخذَهُ لم يُفْلته.

كما قال رسول الله ﷺ: «**لَتُؤَدُّنَّ الحُقوقَ إِلَى أَهْلِهَا يَومَ القِيَامَةِ، حَتَّى يُقَادَ للشَّاةِ الجَلْحَاءِ مِنَ الشَّاةِ القَرْنَاءِ**»، لأَنَّ الشَّاةَ القَرْنَاءَ لَا شَكَّ تُؤلِمُ الجَلْحَاءَ أَكْثَرَ مِمَّا تُؤلِمُهَا أُخْتُهَا.

يبعثُ اللهُ الخلائق ليُقيمَ العدل، وليرفعَ القسط، ويأتي بهذه الحيوانات إقامةً للعدل ورفعًا للقِسط، فتقتصُّ منها كما نطحتها في الدنيا، يقول الرسول ﷺ: « **لَتُؤَدُّنَّ الحُقُوقَ إِلَى أَهْلِهَا يَومَ القِيَامَةِ، حَتَّى يُقَادَ للشَّاةِ الجَلْحَاءِ مِنَ الشَّاةِ القَرْنَاءِ**».

فاتَّقُوا اللهَ، لَا تَظْلِمُوا أَنْفُسَكُم، اتَّقُوا الظُّلْمَ؛ فَإِنَّ الظُّلْمَ ظُلُمَاتٌ يَوْمَ القِيَامَةِ، والظُّلْمُ ثَلَاثَةُ أَنْوَاعٍ:

***نوعٌ لا يَغْفِرُ اللهُ منه شيئًا: وهو الشركُ باللهِ –جلَّ وعلا-:** فـ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤٨]، فهذا النوعُ لا يتركُ اللهُ منه شيئًا، وإنما يؤاخِذُ به ولا يغفرُ منه شيئًا، وإنما يُعذِّبُ به: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣].

***ونوعٌ لا يتركُ اللهُ –تبارك وتعالى- منه شيئًا: وهو ظُلمُ العبادِ بعضِهم بعضًا:** فلابد من إقامةِ العدل، ومَن لم يتحصل على حقِّهِ في هذه الحياة؛ فسوف يتحصلُ عليه حتمًا لا محالة.

كما قال رسول ﷺ: «**مَن كان عنده مَظلمةٌ لأَخِيهِ مِن مَالٍ أو عِرْضٍ؛ فَلْيُؤَدِّهَا في هذه الحَيَاةِ قَبْلَ أَلَّا يَكُونَ دِرْهَمٌ ولا دِينَارٌ، وَإِنَّمَا هِيَ الحَسَنَاتُ والسَّيِّئَاتُ، فَيُؤخَذُ مِن حَسَنَاتِهِ ليُعْطَى مَن ظَلَمَهُ، فَإِنْ فَنِيَت حَسَنَاتُهُ؛ أُخِذَ مِن سَيِّئَاتِ المَظْلُومِ فَطُرِحَ عليه ثُمَّ طُرِحَ في النَّارِ**».

اتقوا الله، حافظوا على أعمالِكم، لا تجعلوها نهبًا للخصوماتِ والقصاصِ يوم القيامة؛ لأن الرجلَ يُعرضُ عليه كتابُهُ، حتى إذا ما أحسَّ أنه قد نجا، يقومُ مَن يقولُ ممن ظلمَهُ: يا رب أعطني حقي عند عبدك هذا، فيُعطى من حسناتِهِ، فما تزالُ تجتمعُ عليه مُحقَّرات الذنوبِ حتى يُلقى في النارِ وبئس القرار.

حافظوا على أعمالِكم، فالعِبرةُ ليست بالعملِ الصالحِ وحده، وإنما في الحفاظِ عليه؛ فكم ممن عَمِلَ صالحًا ثم لم يجد شيئًا؟!!

«**تدرون ما المُفلس؟**»

قالوا: مَن لا درهم له ولا دينار.

قال: «**لا، المفلسُ من أتى يوم القيامةِ بأعمالٍ عظيمةٍ كالجبال، فيأتي وقد ضربَ هذا، وشتمَ هذا، وأخذَ مالَ هذا، وظلمَ هذا، فيأخذُ هذا من حسناتِهِ، وهذا من حسناتِه، وهذا من حسناتِه، حتى إذا فَنيت حسناتُه؛ أُخِذَ من سيئاتهم، فطُرح عليه، ثم طُرِح في النار**».

فَاتَّقِ اللهَ، لا تَظْلِم، إيَّاكَ أنْ تَحْسَبَ أَنَّكَ بَعِيدٌ عن المُؤاخَذَةِ دنيا وآخرة، مَن ظَلَمَ؛ يُؤاخَذُ بالشرعِ، فإنْ أَفْلَتَ فَبِعِقَابِ اللهِ دنيا قَبْلَ الآخرة؛ لأنه ما مِن ذَنْبٍ أَجْدَرُ أنْ تُعَجَّلَ له العقوبةُ في الدنيا مع مَا يُدَّخَرُ له مِن العَذَابِ في الآخرةِ مِن البَغْيِ وَقَطِيعَةِ الرَّحِمِ.

تَبْغِي؟!! مَن أَنْت؟!!

أَلَا تَنْظُرُ فِي نَفْسِكَ وَمَا يَحْمِلُ بَطْنُكَ؟!

مَن تَكُون؟!

إِنَّكَ لَا تَمْلِكُ لِنَفْسِكَ مِن نَفْسِكَ شَيْئًا... يُمْرِضُكَ؛ فَهَلْ تَمْلِكُ لِنَفْسِكَ حِيلَةً أَوْ دَفْعًا؟

يُمِيتُكَ؛ هَل يُمْكِنُ أَنْ تَعْتَرِضَ عَلَى رُسُلِ اللهِ الذين أَتَوْا لِيَقْبِضُوا رُوحَكَ؟!!

مَن تَكُون وَمَا تَكُون؟!!

اتَّقِ اللهَ فِي نَفْسِكَ، إِذَا أَخَذَكَ؛ فَلَن يُفْلِتْكَ.

اتَّقِ اللهَ، لا تَظْلِم، إِيَّاكَ أَنْ تَظْلِمَ، سَيَأْخُذُكَ، وأنا على يقينٍ من ربِّي بأنَّ اللهَ حرَّم الظلمَ على نفسِهِ، أفيرضاهُ لك؟!!

مَن تكون أنت؟!!

اتق اللهَ، أدِّ الحقوقَ إلى أربابِها، واضْبِط نَفْسَكَ، وَأَمْسِك لَفْظَكَ، وَاتَّقِّ اللهَ فِي بَصَرِكَ وَسَمْعِكَ، وفي مَطْعَمِكَ وَمَشْرِبِكَ.

وصلى اللهُ وسلم على نبيِّنا مُحمد وعلى آلِهِ وأصحابِهِ ومَن دعا بدعوتِهِ إلى يومِ الدين(١).

---

(١) «من خُطْبَةِ عِيدِ الفِطْرِ لعام ١٤٣٧هـ: اتَّقُوا الظُّلْمَ».

«المَوْعِظَةُ الثَّامِنَةُ»

«التَّوَاضُعُ»

إنَّ الْحَمْدَ لِلَّهِ نَحْمَدُهُ، وَنَسْتَعِينُهُ وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِاللَّـه مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللَّـهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَا هَادِيَ لَهُ.

وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّـهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ.

وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ ﷺ.

أَمَّا بَعْدُ:

«الْأَمْرُ بِالتَّوَاضُعِ وَحْيٌ إِلَهِيٌّ»

فَفِي «الصَّحِيحِ» عنه ﷺ: «**وَأَوْحِيَ إِلَيَّ أَنْ تَوَاضَعُوا حَتَّى لَا يَفْخَرَ أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ، وَلَا يَبْغِي أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ**». رَوَاهُ مُسْلِمٌ.

التَّوَاضُعُ المَحْمُودُ نَوْعَانِ:

*__الأَوَّلُ:__ تَوَاضُعُ العَبْدِ عِنْدَ أَمْرِ اللهِ امْتِثَالًا، وَعِنْدَ نَهْيِهِ اجْتِنَابًا، فَإِنَّ النَّفْسَ لِطَلَبِ الرَّاحَةِ تَتَلَكَّأُ فِي أَمْرِهِ، فَيَبْدُو مِنْهَا إِبَاءٌ وَشِرَادٌ هَرَبًا مِنَ العُبُودِيَّةِ، وَتَثْبُتُ عِنْدَ نَهْيِهِ طَلَبًا لِلظَّفَرِ بِمَا مَنَعَ مِنْهُ، فَإِذَا تَوَاضَعَ العَبْدُ نَفْسُهُ لأَمْرِ اللهِ وَنَهْيِهِ فَقَدْ تَوَاضَعَ للعُبُودِيَّةِ.

*__والنَّوْعُ الثَّانِي:__ تَوَاضُعُهُ لِعَظَمَةِ الرَّبِّ وَجَلَالِهِ، وَخُضُوعِهِ لِعِزَّتِهِ وَكِبْرِيَائِهِ، فَكُلَّمَا شَمَخَت نَفْسُهُ ذَكَرَ عَظَمَةَ الرَّبِّ وَتَفَرُّدَهُ بِذَلِكَ وَغَضَبَهُ الشَّدِيدَ على مَن نَازَعَهُ ذَلِكَ، فَتَوَاضَعَت إِلَيْهِ نَفْسُهُ، وَانْكَسَرَ لِعَظَمَةِ اللهِ قَلْبُهُ، وَاطْمَأَنَّ لِهَيْبَتِهِ، وَأَخْبَتَ لِسُلْطَانِهِ، فَهَذَا غَايَةُ التَّوَاضُعِ، وَهُوَ يَسْتَلْزِمُ الأَوَّلَ مِن غَيْرِ عَكْسٍ، وَالمُتَوَاضِعُ حَقِيقَةً مَنْ رُزِقَ الأَمْرَيْنِ».
«الجَامِعُ لأَخْلَاقِ الرَّاوِي وَآدَابِ السَّامِعِ».

قَالَ ابْنُ القَيِّمِ -رَحِمَهُ اللهُ-: «الْفرقُ بَينَ التَّوَاضُعِ وَالمَهَانَةِ أَنَّ التَّوَاضُعَ يَتَوَلَّدُ مِن بَيْنِ الْعِلْمِ بِاللَّهِ سُبْحَانَهُ وَمَعْرِفَة أَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ وَنُعُوتِ جَلَالِهِ وَتَعْظِيمِهِ وَمَحَبَّتِهِ وَإِجْلَالِهِ، وَمِنْ مَعْرفَتِهِ بِنَفْسِهِ وَتَفَاصِيلِهَا وَعُيُوبِ عَمَلِهَا وَآفَاتِهَا، فَيَتَوَلَّدُ مِنْ بَيْنِ ذَلِكَ كُلِّهِ خُلُقٌ هُوَ التَّوَاضُعُ، وَهُوَ انْكِسَارُ الْقَلْبِ للهِ وَخَفْضِ جَنَاحِ الذُّلِّ وَالرَّحْمَةِ بِعِبَادِهِ، فَلَا يَرَى لَهُ عَلَى أَحَدٍ فَضْلًا، وَلَا يَرَى لَهُ عِنْد أَحَدٍ حَقًّا، بَلْ يَرَى الْفَضْلَ لِلنَّاسِ عَلَيْهِ وَالحُقُوقَ لَهُم قَبْلَهُ، وَهَذَا خُلُقٌ إِنَّمَا يُعْطِيهِ اللهُ -عَزَّ وَجَلَّ- مَنْ يُحِبُّهُ وَيُكْرِمُهُ وَيُقَرِّبُهُ.

وَأَمَّا المَهَانَةُ: فَهِيَ الدَّنَاءَةُ وَالخِسَّةُ وَبَذْلُ النَّفْسِ وَابْتِذَالُهَا فِي نَيْلِ حُظُوظِهَا وَشَهَوَاتِهَا، كَتَوَاضِعِ السُّفَّلِ فِي نَيْلِ شَهَوَاتِهِم، وَتَوَاضُعِ الْمَفْعُولِ بِهِ للْفَاعِلِ، وَتَوَاضُعِ طَالِبِ كُلِّ حَظٍّ لِمَن يَرْجُو نَيْلَ حَظِّهِ مِنْهُ، فَهَذَا كُلُّهُ ضَعَةٌ لَا تَوَاضُعَ، وَاللهُ سُبْحَانَهُ يُحِبُّ التَّوَاضُعَ وَيُبْغِضُ الضَّعَةَ وَالمَهَانَةَ، وَفِي «الصَّحِيحِ» عَنْهُ: «**وَأَوْحِيَ إِليَّ أَنْ تَوَاضَعُوا حَتَّى لَا يَفْخَرَ أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ، وَلَا يَبْغِي أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ**»(١).

---

(١) «مِن كتاب: فضل العلم ص: ٤٥٥، ٤٥٦».

«أَحَبُّ المُسْلِمِينَ إِلَى الرَّسُولِ ﷺ أَحَاسِنُهُم أَخلَاقًا»

لَمَّا كانَ النبيُّ ﷺ أكملَ الناسِ خُلُقًا، وأحسنَهُم أخلاقًا، كان أَوْلَى الناسِ بالحُبِّ والقُربِ منه مَن بلغَ في حُسنِ الخُلُقِ مبلغًا مَرضيًّا، وَتَسَنَّمَ مِن حُسنِ الخُلُقِ مكانًا عليًّا.

عن جابر -رضي اللهُ عنه- أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قال: «**مِن أَحَبِّكُم إِلَيَّ وَأَقرَبِكُم مِنِّي مَجلِسًا يَومَ القِيامَةِ: أَحَاسِنَكُم أَخلَاقًا، وَإِنَّ أَبغَضَكُم إِلَيَّ وَأَبعَدَكُم مِنِّي مَجلِسًا يَومَ القِيَامَةِ: الثَّرثَارُونَ، وَالمُتَشَدِّقُونَ، وَالمُتَفَيهِقُونَ**».

قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، قَد عَلِمنَا الثَّرثَارُونَ وَالمُتَشَدِّقُونَ، فَمَا المُتَفَيهِقُونَ؟

قَالَ: «**المُتَكَبِّرُونَ**». رواه الترمذيُّ وقال: «حديثٌ حسنٌ»، وَصَحَّحَهُ الألبانيُّ في «صحيح سُنَنِ الترمذيِّ».

قال النوويُّ -رحمهُ اللهُ-: «الثَّرْثَارُ: كثيرُ الكلامِ تَكَلُّفًا، المُتَشَدِّقُ: المُتَطَاوِلُ على النَّاسِ بِكَلَامِهِ وَيَتَكَلَّمُ بِمِلءِ فِيهِ تَفَاصُحًا وتَعْظِيمًا لِكَلَامِهِ، المُتَفيهقُ: مِن الفِهْقِ وهو الامْتِلَاءِ وهو الذي يَمْلأُ فَمَهُ بالكلامِ، وَيَتَوَسَّعُ فيه وَيُغْرِبُ به تَكَبُّرًا وارتفاعًا وإِظْهَارًا للفَضِيلَةِ على غَيْرِهِ»(١).

---

(١) «باختصار من كتاب «حُسنِ الخُلُقِ» الطبعة الثالثة».

«الأَمْرُ بِالتَّوَاضُعِ والنَّهْيُ عَنِ الكِبْرِ والخُيَلَاءِ فِي القُرْآنِ الكَرِيمِ»

قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ (١٨) وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ (١٩)﴾ [لقمان: ١٨-١٩].

ضَعْ فِي ذَاكِرَتِكَ أَيُّهَا المُتَلَقِّي آيَاتِ كِتَابِ اللهِ، ضَع نَصِيحَةَ لُقْمَانَ لابْنِهِ، وَهُوَ يَنْصَحُهُ نُصْحًا مَقْرُونًا بِمَا يُثِيرُ الرَّغْبَةَ وَالرَّهْبَةَ...

وَمِن نَصَائِحِهِ: وَلَا تُعْرِضْ بِوَجْهِكَ عَنِ النَّاسِ تَكَبُّرًا، وَلَا تَمْشِ فَوْقَ الأَرْضِ مُخْتَالًا مُتَكَبِّرًا، إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فِي مِشْيَتِهِ، فَخُورٍ بِمَا أُوتِيَ مِن نِعَمٍ لَا يَشْكُرُ اللهَ عَلَيْهَا، بَلْ يُبْغِضُهُ، وَتَوَسَّطْ فِي مَشْيِكَ بَيْنَ الإِسْرَاعِ وَالدَّبِيبِ مَشْيًا يُظْهِرُ الوَقَارَ، وَاخْفِضْ مِن صَوْتِكَ، لَا تَرْفَعْهُ رَفْعًا يُؤْذِي، إِنَّ أَقْبَحَ الأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الحَمِيرِ بِارْتِفَاعِ أَصْوَاتِهَا(١).

«تَوَاضُعُ النَّبِيِّ ﷺ»

إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ عَلَّمَ الدُّنْيَا كُلَّهَا كَيْفَ يَكُونُ الإِخْبَاتُ والخُشُوعُ والتَّوَاضُعُ للهِ -جَلَّ وَعَلَا-، فَكَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَقُولُ: «**لَا تُطْرُونِي كَمَا أَطْرَتِ النَّصَارَى المَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ، فَإِنَّمَا أَنَا عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ، فَقُولُوا: عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُهُ ﷺ**».

وكانَ النَّبِيُّ ﷺ يُرَاجِعُ مَن أَخَذَتْهُ الهَيْبَةُ -وَحُقَّ لَهُ أَنْ تَأْخُذَهُ- مَن أَخَذَتْهُ الهَيْبَةُ إِذَا حَضَرَ عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ فَارْتَعَدَت فَرَائِسُهُ، فَكَانَ يَقُولُ لَهُ: «**يَا أَخَ العَرَبِ، هَوِّن عَلَيْكَ، إِنَّمَا أَنَا ابْنُ امْرَأَةٍ مِن قُرَيْش كَانَت تَأْكُلُ القَدِيدَ بِمَكَّةَ ﷺ**»(٢).

---

(١) «مِن سِلْسِلَةِ: القراءة والتعليق على مختصر تفسير القرآن [تفسير سورة لقمان: ١٨-١٩]».

(٢) «من خطبة: كيف يكون الخشوع؟ الجمعة ١٤ من ذي الحجة ١٤٣٧هـ الموافق ١٦-٩-٢٠١٦ م».

كان النَّبِيُّ ﷺ في حَجَّةِ الوَدَاعِ مِثَالًا لِلتَّوَاضُعِ شَاخِصًا، مِثَالًا للبُعْدِ عَن الكِبْرِ والعُجْبِ، مَاثِلًا وَقَائِمًا -صلى الله وسلم وبارك عليه-، وَإِذَا كانَ النبيُّ ﷺ قد قالَ في حَجَّةِ الوَدَاعِ: «**خُذُوا عَنِّي مَنَاسِكَكُم**»، فَإِنَّ مَا أَتَى بِهِ النبيُّ ﷺ يَنْبَغِي أَنْ يُلْتَزَمَ؛ لأَنَّ اللهَ رَبَّ العَالَمِينَ جَعَلَهُ حُجَّةً عَلَى خَلْقِهِ فِي أَرْضِهِ، وَهُوَ خَاتَمُ المُرْسَلِينَ -صلى الله وسلم وبارك عليه-.

كانَ النبيُّ ﷺ في حَجَّةِ الوَدَاعِ مِثَالًا للعَبْدِ القَانِتِ المُنِيبِ: «**لَا تُطْرُونِي كَمَا أَطْرَتِ النَّصَارَى المَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ، فَإِنَّمَا أَنَا عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ، فَقُولُوا: عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُهُ ﷺ**».

فَحَقَّقَ العبوديَّةَ للهِ رَبِّ العَالَمِينَ ظَاهِرًا وَبَاطِنًا، سُلُوكًا وَتَطْبِيقًا وَعَمَلًا، وَكَانَ للهِ مُتَوَاضِعًا.

نَحَرَ بِيَدِهِ الشَّرِيفَةِ ثَلَاثًا وَسِتِّينَ بَدَنَةً، نَحَرَهَا بِيَدِهِ الشَّرِيفَةِ، وَكَانَ يُمْكِنُ أَنْ يُنِيبَ وَأَنْ يُوَكِّلَ، وَلَكِنْ نَحَرَ بِيَدِهِ ثَلَاثًا وَسِتِّينَ، قَالَ العُلَمَاءُ: كَأَنَّمَا كَانَت إِشَارَةً إِلَى عُمُرِهِ الشَّرِيفِ، إِذْ عَاشَ ثَلَاثَةً وَسِتِّينَ عَامًا ﷺ، وَوَكَّلَ عَلِيًّا -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- في نَحْرِ تَمَامِ المِئَةِ، ثُمَّ أَكَلَ النبيُّ ﷺ مِن هَدْيِهِ كَمَا يَأْكُلُ الحَجِيجُ، مُتَوَاضِعًا للهِ رَبِّ العَالَمِينَ.

فِي الخَنْدَقِ لَمَّا كانَ به مِن الجُوعِ مَا وَصَفَ جَابِرٌ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ-، حَتَّى إِنَّهُ مِن شَفَقَتِهِ عَلَيْهِ ذَهَبَ إِلَى امْرَأَتِهِ، فَوَصَفَ الخَمَصَ الَّذِي نَزَلَ بِالنَّبِيِّ ﷺ، وَعِنْدَهَا بَعْضٌ مِن دَقِيقٍ، وَعِنْدَهُ عَنَاقٌ، فَذَبَحَ وَأَعَدَّ، وَجَعَلَ اللَّحْمَ في البُرْمَةِ يَهْدِرُ بِاللَّحْمِ مَاؤُهُ على نَارِهِ فِي بُرْمَتِهِ، وَالمَرْأَةُ قَد سَجَّرَت التَّنُّورَ تَصْنَعُ خُبْزًا، وَقَالَت له: يَا جَابر، إِيَّاكَ أَنْ تَفْضَحَنِي بِرَسُولِ اللهِ ﷺ. مَاذَا تَعْنِي -رَضِيَ اللهُ عَنْهَا-؟

تُرِيدُ أَنَّ الطَّعَامَ قَلِيلٌ، إِنَّ اللَّحْمَ والخُبْزَ لَا يُغْنِيَانِ مِن الجُوعِ شَيْئًا، فَأَسِرّ مِن النبيِّ ﷺ بالدَّعْوَةِ، وإِيَّاكَ أَنْ تَجْعَلَ الدَّعْوةَ عَامَّة، فَإِنَّ الطَّعَامَ لَا يَكْفِي.

قَالَ: يَا رسولَ اللهِ، عندنا كذا وكذا، وإِنَّا لَنَدْعُوكَ إلى طَعَامِنَا.

قالَ النبيُّ ﷺ آمِرًا جَابِرًا –رَضِيَ اللهُ عنه-: اجْعَلُوا الأَمْرَ عَلَى حَالِهِ، اجْعَلُوا البُرْمَةَ عَلَى حَالِهَا وَكَذَا العَجِينُ حَتَّى آتِيَ ﷺ.

ثُمَّ قَالَ: «يَا أَهْلَ الخَنْدَقِ، إِنَّ أَخَاكُم جَابِرًا قَد صَنَعَ لَكُم طَعَامًا فَحَيَّهلًا».

فَدَعَا النَّاسَ كُلَّهُم، ثُمَّ جَاءَ النبيُّ ﷺ فَبَصَقَ فِي البُرْمَةِ والعَجِينِ، وَقَالَ النبيُّ ﷺ: «**ادْخُلُوا وَلَا تَضَاغَطُوا**». المَكَانُ ضَيِّقٌ وَلَا يَتَّسِعُ لَهُم جَمِيعًا –رَضِيَ اللهُ عَنْهُم-، فَادْخُلُوا وَلَا تَضَاغَطُوا، فَلْيَدْخُل مِنْكُم بِقَدْرِ مَا يَتَّسِعُ المَكَانُ لَهُم. مَن الَّذِي كانَ عَلَى الطَّعَامِ؟

رَسُولُ اللهِ ﷺ، كانَ يَكْسِرُ الخُبْزَ بِيَدِهِ الشَّرِيفَةِ وَيَجْعَلُ عَلَيْهِ اللَّحْمَ، وَيُخَمِّرُ البُرْمَةَ –صلى الله وسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ- وَيُقَدِّمُ لَهُم الطَّعَامَ حَتَّى أَشْبَعَهُم ذَلِكَ الطَّعَامُ جَمِيعًا، وَهِيَ بَرَكَةٌ مِن اللهِ رَبِّ العَالَمِينَ.

كانَ النبيُّ ﷺ سَيِّدَ المُتَوَاضِعِينَ، النبيُّ ﷺ مِن تَوَاضُعِهِ لِرَبِّهِ؛ لَمَّا كانَ فِي بِنَاءِ مَسْجِدِهِ، كانَ يَحْمِلُ اللَّبِنَ على عَاتِقِهِ ﷺ، وَمَا سُلَيْمَانُ بِأَكْرَمَ على اللهِ رَبِّ العَالَمِينَ مِن خَلِيلِهِ مُحَمَّد –صلى الله وسلم عَلَيْهِمَا وَعَلَى سَائِرِ الأَنْبِيَاءِ والمُرْسَلِينَ-، فَإِنَّ اللهَ –تَبَارَكَ وَتَعَالَى- سَخَّرَ الجِنَّ لسُليمَان يَبْنُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ، ولو أَنَّ النبيَّ ﷺ دَعَا رَبَّهُ أَنَّ يَكُونَ المَسْجِدُ مَبْنِيًّا بِقُدْرَةٍ، لَا بِأَسْبَابٍ؛ لآتَاهُ اللهُ مَا دَعَا وَمَا طَلَبَ، لَو أَنَّ النبيَّ ﷺ دَعَا رَبَّهُ أنْ يُسَخِّرَ الجِنَّ لَهُ مِن أَجْلِ بِنَاءِ مَسْجِدِهِ لكانَ، لَكِنَّهُ أَبَى إِلَّا أَنْ يُبْنَى المَسْجِدُ عَلَى سَوَاعِدِ الثُّلَّةِ الصَّالِحَةِ مِن القِلَّةِ المُؤمِنَةِ عَلَى ظَهْرِ الأَرْضِ، وَمَا عَلَى ظَهْرِهَا سُوَاهُم –رضوانُ اللهِ عَلَيْهِم-، وَقَائِدُهُم وَإِمَامُهُم رَسُولُ اللهِ –صلى الله وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ- يَحْمِلُ التُّرَابَ عَلَى كَتِفِهِ، رَسُولُ اللهِ ﷺ يَحْمِلُ التُّرَابَ فِي بِنَاءِ المَسْجِدِ عَلَى كَتِفِهِ وَيَحْمِلُ اللَّبِنَ عَلَى كَتِفِهِ، تَوَاضُعًا للهِ، وَمُشَارَكَةً فِي تَحْصِيلِ الأَجْرِ للهِ –صَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ-.

النَّبِيُّ ﷺ كانَ يُسَابِقُ عَائِشَةَ، فَيَسْبِقُهَا وَتَسْبِقُهُ.

نَبِيُّكُم ﷺ كَانَ فِي بَيْتِهِ يَخِيطُ ثَوْبَهُ، وَيَخْصِفُ نَعْلَهُ، وَيَقْضِي حَاجَةَ نَفْسِهِ ﷺ، كَانَ فِي بَيْتِهِ فِي حَاجَةِ أَهْلِهِ ﷺ(١).

«تَوَاضُعُ الصَّحَابَةِ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُم-»

إِنَّ اللهَ -تَبَارَكَ وَتَعَالَى- يَكْرَهُ سَفَاسِفَ الأُمُورِ، يُحِبُّ مَعَالِيَ الأَخْلَاقِ، فَعَلَى الإِنْسَانِ أَنْ يُقْبِلَ عَلَى نَفْسِهِ مُفَتِّشًا فِيهَا، أَيْنَ أَنَا؟ وَمَن أَنَا؟ وَإِلَى أَيْنَ أَسِيرُ؟

عَلَيْكَ أَنْ تَسْأَلَ نَفْسَكَ مَن أَنْتَ، مَن تَكُونُ، أَأَنْتَ عَبْدٌ للهِ -تَبَارَكَ وَتَعَالَى- كَمَا يَنْبَغِي أَنْ تَكُونَ؟!! أَو عَلَى الأَقَلِّ هَلْ أَنْتَ آخِذٌ مِن التَّعَالِيمِ عَلَى قَدْرِ الوُسْعِ وَالطَّاقَةِ أَمْ هُوَ التَّقْصِيرُ وَالتَّفْرِيطُ وَالاسْتِهَانَةُ؟!!

هذه الأمورُ كُلُّهَا مِمَّا كَانَ أَصْحَابُ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ ﷺ يَأْتُونَ بِهَا عَلَى الوَجْهِ العَمَلِيِّ، فَكَانَ عُمَرُ -رَضِيَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى عَنْهُ- يَخْلُو إِلَى نَفْسِهِ وَيُحَاسِبُهَا عَلَى مَا فَعَلَت وَعَلَى مَا قَالَت وَعَلَى مَا انْتَوَت، وَيُعَاقِبُ نَفْسَهُ يَضْرِبُ عَلَى فَخِذِهِ بِكَفِّهِ، وَكَانَ يَقُولُ: وَيْحَكَ يَا عُمَر، كُنْتَ فِي الجَاهِلِيَّةِ تُدْعَى عُمَيْرًا فَصِرْتَ عُمَر، وَكُنْتَ تَرْعَى لِلخَطَّابِ غَنَمَهُ فَصِرْتَ أَمِيرًا لِلمُؤمِنِينَ -يَعْنِي يَرْعَى أُمَّةَ الرَّسُولِ ﷺ-!! يُذَكِّرُ نَفْسَهُ، وَكَانَ -رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهُ- يَعْرِفُ قَدْرَ نَفْسِهِ بِالنِّسْبَةِ إِلَى مَطْلَبِ رَبِّهِ.

عِنْدَمَا حَمَلُوهُ عَلَى بِرْذَوْنَ، فَهَمْلَجَ به وَلَم يَسْتَقِرّ، فَكُلَّمَا أَرَادَ مِنْهُ أَنْ يَمْشِيَ مَشْيًا مُسْتَقِيمًا، ازْدَادَ فِي عُجْبِهِ وَتَبَخْتُرِهِ، فَنَزَلَ فَقَالَ: إِنَّمَا حَمَلْتُمُونِي عَلَى شَيْطَانٍ، فَأَتَوْهُ بِدَابَّةٍ سَلِسَةٍ تَكُونُ طَوْعَ قِيادِهِ -رَضِيَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى عَنْهُ-(٢).

---

(١) «من خطبة: تواضع النبي ﷺ في حجته - الجمعة ٢١ من ذي القعدة ١٤٣١هـ الموافق ٢٩-١٠-٢٠١٠م».

(٢) «من خطبة: كيف يكون الخشوع؟ الجمعة ١٤ من ذي الحجة ١٤٣٧هـ الموافق ١٦-٩-٢٠١٦ م».

«صورٌ مِن مُحَاسَبَةِ السَّلَفِ لأَنْفُسِهم وَتَوَاضُعِهِم»

قَالَ مُطَرِّفُ بنُ عَبْدِ اللهِ: «لَوْلَا مَا أَعْلَمُ مِن نَفْسِي لَقَلَيْتُ النَّاسَ».

فَفِي النَّاسِ شَرٌّ كَبِيرٌ -إِلَّا مَن رَحِمِ الخَبِيرُ البَصِيرُ-، فِي النَّاسِ شَرٌّ كَبِيرٌ، وَمَهْمَا قَلَّبْتَ النَّاسَ؛ خَرَجَ لَكَ مَن وَرَاءِ تَقْلِيبِهِم أُمُورٌ، فَلَوْلَا مَا أَعْلَمُ مِن نَفْسِي، وَأَنَّهَا أَسْوَءُ، وَقَد انْطَوَت عَلَى الشَّرِّ الكَبِيرِ، لَقَلَيْتُ النَّاسَ؛ لِأَنَّ الإِنْسَانَ إِذَا لَم يَعْلَم حَالَ نَفْسِه، وَخَبَرَ حَالَ غَيْرِهِ، فَوَجَدَ الشَّرَّ بَازِغًا، وَوَجَدَ آفَاتِ النُّفُوسِ حَالَّةً، فَإِنَّهُ يَمْقُتُ غَيْرَهُ، وَلَو عَلِمَ نَفْسَهُ، لَكَانَ لَهَا أَشَدَّ مَقْتًا.

قَالَ مُطَرِّفٌ فِي دُعَائِهِ بِعَرَفَةَ: «اللَّهُمَّ لَا تَرُدَّ النَّاسَ لِأَجْلِي».

فَيَرَى نَفْسَهُ بِالمَوْقِفِ فِي عَرَفَات أَسْوَءَ النَّاسِ، وَأَرْدَئَ النَّاسِ، وَشَرَّ النَّاسِ!! فَيَقُولُ: اللَّهُمَّ لا تَرُدّ النَّاسَ لِأَجْلِي، مِن بَابِ هَضْمِ النَّفْسِ، والإِزْرَاءِ عَلَيْهَا، وَالحَطِّ عَلَيْهَا؛ لِأَنَّ مَنْ ذَاقَ طَعْمَ نَفْسِهِ هَلَكَ.

فالنَّفْسُ كَمَاءِ البَحْرِ، لَا يَشْبَعُ وَارِدُهُ، مَهْمَا شَرِبَ مِنْهُ، فَمَا يَزَالُ يَعُبُّ مِن مَاءِ البَحْرِ حَتَّى تَنْقَدَّ مَعِدَتُهُ، وَلَا رِيَّ وَلَا ارْتِوَاءَ، فَاللَّهُمَّ لا تُذِقْنَا طَعْمَ أَنْفُسِنا يَا رَبَّ العَالَمِينَ.

قَالَ بَكْرُ بن عَبْدِ اللهِ المُزَنِيُّ: «لَمَّا نَظَرْتُ إِلَى أَهْلِ عَرَفَات، ظَنَنْتُ أَنَّهُم قَد غُفِرَ لَهُم، لَوْلَا أَنِّي كُنْتُ فِيهِم».

وقَالَ أَيُّوبُ السَّخْتِيَانِيُّ: «إِذَا ذُكِرَ الصَّالِحُونَ، كُنْتُ عَنْهُم بِمَعْزِلٍ».

وَلَمَّا احْتَضَرَ سُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ، دَخَلَ عَلَيْهِ أَبُو الأَشْهَب وَحَمَّادُ بنُ سَلَمَة، فَقَالَ له حَمَّاد: «يَا أَبَا عَبْدِ الله، أَلَيْسَ قَدْ أَمِنْتَ مِمَّا كُنْتَ تَخَافُهُ، وَتَقْدَمُ عَلَى مَن تَرْجُوهُ، وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ؟

فَقَالَ: يَا أَبَا سَلَمَةَ، أَتَطْمَعُ لِمِثْلِي أَنْ يَنْجَوَ مِنْ النَّارِ، قَالَ: إِي واللهِ، إِنِّي لأَرْجُو لَكَ ذَلِكَ». أَتَطْمَعُ لِمِثْلِي أَنْ أَنْجُوَ مِن النَّارِ!!

عن مُسْلِمٍ بن سَعِيدٍ الوَاسِطِيِّ، فِيمَا ذَكَرَ ابنُ كَثِير، في «البدايةِ» قال: «أَخْبَرَنِي حَمَّادُ بنُ جَعْفَر بن زَيْد، أنَّ أَبَاهُ أَخْبَرَهُ، قَالَ: خَرَجْنَا في غَزْوَةٍ إلى (كابول)، وفي الجَيْشِ صِلَةُ بنُ أَشْيَم، فَنَزَلَ النَّاسُ عِنْدَ العَتَمَةِ، فَصَلَّوْا، ثُمَّ اضطجَعَ.

فَقُلْتُ: لأرْمُقَنَّ عَمَلَهُ، فَالْتَمَسَ غَفْلَةَ النَّاسِ، حَتَّى إِذَا قُلْتُ: هَدَأَتِ العيُونُ، وَثَبَ، فَدَخَلَ غَيْضَةً قَرِيبًا مِنَّا، فَدَخَلْتُ عَلَى إِثْرِهِ، فَتَوَضَّأَ ثُمَّ قَامَ يُصَلِّي، وَجَاءَ أَسَدٌ حَتَّى دَنَا مِنْهُ، فَصَعِدْتُ فِي شَجَرَةٍ، فَتُرَاهُ الْتَفَتَ أو عَدَّهُ جَرْوًا، فَلَمَّا سَجَدَ، قُلْتُ: الآن يَفْتَرِسُهُ الأَسَدُ، فَجَلَسَ ثُمَّ سَلَّمَ ثُمَّ قَالَ: أَيُّهَا السَّبُع، اطْلُب الرِّزْقَ فِي مَكَانٍ آخر، فَوَلَّى وَإِنَّ لَهُ لَزَئِيرًا!! أَقُولُ: تَصَدَّعُ الجِبَالُ مِنْهُ.

قَالَ: فَمَا زَالَ كَذَلِكَ يُصَلِّي حَتَّى كانَ عِنْدَ الصُّبْحِ، جَلَسَ، فَحَمِدَ اللهَ تَعَالَى بِمَحَامِدَ لَم أَسْمَع بِمِثْلِهَا، ثُمَّ قَالَ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ أَنْ تُجِيرَنِي مِن النَّارِ، وَمِثْلِي يَصْغُرُ أَنْ يَجْتَرِئَ أَنْ يَسْأَلَكَ الجَنَّةَ!

قَالَ: ثُمَّ رَجَعَ، وَأَصْبَحَ كَأَنَّهُ بَاتَ عَلَى الحَشَايَا، وَأَصْبَحْتُ وَبِي مِنَ الفَتْرَةِ شَيْءٌ، اللهُ به عَالِمٌ».

وَمَا بَاتَ قَائِمًا، وَلَا مِن السَّبُعِ مُشْفِقًا، وَلَا لَهُ آمِرًا وَنَاهِيًا، وَأَمَّا صِلَةُ فَإِنَّهُ لَمَّا أَصْبَحَ كَأَنَّمَا مَا بَاتَ عَلَى الحَشَايَا، وَهُوَ يُعَامِلُ رَبَّهُ، وَيَفِرُّ بِقَلْبِهِ مِن مَوَاطِنِ الرِّيَاءِ والسُّمْعَةِ، فَيَنْتَظِرُ حَتَّى تَهْدَأَ العيُونُ وَتَلْتَذَّ بِالغُمْضِ أَجْفَانُهَا، ثُمَّ يَقُومُ يَتَوَضَّأُ خَالِيًا بِرَبِّهِ، وَمَعَ ذَلِكَ كُلِّهِ وَمَا مَنَّ اللهُ بِهِ عَلَيْهِ مِن حَالٍ، فَإِنَّهُ يَقُولُ لَمَّا أَصْبَحَ: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ أَنْ تُجِيرَنِي مِن النَّارِ، وَمِثْلِي يَصْغُرُ أَنْ يَجْتَرِئَ أَنْ يَسْأَلَكَ الجَنَّةَ!»

وَأَنْتَ خَبِيرٌ أَنَّ اللهَ، إِنْ أَعَاذَهُ مِنَ النَّارِ وَأَجَارَه مِنْهَا؛ أَدْخَلَهُ الجَنَّةَ وَنِعْمَ القَرَارِ، وِلَكِنَّهُ يَعْرِفُ نَفْسَهُ وَقَدْرَ رَبِّهِ، فَيَتَأَدَّبُ فِي الخِطَابِ، فَهَذَا أَدَبٌ فِي الخِطَابِ بِغَيْرِ زِيَادَةٍ وَلَا نُقْصَانٍ.

قَالَ يونس بنُ عُبَيْد: «إِنِّي لأَجِدُ مِئَةَ خَصْلَةٍ مِن خِصَالِ الخَيْرِ -أَي أَعْرِفُهَا-، مَا أَعْلَمُ عَنْهَا في نَفْسِي مِنْهَا وَاحِدَةً».

وَقَالَ مُحَمَّدُ بنُ وَاسِع: «لَو كانَ للذُّنُوبِ رِيحٌ، مَا قَدَرَ أَحَدٌ أَنْ يَجْلِسَ إِلَيَّ».

إي والله، لو كانَ للذُّنُوبِ رِيح، مَا قَدَرَ أَحَدٌ، أَنْ يَجْلِسَ إِلَيَّ، وَلَكِنَّهُ السَّتْر، اللَّهُمَّ أَدِم عَلَيْنَا سَتْرَكَ وَعَافِيَتَكَ.

قَالَ أَبُو حَفْص: «مَن لم يَتَّهِم نَفْسَهُ عَلَى دَوَامِ الأَوْقَاتِ، وَلَم يُخَالِفْهَا فِي جَمِيعِ الأَحْوَالِ، وَلَم يَجُرَّهَا إِلَى مَكْرُوهِهَا في سَائِرِ أَوْقَاتِهَا، كَانَ مَغْرُورًا، وَمَن نَظَرَ إِلَيْهَا بِاسْتِحْسَانِ شَيْءٍ مِنْهَا فَقَدْ أَهْلَكَهَا».

فَالنَّفْسُ دَاعِيَةٌ إِلَى المَهَالِكِ، مُعِينَةٌ لِلأَعْدَاءِ، طَامِحَةٌ إلى كُلِّ قَبِيحٍ، مُتَّبِعَةٌ لِكُلِّ سُوءٍ، فَهِيَ تَجْرِي بِطَبْعِهَا في مَيْدَانِ المُخَالَفَةِ.

وَأَعْرَفُ النَّاسِ بِهَا، أَشَدُّهُم إِزْرَاءً عَلَيْهَا وَمَقْتًا لَهَا، وَمَقْتُ النَّفْسِ في ذَاتِ الرَّبِّ -جلَّ وَعَلَا- مِن صِفَاتِ الصِّدِيقِينَ، وَبِمَقْتِ النَّفْسِ في ذَاتِ الرَّبِّ، يَدْنُو العَبْدُ مِن اللهِ تَعَالَى في لَحْظَةٍ وَاحِدَةٍ أَضْعَافَ أَضْعَافِ مَا يَدْنُو بِالعَمَلِ(١).

---

(١) «من خطبة : «تَيَقَّظ وانْتَبِه»- الجمعة ١٩ من ذي القعدة ١٤٣٣هـ/ ٢٠١٢/١٠/٥م».

«نَعِيمُ الْجَنَّةِ لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ اسْتِكْبَارًا عَنِ الإِيمَانِ وَلَا اسْتِطَالَةً عَلَى النَّاسِ»

قَالَ تَعَالَى: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [القصص: ٨٣].

تِلْكَ الجَنَّةُ البَعِيدَةُ المَكَانِ وَالمَكَانَةِ، المُرْتَفِعَةُ المَنْزِلَةِ، نَجْعَلُ نَعِيمَهَا مُسْتَقْبَلًا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ اسْتِكْبَارًا عَنِ الإِيمَانِ وَلَا اسْتِطَالَةً عَلَى النَّاسِ، بِتَحْقِيقِ حُظُوظِ أَنْفُسِهِم مِنَ الدُّنْيَا، وَلَا الَّذِينَ يَدْعُونَ إِلَى عِبَادَةِ غَيْرِ اللهِ، وَيَنْشُرُونَ الفَاحِشَةَ، وَيَطْرُحُونَ الشُّبُهَات، وَيُفْسِدُونَ الأَخْلَاقَ وَالقِيَمَ وَالآدَاب، وَالعَاقِبَةُ الحَسَنَةُ المَحْمُودَةُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ لِمَن اتَّقَى عِقَابَ اللهِ بِأَدَاءِ أَوَامِرِهِ وَاجْتِنَابِ نَوَاهِيهِ(١).

« احْذَرُوا مِنَ التَّوَاضُعِ الكَاذِبُ»

مَن تَوَاضَعَ للهِ –جَلَّ وَعَلَا- رَفَعَهُ اللهُ، والعَجِيبُ أَنَّ كَثِيرًا مِن النَّاسِ يَدَّعِي أَنَّهُ يَتَوَاضَعُ، وَلَا يَكُونُ مُتَوَاضِعًا فِي حَقِيقَةِ الأَمْرِ لِأَمْرَيْنِ:

***الأَوَّلُ:** أَنَّهُ لَيْسَ عِنْدَهُ شَيْءٌ يَتَوَاضَعُ بِسَبَبِهِ؛ لِأَنَّ الَّذِي يَتَوَاضَعُ هو مَن يَكُونُ قَد أُوتِيَ قَدْرًا وَقِيمَةً، وَآتَاهُ اللهُ رَبُّ العَالَمِينَ مَا يَسْمُو بِهِ، فَهَذَا إِذَا مَا خَفَضَ جَنَاحَ الذُّلِّ مِن الرَّحْمَةِ بِالمُؤمِنِينَ كَانَ مُتَوَاضِعًا.

وَلَكِنَّ الذِي لَم يُؤت مِن ذَلِكَ شَيْئًا، لِأَيِّ شَيْءٍ يَتَوَاضَعُ؟!! هُو لَم يُؤت شَيْئًا أَصْلًا يَرْتَفِعُ به عَلَى غَيْرِهِ حَتَّى يَتَوَاضَعَ غَيْرَ نَاظِرٍ إِلَيْهِ.

***شَيْءٌ آخرُ:** أَنَّ هَذَا التَّوَاضُعَ إِنَّمَا يَكُونُ جَلْبًا للمَدْحِ الكَاذِبِ، فَهُوَ تَوَاضُعٌ كَاذِبٌ جَلْبًا للمَدِيحِ الأَكْذَبِ، فَكُلَّمَا زَادَ تَوَاضُعًا فِي ظَاهِرِ الأَمْرِ أَثْنَى عَلَيْهِ النَّاسُ.

---

(١) «مِن سِلْسِلَةِ: القراءة والتعليق على مختصر تفسير القرآن [تفسير سورة القصص: ٨٣]».

إِنَّ مَسَارِبَ النَّفْسِ خَفِيَّةٌ جِدًّا، وَلَا يَسْتَطِيعُ المَرْءُ أَنْ يَضَعَ يَدَهُ عَلَى مَكَامِنِ بَوَاعِثِ أَفْعَالِهَا وَنِيَّاتِهَا، فَعَلَى الإِنْسَانِ أَنْ يَخْشَى هَذَا، وَأَنْ يَعُودَ عَبْدًا كَمَا خَلَقَهُ اللهُ -تَبَارَكَ وَتَعَالَى-، وَأَنْ يُرَاجِعَ نَفْسَهُ، وَأَنْ يَجْتَهِدَ فِي رَدِّ الحُقُوقِ إِلَى أَصْحَابِهَا لأَنَّ المَوْتَ يَأْتِي بَغْتَةً.

نَسْأَلُ اللهَ أَنْ يُحْسِنَ خِتَامَنَا أَجْمَعِينَ.

وَصَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ عَلَى نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ ﷺ(١).

---

(١) «من خطبة: كيف يكون الخشوع؟ الجمعة ١٤ من ذي الحجة ١٤٣٧هـ الموافق ١٦-٩-٢٠١٦ م».

«المَوْعِظَةُ التَّاسِعَةُ»

«المُرَاقَبَةُ»

إنَّ الْحَمْدَ لِلَّهِ نَحْمَدُهُ، وَنَسْتَعِينُهُ وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِاللَّـه مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللَّـهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَا هَادِيَ لَهُ.

وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّـهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ.

وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ ﷺ.

أَمَّا بَعْدُ:

«مَقَامُ المُرَاقَبَةِ وَالإِحْسَانِ»

فَعَنْ عُمَرَ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- قَالَ: «بَيْنَمَا نَحْنُ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ذَاتَ يَوْمٍ إِذْ طَلَعَ عَلَيْنَا رَجُلٌ شَدِيدُ بَيَاضِ الثِّيَابِ شَدِيدُ سَوَادِ الشَّعْرِ، لَا يُرَى عَلَيْهِ أَثَرُ السَّفَرِ وَلَا يَعْرِفُهُ مِنَّا أَحَدٌ، حَتَّى جَلَسَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَأَسْنَدَ رُكْبَتَيْهِ إِلَى رُكْبَتَيْهِ وَوَضَعَ كَفَيِّهِ عَلَى فَخِذَيْهِ...

وَسَأَلَ جِبْرِيلُ –عَلَيْهِ السَّلَامُ- النَّبِيَّ ﷺ عَنِ الإِسْلَامِ وَالإِيمَانِ وَالإِحْسَانِ.

قَالَ جِبْرِيلُ: فَأَخْبَرَنِي عَنِ الْإِحْسَانِ، قَالَ: «**أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ**».

الإِحْسَانُ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فِي تَفْسِيرِهِ: «**أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ**».

يُشِيرُ إِلَى أَنَّ العَبْدَ يَعْبُدُ اللهَ تَعَالَى عَلَى هَذِهِ الصِّفَةِ، وَهُوَ اسْتِحْضَارُ قُرْبِهِ، وَأَنَّهُ بَيْنَ يَدَيْهِ كَأَنَّهُ يَرَاهُ، وَذَلِكَ يُوجِبُ الخَشْيَةَ وَالخَوْفَ، وَالهَيْبَةَ وَالتَّعْظِيمَ.

كَمَا جَاءَ في روايَةِ أَبِي هُرَيْرَةَ –رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- وَهِيَ عِنْدَ مُسْلِمٍ: «**أَنْ تَخْشَى اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ**»، وَيُوجِبُ أَيْضًا النُّصْحَ فِي العِبَادَةِ، وَيُوجِبُ بَذْلَ الجُهْدِ فِي تَحْسِينِهَا وَإِتْمَامِهَا وَإِكْمَالِهَا.

وَقَوْلُهُ ﷺ: «**فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ**»: قِيلَ إِنَّهُ تَعْلِيلٌ لِلْأَوَّلِ، فَإِنَّ العَبْدَ إِذَا أُمِرَ بِمُرَاقَبَةِ اللهِ فِي العِبَادَةِ، وَاسْتِحْضَارِ قُرْبِهِ مِن عَبْدِهِ حَتَّى كَأَنَّ العَبْدَ يَرَاهُ؛ فَإِنَّهُ قَدْ يَشُقُّ ذَلِكَ عَلَيْهِ، فَيَسْتَعِينُ عَلَى ذَلِكَ بِإِيمَانِهِ بِأَنَّ اللهَ يَرَاهُ، وَيَطَّلِعُ عَلَى سِرِّهِ وَعَلَانِيَتِهِ وَبَاطِنِهِ وَظَاهِرِهِ، وَلَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ مِنْ أَمْرِهِ، فَإِذَا حَقَّقَ هَذَا المَقَامَ؛ سَهُلَ عَلَيْهِ الانْتِقَالُ إِلَى المَقَامِ الثَّانِي وَهُوَ دَوَامُ التَّحْدِيقِ بِالبَصِيرَةِ إِلَى قُرْبِ اللهِ مِن عَبْدِهِ وَمَعِيَّتِهِ حَتَّى كَأَنَّهُ يَرَاهُ.

وَقِيلَ: بَلْ هُوَ إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّ مَنْ شَقَّ عَلَيْهِ أَنْ يَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّهُ يَرَاهُ، فَلْيَعْبُدِ اللهَ عَلَى أَنَّ اللهَ يَرَاهُ وَيَطَّلِعَ عَلَيْهِ، فَلْيَسْتَحِ مِنْ نَظَرِهِ إِلَيْهِ، كَمَا قَالَ بَعْضُ أَهْلِ المَعْرِفَةِ وَاليَقِينِ: «اتَّقِ اللهَ أَنْ يَكُونَ أَهْوَنَ النَّاظِرِينَ إِلَيْكَ»، وَهِيَ كَلِمَةٌ صَادِعَةٌ، تَصْدَعُ القَلْبَ وَتُفَتِّتُهُ.

اتَّقِ اللهَ أَنْ يَكُونَ أَهْوَنَ النَّاظِرِينَ إِلَيْكَ: يَعْنِي يَتَحَرَّزُ المَرْءُ مِنَ المَعَاصِي بِنَظَرِ النَّاظِرِينَ إِلَيْهِ، وَإِذَا خَلَا فَعَلَ مَا حَرَّمَ اللهُ عَلَيْهِ، فَيَجْعَلُ اللهَ أَهْوَنَ النَّاظِرِينَ إِلَيْهِ؛ لِأَنَّهُ لَوْ نَزَّلَ نَظَرَ اللهِ إِلَيْهِ مَنْزِلَةَ نَظَرِ المَخْلُوقِينَ إِلَيْهِ؛ لَتَحَرَّزَ مِن المَعْصِيَةِ فِي الخَلْوَةِ كَمَا تَحَرَّزَ مِن المَعْصِيَةِ فِي الجَلْوَةِ، وَلَكِنْ يَتَحَرَّزُ مِن المَعْصِيَةِ فِي الجَلْوَةِ وَيَجْتَرِئُ عَلَيْهَا فِي الخَلْوَةِ، فَهَذَا مَعْنَاهُ أَنَّهُ جَعَلَ اللهَ أَهْوَنَ النَّاظِرِينَ إِلَيْهِ، وَلَمْ يُبَالِ بِنَظَرِ اللهِ إِلَيْهِ.

وَقَالَ بَعْضُهُم: «خَفِ اللهَ عَلَى قَدْرِ قُدْرَتِهِ عَلَيْكَ، وَاسْتَحِ مِن اللهِ عَلَى قَدْرِ قُرْبِهِ مِنْكَ».

وَهَذَا هُوَ حَقِيقَةُ مَقَامِ الإِحْسَانِ المُشَارِ إِلَيْهِ فِي حَدِيثِ جِبْرِيلَ –عَلَيْهِ السَّلَامُ-.

وَيَتَفَاوتُ أَهْلُ هَذَا المَقَامِ فِيهِ –يَعْنِي مَقَامَ الإِحْسَانِ- بِحَسَبِ قُوَّةِ نُفُوذِ البَصَائِرِ(١).

---

(١) «شَرْحُ الأَرْبَعِينَ النَّوَوِيَّةِ - الحَدِيثُ الثَّانِي: الإِسْلَامُ وَالإِيمَانُ وَالإِحْسَانُ».

«وَيْحَك، أَلَا تَعْلَم بأنَّ اللهَ يَرَى؟!!»

النبيُّ ﷺ يُخْبِرُ: «**أنَّ أقوامًا يَأْتُونَ يومَ القيامةِ بأعمالٍ بيضاءَ عظيمة كأمثالِ جِبَالِ تِهَامَةَ -مِنْ صلاةٍ وزكاةٍ وصيامٍ وصدقةٍ وحجٍّ وبرٍّ ووَصْلٍ وغيرِ ذلك مِنْ أمورِ الخير-، فَيَنْظُرُ اللهُ إليها، فَيَجْعَلُها هَبَاءً منثورًا**».

فقال الأصحابُ -رضوانُ الله عليهم- وَجِلِين: مَنْ يكونُ هٰؤلاء؟

«**أمَا إنهم لمِنْكُم -أمَا إنهم لمِنْكُم-، ويقولون بمِثْلِ قولكم، ويعملون بمِثْلِ أعمالكم؛ ولكنهم قومٌ إذا خَلَوْا بِمَحَارِمِ اللهِ انتهكوها**»، قومٌ إذا خَلَوْا بِمَحَارِمِ اللهِ انتهكوها!!

وَيْحَك، أليس عليك مِنْ شهيد؟!!

أليس عليك مِنْ رقيب؟!!

أليس عليك مِنْ سميعٍ يسمعُ هَمْسَ الضميرِ في الضميرِ للضميرِ بالإتيانِ بما يريد؟!!
وَيْحَك، أَلَا تَعْلَم بأنَّ اللهَ يرى؟!!

وَيْحَك، أَلَا تَعْلَم أنَّ اللهَ -تبارك وتعالى- هو السميع البصير!! يَعْلَمُ خائِنة الأعْيُن وما تخفي الصدور؟!!

اللهُ ربُّ العالمين يريدُ من الأعمالِ حقَائِقَها، وحَقَائِقُهَا لا تقومُ إلَّا على الإخلاصِ فيها(١).

---

(١) «الإِخْلَاصُ رُوحُ الإِسْلَامِ - الجمعة ٢٩ من رمضان ١٤٢٥هـ الموافق ١٢-١١-٢٠٠٤م».

«مقاماتُ العَابِدينَ الثَّلاثَة: الخوفُ والرَّجَاءُ والمَحَبَّةُ»

الخوفُ أَحَدُ أركانِ الإيمانِ والإحسانِ.

والثَّلَاثَةُ التي عَلَيْهَا مَدَارُ مَقَامَاتِ السَّالِكِينَ جَمِيعِها؛ هي: الخوفُ والرجاءُ والمَحَبَّةُ، وَقَدْ ذَكَرَهَا -سبحانهُ وَتَعَالَى- في قولِهِ: ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا * أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ﴾ [الإسراء: ٥٦،٥٧].

فَجَمَعَ بَيْنَ المَقَامَاتِ الثلاثة، فَإِنَّ ابتغاءَ الوسيلةِ إليه هو التقرُّبُ إليه بِحُبِّهِ وفِعْلِ مَا يُحِبُّهُ، ثم يقول: ﴿وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ﴾، فَذَكَرَ الحُبَّ والخَوْفَ والرَّجَاءَ.

والمعنى: إنَّ الذينَ تَدْعُونَهُم مِن دونِ اللهِ مِن المَلائكةِ والأنبياءِ والصَّالحِينَ يَتَقَرَّبُونَ إلى رَبِّهِم ويخافونَهُ ويرجونَهُ، فَهُم عَبِيدُهُ كَمَا أَنَّكُم عَبِيدُهُ، فَلِمَاذَا تَعْبُدُونَهُم مِن دُونِهِ وَأَنْتُم وَهُم عَبِيدٌ له؟!

وَقَد أَمَرَ سبحانهُ بالخوفِ منه في قولِهِ –جل وعلا-: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٧٥].

فَالْخَوْفُ مِنَ الْعِبَادَاتِ الْجَلِيلَةِ، وَالْخَوْفُ وَالذُّعْرُ هُوَ انْفِعَالٌ يَحْصُلُ بِتَوَقُّعِ مَا فِيهِ هَلَاكٌ أَوْ ضَرَرٌ أَوْ أَذًى.

«ثَنَاءُ اللهِ عَلَى الخَائِفِينَ مِنْهُ»

وَقَد أَثْنَى سبحانهُ على أَقْرَبِ عِبَادِهِ إليه بِالخَوْفِ مِنْهُ؛ فَقَالَ عن أنبيائِهِ بعد أنْ أَثْنَى عَلَيْهِم وَمَدَحَهُم: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا﴾ [الأنبياء: ٩٠].

فالرَّغَبُ: الرَّجَاءُ والرَّغْبَةُ، **والرَّهَبُ**: الخَوْفُ والخَشْيَةُ.

وقالَ عن ملائكتِهِ الذين قد أَمَّنَهُم مِن عَذَابِهِ: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [النحل: ٥٠].

«أَعْرَفُ الخَلْقِ بِاللهِ أَشَدُّهُم لَهُ خَشْيَةً»

وفي «الصحيحين» عن النبي ﷺ أنه قال: «**إِنِّي أَعْلَمُكُم بِاللهِ وَأَشَدُّكُم لَهُ خَشْيَةً**»، وفي لَفْظٍ آخر في روايةٍ لِمُسْلِمٍ: «**إِنِّي أَخْوَفُكُم للهِ وَأَعْلَمُكُم بِمَا أَتَّقِي**».

وكان ﷺ يُصَلِّي ولِصَدْرِهِ أَزِيزٌ كأزيزِ المِرْجَلِ مِن البُكَاءِ، وَقَد قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر: ٢٨]، فَكُلَّمَا كان العبدُ باللهِ أعلمَ كان له أَخْوَفَ، قال ابنُ مَسْعُودٍ -رضي اللهُ عنه-: «وَكَفَى بِخَشْيَةِ اللهِ عِلْمًا».

وَنُقْصَانُ الخوفِ مِنَ اللهِ إِنَّمَا هو لِنُقْصَانِ معرفةِ العبدِ به، فَأَعْرَفُ النَّاسِ بِاللهِ أَخْشَاهُم له، ومَنْ عَرَفَ اللهَ اشْتَدَّ حياؤهُ منه وَخَوْفُهُ له وَحُبُّهُ له، وَكُلَّمَا ازدادَ معرفةً ازدادَ حَيَاءً وَخَوْفًا وَحُبًّا، فالخوفُ مِن أَجَلِّ مَنَازِلِ الطريقِ، وَخَوْفُ الخاصة أعظمُ مِن خَوْفِ العَامَّةِ، وَهُم إليه أَحْوَجُ؛ وَهُم بهم أَلْيَقُ؛ وَهُم له أَلْزَم، فَإِنَّ العبدَ إِمَّا أَنْ يكونَ مَسْتَقِيمًا أو مَائِلًا عن الاستقامة، فإِنْ كان مَائِلًا عن الاستقامةِ فَخَوْفُهُ مِن العقوبةِ على مَيْلِهِ، ولا يَصِحُّ الإيمانُ إِلَّا بهذا الخَوْفِ.

والخَوْفُ يَنْشَأُ مِن ثلاثةِ أمورٍ:

***أحدُهَا**: مَعرِفَتُهُ بِالجِنَايَةِ وَقُبْحِهَا.

***والثَّانِي**: تَصْدِيقُ الوعيدِ وَأَنَّ اللهَ رَتَّبَ على المعصيةِ عقوبتَهَا.

***والثَّالِثُ:** أنه لا يَعْلَمُ لَعَلَّهُ يُمْنَعُ مِن التَّوْبَةِ وَيُحَالُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إذا ارتكبَ الذَّنْبَ.

مَن استقرَّ في قلبِهِ ذِكْرُ الدارِ الآخرة وجزائها وذِكْرُ المعصيةِ والتَّوعد عليها وعدم الوثوق بإتيانِهِ بالتوبةِ النَّصُوح؛ هَاجَ في قلبِهِ مِن الخَوْفِ ما لا يَمْلكُهُ ولا يُفَارِقُهُ حتى يَنْجُو، وأَمَّا إنْ كانَ مُسْتَقِيمًا مع اللهِ؛ فَخَوْفُهُ يكونُ مع جريانِ الأنْفَاسِ لِعِلْمِهِ بِأَنَّ اللهَ مُقَلِّبُ القلوبِ، وَمَا مِن قَلْبٍ إلَّا وهو بين إصبعيْن مِن أصابع الرحمن –عَزَّ وَجَلَّ- فَإِنْ شَاءَ أَنْ يُقِيمَهُ أَقَامَهُ؛ وإنْ شَاءَ أَنْ يُزِيغَهُ أَزَاغَهُ كَمَا ثَبَتَ عن النبيِّ ﷺ: «**كَانت أَكْثَرُ يَمِينِهِ لَا وَمُقَلِّب القُلُوبِ لَا وَمُقَلِّب القُلُوبِ**».

«الخَوْفُ فَرْضٌ عَلَى كُلِّ أَحَدٍ»

والخَوْفُ فَرْضٌ على كُلِّ أَحَدٍ، قالَ اللهُ –جَلَّ وَعَلَا-: ﴿إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾[آل عمران: ١٧٥]، يَعْنِي يُخَوِّفُكُمْ أَوْلِيَاءَهُ، يُخَوِّفُكُمْ بِأَوْلِيَائِهِ، يُخَوِّفُكُمْ مِنْ أَوْلِيَائِهِ، وَيُعَظِّمُهُمْ فِي صُدُورِكُمْ، وَيُكَبِّرُهُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ.

ثُمَّ ذَكَرَ سُبْحَانَهُ أَنَّ الْخَوْفَ شَرْطٌ لِصِحّةِ الْإِيمَانِ ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾؛ فَأَتَى بِهَذَا الشَّرْطِ؛ فَدَلّ عَلَى أَنّ نَفْيَ هَذَا الْخَوْفِ شَرْطٌ لِصِحَّةِ الْإِيمَانِ ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾، **وَقَالَ تَعَالَى:** ﴿فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ﴾ [النحل: ٥١].

وَقَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿فَلا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ﴾ [المائدة: ٤٤](١).

---

(١) «باختصارٍ من خطبة: مَقَامَات الخَائِفِينَ والصَّائِمِينَ - خطبة الجمعة ٥ من رمضان ١٤٣٧هـ الموافق ١٠/٦/٢٠١٦م».

«الخَوْفُ المَحْمُودُ الصَّادِقُ وَالخَوْفُ المَذْمُومُ»

الْخَوْفُ مِنَ اللهِ تَعَالَى يَكُونُ مَحْمُودًا، وَيَكُونُ غَيْرَ مَحْمُودٍ.

مَتَى يَكُونُ الْخَوْفُ مِنَ اللهِ مَحْمُودًا؟ وَمَتَى يَكُونُ الْخَوْفُ مِنَ اللهِ غَيْرَ مَحْمُودٍ؟

*الخوف الْمَحْمُودُ: مَا كَانَتْ غَايَتُهُ أَنْ يَحُولَ بَيْنَكَ وَبَيْنَ مَعْصِيَةِ اللهِ، الْخَوْفُ مِنَ اللهِ الَّذِي يَحُولُ بَيْنَكَ وَبَيْنَ مَعْصِيَةِ اللهِ بِحَيْثُ يَحْمِلُكَ عَلَى فِعْلِ الْوَاجِبَاتِ وَتَرْكِ الْمُحَرَّمَاتِ؛ فَهَذَا خَوْفٌ مِنَ اللهِ مَحْمُودٌ؛ فَإِذَا حَصَلَتْ هَذِهِ الْغَايَةُ سَكَنَ الْقَلْبُ وَاطْمَأَنَّ، وَغَلَبَ عَلَيْهِ الْفَرَحُ بِنِعْمَةِ اللهِ، وَرَجَاءٌ لِثَوَابِهِ ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس: ٥٨]، فَهَذَا هُوَ الْخَوْفُ الْمَحْمُودُ مِنَ اللهِ -تَبَارَكَ وَتَعَالَى-.

***وَأَمَّا الْخَوْفُ غَيْرُ الْمَحْمُودِ:** فَهُوَ مَا يَحْمِلُ الْعَبْدُ عَلَى الْيَأْسِ مِنْ رَوْحِ اللهِ وَالْقُنُوطِ مِنْ رَحْمَةِ اللهِ، وَحِينَئِذٍ يَتَحَسَّرُ الْعَبْدُ وَيَنْكَمِشُ، وَيَتَمَادَى فِي الْمَعْصِيَةِ بِقُوَّةِ يَأْسِهِ ﴿إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ [يوسف: ٨٧]؛ فَالْخَوْفُ الَّذِي يُؤَدِّي إِلَى الْيَأْسِ لَيْسَ مَحْمُودًا.

الْخَوْفُ الْمَحْمُودُ مِنَ اللهِ -تَبَارَكَ وَتَعَالَى- هُوَ الَّذِي يُؤَدِّي إِلَى فِعْلِ الْوَاجِبَاتِ، وَاجْتِنَابِ الْمُحَرَّمَاتِ، وَإِذَا فَعَلَ الْإِنْسَانُ ذَلِكَ اطْمَأَنَّ قَلْبُهُ، وَسَكَنَتْ رُوحُهُ، وَزَالَ خَوْفُهُ.

وَأَمَّا الْخَوْفُ الَّذِي يُؤَدِّي إِلَى الْيَأْسِ، فَلَيْسَ مَحْمُودًا(١).

---

(١) «باختصار من تعليق الشيخ على «شرح الأصول الثلاثة» المحاضرة الخامسة».

«خَوْفُ الصَّالِحِينَ»

﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَة﴾

مَدَحَ اللهُ أَهْلَ الخَوْفِ في كتابِهِ وَأَثْنَى عَلَيْهِم فقَالَ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ﴾ إلى قَوْلِهِ: ﴿أُولَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٧-٦١].

في «المُسْنَدِ» والترمذي عن عائشة -رضي الله عنها- قالت: قلت يا رسول الله؛ قَوْلُ اللهِ -جَلَّ وَعَلَا-: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَة﴾ [المؤمنون: ٦٠]، أهو الذي يَزْنِي وَيَشْرَبُ الخَمْرَ وَيَسْرِقُ؟

قَالَ: «**لَا يَا ابْنَةَ الصِّدِّيق، وَلَكِنَّهُ الرَّجُلُ يَصُومُ وَيُصَلِّي وَيَتَصَدَّقُ وَيَخَافُ أَنْ لا يُقْبَلَ مِنْهُ**».

أَخْرَجَهُ الترمذيُّ وابنُ مَاجَه، وهو حديثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ.

قَالَ رَسُولُ للهِ ﷺ: «**وَاللهِ مَا أَدْرِي، وَأَنَا رَسُولُ الله، مَاذا يُفْعَلُ بِي**».

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ -رضي الله عنهما- أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ تَلَا قَوْلَهُ تعالى فِي إِبْرَاهِيمَ: ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي﴾ [إبراهيم: ٣٦].

وَقَالَ عِيسَى -عَلَيْهِ السَّلَام-: ﴿إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [المائدة: ١١٨].

فَرَفَعَ يَدَيْهِ: «**اللَّهُمَّ أُمَّتِي أُمَّتِي وَبَكَى**».

فَقَالَ اللَّهُ -جَلَّ وعلا-: «يَا جِبْرِيلُ، اذْهَبْ إِلَى مُحَمَّدٍ -وَرَبُّكَ أَعْلَمُ- فَسَلْهُ مَا يُبْكِيكَ».

فَأَتَاهُ جِبْرِيلُ -عَلَيْهِ السَّلَام- فَسَأَلَهُ، فَأَخْبَرَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِمَا قَالَ وَهُوَ أَعْلَمُ.

فَقَالَ اللَّهُ: «يَا جِبْرِيلُ اذْهَبْ إِلَى مُحَمَّدٍ فَقُلْ: إِنَّا سَنُرْضِيكَ فِي أُمَّتِكَ وَلَا نَسُوءُكَ». رَوَاهُ مُسْلِمٌ.

وَكَانَ ﷺ يُصَلِّي وَلِخَوْفِهِ فِي جَوْفِهِ أَزِيزٌ كَأَزِيزِ المِرْجَلِ مِن البُكَاءِ.

وَرُوِّينَا عن أبي بَكر الصِّديق -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- أَنَّهُ كانَ يُمْسِكُ لِسَانَهُ وَيَقُولُ: «هَذَا الذي أَوْرَدَنِي المَوَارِدَ». وَقَالَ: «يَا لَيْتَنِي كُنْتُ شَجَرَةً تُعْضَدُ ثُمَّ تُؤكَلُ».

وكذلكَ قَالَ طَلْحَة وأبو الدَّرْدَاء وأبو ذَر -رَضِيَ اللهُ عَنْهُم-.

وكان عُمَرُ بنُ الخَطَّاب -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- يَسْمَعُ آيةً؛ فَيَمْرَضُ؛ فَيُعَادُ أَيَّامًا، وَأَخَذَ يَوْمًا تِبْنَةً مِن الأَرضِ فَقَالَ: «يَا لَيْتَنِي كُنْتُ هذه التِّبْنَةَ، يَا لَيْتَنِي لَم أَكُ شَيْئًا مَذْكُورًا، يَا لَيْتَ أُمِّي لَم تَلِدْنِي». وكانَ فِي وَجْهِهِ خَطَّان أَسْوَدَانِ مِن البُكَاءِ.

وقالَ عُثْمَانُ -رَضِيَ اللهُ عنهُ-: «وَدِدْتُ أَنِّي إِذَا مِتُّ لَا أُبْعَثُ».

وَقَالَ أبو عُبَيْدَة بن الجَرَّاح -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ-: «وَدِدْتُ أَنِّي كُنْتُ كَبْشًا فَذَبَحَنِي أَهْلِي، فَأَكَلُوا لَحْمِي، وانْتَهَى أَمْرِي».

وَقَالَ عمران بن حُصَيْن: «يا لَيْتَنِي كُنْتُ رَمَادًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ».

وقال حُذيْفَةُ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ-: «وَدِدْتُ أَنَّ لي إِنْسَانًا يكونُ في مَالِي، ثُمَّ أُغْلِقُ عَلَيَّ بَابِي، فَلَا يَدْخُلُ عَلَيَّ أَحَدٌ حَتَّى أَلْحَقَ بِاللهِ -عَزَّ وَجَلَّ-».

وكان مَجْرَى الدَّمْع في خَدِّ ابنِ عَبَّاسٍ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا- كالشِّرَاكِ البَالِي.

قالت عائشةُ -رَضِيَ اللهُ عَنْهَا-: «يَا لَيْتَنِي كُنْتُ نَسْيًا مَنْسِيًّا»، كَمَا قَالَت مَرْيَمُ مِن قَبْل.

وقال عَلِيٌّ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ-: «والله لَقَد رَأَيْتُ أَصْحَابَ مُحَمَّدٍ ﷺ، فَمَا أَرَى اليومَ شَيْئًا يُشْبِهُهُم، لَقَد كانوا يُصْبِحُونَ شُعْثًا غُبْرًا، بينَ أَعْيُنِهِم أَمْثَالُ رُكَبِ المَعْزَى، قَد بَاتُوا للهِ سُجَّدًا وَقِيَامًا، يَتْلُونَ كِتَابَ اللهِ تَعَالَى، يُرَاوِحُونَ بَيْنَ جِبَاهِهِم وأقدامِهِم، فإذا أَصْبَحُوا فَذَكَرُوا اللهَ -عَزَّ وَجَلَّ-، مَادُوا -أي: اضطربُوا- كَمَا يَمِيدُ الشَّجَرُ في يومِ الرِّيحِ، وَهَملت أَعْيُنُهُم حَتَّى تَبَلَّ ثِيَابَهُم، والله لأن القومَ كأَنَّمَا بَاتُوا غَافِلِينَ»، لأَنَّهُم كانوا لا يُرَاءونَ.

قال الحَسَنُ: «عَمِلُوا والله بِالطَّاعَاتِ واجتَهِدُوا فِيهَا وَخَافُوا أَنْ تُرَدَّ عَلَيْهِم، إنَّ المُؤمِنَ جَمَعَ إِحْسَانًا وَخَشْيَةً، والمُنَافِقُ جَمَعَ إِسَاءَةً وَأَمْنًا».

قال أَبُو حَفْص: «الخَوْفُ سَوْطُ اللهِ يُقَوِّمُ به الشَّارِدِينَ عَن بَابِهِ».

وقَالَ: «الخوفُ سِرَاجٌ في القَلْبِ به يُبْصِرُ ما فيه مِن الخيرِ والشَّرِّ، وكُلُّ أَحَدٍ إذا خِفْتَهُ هَرَبْتَ مِنْهُ إِلَّا الله فَإِنَّكَ إذا خِفْتَهُ هَرَبْتَ إِلَيْهِ»، **فَالخَائِفُ هَارِبٌ مِن رَبِّهِ إلى رَبِّهِ.**

قال أبو سُليمان: «مَا فَارَقَ الخَوفُ قَلْبًا إِلَّا خَرِبَ».

وقال إبراهيمُ بن سُفيان: «إذا سَكَنَ الخَوْفُ القلوبَ أَحْرَقَ مَوَاضِعَ الشَّهَوَاتِ مِنْهَا وَطَرَدَ الدُّنْيَا عَنْهَا».

وَقَالَ غَيْرُهُ: «النَّاسُ عَلَى الطَّرِيقِ مَا لَم يَزُل عَنْهُم الخَوْفُ، فَإِذَا زَالَ عَنْهُم الخَوْفُ ضَلُّوا الطَّرِيقَ»(١).

---

(١) «باختصارٍ من خطبة: مَقَامَات الخَائِفِينَ والصَّائِمِينَ - خطبة الجمعة ٥ من رمضان ١٤٣٧هـ الموافق ١٠/٦/٢٠١٦م».

«الخَوْفُ يَمْنَعُكَ مِنْ مَعْصِيَةِ اللهِ وَقِصَّةٌ رَائِعَةٌ»

إِنَّ الْإِنْسَانَ إِذَا لَمْ يَخَفْ مِنَ اللهِ اتَّبَعَ هَوَاهُ، وَلَاسِيَّمَا إِذَا كَانَ طَالِبًا مَا لَمْ يَحْصُلْ لَهُ، وَهُوَ يَطْلُبُ مَا لَا يَحْصُلُ لَهُ وَلَمْ يُحَصِّلْهُ، وَلَا يَخَافُ رَبَّهُ فِي طَلَبِهِ، وَيَتَّبِعُ هَوَاهُ؛ هَذَا تَبْقَى نَفْسُهُ طَالِبَةً لِمَا تَسْتَرِيحُ بِهِ، وَتَدْفَعُ بِهِ الْغَمَّ وَالْحُزْنَ عَنْهَا وَلَيْسَ عِنْدَهَا مِنْ ذِكْرِ اللهِ وَعِبَادَتِهِ مَا تَسْتَرِيحُ إِلَيْهِ وَبِهِ، وَيَسْتَرِيحُ إِلَى الْمُحَرَّمَاتِ حِينَئِذٍ مِنْ فِعْلِ الْفَوَاحِشِ وَشُرْبِ الْمُحَرَّمَاتِ، وَقَوْلِ الزُّورِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا يُغْضِبُ اللهَ -جَلَّ وَعَلَا-. الْإِنْسَانُ إِذَا لَمْ يَخَفْ رَبَّهُ اتَّبَعَ هَوَاهُ، وَأَمَّا إِذَا خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ نَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى؛ كَمَا قَالَ اللهُ(١).

والزُّهادُ مِن أُمةِ مُحَمَّدٍ ﷺ كان منهم مَن كان شفيفَ البصيرةِ جدًّا، وكان له في الدعوةِ باعٌ لا يُنكر، إبراهيمُ بن أدهم –رحمة الله عليه-، فإنَّ رجُلًا ممن أسرفَ على نفسِهِ جاء إليه، فقالَ يا أبا إسحاق: إنِّي قد أسرفتُ على نفسي، فعِظْنِي بموعظةٍ لعلَّ اللهَ –تبارك وتعالى- أنْ ينفعني بها.

فقال: نعم، هي خمسةُ أمورٍ، إنْ أَخَذْتَ بها وقَدَرْتَ عليها؛ نفعكَ اللهُ –تبارك وتعالى- بها.

قال: هات يا أبا إسحاق.

قال إبراهيمُ -رحمهُ الله-: إنْ أردْتَ أنْ تعصيَ اللهَ –تبارك وتعالى- فلا تأكُل رزقَهُ.

قال: وكيف ذلك يا أبا إسحاق، وكلُّ ما في الأرضِ إنما هو رزقُهُ؟

قال: أويَجْمُلُ أنْ تأكُلَ رزقَهُ وتعصيَ أمرَهُ؟!!

قال: لا، هات الثانيةَ يا أبا إسحاق.

---

(١) «من تعليق الشيخ على «شرح الأصول الثلاثة» المحاضرة الخامسة».

فقالَ إبراهيمُ -رحمهُ اللهُ-: إنْ أَرَدْتَ أنْ تعصيَ أمرَهُ فلا تسكُن أرضَهُ، ولا تكُن مُقيمًا في بلدٍ مِن بلادِهِ.

قال: هذه أَعْسَرُ مِن الأولى يا أبا إسحاق، وما بينَ المشرقِ والمغربِ وما فوقَ ذلك وما دونَهُ إنما هو مُلْكُهُ!

قال إبراهيمُ -رحمهُ اللهُ-: أويَجْمُلُ أنْ تأكلَ رزقَهُ وتسكنَ أرضَهُ وتعصيَ أمرَهُ؟!!

قال: لا، هات الثالثة يا أبا إسحاق.

قال: إنْ أرَدْتَ إلَّا أنْ تأكُلَ رزقَهُ وتسكُنَ بلدَهُ وتعصيَ أمرَهُ؛ فاعْصِهِ في مكانٍ لا يطَّلِعُ عليك فيه.

قال: وكيف ذلك وهو يعلمُ السِّرَّ وأَخْفَى، وهو مُطَّلِعٌ على البواطنِ ويعلمُ الهواجسَ ولا يخْفَى عليه شيء؟!!

قال: يا هذا أَويَجْمُلُ بك أنْ تأكُلَ رزقَهُ، وتسكُنَ أرضَهُ، ثمَّ تأتي بالمعصيةِ كِفاحًا بحيثُ يطَّلِعُ عليك؟!!

قال: لا والله يا أبا إسحاق، هات الرابعة.

فقالَ: إذا أَتَاكَ مَلَكُ الموتِ، فقُل له: أَجِّلْنِي حتى أتوبَ.

قال: إنه لا يُمَكِّنُنِي يا أبا إسحاق.

قال: فأين النجاةُ إذن إذا كان لا يُؤجِّلُكَ؟!!

قال: هات الخامسةَ يا أبا إسحاق.

فقالَ له إبراهيمُ -رحمه الله-: إذا ما أخذَ الزبانيةُ بيَديْكَ ورِجليْكَ لكي يُلقُوكَ في النارِ؛ فاستعصِ عليهم ولا تُطاوِعْهُم.

قال: وكيف لي بذلك يا أبا إسحاق؟! حَسْبي فقَدْ فَطِنْتُ(١).

«الوَحْيُ هُوَ نُورُ العَالَمِ وَحَيَاتُهُ وَهِدَايَتُهُ»

الخَوْفُ فَرْضٌ على كُلِّ أَحَدٍ، وَالوَحْيُ هُوَ نُورُ العَالَمِ وَحَيَاتُهُ وَهِدَايَتُهُ، وَعَلَى قَدْرِ تَمَسُّكِ الإِنْسَانِ بِهَذَا النُّورِ وَالحَيَاةِ وَالهُدَى يَكُونُ تَحْقِيقُهُ لِلْقَصْدِ الَّذِي لِأَجْلِهِ خَلَقَهُ اللَّهُ –تَبَارَكَ وَتَعَالَى-، فَإِنَّ اللَّهَ –تَبَارَكَ وَتَعَالَى- خَلَقَنَا لِغَايَةٍ، وَهَذِهِ الغَايَةُ مُبَيَّنَةٌ فِي الوَحْيِ المَعْصُومِ، وَإِذَا مَا عَاشَ النَّاسُ بِهَذَا الوَحْيِ؛ سَعِدُوا فِي الحَيَاةِ، وَتَجَنَّبُوا سُبُلَ الشَّقَاءِ فِي الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ، وَلَا حَيَاةَ لِهَذَا العَالَمِ إِلَّا بِأَنْ يَتَمَسَّكَ بِالوَحْيِ.

وَالَّذِي يُرِيدُهُ اللَّهُ –تَبَارَكَ وَتَعَالَى- مِنَّا هُوَ: «أَنْ نَحْيَا بِالوَحْيِ»، وَهَذِهِ الجُمْلَة لَوْ أَنَّكَ أَخَذْتَ مَعْنَاهَا الصَّحِيح، وَجَعَلْتَهُ فِي حَيَاتِكِ نِبْرَاسًا وَمَنْهَاجًا، وَحَقَّقْتَهُ فِي ذَاتِكَ وَفِي رُوحِكَ وَفِي نَفْسِكَ وَفِي جَسَدِكَ وَفِي مَنْ حَوْلَكَ، هَذِهِ الجُمْلَةُ تُورِثُكَ السَّعَادَةَ دُنْيَا وَآخِرَة، وَتُجَنِّبُكَ الشَّقَاءَ وَالتَّعَاسَةَ دُنْيَا وَآخِرَة، وَهِيَ: عِشْ بِالوَحْيِ(٢).

---

(١) «مقطع بعنوان: موعظةٌ رائعةٌ لكل مَن يريدُ معصيةَ اللهِ».

(٢) «مِن محاضرة: عيشوا الوحي المعصوم - الخميس ٢٣ من ربيع الأول ١٤٣٨ هـ الموافق ٢٠١٦/١٢/٢٢ م».

ولو أنَّ الناسَ أطاعوا الرسولَ ﷺ ظاهرًا وباطنًا ما وُجِدَ في الدنيا شرٌّ قَطُّ، وإنَّمَا يُوجَد الشَّرُّ في المَكَانِ على قَدْرِ مُخَالفةِ النبي ﷺ، والناسُ أحوجُ إلى الرسالةِ منهم إلى الطعامِ والشَّرَابِ، بل إلى النَّفَسِ؛ لأنَّ الجسدَ إذا حُرِمَ النَّفَسَ مَاتَ، وأمَّا القلبُ فإذا مَا حُرِمَ الرسالةَ هَلَكَ، وهلاكُ القلوبِ هَلَاكُ الآخرةِ وضياعُهَا، وهذا أكبرُ وأعظمُ مِن هلاكِ الأبدانِ وضياعِ الدنيا(١).

«نَصِيحَةٌ جَامِعَةٌ نَافِعَةٌ: كُنْ بَيْنَ الخَوْفِ وَالرَّجَاءِ...»

فَاعْلَم أَيُّهَا الأَخُ الحَبِيبُ أنَّ الخَوْفَ وَاجِبٌ، يَجِبُ عَلَيْكَ أَنْ تَخَافَ مِنْ اللهِ، وَالخَوْفُ المَحْمُودُ الصَّادِقُ مَا حَجَزَكَ عَن مَحَارِمِ اللهِ، إنْ لم تَأْتِ بِهَذَا الخَوْفِ عَلَى هَذَا النَّحْوِ عُوقِبْتَ؛ لأَنَّكَ لم تَأْتِ بِوَاجِبٍ أَوْجَبَهُ اللهُ عَلَيْكَ، وَفَرَّطْتَ فِي حَقٍّ أَحَقَّهُ اللهُ عَلَيْكَ.

وَاعلَمْ أَيُّهَا الأَخُ الحَبِيبُ أَنَّ اليَأسَ مِنْ رَوْحِ اللهِ وَأَنَّ القُنُوطَ مِن رَحْمَتِهِ مِنْ كَبَائِرِ الذُّنُوبِ وَمِنْ عَظَائِمِ الإِثْمِ، فَإِنْ تَوَرَّطْتَ فِي ذَلِكَ تَوَرَّطْتَ فِي كَبِيرةٍ مِنْ كَبَائِرِ الإِثْمِ وَعَظِيمَةٍ مِنْ عَظَائِمِ الذُّنُوبِ.

*فَنَسْأَلُ اللهَ أَنْ يُعَلِّمنَا دِينَنَا وَأَنْ يُمَسِّكَنَا بِهِ، إِنَّهُ تَعَالَى عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٍ، وَصَلَّى اللَّهُمَّ وَسَلَّم عَلَى نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ أَجْمَعِينَ(٢).

---

(١) «من خطبة نَبيُّنَا مُحَمَّد ﷺ - ٥ من ذي القعدة ١٤٣٣ هـ الموافق ٢١- ٠٩ -٢٠١٢ م».

(٢) «مِن خطبةِ: القنوط مِن رَحْمَةِ اللهِ - ٢٧ من صفر ١٤٣٦هـ الموافق ١٩-١٢-٢٠١٤م».

«المَوْعِظَةُ العَاشِرَةُ»

«الجُودُ وَالكَرَمُ فِي رَمَضَانَ»

إِنَّ الْحَمْدَ لِلَّهِ نَحْمَدُهُ، وَنَسْتَعِينُهُ وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِاللَّـه مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللَّـهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَا هَادِيَ لَهُ.

وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّـهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ.

وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ ﷺ.

أَمَّا بَعْدُ:

«كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ أَجْوَدَ النَّاسِ»

فَقَدْ أَخْرَجَ الشَّيْخَانِ فِي صَحِيحَيْهِمَا أَنَّ عَبْدَ اللهِ بنَ عَبّاسٍ –رَضي الله عنهما- قَالَ: «كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ أَجْوَدَ النَّاسِ، وَكَانَ أَجْوَدَ مَا يَكُونُ فِي رَمَضَانَ حِينَ يَلْقَاهُ جِبْرِيلُ، وَكَانَ جِبْرِيلُ يَلْقَاهُ فِي كُلِّ لَيْلَةٍ مِنْ شَهْرِ رَمَضَانَ فَيُدَارِسُهُ الْقُرْآنَ، فَلَرَسُولُ اللهِ ﷺ حِينَئِذٍ أَجْوَدُ بِالْخَيْرِ مِنَ الرِّيحِ الْـمُرْسَلَةِ».

وَهَذَا تَشْبِيهٌ عَلَى أَبْلَغِ صُورَةٍ؛ إِذْ شَبَّهَ جُودَ رَسُولِ اللهِ ﷺ بِالرِّيحِ الْـمُرْسَلَةِ فِي عُمُومِهَا، وَفِي تَوَاتُرِهَا، وَفِي خَيْرِهَا.

وَفِي هَذَا الْحَدِيثِ لِعَبْدِ اللهِ بْنِ عَبَّاسٍ –رضي الله عنهما- وَصْفٌ لِـخُلُقٍ مِنْ أَخْلَاقِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَهَذَا الْخُلُقُ يَكُونُ أَعْلَى مَا يَكُونُ فِي رَمَضَانَ.

فَجَعَلَ النَّبِيُّ ﷺ هَذَا الظَّرْفَ الزَّمَنِيَّ مَحَلًّا لِكَثْرَةِ الْجُودِ وَلِلْبُلُوغِ بِهِ إِلَى الْـمَحَلِّ الَّذِي لَا يُرْتَقَى.

وَهُوَ ﷺ كَانَ أَجْوَدَ النَّاسِ.

فَأَمَّا الْجُودُ فَإِنَّهُ أَعَمُّ مِنَ الْكَرَمِ؛ لِأَنَّ الْكَرَمَ يَكُونُ عَنِ اسْتِحْقَاقٍ وَسُؤَالٍ، وَأَمَّا الْجُود فَإِنَّهُ صِفَةٌ مُلَازِمَةٌ مِنْ غَيْرِ مَا اسْتِحْقَاقٍ وَلَا سُؤَالٍ.

الْكَرَمُ يَكُونُ عِنْدَمَا يَكُونُ هُنَالِكَ مُسْتَحِقٌّ فَيُعْطَى، وَعِنْدَمَا يَكُونُ فَقِيرٌ فَيُكْرَمُ، سَوَاءٌ سَأَلَ وَهُوَ مُسْتَحِقٌّ، أَمْ لَمْ يَسْأَلْ، فَالَكَرَمُ يَكُونُ عَنِ اسْتِحْقَاقٍ وَسُؤَالٍ، وَأَمَّا الْجُودُ فَهُوَ صِفَةٌ لَازِمَةٌ لِلنَّفْسِ، فَهِيَ تُعْطِي مِنْ غَيْرِ مَا اسْتِحْقَاقٍ وَلَا سُؤَالٍ.

وَ اللهُ ـ هُوَ الْجَوَادُ، كَمَا أَخْبَرَ النَّبِيُّ ﷺ وَهُوَ فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ الَّذِي رَوَاهُ الطَّبَرَانِيُّ فِي «الْكَبِيرِ»، وَأَبُو نُعَيْمٍ فِي «الْحِلْيَةِ»: «**إِنَّ اللهَ كَرِيمٌ يُحِبُّ الْكُرَمَاءَ، جَوَادٌ يُحِبُّ الْجَوْدَةَ، يُحِبُّ مَعَالِيَ الْأُمُورِ، وَيَكْرَهُ سَفْسَافَهَا**».

وَفِي حَدِيثٍ عِنْدَ الطَّبَرَانِيِّ -أَيْضًا-، وَعِنْدَ أَبِي نُعَيْمٍ: «**إِنَّ اللهَ جَوَادٌ يُحِبُّ الْجُودَ**». هُنَا عَلَى الْـمَصْدَرِ، وَهُنَالِكَ عَلَى الْـمُتَّصِفِ بِالصِّفَةِ.

وَحَدِيثٌ آخَرُ:

«**إِنَّ اللهَ كَرِيمٌ يُحِبُّ الْكَرَمَ، يُحِبُّ مَعَالِيَ الْأُمُورِ، وَيَكْرَهُ سَفْسَافَهَا**».

فَاللهُ ـ هُوَ الْكَرِيمُ وَهُوَ الْجَوَادُ، وَيُحِبُّ الْكَرَمَ وَأَهْلَهُ، وَيُحِبُّ الْجُودَ وَأَهْلَهُ، وَيُحِبُّ مَعَالِيَ الْأُمُورِ، وَلَا شَكَّ أَنَّ الْكَرَمَ وَالْجُودَ مِنْ مَعَالِي الْأُمُورِ.

وَيَكْرَهُ اللهُ -جَلَّتْ قُدْرَتُهُ- السَّفَاسِفَ، وَالْأُمُورَ الْـمُسْتَصَغرَةَ، وَالْأَحْوَالَ الْـمُسْتَرْزَلَةَ، يَكْرَهُ اللهُ سَفْسَافَ الْأَخْلَاقِ، ومُنحَطَّهَا، وَيُحِبُّ اللهُ -جَلَّتْ قُدْرَتُهُ- مَعَالِيَ الْأُمُورِ.

وَقَدْ كَانَ النَّبِيُّ ﷺ فِي شَهْرِ رَمَضَانَ كَمَا وَصَفَ ابْنُ عبَّاسٍ حَالَهُ «أَجْوَدُ بِالْخَيْرِ مِنَ الرِّيحِ الْـمُرْسَلَةِ».

وَكَانَ هُوَ فِي حَالَتِهِ فِي غَيْرِ شَهْرِ رَمَضَانَ أَكْرَمَ النَّاسِ، وَأَجْوَدَ النَّاسِ ﷺ؛ فَفِي «الصَّحِيحِ» أَنَّ امْرَأَةً جَاءَتْ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ بِبُرْدَةٍ فَأَهْدَتْهَا إِلَيْهِ.

تَدْرُونَ مَا الْبُرْدَةُ؟

قَالُوا: الشَّمْلَةُ.

قَالَ: شَمْلَةٌ مُطَرَّزَةٌ بِحَاشِيَتِهَا، مَنْسُوجَةٌ بِحَاشِيَتِهَا.

فَأَخَذَهَا النَّبِيُّ ﷺ مُحْتَاجًا إِلَيْهَا فَلَبِسَهَا.

فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ: يَا رَسُولَ اللهِ، اكْسُنِيهَا.

فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**هِيَ لَكَ**». وَأَعْطَاهُ إِيَّاهَا.

ثُمَّ دَخَلَ النَّبِيُّ ﷺ بَيْتَهُ، فَأَقْبَلَ أَصْحَابُهُ -أَيْ أَصْحَابُ الرَّجُلِ، أَقْبَلُوا عَلَيْهِ لَائِمِينَ، وَقَالُوا: تَعْلَمُ أَنَّهُ لَا يَرُدُّ السَّائِلَ، وَأَنَّهُ لَمْ يَقُلْ لِشَيْءٍ: لَا، قَطُّ، وَأَنَّكَ مَتَى سَأَلْتَهُ أَنْ يُعْطِيَكَهَا أَعْطَاكَهَا مِنْ غَيْرِ مَا تَسْوِيفٍ وَلَا مَنْظَرَةٍ - يَعْنِي مِنْ غَيْرِ مَا انْتِظَارٍ وَلَا تَرَيُّثٍ-، وَأَخَذُوا يَلُومُونَهُ يَقُولُونَ: إِنَّهُ إِنَّمَا أَخَذَهَا وَهُوَ مُحْتَاجٌ إِلَيْهَا ﷺ.

فَقَالَ الْأَنْصَارِيُّ: وَاللهِ مَا أَخَذْتُهَا إِلَّا رَجَاءَ بَرَكَتِهَا؛ إِذْ جَعَلَهَا عَلَى جِلْدِهِ، إِذْ جَعَلَهَا عَلَى جَسَدِهِ، وَإِنِّي لَأَرْجُو أَنْ تَكُونَ كَفَنِي. فَكَانَتْ.

فَكَانَ النَّبِيُّ ﷺ فِي حَالَاتِهِ جَمِيعِهَا أَجْوَدَ الْخَلْقِ، لَا يَرُدُّ سَائِلًا، وَيُعْطِي عَطَاءَ مَنْ لَا يَخْشَى الْفَقْرَ، كَمَا فِي «الصَّحِيحِ» أَنَّ رَجُلًا سَأَلَ النَّبِيَّ ﷺ غَنَمًا فِي شِعْبٍ بَيْنَ جَبَلَيْنِ.

فَأَعْطَاهُ الرَّسُولُ ﷺ إِيَّاهَا جَمِيعَهَا.

فَعَادَ الرَّجُلُ إِلَى قَوْمِهِ يَقُولُ: إِنَّ مُحَمَّدًا يُعْطِي عَطَاءً لَا يَخْشَى الْفَقْرَ.

يُعْطِي النَّبِيُّ ﷺ عَطَاءً بِلَا حُدُودٍ، وَهُوَ يُعْطِي عَطَاءَ مَنْ لَا يَخْشَى الْفَقْرَ.

وَكَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَتَأَلَّفُ بِالْعَطَاءِ وَبِالْبَذْلِ قُلُوبَ أَقْوَامٍ لَا تُقَادُ إِلَّا بِزِمَامِ الْعَطَاءِ وَلَا تَنْقَادُ إِلَّا لَه.

كَانَ النَّبِيُّ ﷺ أَجْوَدَ النَّاسِ، وَأَكْرَمَ النَّاسِ، وَأَحْسَنَ النَّاسِ، وَأَجْمَلَ النَّاسِ.

وَقَدْ سُئِلَ الرَّسُولُ ﷺ عْنِ الْكَرِيمِ، فَقِيلَ: يَا رَسُولَ اللهِ، مَنْ أَكْرَمُ النَّاسِ؟

قَالَ: «**أَتْقَاهُمْ**».

قَالُوا: لَيْسَ عَنْ هَذَا نَسْأَلُكَ.

قَالَ: «**تَسْأَلُونَنِي عَنِ الْكَرِيمِ ابْنِ الْكَرِيمِ ابْنِ الْكَرِيمِ ابْنِ الْكَرِيمِ؟ ذَلِكَ نَبِيُّ اللهِ يُوسُفُ ابْنُ نَبِيِّ اللهِ ابْنِ نَبِيِّ اللهِ ابْنِ نَبِيِّ اللهِ، فَهَذَا أَكْرَمُ النَّاسِ**».

قَالُوا: لَيْسَ عَنْ هَذَا نَسْأَلُكَ.

قَالَ: «**تَسْأَلُونَنِي عَنْ مَعَادِنِ الْعَرَبِ؟**»

قَالُوا: نَعَم .

قَالَ: «**فَأَكْرَمُهُمْ وَأَحْسَنُهُم وَأَجْوَدُهُمْ وَأَفْضَلُهُم فِي الْجَاهِلِيَّةِ أَحْسَنُهُمْ وَأَكْرَمُهُمْ وَأَفْضَلُهُمْ فِي الْإِسْلَامِ، خِيَارُكُمْ فِي الْجَاهِلِيَّةِ خِيَارُكُمْ فِي الْإِسْلَامِ إِذَا فَقُهُوا**».

فَبَيَّنَ الرَّسُولُ ﷺ أَنَّ الْكَرَمَ يَكُونُ عَلَى هَذَا الْوَصْفِ الَّذِي ذَكَرَهُ فِي هَذَا الْحَدِيثِ.

الرَّسُولُ ﷺ كَانَ أَجْوَدَ الْخَلْقِ، وَكَانَ أَجْوَدَ مَا يَكُون فِي رَمَضَانَ، بَلْ إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ يَحُضُّ عَلَى مُمَارَسَةِ الْجُودِ، وَالْخُرُوجِ مِنْ إِطَارِ شُحِّ النَّفْسِ، وَإِمْسَاكِهَا؛ إِذِ الشُّحُّ أَبْلَغُ الْبُخْلِ، وَأَعْظَمُهُ.

اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ يُبَيِّنُ لَنَا عَلَى لِسَانِ نَبِيِّنَا ص طَرِيقَةً عَمَلِيَّةً؛ لِلْخُرُوجِ مِنْ قَيْدِ النَّفْسِ، وَمِنْ أَسْرِ شُحِّهَا، مِنْ أَجْلِ أَنْ يَتَدَرَّبَ الْإِنْسَانُ عَلَى الْعَطَاءِ، وَيَجْعَلُهَا النَّبِيُّ ﷺ حَالَةً مِن حَالَاتِ الْبَذْلِ الَّذِي لَا يَتَنَاهَى، حَتَّى إِنَّهُ لَيَقُولُ: «**وَابْتِسَامُكَ فِي وَجْهِ أَخِيكَ صَدَقَةٌ**».

وَمَا هِيَ بِشَيْءٍ فِي حَقِيقَةِ الْأَمْرِ، وَلَكِنَّهَا عُنْوَانٌ عَلَى بَاطِنٍ مُنْبَسِطٍ لِخَلْقِ اللهِ الْـمُؤْمِنِينَ، وَأَمَّا كَذَاذَةُ الطَّبْعِ، وَأَمَّا الْغِلْظَةُ وَالْجَفَاءُ وَالفَظَاظَةُ، فَلَا يُمْكِنُ أَنْ تُبِضَّ شَيْئًا مِن ابْتِسَامٍ، ولَا شَيْئًا مِنْ فَرَحٍ يَلْقَى بِهِ مُؤْمِنٌ مَؤْمِنًا، وَيُلَاقِي بِهِ مُسْلِمٌ مُسْلِمًا(١).

*الصَّدَقَةُ مِنْ أَعْمَالِ هَذَا الشَّهْرِ، وَمِمَّا يتَأَكَّدُ فِيهِ: الصَّدَقَةُ وَالجُودُ بِالمَوْجُودِ؛ فَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ –رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا- قَالَ: «كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ أَجْوَدَ النَّاسِ بِالخَيْرِ، وَكَانَ أَجْوَدَ مَا يَكُونُ فِي رَمَضَانَ».

*تَفْطِيرُ الصَّائِمِ، وَإِطْعَامُ الطَّعَامِ، وَسَقْيُ المَاءِ:

رَغَّبَ النَّبِيُّ ﷺ فِي تَفْطِيرِ الصَّائِمِ، وَإِطْعَامِ الطَّعَامِ، وَسَقْيِ المَاءِ:

قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**مَنْ فَطَّرَ صَائِمًا كَانَ لَهُ مِثْلُ أَجْرِهِ غَيْرَ أَنَّهُ لا يَنْقُصُ مِنْ أَجْرِ الصَّائِمِ شَيْئًا**»، رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ، وَقَالَ: «حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ».

وَفِي «الصَّحِيحَيْنِ» عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو –رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا- أَنَّ رَجُلًا سَأَلَ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: أَيُّ الإِسْلَامِ خَيْرٌ؟

قَالَ: «**تُطْعِمُ الطَّعَامَ، وَتَقْرَأُ السَّلَامَ عَلَى مَنْ عَرَفْتَ وَمَنْ لَمْ تَعْرِفْ**».

---

(١) «من خطبة: رمضان ودعوة للجودِ والكرم».

وَعَنْ عُمَرَ –رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- قَالَ: سُئِلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: أَيُّ الأَعْمَالِ أَفْضَلُ؟

قَالَ: «**إِدْخَالُكَ السُّرُورَ عَلَى مُؤْمِنٍ، أَشْبَعْتَهُ مِنْ جُوعٍ، كَسَوْتَهُ مِنْ عُرْيٍ، قَضَيْتَ لَهُ حَاجَةً، أَعَنْتَهُ، فَرَّجْتَ لَهُ كَرْبًا بِإِذْنِ رَبِّهِ**».

قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**فِي كُلِّ ذَاتِ كَبِدٍ حَرَّى أَجْرٌ**». رَوَاهُ أَحْمَدُ بِإِسْنَادٍ صَحِيحٍ.

قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**لَيْسَ صَدَقَةٌ أَعْظَمَ أَجْرًا مِنْ مَاءٍ**». رَوَاهُ البَيْهَقِيُّ بِإِسْنَادٍ حَسَنٍ لِغَيْرِهِ.

يَحْفِرُ بِئْرًا، يَجْعَلُ لِلنَّاسِ صُنْبُورًا فِي سَبِيلٍ، يَبْذُلُ المَاءَ لِابْنِ السَّبِيلِ وَالعَطْشَانِ.

سَقْيُ المَاءِ؛ حَتَّى وَلَوْ لِلكِلَابِ؛ حَتّى وَلَوْ كَانَ لِلكَلْبِ الضَّالِّ؛ فِيهِ أَجْرٌ عِنْدَ الكَبِيرِ المُتَعَالِ.

وَتَلَوُّثُ المِيَاهِ شَائِعٌ ذَائِعٌ لَا يَخْفَى، وَتَدِبُّ بِسَبَبِهِ أَمْرَاضٌ تَفْتِكُ بِالأَجْسَادِ وَتَفْرِيهَا فَرْيًا، فَمَنْ شَارَكَ أَوْ صَنَعَ لَهُمْ صَنِيعًا لِيَكُونَ مَاؤُهُ بَعِيدًا عَنْ هَذَا التَّلَوُّثِ؛ فَهُوَ دَاخِلٌ فِي الحَدِيثِ، وَقَدْ أَتَى بِأَعْظَمِ مَا يُمْكِنُ أَنْ يَتَقَرَّبَ بِهِ عَبْدٌ إِلَى اللهِ(١).

فَمَنِ اسْتَطَاعَ مِنْكُمْ أَنْ يَتَّقِيَ النَّارَ وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ فَلْيَفْعَلْ؛ لِأَنَّهُ إِذَا قَامَ النَّاسُ بَيْنَ يَدَيِ اللهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ يَنْظُرُ الْـمَرْءُ أَيْمَنَ مِنْهُ فَلَا يَرَى إِلَّا النَّارَ، وَيَنْظُرَ أَشْأَمَ مِنْهُ فَلَا يَرَى إِلَّا النَّارَ، وَيَنْظُرُ تِلْقَاءَ وَجْهِهِ فَلَا يَرَى إِلَّا النَّارَ؛ فَمَنِ اسْتَطَاعَ أَنْ يَتَّقِيَ النَّارَ وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ فَلْيَفْعَلْ. يَا لَهُ مِنْ دِينٍ لَوْ كَانَ لَهُ رِجَالٌ، يَا لَهُ مِن دِينٍ لَوْ كَانَ لَهُ رِجَالٌ!.

اللَّهُمَّ أَصْلِحْ أَحْوَالَنَا، وَارْزُقْنَا الْجُودَ وَالْكَرَمَ؛ وَأَنْتَ الْجَوَادُ الْكَرِيمُ.

وَصَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ عَلَى نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ ﷺ(٢).

---

(١) «خُطْبَةُ: رَمَضَانُ كَيْفَ نَحْيَاهُ»: الجُمُعَةُ ١٥ مِنْ رَمَضَانَ ١٤٣٣هـ / ٣/٨/٢٠١٢م».

«من خطبة: رمضان ودعوة للجودِ والكرم».

«المَوْعِظَةُ الحَادِيَةَ عَشْرَةَ»

«الشُّكْرُ»

إنَّ الْحَمْدَ لِلَّهِ نَحْمَدُهُ، وَنَسْتَعِينُهُ وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِاللَّـه مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللَّـهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَا هَادِيَ لَهُ.

وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّـهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ.

وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ -صَلَّى اللَّـهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ-.

أَمَّا بَعْدُ:

«العَبْدُ فِي الحَيَاةِ يَكُونُ بَيْنَ الشُّكْرِ والصَّبْرِ والتَّوْبَةِ»

فَإِنَّ العبدَ في هذه الحياةِ لا يَخْلُو مِن أنْ يكونَ في طبقةٍ مِن طبقاتٍ ثلاثٍ:

*فإمَّا أنْ يكونَ في عافيةٍ ونعمةٍ وسَترٍ، فَحَقُّ ذلك الشُّكرُ.

*وإمَّا أنْ يكونَ في ابتلاءٍ وشدَّةٍ وَمِحْنَةٍ، فَحَقُّ ذلك الصبرُ.

*وإمَّا أنْ يكونَ في ذنبٍ وخطيئةٍ، فحقُّ ذلك التوبةُ والاستغفارُ.

ومقاديرُ اللهِ -تبارَكَ وتعالَى- التي يُجرِيهَا على عبادِهِ في أرضِهِ؛ إمَّا أنْ تكونَ ملائمةً للعبدِ، وإمَّا أنْ تكونَ غيرَ ملائمةٍ للعبدِ.

فإنَّ اللهَ -تبارك وتعالى- يَبْتَلِي بالخيرِ والشرِّ، ويبتلي اللهُ -جَلَّ وعلا- بالنعمةِ والنقمةِ، وَيَبْتَلِي اللهُ -جلَّ وعلا- بالصحةِ والمرضِ، وَيَبْتَلِي اللهُ ربُّ العالمين بالغِنى والفقرِ، ولا يخلو العبدُ مِن أنْ يكونَ في طبقةٍ مِن الطبقاتِ الثلاث.

فإذا كان في نعمةٍ مِن اللهِ -تبارك وتعالى- وعطاء، فيجبُ عليه أنْ يشكُرَ اللهَ ربَّ العالمين على ما آتاهُ(١).

«وُجُوبُ شُكْرِ نِعْمَةِ اللهِ رَبِّ العَالَمِينَ»

إنَّ اللهَ -تبارك وتعالى- أَنْعَمَ علينا بِنِعَمٍ كثيرةٍ لا تُعَدُّ ولا تُحْصَى، والواجبُ علينا أنْ نَشْكُرَ اللهَ ربَّ العالمينَ على نِعَمِهِ التي لا تُحْصَى ولا تُسْتَقْصَى ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾ [إبراهيم: ٣٤].

فالواجبُ علينا أنْ نَشْكُرَ اللهَ ربَّ العالمينَ على ما أَنْعَمَ به علينا، ولا يكونُ الشكرُ مِنَّا واقعًا إلا إذا أَتَيْنَا بِأَرْكَانِهِ، وحينئذٍ نَكُونُ للهِ على نِعَمِهِ -وإنْ قَصَّرْنَا- شاكرينَ، وذلك:

*بأنْ نَعْتَرِفَ بِنِعَمِ اللهِ ربِّ العالمينَ علينا باطنًا.

*ونُقِرَّ باللسانِ بها ظاهرًا.

*وأنْ نَصْرِفَ تلك النِّعَمَ في مَرْضَاةِ الذي أَنْعَمَ بها علينا وأَسْدَاهَا إلينا.

فإنْ فَعَلْنَا ذلك؛ كُنَّا شاكرينَ وإنْ كُنَّا مُقَصِّرين.

---

(١) «من محاضرة: شُروط الصبر والتوبة- ٢٧ من ربيع الأول ١٤٣٨هـ/ ٢٦/١٢/٢٠١٦م».

وكثيرٌ مِنْ نِعَمِ اللهِ ربِّ العالمينَ تَمُرُّ علينا مَرًّا، وقد نَجْحَدُها جَحْدًا، ولا نُقِرُّ للهِ ربِّ العالمينَ بها لا ظاهرًا ولا باطنًا، والحاصلُ حينئذٍ أنها تُصرَفُ في غضبِ اللهِ ربِّ العالمينَ لا في مَرْضَاتِهِ، وفيما يُسْخِطُ اللهَ ربَّ العالمينَ لا فيمَا يُرْضِيهِ.

على العبدِ أنْ يَعْرِفَ نِعَمَ اللهِ ربِّ العالمينَ عليه، وأنْ يَعْلَمَ أنَّ نِعَمَ اللهِ التي تَتَوَاتَرُ مُتَنَزِّلَةً عليه لا يُمْكِنُ بحالٍ أنْ تُحْصَى، وإنما هي في كَثْرَتِهَا فوقَ أنْ تُسْتَقْصَى، فعَلَى العبدِ أنْ يَعْلَمَ ذلك يقينًا، وأنْ يُقِرَّ للهِ ربِّ العالمينَ بذلك باطنًا وظاهرًا، أنْ يَعْلَمَ باطنًا نعمةَ اللهِ عليهِ، وما أَسْدَاهُ اللهُ إليه، وأنْ يَلْهَجَ بالثناءِ على ربِّهِ الذي أَنْعَمَ إليه بما أَنْعَمَ به عليه مِنْ نِعَمِهِ الكثيرةِ بِلِسَانِهِ ظاهرًا، وأنْ يَصْرِفَ تلك النِّعَمَ في مَرْضَاةِ رَبِّهِ -جل وعلا-.

وإِلْفُ العادَةِ يَجْعَلُ العبدَ غَيْرَ مُلْتَفِتٍ إلى نِعَمِ اللهِ عليه؛ فإنَّ أعظمَ النِّعَمِ: أنَّ اللهَ رَبَّ العالمينَ أَنْعَمَ علينا بدينِ الإسلامِ العظيمِ، واللهُ ربُّ العالمينَ جَعَلَ شُكْرَ النعمةِ قَيْدًا للموجودِ وصَيْدًا للمَفْقُودِ، فالشكرُ قَيْدُ الموجودِ وصَيْدُ المَفْقُودِ، والعبدُ إذا أرادَ أنْ يُبْقِيَ النعمةَ لَدَيْهِ بِقَدَرِ اللهِ تعالى؛ قَيَّدَها بأسبابِها، وأسبابُ القَيْدِ للنعمةِ لَدَيْهِ أنْ يكونَ لله عليها شاكرًا، وبتلك الأركانِ لا يُعَدُّ شاكرًا إلا إذا أَتَى بها: أنْ يَعْتَرِفَ للهِ ربِّ العالمينَ بالنعمةِ باطنًا، وأنْ يَلْهَجَ بالثناءِ على المُنْعِمِ بها عليه باللسانِ ظاهرًا، وأنْ يُصَرِّفَها في مَرْضَاةِ الذي أَنْعَمَ بها عليه وأَسْدَاهَا إليه.

«الشُّكْرُ قَيْدُ النِّعَمِ»

وقد جَعَلَ اللهُ ربُّ العالمينَ قاعدةً مِنَ القواعدِ الكُلِّيَّةِ في دِينِ اللهِ -جل وعلا- دَلَّنَا عليها في كتابِهِ العظيمِ؛ لِيَحْيَا مَنْ حَيَّ عن بَيِّنَةٍ، ولِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عن بينة، ولِيَكُونَ الأمرُ واضحًا بحيث لا يَشْتَبِهُ على أَحَدٍ ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ [إبراهيم: ٧].

﴿تَأَذَّنَ﴾ كَأَذِنَ، أيْ: أَعْلَمَ ووَعَدَ ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ﴾: أَعْلَمَكُمْ ربُّكم ووَعَدَكُمْ ﴿لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ﴾ بِنِعَمِي التي أُوصِلُها إليكم ﴿إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾، إنْ كَفَرْتُمْ بِنِعْمَتِي عليكم، فَجَحَدْتُمُوهَا ولمْ تُؤَدُّوا شُكْرَها؛ فإنها عنكم تزولُ، ويَقَعُ عليكم مِنَ العذابِ ما هذا وَصْفُهُ ﴿وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾.

وتَأَمَّلْ في هذا التَّهْدِيدِ الشديدِ والوَعِيدِ الأَكِيدِ في قولِ رَبِّكَ: ﴿وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾، فأَتَى اللهُ ربُّ العالمينَ باللَّامِ، وأَتَى بالقَسَمِ -جل وعلا-، ثم إنه -جَلَّتْ قُدْرَتُهُ- يَأْتِي بعدَ ذلك في المُقَابِلِ ﴿وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾، فيَأْتِي بالجُمْلَةِ الاِسْمِيَّةِ مُؤَكَّدَةً بهذا المُؤَكِّدِ الظاهِرِ ﴿إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾.

ولَكَ أنْ تَتَصَوَّرَ كيف يكونُ عذابُ اللهِ -تبارك وتعالى-، واللهُ رَبُّ العالمينَ هو مَالِكُ القُوَى، يَفْعَلُ ما يَشَاءُ، ويَحْكُمُ بما يُرِيدُ، فهذا التهديدُ الشديدُ على كُفْرَانِ النعمةِ ينبغي أنْ يَكُونَ زاجِرًا.

﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾، فإذا أرادَ العبدُ الزِّيَادةَ مِنْ نِعَمِ اللهِ ربِّ العالمينَ عليهِ؛ فَيَنْبَغِي أنْ يكونَ للهِ شاكرًا، والشُّكْرُ على حَسَبِ الأركانِ التي لا يَكُونُ الشُّكْرُ شُكْرًا إلا بِاسْتِيفَائِهَا.

«أَعْظَمُ نِعَمِ اللهِ على العَبْدِ هِيَ نِعْمَةُ الإِسْلَامِ»

وأَعْظَمُ النِّعَمِ التي أَنْعَمَ اللهُ ربُّ العالمينَ بها على عَبْدٍ قَطُّ هي نعمةُ الإسلامِ العظيمِ، وقَلَّ أنْ تَجِدَ مَنْ يَلْتَفِتُ إلى هذا الأمرِ الْتِفَاتًا صحيحًا؛ لأنَّ إِلْفَ العادةِ، ولأنَّ إِلْفَ النِّعْمَةِ يَجْعَلُهَا كَلَا نِعْمَةٍ؛ بَلْ يجعلُها نِقْمَةً في كثيرٍ مِنَ الأَحَايِينِ، فلَا يَلْتَفِتُ العبدُ إلى نعمةِ اللهِ رَبِّ العالمينَ عليه إلا بَعْدَ فَقْدِهَا.

إذا تَأَمَّلَ الإنسانُ في هذا الحالِ، ونَظَرَ إلى حَالِ دُوَلِ الكُفْرِ في بُعْدِهِمْ عنْ دِينِ اللهِ رَبِّ العالمينَ، وجُحُودِهِمْ له، ومُحَارَبَتِهِمْ إيَّاهُ، وغَلَبَةِ الكُفْرِ عليهم ظاهرًا وباطنًا، ونَظَرَ في حَالِ المسلمينَ الذين يَحْيَوْنَ بَيْنَ أَظْهُرِ هؤلاء الكافِرِينَ، وَجَدَ مَا يُعَانُونَ ومَا يُلَاقُونَ مِنَ العَنَتِ ومِنَ المَشَقَّةِ مِنْ أَجْلِ الإِتْيَانِ بِفَرَائِضِ دينِ الإسلامِ العظيمِ؛ عَلِمَ قَدْرَ نِعْمَةِ اللهِ عليه، هذا بَعْدَ أنْ يَعْلَمَ أَنَّ اللهَ رَبَّ العالمينَ قد أَجْزَلَ له العَطِيَّةَ، وأَضْعَفَ له المِنَّةَ لَمَّا جَعَلَهُ مُسْلِمًا، فالحَمْدُ للهِ رَبِّ العالمينَ على نعمةِ الإسلامِ.

إنَّ اللهَ –جَلَّتْ قُدْرَتُهُ- قَدْ أَنْعَمَ علينا وأَنْشَأَنَا في بيئَةٍ مُسْلِمَةٍ، نَسْمَعُ فيها آياتِ القرآنِ العظيمِ تُتْلَى في الصباحِ وفي المساءِ، ويُقْبِلُ عليها الصِّغَارُ مِنْ أطفالِ المسلمينَ مُتَعَلِّمِينَ قَبْلَ كِبَارِهِمْ، ويُرْفَعُ فيها الأذانُ بِأَعْلَى الأصواتِ في جميعِ المَحَالِّ، وفي شَتَّى الأَمَاكِنِ، وفي جميعِ الرُّبُوعِ، فَيُرْفَعُ الأَذَانُ، وهو شَعِيرَةٌ عظيمةٌ مِنْ شَعَائِرِ دينِ الإسلامِ، وهذا مِنْ فَضْلِ اللهِ ربِّ العالمينَ.

وجَعَلَ اللهُ رَبُّ العالمينَ الغَلَبَةَ لِهَذِهِ الأخلاقِ الإسلاميَّةِ في البِيئَةِ على نَحْوٍ مِنَ الأَنْحَاءِ، والعَبْدُ ينبغِي عليهِ أَلَّا يَعِيبَ نُورًا ولَوْ كان ضَئِيلًا إِلَّا إذا أَتَى بِنُورٍ هُوَ أَعْلَى منه، وهو أَكْبَرُ مِنْهُ، فهَذَا الذي جَعَلَنَا اللهُ رَبُّ العالمينَ فيه، مِنْ إِنْشَائِنَا في هذه البِيئَةِ التي يُتْلَى فيها كتابُ اللهِ ربِّ العالمينَ، وتُسْمَعُ فيها أحاديثُ سَيِّدِ المُرْسَلِينَ (ص)، ويُرْفَعُ فيها الأَذَانُ، وَيَتَحَرَّكُ فيها الإنسانُ –بِفَضْلِ اللهِ رَبِّ العالمينَ- مُسْلِمًا مِنْ غَيْرِ ما عُقُوبةٍ لَهُ على إسلامِهِ ولا مُؤَاخَذَةٍ، ينبغي عليهِ أَنْ يَعْلَمَ أَنَّ هذه النعمةَ ينبغي أَنْ يُشْكَرَ، وإلا فإِنَّهَا إِنْ كُفِرَتْ؛ فإِنَّ اللهَ رَبَّ العالمينَ قد حَذَّرَ مَنْ كَفَرَ بِنِعْمَتِهِ ﴿وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ﴾ [محمد: ٣٨](١).

---

(١) «مِن خُطْبَةِ: الشكر على نعمة الإسلام».

«هَلْ شَكَرْنَا اللهَ عَلَى هَذِهِ النِّعَمِ العَظِيمَةِ؟!»

إنَّ الإنسانَ لِإِلْفِ العادَةِ يَنْسَى النِّعْمَةَ؛ بل إنه لا يَعُدُّهَا نعمةً في الأصلِ.

مَنِ الذي تَحَرَّكَ فيه وَازِعُ الشُّكْرِ على (حَيَاةِ قَلْبِهِ) حياةً عُضْوِيَّةً وحَيَاةً إِيمَانِيَّةً، إنَّ القَلْبَ يَدُقُّ في الصَّدْرِ مِنَ المَرْحَلَةِ الجَنِينِيَّةِ إلى نِهَايَةِ الحَيَاةِ، وما دَامَ القلبُ صحيحًا؛ فإنَّ المَرْءَ لا يُحِسُّ أنَّ له قلبًا، فإذا اعْتَلَّ القلبُ عَرَفَ مَا أَنْعَمَ اللهُ عليه بِهِ مِنْ هذه النعمةِ الجَلِيلَةِ التي لِإِلْفِ العَادَةِ لَمْ يُحِسَّ بها.

(نِعْمَةُ البَصَرِ) لا يُحِسُّ بها المَرْءُ إِلَّا إذا رَابَهُ منها شيءٌ، فإذا اعْتَلَّ بصرُهُ عَلِمَ أنَّ له بَصَرًا، وما دَامَ بَصَرُهُ صحيحًا؛ فإنه لا يَشْكُرُ اللهَ رَبَّ العالمينَ على هذه النعمةِ العظيمةِ، هذا خطيرٌ؛ لأنه لا يُؤَدِّي بالعبدِ إلى شُكْرِ نعمةِ الرَّبِّ عليه إلا عندَ فَقْدِهَا، فَلَا يَكُونُ شاكرًا في الحَقِيقَةِ.

فعَلَى الإنسانِ أَلَّا يَجْرِيَ مع العَوَائِدِ، فالإِنْسَانُ إذا آتَاهُ اللهُ رَبُّ العالمينَ قُدْرَةً على (تَحْرِيكِ يَدِهِ)، هذه مِنْ أَعْظَمِ النِّعَمِ وأَبْلَغِهَا، لا يَعْرِفُهَا إلا مَنْ فَقَدَهَا، إذا شَلَّ اللهُ رَبُّ العالمينَ يَدَهُ، فَصَارَتْ كَلًّا لا يَستطيعُ أَنْ يُحَرِّكَها، وصار غَيْرَ مُسْتَطِيعٍ بنفسِهِ، وصار مُسْتَطِيعًا بغَيْرِهِ؛ عَرَفَ نعمةَ اللهِ عليهِ.

مَنِ الذي يَشْكُرُ نِعْمَةَ اللهِ ما آتَاهُ اللهُ مِنْ (قُدْرَةٍ على الحركةِ) إذا قام مِنْ نَوْمِهِ فَتَحَرَّكَ حركةً سَوِيَّةً صحيحةً مِنْ غيرِ إعانةٍ ومِنْ غيرِ عَجْزٍ، نعمةٌ مُهْمَلَةٌ لا يُحِسُّها العبدُ، فإذا لم يُحِسَّها العبدُ؛ لَمْ يَشْكُرْ رَبَّهُ عليها.

«لَا تَنْظُرْ إِلَى مَا أَخَذَ اللهُ، وَانْظُر إِلَى مَا أَبْقى عَلَيْكَ»

إِيَّاكَ وإِلْفَ العَادَةِ في النعمةِ، وإذا مَا آتَاكَ اللهُ ربُّ العالمينَ نِعْمَةً فاسْتَرَدَّهَا، جَعَلَها عارِيَةً لَدَيْكَ، ثم اسْتَرَدَّ عَارِيَتَهُ مِنْكَ؛ فلا تَنْظُرْ إلى مَا أَخَذَ، وانْظُرْ إلى ما أَبْقَى عليكَ، كما قال الرَّجُلُ الصالحُ لَمَّا وَقَعَ له ما وَقَعَ بِقَطْعِ رِجْلِهِ، لَمَّا أَصَابَهَا ما أَصَابَهَا، فكانَ لا بُدَّ مِنْ بَتْرِهَا، فَلَمَّا بُتِرَتْ ووُضِعَتْ في الزَّيْتِ المَغْلِيِّ؛ حَتَّى يَتَوَقَّفَ النَّزِيفُ، فأُغْشِيَ عليه، فلمَّا أفاقَ، قال: الحمدُ للهِ، اللَّهُمَّ إنْ كنتَ قد ابْتَلَيْتَ في رِجْلٍ أو في عُضْوٍ فَقَدْ عَافَيْتَ في أعضاءٍ، أَبْقَيْتَ الرِّجْلَ الأُخْرَى، هذه نعمةٌ كان يُمْكِنُ أنْ تُصَابَ أيضًا، وأَبْقَيْتَ اليَدَيْنِ، والبَصَرَ، والسَّمْعَ، والقُدْرَةَ على التفكيرِ، والتَّذَكُّرَ، والكَلَامَ، والإِبَانَةَ، إلى غَيْرِ ذلك مِنَ النِّعَمِ التي لا يُحْصِيهَا إلا الذي أَنْعَمَ عليكَ بها، فإذا سُلِبَتْ منكَ نعمةٌ؛ فهذا بِتَقْصِيرِكَ في شُكْرِهَا؛ لأنَّ النعمةَ صَيْدٌ، ولِأَنَّ الشُّكْرَ قَيْدٌ، فقَدِ اصْطَدْتَ صَيْدًا لَمَّا أُنْعِمَ عليكَ بالنعمة، فلَمْ تُقَيِّدْهَا فَذَهَبَتْ، فلا تَلُومَنَّ إلا نفسَكَ، فإذا سُلِبَتِ النعمةُ؛ فلا تَنظُرْ إلى مَا أُخِذَ، وَتَوَفَّرْ عَلَى النَّظَرِ فِيمَا بَقِيَ وَمَا أَبْقَى عَلَيْكَ، اللَّهُمَّ إنْ كُنْتَ قَد ابْتَلَيْتَ فِي رِجْلٍ أَوْ فِي عُضْوٍ؛ فَقَدْ عَافَيْتَ في أعضاءٍ.

فقِيلَ له: إنَّ وَلَدَكَ قَدْ مَاتَ.

فقال: الحمدُ للهِ، اللَّهُمَّ إنْ كُنْتَ قَدِ ابْتَلَيْتَ في ابْنٍ؛ فَقَدْ عَافَيْتَ في أبناءٍ.

فهذا يَجْعَلُكَ دَائِمَ الشُّكْرِ لِرَبِّكَ، وعليكَ أنْ تجتهدَ في شُكْرِهِ، وإذا أَنْعَمَ عليكَ بنعمةٍ تَتَجَدَّدُ فاسْجُدْ لِرَبِّكَ شاكرًا مُنِيبًا، وهو سُجُودُ الشُّكْرِ.

ليس هنالِكَ ما يُقَالُ له: رَكْعَتَا الشُّكْرِ، فُلَانٌ أَنْعَمَ اللهُ عليهِ بنعمةٍ، فَصَلَّى للهِ صلاةَ الشُّكْرِ!! ليس في دينِ اللهِ ما يُقَالُ له هذا، بل هناكَ سَجْدَةُ الشُّكْرِ، كان النبيُّ (ص) إذا أَنْعَمَ اللهُ عليهِ بِنِعْمَةٍ؛ خَرَّ للهِ ساجدًا، فهذه سَجْدَةُ الشُّكْرِ.

فَنَسْأَلُ اللهَ -جَلَّت قُدْرَتُهُ وَتَقَدَّسَت أَسْمَاؤُهُ- أَنْ يُسْبِغَ عَلَيْنَا نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً، دِينِيَّةً ودُنْيَوِيَّةً، وأنْ يَدْفَعَ عنا المَكَارِهَ والأَذَى بِقُدْرَتِهِ التي لا حَدَّ لها، وأنْ يُحْسِنَ خِتَامَنَا بِمَنِّهِ وجُودِهِ وَكَرَمِهِ(١).

«جُحُودُ النِّعْمَةِ وَعَاقِبَةُ الجَاحِدِينَ»

قال كَعْبٌ: «ما أَنْعَمَ اللهُ على عَبْدٍ بنعمةٍ في الدنيا فَشَكَرَها، وتَوَاضَعَ بها للهِ؛ إلا أَعْطَاهُ نَفْعَهَا في الدنيا، ورَفَعَ له بها درجةً في الآخرةِ، وما أَنْعَمَ اللهُ على عَبْدٍ نعمةً في الدنيا فَلَمْ يَشْكُرْهَا للهِ، ولَمْ يَتَوَاضَعْ بها؛ إلا مَنَعَهُ اللهُ نَفْعَهَا في الدنيا، وفَتَحَ له طَبَقَاتٍ مِنَ النارِ يُعَذِّبُهُ إنْ شَاءَ أَوْ يَتَجَاوَزُ عنه».

قال وَهْبُ بْنُ مُنَبِّهٍ: «تَرْكُ المُكَافَأَةِ مِنَ التَّطْفِيفِ».

والمُكَافَأَةُ: ما يكونُ في مُقَابِلِ الإحسانِ، «مَنْ قَدَّمَ إليكمْ معروفًا فَكَافِئُوهُ، فإنْ لَمْ تَجِدُوا فَقُولُوا: جزاكم اللهُ خيرًا»، وتَرْكُ ذلك مِنَ التَّطْفِيفِ كمَا قال وَهْبٌ.

وما يُكَلِّفُكَ أنْ تَدْعُوَ لِمَنْ أَوْصَلَ اللهُ الإحسانَ إليكمْ عن طَرِيقِهِ وبِسَبِيلِهِ؟!! وهل يَشُقُّ عليكَ؟!!

---

(١)«مقطع بعنوان: أين أنت من شكر نعمة الله عليك؟».

كَتَبَ ابنُ السَّمَّاكِ إلى محمدِ بْنِ الحسنِ حِينَ وَلِيَ القضاءَ بالرَّقَّةِ: «أمَّا بَعْدُ: فَلْتَكُنْ تَقْوَى اللهِ تعالى مِنْ بَالِكَ على كُلِّ حَالٍ، وخَفِ اللهَ مِنْ كُلِّ نعمةٍ أَنْعَمَ بها عليكَ، مِنْ قِلَّةِ الشكرِ عليها مَعَ المعصيةِ بها، وأَمَّا التَّبِعَةُ فيها؛ فَقِلَّةُ الشُّكْرِ عليها، فَعَفَا اللهُ عنكَ كُلَّمَا ضَيَّعْتَ مِنْ شُكْرٍ، أَوْ رَكِبْتَ مِنْ ذَنْبٍ، أو قَصَّرْتَ مِنْ حَقٍّ».

قال الأَصْمَعِيُّ: «سَمِعْتُ أَعْرَابِيًّا يقولُ: أَسْرَعُ الذنوبِ عُقُوبَةً: كُفْرُ المعروفِ».

الْبِرُّ بِي مِنْكَ وَطَّا الْعُذْرَ عِنْدَكَ لِي ... فِيمَا فَعَلْتَ فَلَمْ تَعْذِلْ وَلَمْ تَلُـــمِ
وَقَامَ عِلْمُكَ بِي فَاحْتَجَّ عِنْدَكَ لِي ... مَقَامُ شَاهِدٍ عَـــدْلٍ غَيْرِ مُتَّهَـــمِ
لَئِنْ جَحَدْتُكَ مَعْرُوفًا مَنَنْتَ بِهِ ... إنِّي لَفِي اللُّؤْمِ أَحْظَى مِنْكَ بِالْكَرَمِ
تَعْفُو بِعَدْلٍ وَتَسْطُو إنْ سَطَوْتَ بِهِ ... فَلاَ عَدِمْتُكَ مِنْ عَافٍ وَمُنْتَقِـــمِ

يَدُ المَعرُوفِ غُنْمٌ حَيثُ كَانَت ... تَحَمَّـلَهَا شَكُـورٌ أو كَفُـورُ
فَفِي شُكْرِ الشَّكُورِ لَهَا جَـــزَاءٌ ... وَعِنْدَ اللهِ مَا كَفَرَ الكَفُورِ

مَنْ كان عَادَتُهُ وطَبْعُهُ كُفْرَانَ نعمةِ الناسِ، وتَرْكَ شُكْرِهِ لهم؛ كان مِنْ عَادَتِهِ كُفْرُ نعمةِ اللهِ -عز وجل-، وتَرْكُ الشُّكْرِ له؛ لأنه بِكُفْرِ نعمةِ المُنْعِمِ عليه مِنَ الخَلْقِ، يَتَمَرَّسُ على الكُفْرَانِ، ويَتَدَرَّبُ على الجُحُودِ.

وأَمَّا إذا ما اعْتَادَ ما أَمَرَهُ به رسولُ اللهِ (ص) أنْ يَشْكُرَ مَنْ أَكْرَمَهُ، وأَنْ يَشْكُرَ مَنْ أَنْعَمَ عليه مَهْمَا وَصَلَ إليه عَنْ طريقِهِ مِنْ نعمةٍ أَنْعَمَ اللهُ بها عليهِ، إِذَا تَمَرَّسَ على ذَلِكَ، وتَدَرَّبَ عليهِ؛ كان أَحْرَى أَنْ يَكُونَ لله شَكُورًا، وأَنْ يَكُونَ لله ذَكُورًا.

﴿أَفَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ [النحل: ٧١].

قال الشنقيطي -رحمه الله-: «هَذَا إِنْكَارٌ مِنَ اللَّهِ عَلَيْهِمْ جُحُودَهُمْ بِنِعْمَتِهِ؛ لِأَنَّ الْكَافِرَ يَسْتَعْمِلُ نِعَمَ اللَّهِ فِي مَعْصِيَةِ اللَّهِ، فَيَسْتَعِينُ بِكُلِّ مَا أَنْعَمَ بِهِ عَلَيْهِ عَلَى مَعْصِيَتِه، فَإِنَّهُ يَرْزُقُهُمْ وَيُعَافِيهِمْ، وَهُمْ يَعْبُدُونَ غَيْرَهُ، وَجُحُودُ النِّعْمَةِ هُوَ كُفْرَانُهَا».

جُحُودُ النعمةِ كُفْرَانٌ بالنعمةِ، ولَوْ أنكَ تَأَمَّلْتَ في أحوالِكَ، وتَأَمَّلْتَ في ظاهِرِكَ وباطِنِكَ؛ لَعَلِمْتَ عظيمَ حِيَاطَةِ اللهِ رَبِّ العالمينَ لَكَ، إِذْ يَنْتَشِلُكَ مِنْ وَادِي الظُّنُونِ تَعْبَثُ بِكَ، وإِذْ يَأْتِي بكَ مِنَ الشرورِ لِيُقِيمَكَ على الصراطِ المستقيمِ، وإِذْ يُنْعِمُ عليكَ بالقَلْبِ الشاكِرِ واللِّسَانِ الذَّاكِرِ، وما مِنْ أحدٍ يستطيعُ ذلك سِوَاهُ، فَهُوَ المُنْعِمُ بِهِ -تبارك وتعالى- وَحْدَهُ، وهُوَ المَانُّ به لا يَمُنُّ به إلا هُوَ، لَوْ تَأَمَّلْتَ لَعَلِمْتَ عظيمَ قَدْرِ نِعْمَتِهِ عليكَ ظاهرةً وباطنةً، وهو بَعْدُ يُصَرِّفُكَ في أحوالٍ مِنَ التَّمَتُّعِ بِلَذَّاتِهَا، ويَصْرِفُ عنكَ السُّوءَ فيها؛ مِنْ حَسَدِ حاسِدٍ، وحِقْدِ حَاقِدٍ، ومَكْرِ مَاكِرٍ، وهو بِكَ الرَّءُوفُ الرحيمُ.

قال بَعْضُ الحُكَمَاءِ: «لا يُزَهِّدَنَّكَ في المعروفِ كُفْرُ مَنْ كَفَرَ» أي: كُفْرُ النِّعْمَةِ، وَجَحْدُ المَعْرُوفِ، لا يَعْنِي الكُفْرَ باللهِ –جل وعلا-، وإنما يَعْنِي كُفْرَانَ النعمةِ وجُحُودَها، وإنه لَمُؤْلِمٌ للقلبِ حَقًّا كأَنَّمَا يَمَسُّهُ بمِيسَمٍ مِنْ نارٍ، إذْ تُبْسَطُ يَدُ المعروفِ، فَتُقْبَضُ يَدُ الشكرِ!! بَلْ تُبْسَطُ يَدُ الجَحْدِ ويَدُ الإهانةِ ويَدُ الاِسْتِهَانَةِ!! ومَنْ يَقْوَى على تَحَمُّلِ ذلك إِلَّا مَنْ قَوَّاهُ اللهُ؟!! ومَنْ يَثْبُتُ بَعْدُ على العَطَاءِ إلا مَنْ ثَبَّتَهُ اللهُ؟!!

«لَا يُزَهِّدَنَّكَ في المعروفِ كُفْرُ مَنْ كَفَرَ؛ فإنه يَشْكُرُكَ على المعروفِ مَنْ لا تَصْنَعُهُ إليه».

وأنتَ إذا صَنَعْتَ المعروفَ، فجَحَدَهُ مَنْ صُنِعَ معه المعروفُ؛ حَمِدَكَ على المعروفِ الذي صَنَعْتَهُ مَنْ لَمْ تَصْنَعْ له المعروفَ.

إعطاءُ الفَاجِرِ يُقَوِّيهِ على فُجُورِهِ، ومسألةُ اللَّئِيمِ إِهَانَةٌ لِلْعِرْضِ، وتَعْلِيمُ الجاهلِ زِيَادَةٌ في الجَهْلِ، تَعْلِيمُ الجَاهِلِ زِيَادَةٌ في الجهلِ، لَمَّا ابْتُذِلَ العلمُ لِأَوْلَادِ السِّفْلَةِ؛ صارَ الأمرُ إلى مَا تَرَى، وَسَتَرى!!

لا بُدَّ مِنْ شَرَفِ النَّفْسِ وعُلُوِّ الهِمَّةِ، وكانُوا يتَصَفَّحُونَ طُلَّابَهُمْ كما يَتَصَفَّحُونَ طُلَّابَ حَرِيمِهِمْ، ولا يَبْذُلُونَ العلمَ إلا لِمَنِ اسْتَحَقَّهُ، وأَمَّا العلمُ الذي هو فرضُ عينٍ على كُلِّ مسلمٍ فَهُوَ مَبْذُولٌ.

فلمَّا صارَ ما فَوْقَ ذلك مَبْذُولًا، وأَقْبَلَ عليه أصحابُ الخَسِيسَةِ لِيَرْتَفِعُوا به دُنْيَا لا دِينًا؛ صار الأمرُ إلى ما تَرَى، وَسَتَرى إلا أنْ يَشَاءَ رَبِّي شيئًا.

تعليمُ الجاهِلِ زيادةٌ في الجَهْلِ، والصَّنِيعَةُ عِنْدَ الكَفُورِ إِضَاعَةٌ للنعمةِ، فإذا هَمَمْتَ بِشَيْءٍ مِنْ هذا؛ فارْتَدِ المَوْضِعَ قَبْلَ الإِقْدَامِ عَلَيْهِ أو عَلَى الفِعْلِ.

قال عَلِيٌّ -رضي الله عنه-: «كُنْ مِنْ خَمْسَةٍ على حَذَرٍ: مِنْ لَئِيمٍ إذا أَكْرَمْتَهُ، وَكَرِيمٍ إذا أَهَنْتَهُ، وعاقِلٍ إذا أَحْرَجْتَهُ، وأَحْمَقَ إذا مَازَجْتَهُ، وفَاجِرٍ إذا مَازَحْتَهُ».

فَكُنْ مِنْ هؤلاء على حَذَرٍ.

إِذَا أَنْتَ أَكْرَمْتَ الكَرِيمَ مَلَكْتَهُ وَإِنْ أَنْتَ أَكْرَمْتَ اللَّئِيمَ تَمَرَّدَ.

نُكْرَانُ الجَمِيلِ وجُحُودُ المعروفِ: أَلَّا يَعْتَرِفَ الإنسانُ بلسانِهِ بما يُقِرُّ به قلبُهُ وفُؤَادُهُ مِنَ المعروفِ والصَّنَائِعِ الجميلةِ التي أُسْدِيَتْ إليه؛ سواءٌ مِنَ اللهِ -عز وجل- أَوْ مِنَ المخلوقين.

احْذَرْ هذا الخُلُقَ؛ فإِنَّهُ مَدْعَاةٌ لِذَهَابِ نعمةِ اللهِ عنكَ، وتَعْذِيبِ اللهِ إياكَ إِنْ لَمْ يَرْحَمْكَ بِمَشِيئَتِهِ ورحمتِهِ إنْ تَوَرَّطْتَ في شَيْءٍ مِنْ ذلك -كما مَرَّ في النصوصِ، وكما قال الأئمةُ في الشُّرُوحِ-، اِتَّقِ اللهَ رَبَّكَ، كُنْ شَرِيفَ النَّفْسِ، وإذا خَاصَمْتَ فلا تَفْجُرْ، إياكَ والفُجُورَ في الخُصومةِ، لا يَفْجُرُ في الخُصُومَةِ مؤمنٌ قَطُّ؛ لأَنَّ الفُجُورَ في الخصومةِ مِنْ خِصَالِ المنافقين «**وإذا خَاصَمَ فَجَرَ**»، وأَمَّا المؤمنُ؛ فإنه إذا خَاصَمَ أَدْرَكَتْهُ خِصَالُ يَقِينِهِ، وأحوالُ مُرُوءَتِهِ، ودَعَائِمُ إيمانِهِ، فَمَنَعَتْهُ مِنَ في التَّوَرُّطِ فيما لا يَجْمُلُ.

اِتَّقِ اللهَ رَبَّكَ؛ فإنَّ الإسلامَ يُرِيدُكَ، ولكِنَّ الإسلامَ لا يريدُ اليومَ عَدًّا، لا يريدُ الإسلامُ اليومَ كَمًّا، وإنما يريدُ الإسلامُ اليومَ كَيْفًا، يريدُ صِفَاتٍ كمَا قال رسولُ اللهِ: «**إنكمْ يومَئِذٍ كثيرٌ، ولَكِنْ كَثْرَةٌ غُثَاءٌ كَغُثَاءِ السَّيْلِ**».

أسألُ اللهَ ربَّ العالمينَ أنْ يُولِيَنا شُكْرَ نعمتِهِ التي أَنْعَمَ بها علينا وعلى آبَائِنَا وأُمَّهَاتِنَا، وأنْ يُصْلِحَ لنا في ذُرِّيَّاتِنَا، وأنْ يُحْسِنَ خَاتِمَتَنَا بِمَنِّهِ وجُودِهِ وَكَرَمِهِ وعَدْلِهِ وفَضْلِهِ، وهو الجَوَادُ الكريمُ.

وَصَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ عَلَى نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ ﷺ(١).

---

(١)«مِن خُطْبَةِ: الجَاحِدُونَ - الجمعة ١٧ من ذي الحجة ١٤٣٣هـ الموافق ٢-١١-٢٠١٢ م».

«المَوْعِظَةُ الثَّانِيَةَ عَشْرَةَ»

«الحَيَاءُ»

إنَّ الْحَمْدَ لِلَّهِ نَحْمَدُهُ، وَنَسْتَعِينُهُ وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِاللَّـه مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللَّـهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَا هَادِيَ لَهُ.

وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّـهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ.

وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ ﷺ.

أَمَّا بَعْدُ:

«الحَيَاءُ لَا يَأْتِي إِلَّا بِخَيْرٍ»

فَفِي «الصَّحِيحَيْنِ» وَ«السُّنَنِ» عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ –رضي الله عنه- قَالَ، قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **«الْإِيمَانُ بِضْعٌ وَ وَسِتُّونَ أَوْ بِضْعٌ وَسَبْعُونَ شُعْبَةً، فَأَعْلَاهَا: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَدْنَاهَا: إِمَاطَةُ الْأَذَى عَنْ الطَّرِيقِ، وَالْحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنَ الْإِيمَانِ»**.

فَذَكَرَ النَّبِيُّ ﷺ شُعَبَ الإيمانِ عَلَى سَبِيلِ الإجْمَالِ مِنْ غَيْرِ تَفْصِيلٍ، وذَكَرَ النَّبِيُّ ﷺ سَقْفَ تِلْكَ الشُّعَبِ، وَذَكَرَ أَدْنَاهَا، وخَصَّ بِالذِّكْرِ شُعْبَةً مِنْ شُعَبِ الإِيمَانِ، وَهِيَ الحَيَاءُ، قَالَ: **«وَالْحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنْ الْإِيمَانِ»**.

وَقَدْ يَتَسَاءَلُ الإِنْسَانُ: لِمَاذَا خَصَّ النَّبِيُّ ﷺ الحَيَاءَ بِالذِّكْرِ دُونَ سَائِرِ الشُّعَبِ الَّتِي لَمْ يَذْكُرْهَا؟

والجَوَابُ: أَنَّ الحَيَاءَ إِنَّمَا هُوَ كَالْأَسَاسِ الَّذِي تَقُومُ عَلَيْهِ سَائِرُ الشُّعَبِ؛ لِأَنَّ الإِنْسَانَ إِذَا كَانَ يَسْتَحْيِي مِنَ اللهِ –تَبَارَكَ وَتَعَالَى-؛ فَإِنَّهُ لَنْ يَأْتِيَ بِمَا فِيهِ مَعْصِيَةٌ مِمَّا يَتعَلَّقُ بِاللهِ – تَبَارَكَ وَتَعَالَى- أَوْ مِمَّا يَتَعَلَّقُ بِالْبَشَرِ، وَقَدْ بَيَّنَ النَّبِيُّ ﷺ أَنَّ لِكُلِّ دِينٍ خُلُقًا، وَأَنَّ خُلُقَ الإِسْلَامِ الْحَيَاءُ.

وَالْحَيَاءُ: خُلُقٌ يَبْعَثُ عَلَى عَدَمِ التَّقْصِيرِ فِي حَقِّ ذِي الحَقِّ، وَيَمْنَعُ مِنْ أَنْ يَتَوَرَّطَ الإِنْسَانُ فِيمَا يَقْبُحُ أَوْ يَسُوءُ، فَمَنْ كَانَ عِنْدَهُ ذَلِكَ البَاعِثُ الَّذِي يَبْعَثُهُ عَلَى إِعْطَاءِ كُلِّ ذِي حَقٍّ حَقَّهُ مِمَّا يَتَعَلَّقُ بِحُقُوقِ اللهِ –تَبَارَكَ وَتَعَالَى- مِنْ تَوْحِيدِهِ وَعِبَادَتِهِ، وَالْقِيَامِ بِمُعَامَلَتِهِ عَلَى الْوَجْهِ الَّذِي يَلِيقُ بِهِ –جَلَّ وَعَلَا-، وَفِي الْوَقْتِ عَيْنِهِ فَإِنَّهُ لَا يَأْتِي بِمَا يَقْبُحُ أَوْ بِمَا يَسُوءُ وَقَدْ تَحَلَّى بِخُلُقِ الحَيَاءِ الَّذِي هُوَ مِنْ أَخْلَاقِ الإِسْلَامِ.

وَقَدْ مَرَّ النَّبِيُّ ﷺ عَلَى رَجُلٍ مِنْ أَصْحَابِهِ يَعِظُ رَجُلًا فِي الحَيَاءِ، يَعْنِي: وَجَدَ أَخَاهُ يَسْتَحْيِي، فَكَانَ يَعِظُهُ بِأَلَّا يَأْخُذَ بِهَذَا الخُلُقِ أَوْ نَحْوًا مِنْ هَذَا، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**دَعْهُ؛ فَإِنَّ الحَيَاءَ لَا يَأْتِي إِلَّا بِخَيْرٍ**».

ومَفْهُومُ هذَا المَنْطُوقِ: أَنَّ مَنْ عُدِمَ الحَيَاءَ؛ فَإِنَّهُ لَا يَأْتِي مِنْهُ خَيْرٌ، «**إِنَّ الْحَيَاءَ لَا يَأْتِي إِلَّا بِخَيْرٍ**».

«إِذَا لَمْ تَسْتَحِ فَاصْنَعْ مَا شِئْتَ»

والنبيُّ ﷺ قَدْ بَيَّنَ لَنَا كما في حديثِ البُخَارِيِّ مِنْ روايةِ أَبِي مَسْعُودٍ البَدْرِيِّ، قَالَ –رضي الله عنه-: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**إِنَّ مِمَّا أَدْرَكَ النَّاسُ مِنْ كَلَامِ النُّبُوَّةِ الْأُولَى: إِذَا لَمْ تَسْتَحِ فَاصْنَعْ مَا شِئْتَ**».

فهذا الأَمْرُ أَمْرٌ قَدِيمٌ في الناسِ، أَنْزَلَهُ اللهُ -تبارك وتعالى- في جميعِ الرِّسَالَاتِ، وَوَصَّى بِهِ جَمِيعَ الأَنْبِيَاءِ والمُرْسَلِينَ، وَصَّوْا بِخُلُقِ الحَيَاءِ؛ فَعَلَى الإنسانِ أنْ يَكُونَ آثِرًا لِذَلِكَ آخِذًا بِهِ، وَأَلَّا يُفَرِّطَ فيهِ؛ لأنَّ مَنْ عُدِمَ الحَيَاءَ؛ عُدِمَ الخَيْرَ كُلَّهُ.

«**إنَّ مِمَّا أَدْرَكَ النَّاسُ مِنْ كَلَامِ النُّبُوَّةِ الْأُولَى: إِذَا لَمْ تَسْتَحِ فَاصْنَعْ مَا شِئْتَ**»: وهَذَا القولُ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ: «**فَاصْنَعْ مَا شِئْتَ**» إِنَّمَا هُوَ على سَبِيلِ التَّهْدِيدِ، لِيْسَ ذلك عَلَى المَعْنَى الَّذِي قَدْ يَتَبَادَرُ إِلَى الذِّهْنِ؛ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ يَأْمُرُ مَنْ لَمْ يَسْتَحِ أَنْ يَأْتِيَ بِمَا يشاءُ، وَأَنْ يَفْعَلَ ما يُرِيدُ؛ ولَكِنَّهُ كَقَوْلِ رَبِّنَا -تبارك وتعالى-: ﴿اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ﴾ بِمَعْنَى: أَنَّ اللهَ -تبارك وتعالى- يُهَدِّدُ أَنَّكُمْ إليهِ راجِعُون، وأَنَّكُمْ بَيْنَ يَدَيْهِ مَسْئُولُونَ، كَمَا فِي قَوْلِهِ -جل وعلا-: ﴿فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ [الكهف: ٢٩] ليس هذا على سَبِيلِ الإِبَاحَةِ، يَعْنِي: لَا يُبِيحُ اللهُ -تبارك وتعالى- لِمَنْ أَرَادَ الكُفْرَ أَنْ يَكْفُرَ مِنْ غَيْرِ أَنْ يُؤَاخِذَهُ على ذلك، ولَكِنَّ هذا عَلَى سَبِيلِ التَّهْدِيدِ.

إِنَّا إِلَى اللهِ رَاجِعُون، فَمَسْئُولُونَ عَنْ كُلِّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ، وتُمَحَّصُ أَعْمَالُنَا بَيْنَ يَدَيِ العليمِ الخبيرِ، وَسَيُحَاسِبُ اللهُ -تبارك وتعالى- عَمَّا يُسْفِرُ عَنْهُ التَّفْتِيشُ والتَّنْقِيبُ فِي السَّرَائِرِ ﴿يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ﴾ [الطارق: ٩]، سَيَجْعَلُ اللهُ رَبُّ العالمينَ الأعمالَ مَعْرُوضَةً عَلَى المِحَكِّ، بِمَعْنَى أَنَّ العَمَلَ الظَّاهِرَ تَكُونُ وَرَاءَهُ نِيَّةٌ، هَذِهِ النِّيَّةُ يُحَاسَبُ عَلَيْهَا العَبْدُ.

كان المنافقون يُصَلُّونَ وَرَاءَ النَّبِيِّ، ويَشْهَدُونَ مَعَهُ بَعْضَ الغَزَوَاتِ، وَكَانُوا فِي الظَّاهِرِ مُسْلِمِينَ، وكَانُوا كُفَّارًا في الحَقِيقَةِ، حَتَّى إنَّ اللهَ -تبارك وتعالى- ذَكَرَ لِنَبِيِّهِ ﷺ أنَّ هؤلاء المنافِقِينَ إذا جَاءُوهُ، فَشَهِدُوا بَيْنَ يَدَيْهِ أَنَّهُ رَسُولُ اللهِ؛ فَهُمْ كاذِبُون، بِمَعْنَى: أَنَّ هذا القولَ لا يُوَاطِئُ ما في قُلُوبِهِمْ؛ إِذْ هُمْ بِهِ ﷺ كافرون.

«**إِذَا لَمْ تَسْتَحِ فَاصْنَعْ مَا شِئْتَ**»: فهذا على سَبِيلِ التَّهْدِيدِ، وفيه مَعْنًى آخَرُ، وهو أنَّ الإنسانَ ينبغي عليه أنْ يَنْظُرَ في الأَمْرِ قَبْلَ الإِقْدَامِ عَلَيْهِ، فَإِنْ كان مما يُرْضِي اللهَ –جل وعلا-، ويُرْضِي النَّبِيَّ ﷺ؛ فَلْيَفْعَلْهُ وَلَا يُبَالِي بِحَيَاءٍ مِنْ فِعْلِهِ مِنَ النَّاسِ؛ لأَنَّ الناسَ لا تَرْضَى عنْ صُنْعِ الخَيْرِ في الجُمْلَةِ، لِذَلِكَ بَيَّنَ رَبُّنَا –تبارك وتعالى- أنَّ المُفْلِحِينَ هُمُ الذِينَ اتَّصَفُوا بِأَرْبَعِ صِفَاتٍ، فَقَالَ اللهُ –تبارك وتعالى- في سُورَةِ العَصْرِ: ﴿وَالْعَصْرِ﴾: والعَصْرُ هَاهُنَا هُوَ الزَّمَانُ الذي هو مَحَلُّ وُقُوعِ مَا يُحِبُّهُ اللهُ وَمَا يُبْغِضُهُ ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ﴾: فَأَقْسَمَ اللهُ رَبُّ العَالَمِينَ أَنَّ جِنْسَ الإِنْسَانِ فِي خُسْرَانٍ، ثُمَّ اسْتَثْنَى اللهُ –تبارك وتعالى- مَنِ اتَّصَفَ بِأَرْبَعِ صِفَاتٍ، قال: ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾:.

﴿تَوَاصَوْا بِالْحَقِّ﴾ أَيْ: وَصَّى بَعْضُكُمْ بَعْضًا بِمَا يُحِبُّهُ اللهُ وَيَرْضَاهُ، وَنَهَى بَعْضُهُمْ بَعْضًا عَمَّا يُبْغِضُهُ اللهُ –تبارك وتعالى- وَلَا يُحِبُّهُ، إِذَا فَعَلَ الإِنْسَانُ ذَلِكَ، وَأَمَرَ بالمَعْرُوفِ، وَنَهَى عَنِ المُنْكَرِ؛ فلا بُدَّ أنْ يَقَعَ عليه الأَذَى، لِذَلِكَ أَتْبَعَ ذلك بقوله: ﴿وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾، لما جاء ذِكْرُ الصَّبْرِ هَاهُنَا؟

جاء ذِكْرُ الصبرِ هاهنا؛ لأَنَّ الَّذِي يُوصِي بالخَيْرِ، ويَتَوَاصَى بِهِ مَعَ الناسِ؛ لا بُدَّ أنْ يَقَعَ عَلَيْهِ الإِيذَاءُ، كما قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ: ﴿يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [لقمان: ١٧]، لأَنَّ الذي يقولُ للناسِ: هذا حَرَامٌ، هذا لا يجوزُ؛ يُبْغِضُهُ أصحابُ الأهواءِ، الذي يَقُولُ للناسِ: اِفْعَلُوا هذا، فهو مما يُحِبُّه اللهُ، ويَأْتِي بالدليلِ عليه مِنْ كلامِ اللهِ، ومِنْ سُنَّةِ رسولِ اللهِ؛ يُبْغِضُهُ الناسُ ويُحَارِبُونَهُ؛ لأَنَّ الأمرَ بالمعروفِ والنَّهْيَ عنِ المُنْكَرِ دَعْوَةٌ إلى الِالْتِزَامِ الظاهرِ والباطنِ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ على نَبِيِّهِ ﷺ، وهذا يُعَاكِسُ شَهَوَاتِ النُّفُوسِ؛ لأَنَّ الدِّينَ في الجُمْلَةِ إِنَّمَا هُوَ إِخْرَاجُ العبدِ مِنْ دَاعِيَةِ هَوَاهُ إِلَى مَا يُحِبُّه اللهُ ويَرْضَاهُ، هذا هُوَ الدِّينُ.

وهذا يَتَطَلَّبُ الصبرَ على الأَلَمِ الَّذِي يَتَأَتَّى مِنَ البُعْدِ عنِ المَحْبُوبِ للنَّفْسِ المَبْغُوضِ لِلرَّبِّ، وكذلك في حَمْلِ النَّفْسِ على الإِتْيَانِ بالطاعَةِ، وقَدْ يَلُفُّهَا ويُحِيطُ بها بَعْضُ المَشَقَّاتِ.

«مَنْ لَمْ يَتخَلَّقْ بِالْحَيَاءِ فَهُوَ مِنَ الخَاسِرِينَ»

فهذا الخُلُقُ العظيمُ مَنْ لَمْ يَتَخَلَّقْ بِهِ فَهُوَ مِنَ الخَاسِرِينَ، **«إِذَا لَمْ تَسْتَحِ فَاصْنَعْ مَا شِئْتَ»**.

قال: «**دَعْهُ؛ فَإِنَّ الحَيَاءَ لَا يَأْتِي إِلَّا بِخَيْرٍ**».

قال: «**إِنَّ لِكُلِّ دِينٍ خُلُقًا، وإِنَّ خُلُقَ الإِسْلَامِ الحَيَاءُ**».

قال النَّبِيُّ ﷺ: «**الْإِيمَانُ بِضْعٌ وَ وَسِتُّونَ أَوْ بِضْعٌ وَسَبْعُونَ شُعْبَةً، فَأَعْلَاهَا: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَدْنَاهَا: إِمَاطَةُ الْأَذَى عَنْ الطَّرِيقِ**»، ثُمَّ قَالَ **وَخَصَّ مَا قَالَ بِالذِّكْرِ**: «**وَالْحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنْ الْإِيمَانِ**».

وأَنْتَ تَرَى ذَلِكَ فِي الْأَطْفَالِ الصِّغَارِ، وَفِي البَنَاتِ خَاصَّةً الَّتِي لَا تُبَالِي بِكَشْفِ ما يُكْشَفُ مِنْ جَسَدِهَا، الَّتِي لَا تُبَالِي وَهِيَ صَغِيرَةٌ لَمْ تُدْرِكْ بَعْدُ، الَّتِي لَا تُبَالِي بِمَا يَقْبُحُ وَيَسُوءُ؛ فَقَدْ عُدِمَتِ الحَيَاءَ.

تَلْحَظُ هَذَا الخُلُقَ فِي هَؤُلَاءِ الصِّغَارِ؛ لأَنَّ الحَيَاءَ وَهْبِيٌّ وَكَسْبِيٌّ، وَهْبِيٌّ بِمَعْنَى أَنْ يَطْبَعَكَ اللهُ عَلَيْهِ، وَكَسْبِيٌّ بِمَعْنَى أَنَّكَ تُجَاهِدُ نَفْسَكَ فِي التَّخَلُّقِ بِهَذَا الخُلُقِ، بِأَنْ تَكُونَ مُرَاقِبًا للهِ؛ لأَنَّ اللهَ يَرَاكَ ويَسْمَعُكَ، فَتَسْتَحْيِي مِنَ اللهِ –تبارك وتعالى-، وَتَفْعَلُ ما يُحِبُّ، وتَبْعُدُ عَمَّا يُبْغِضُ، فَعِنْدَ ذَلِكَ يُكْسِبُكَ ذَلِكَ الحَيَاءَ، كَمَا قَالَ رسولُ اللهِ: «**العِلْمُ بِالتَّعَلُّمِ، والحِلْمُ بِالتَّحَلُّمِ**»، يَعْنِي: أَنَّ مِنْهُ مَا هُوَ كَسْبِيٌّ، فَاجْتَهِدْ في اكْتِسَابِ الفضائلِ، وفي البُعْدِ عَنِ الرَّذَائِلِ؛ فَإِنَّ الإنسانَ لا يُقَاسُ بِظَاهِرِهِ، وَلَا بِمَنْصِبِه، وَلَا بِمَالِهِ، وَلَا بِجَاهِهِ، وَلَا بِنَسَبِهِ، يَقُولُ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**مَنْ بَطَّأَ بِهِ عَمَلُهُ؛ لَمْ يُسْرِعْ بِهِ نَسَبُهُ**».

أَبُو لَهَبٍ عَمُّ رسولِ الله، قُرَشِيٌّ صَلِيبةً، وَكَانَ مِنْ سَادَاتِ قُرَيْشٍ فِي الجَاهِلِيَّةِ، وأبو لَهَبٍ في النارِ كما أَخْبَرَ العَلِيُّ الغَفَّارُ، وبِلَالٌ كان عَبْدًا حَبَشِيًّا، وبِلَالٌ يَقُولُ عنه عُمَرُ -رضي الله عنه-: «أبو بَكْرٍ سَيِّدُنَا، وَأَعْتَقَ سَيِّدَنَا»، يُرِيدُ بلالًا؛ لأنَّ أبا بَكْرٍ أَعْتَقَ بلالًا -رضي الله عنهما-، فَهَذَا إِنَّمَا رَفَعَهُ الدِّينُ ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣](١).

« الْحَيَاءَ حَاجِزٌ عَنِ الْوُقُوعِ فِيمَا حَرَّمَ اللهُ »

اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ أَخْبَرَنَا عَلَى لِسَانِ نَبِيِّنَا الْأَمِينِ ﷺ عَنْ عِظَمِ فَضِيلَةِ الْحَيَاءِ، وَأَنَّ اللهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ جَعَلَ هَذَا الْخُلُقَ خُلُقَ الْإِسْلَامِ، وَخَلَّقَ النَّبِيَّ ﷺ مِنْهُ بِالنَّصِيبِ الْأَوْفَى.

وَجَعَلَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ الْحَيَاءَ حَاجِزًا عَنِ الْوُقُوعِ فِيمَا حَرَّمَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ، وَجَعَلَ الْحَيَاءَ مِنْ خُلُقِ الْمَلَائِكَةِ الْمُطَهَّرِينَ.

وَالنَّبِيُّ ﷺ فِي وَصْفِهِ فِي خُلُقِ الْحَيَاءِ الَّذِي كَانَ عِنْدَهُ: «أَنَّهُ كَانَ أَحْيَا مِنَ الْعَذْرَاءِ فِي خِدْرِهَا ﷺ».

«إِذَا انْهَارَتِ الْأَخْلَاقُ انْهَارَ الْمُجْتَمَعُ»

الْمُجْتَمَعُ إِذَا مَا انْهَارَتْ أَخْلَاقُهُ، وَإِذَا مَا سَقَطَتْ أَخْلَاقُهُ فِي الْحَمْأَةِ الْوَبِيلَةِ، الْمُجْتَمَعُ إِذَا ظَهَرَتْ فِيهِ الْفَاحِشَةُ؛ انْهَارَ لَا مَحَالَةَ، وَقَدْ عَلِمَ أَعْدَاءُ الْإِسْلَامِ فِي دَاخِلٍ وَخَارِجٍ؛ أَنَّهُمْ لَنْ يَنَالُوا بِالْمُوَاجَهَةِ الْعَسْكَرِيَّةِ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْمُسْلِمِينَ شَيْئًا ذَا بَالٍ؛ وَلِذَلِكَ كَانَ التَّرْكِيزُ كُلُّهُ عَلَى بَثِّ الشُّبُهَاتِ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ، وَعَلَى إِثَارَةِ نَوَازِعِ الْعَصَبِيَّةِ بَيْنَ أَبْنَاءِ الْإِسْلَامِ الْعَظِيمِ، وَبِإِثَارَةِ الشَّهَوَاتِ وَبَعْثِ النَّزَوَاتِ مِنْ مَكَامِنِهَا، فَإِذَا انْهَارَتِ الْأَخْلَاقُ؛ انْهَارَ الْمُجْتَمَعُ لَا مَحَالَةَ(٢).

---

(١)«محاضرة: الحياء لا يأتي إلا بخير».

(٢) «مِنْ خُطْبَةِ: الْحَرْبُ بِالْفَوَاحِشِ - الْجُمُعَة ٢٢ مِنْ جُمَادَى الْأُولَى ١٤٢٨هـ الْمُوَافِق ٨-٦-٢٠٠٧م».

«أَفِيقُوا...فالأُمَّةُ فِي مِحْنَةٍ تَارِيخِيَّةٍ»

يَنْبَغِي عَلَيْنَا أَنْ نُفِيقَ؛ لِأَنَّنَا فِي ظَرْفٍ تَارِيخِيٍّ مِنْ أَعْقَدِ الظُّرُوفِ الَّتِي مَرَّتْ بِهَا الْأُمَّةُ مُنْذُ كَانَتْ أُمَّةً إِلَى يَوْمِ النَّاسِ هَذَا، لَا نَجَاةَ لَنَا إِلَّا بِأَنْ نَتَحَابَّ وَنَتَضَامَّ، وَأَنْ نَكُونَ كَالْجَسَدِ الوَاحِدِ كَمَا أَخْبَرَ رَسُولُ اللهِ، أَمَّا إِذَا قَعَدَتْ بِنَا ثَارَاتُنَا وَأَهْوَاؤُنَا، وَتَخَلَّفَتْ بِنَا نَزَوَاتُنَا وَشَهَوَاتُنَا؛ فَلَيْسَ إِلَّا الدَّمَارُ وَالْبَوَارُ، نَسْأَلُ اللهَ العَافِيَةَ.

أَسْأَلُ اللهَ رَبَّ العَالَمِينَ أَنْ يَرْحَمَنَا أَجْمَعِينَ.

وَصَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ عَلَى نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ ﷺ(١).

---

(١)«محاضرة: الحياء لا يأتي إلا بخير».

«المَوْعِظَةُ الثَّالِثَةُ عَشْرَةَ»

«تَحَرِّي الحَلَالِ»

إِنَّ الْحَمْدَ لِلَّهِ نَحْمَدُهُ، وَنَسْتَعِينُهُ وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِاللَّـه مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللَّـهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَا هَادِيَ لَهُ.

وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّـهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ.

وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ ﷺ.

أَمَّا بَعْدُ:

فقَد أخرجَ الإمامُ مسلمٌ في «صحيحِهِ» بسندِهِ عن أبي هريرة –رضوان الله عليه- قال: قال رسولُ اللهِ ﷺ: «**إِنَّ اللهَ تَعَالَى طَيِّبٌ لاَ يَقْبَلُ إِلاَّ طَيِّبًا، وَإِنَّ اللهَ أَمَرَ المُؤْمِنِيْنَ بِمَا أَمَرَ بِهِ المُرْسَلِيْنَ فَقَالَ:** ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ [المؤمنون: ٥١]، **وَقَالَ تَعَالَى:** ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ [البقرة: ١٧٢]. **ثُمَّ ذَكَرَ الرَّجُلَ يُطِيْلُ السَّفَرَ أَشْعَثَ أَغْبَرَ، يَمُدُّ يَدَيْهِ إِلَى السَّمَاءِ يَقُولُ: يَا رَبِّ يَا رَبِّ، وَمَطْعَمُهُ حَرَامٌ، وَمَشْرَبُهُ حَرَامٌ، وَمَلْبَسُهُ حَرَامٌ، وَغُذِيَ بِالحَرَامِ فَأَنَّى يُسْتَجَابُ لَهُ؟!**»

هذا الحديثُ العظيمُ الصحيحُ يُرَكِّزُ على أصلٍ خطيرٍ في دينِ اللهِ ربِّ العالمين وهو أكلُ الحلالِ، ويُحَذِّرُ مِن خطورةِ أكلِ الحرامِ، ويجعلُ الربطَ مباشرًا بين أكلِ الحلالِ واستجابةِ الدعاءِ، ويُبيِّنُ أنَّ أعظمَ قواطعِ الدعاءِ وموانعِهِ هو أكلُ الحرام.

إِنَّ اللهَ طَيِّبٌ لاَ يَقْبَلُ إِلاَّ طَيِّبًا، وَإِنَّ اللهَ أَمَرَ الْمُؤْمِنِيْنَ بِمَا أَمَرَ بِهِ الْمُرْسَلِيْنَ، فلا فارق، فهذا الأمرُ عامٌّ شاملٌ بلا فوارق، أمرَ اللهُ ربُّ العالمين بأنْ يأكلوا مِن الطيِّباتِ ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا﴾، وانظُر إلى التتابعِ الذي ذكرَهُ اللهُ –جلَّت قُدرتُهُ- في نظمِ الآية؛ إذ رتَّبَ العملَ الصالحَ على أكلِ الحلالِ الطيبِ، فلا يُعينُ على العملِ الصالحِ مِثلُ أكلِ الحلالِ ﴿كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا﴾.

وأمرَ اللهُ ربُّ العالمين المؤمنين بأنْ يأكلوا مِن الطيباتِ من الحلالِ، ثم ذكرَ النبيُّ ﷺ «**الرَّجُلَ يُطِيْلُ السَّفَرَ أَشْعَثَ أَغْبَرَ، يَمُدُّ يَدَيْهِ إِلَى السَّمَاءِ، يَقُوْلُ: يَا رَبِّ يَا رَبِّ**»، فأتى بأمورٍ هي مِن دواعي إجابةِ الدعاءِ، بحيث إذا ما استكملَهَا المرءُ استجابَ اللهُ ربُّ العالمين دُعاءَهُ:

«**يُطيلُ السَّفرَ**»: ومِن الثلاثةِ الذين ذكرَ النبيُّ ﷺ أنهم لا تُرَدُّ دعوتُهُم المسافرُ حتى يئوب، المسافرُ حتى يعود، فهذا يُطيلُ السفرَ.

((**أشعثَ أغبرَ**)) على هيئةٍ فيها اتِّضاعٌ لعزةِ اللهِ وفيها مذلةٌ لجنابِ اللهِ، فهذا يُطِيْلُ السَّفَرَ أَشْعَثَ أَغْبَرَ.

((**يَمُدُّ يَدَيْهِ إِلَى السَّمَاءِ، يَقُوْلُ: يَا رَبِّ يَا رَبِّ**))، وهو أمرٌ مِن دواعي إجابةِ الدعاء إذ يُلِحُّ في الدعاءِ بوصفِ الربوبيةِ للهِ ربِّ العالمين، يا ربِّ يا ربِّ يُكَرِّرُهَا، يتذللُ بها إلى اللهِ –جلَّت قدرتُه-.

ولكنْ يأتي قاطعٌ عظيمٌ مِن قواطعِ الدعاء، يقولُ النبيُّ ﷺ في وصفِ الرجلِ الذي ذكرَ النبيُّ ﷺ مِن إتيانِهِ بدواعي الإجابةِ –إجابةِ الدعاءِ- بما أتى به مما يفتحُ له أبوابُ السماءِ بلا إغلاقٍ ولا مواربة، وبلا تريُّثٍ ولا بطءٍ، ومع ذلك يقولُ الرسولُ ﷺ في وصفِهِ: «**وَمَطْعَمُهُ حَرَامٌ، وَمَشْرَبُهُ حَرَامٌ، وَمَلْبَسُهُ حَرَامٌ، وَغُذِيَ بِالحَرَامِ فَأَنَّى** -فَكَيْفَ- **يُسْتَجَابُ لَهُ؟!**»

«الثمراتُ الخبيثةُ لأكلِ الحرامِ»

أكلُ الحرامِ يُثْمِرُ هذا الثَّمَرَ الخَبِيثَ، وهو قَطْعُ الدعاءِ فلا استجابة، ولو ظَلَّ يَدْعُو حتى تَفْنَى نَفْسُهُ في الدُّعَاءِ لا يُستجابُ له، ولو مَدَّ يدَهُ إلى السحابِ إلى عَنَانِ السماءِ وهو يأكلُ مِن الحرامِ، في بطنِهِ الحرام، وعلى ظَهْرِهِ الحرام، يُكْسَى مِن الحرام، وفي بَيْتِهِ الحرام لا يُستجابُ له.

أكلُ الحرامِ يُثمرُ ثمرًا آخرَ خبيثًا مُرًّا، وهو ما ذكرَهُ النبيُّ ﷺ في الحديثِ الصحيحِ: «**إنَّ اللهَ حَرَّمَ على الجنةِ كُلَّ لحمٍ نَبَتَ مِن سُحْتٍ، كُلُّ لحمٍ نَبَتَ مِن سُحتٍ** -مِن حرام- **فالنارُ أَوْلَى به**»(١).

«نَصَائِحُ النَّبِيِّ الأَمِينِ ﷺ للبَائِعِينَ وَالتُّجَّارِ المُسْلِمِينَ»

«ترهيبُ النبيِّ ﷺ مِن الغِشِّ في البيعِ والشراءِ»

فَقَدْ رَهَّبَ النَّبِيُّ ﷺ مِنَ الغِشِّ، وَرَغَّبَ فِي النَّصِيحَةِ فِي البَيْعِ وَغَيْرِهِ.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «**مَنْ حَمَلَ عَلَيْنَا السِّلَاحَ؛ فَلَيْسَ مِنَّا، وَمَنْ غَشَّنَا؛ فَلَيْسَ مِنَّا**». رَوَاهُ مُسْلِمٌ.

وَعَنْهُ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ-، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ مَرَّ عَلَى صُبْرَةِ* طَعَامٍ، فَأَدْخَلَ يَدَهُ فِيهَا، فَنَالَتْ أَصَابِعُهُ بَلَلًا، فَقَالَ: «**مَا هَذَا يَا صَاحِبَ الطَّعَامِ؟!**»

قَالَ: أَصَابَتْهُ السَّمَاءُ يَا رَسُولَ اللَّهِ.

قَالَ: «**أَفَلَا جَعَلْتَهُ فَوْقَ الطَّعَامِ كَيْ يَرَاهُ النَّاسُ؟ مَنْ غَشَّ فَلَيْسَ مِنِّي**». رَوَاهُ مُسْلِمٌ.

---

(١) «مِن المحاضرة الأولى من سلسلة: أكل الحلال».

***الصُّبْرَةُ** -**بِضَمِّ الصَّادِ وَإِسْكَانِ الْبَاءِ**- **هِيَ**: الْكَوْمَةُ الْمَجْمُوعَةُ مِنَ الطَّعَامِ، سُمِّيَتْ صُبْرَةً لِإِفْرَاغِ بَعْضِهَا عَلَى بَعْضٍ. «شَرْحُ صَحِيحِ مُسْلِمٍ» لِلنَّوَوِيِّ (١٠٩/٢).

وَعَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ-، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: «**المُسْلِمُ أَخُو المُسْلِمِ، وَلَا يَحِلُّ لِمُسْلِمٍ إذا بَاعَ مِنْ أَخِيهِ بَيْعًا فِيهِ عَيْبٌ أَنْ لَا يُبَيِّنَهُ لَهُ**». أَخْرَجَهُ أَحْمَد وَالطَّبَرَانِيُّ فِي «الكَبِيرِ»، وَصَحَّحَهُ الأَلْبَانِيُّ فِي «صَحِيحِ التَّرْغِيبِ وَالتَّرْهِيبِ».

«تَطْفِيفُ المَكَايِيلِ وَالمَوَازِينِ مِنْ كَبَائِرِ الإِثْمِ وَعَظَائِمِ الذُّنُوبِ»

وَمِنْ كَبائِرِ الإِثْمِ، وَعَظَائِمِ الذُّنُوبِ: تَطْفِيفُ المَكَايِيلِ وَالمَوَازِينِ.

وَالتَّطْفِيفُ: البَخْسُ وَالنَّقْصُ؛ فَهُوَ مُطَفِّفٌ، وَالجَمْعُ: مُطَفِّفُونَ.

وَالمَكَايِيلُ: جَمْعُ: مِكْيَالٍ، وَهُوَ وُعَاءُ الكَيْلَ.

وَالكَيْلُ: تَحْدِيدُ مِقْدَارِ الشَّيءِ بِوَاسِطَةِ آلَةٍ مُعَدَّةٍ لِذَلِكَ تُسَمَّى المِكْيَالَ.

وَالمَوَازِينُ: جَمْعُ: مِيزَانٍ، وَهُوَ آلَةُ الوَزْنِ، وَالوَزْنُ: تَقْدِيرُ الشَّيءِ بِوَاسِطَةِ المِيزَانِ.

وَمِنْ نِعَمِ اللهِ عَلَى العِبَادِ وُجُودُ هَذِهِ الأَوْعِيَةِ وَالآلَاتِ الَّتِي تُساعِدُهُمْ عَلَى تَحْدِيدِ مَقَادِيرِ المَوْزُونَاتِ وَالمَكِيلَاتِ، فَيَأْخُذُ الشَّخْصُ مَا يَجِبُ لَهُ تَامًّا، وَيُعْطِي مَا لِغَيْرِهِ عَلَى وَجْهِ التَّمَامِ أَيْضًا.

قَالَ اللهُ -جَلَّ وَعَلَا-: ﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ (٧) أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ (٨) وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ (٩)﴾ [الرحمن: ٧-٩].

وَقَالَ ﷺ فِي رِعَايَةِ المَوَازِينِ: «**إِذَا وَزَنْتُمْ؛ فَأَرْجِحُوا**». أَخْرَجَهُ ابْنُ مَاجَهْ (٢٢٢٢)، وَصَحَّحَ إِسْنَادَهُ الأَلْبَانِيُّ فِي «الصَّحِيحَةِ» (٣٩٤٢).

وَأَوْضَحُ آيَةٍ فِي القُرْآنِ المَجِيدِ تَجْعَلُ التَّلاعُبَ فِي المَكَايِيلِ وَالمَوَازِينِ كَبِيرَةً مُوبِقَةً مُهْلِكَةً؛ هِيَ قَوْلُ اللهِ –جَلَّ وَعَلَا-: ﴿وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ (١) الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ (٢) وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ (٣) أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ (٤) لِيَوْمٍ عَظِيمٍ (٥) يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ (٦)﴾ [المطففين: ١-٦].

وَالوَيْلُ فِي أَحَدِ الأَقْوَالِ: وَادٍ فِي جَهَنَّمَ يَتَهَدَّدُ بِهِ الرَّبُّ -جَلَّ وَعَلَا- أُولَئِكَ الَّذِينَ خَانُوا أَمَانَاتِهِمْ، وَبَاعُوا ذِمَمَهُمْ، وَتَعَدَّوْا عَلَى حُقُوقِ الآخَرِينَ.

إِنَّ هَذَا الدَّاءَ الخَطِيرَ إِنَّمَا يَنْشَأُ عَادَةً مِنْ جَشَعِ النَّفْسِ، وَخَرَابِ الضَّمِيرِ، وَقِلَّةِ الخَشْيَةِ مِنَ اللهِ رَبِّ العَالَمِينَ.

وَكَانَ ابْنُ عُمَرَ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا- يَمُرُّ بِالبَائِعِ، فَيَقُولُ: «اتَّقِ اللهَ، وَأَوْفِ الكَيْلَ وَالوَزْنَ، فَإِنَّ المُطَفِّفِينَ يُوقَفُونَ، حَتَّى إِنَّ العَرَقَ لَيُلْجِمُهُمْ إِلَى أَنْصَافِ آذَانِهِمْ».

وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا- لِأَصْحَابِ الكَيْلِ وَالوَزْنِ: «إِنَّكُمْ قَدْ وُلِّيتُمْ أَمْرًا فِيهِ هَلَكَتِ الأُمَمُ السَّابِقَةُ قَبْلَكُمْ».

قَالَ بَعْضُ الصَّالِحِينَ: «وَيْلٌ ثُمَّ وَيْلٌ لِمَنْ يَبِيعُ بِحَبَّةٍ يُنْقِصُهَا جَنَّةً عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ؛ وَيَشْتَرِي بِحَبَّةٍ يَزِيدُهَا وَادِيًا فِي جَهَنَّمَ يُذِيبُ جِبَالَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا».

وَعَنِ ابْنِ عُمَرَ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا- قَالَ: أَقْبَلَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ؛ فَقَالَ: «**وَلَمْ يُنْقِصُوا المِكْيَالَ وَالمِيزَانَ إِلَّا أُخِذُوا بِالسِّنِينَ، وَشِدَّةِ المَئُونَةِ، وَجَوْرِ السُّلْطَانِ عَلَيْهِمْ**»(١).

---

(١)«ملخص مِن خطبة: خطورة الاحتكار على الأمنِ والاستقرارِ الجُمُعَة ٢٨ مِنْ ذِي الحِجَّةِ ١٤٣٧ هـ المُوَافِق ٢٠١٦/٠٩/٣٠م».

«نصيحةٌ غاليةٌ للمُوظفين»

إنَّ كثيرًا مِن الناسِ إذا كان موظَّفًا يَتَحَصَّلُ على رَاتِبٍ في مُقَابلِ عَمَلِهِ -كثيرٌ منهم بل جُلُّهُم- لا يعلمونَ أنهم مُستأْجَرُونَ! هم أُجَرَاءُ، مُستأجرُونَ على حسبِ عقدٍ مُبْرَمٍ ولائحةٍ لها بنود، وهُم في أعمالِهِم ينبغي أنْ يلتزموا بما تعاقدوا عليه بدءًا، وكلُّ مَن فرَّطَ فقَد تحصَّلَ على مالٍ مِن غيرِ حِلِّهِ، وهو مُغَذٍ ولدَهُ وأهلَهُ وبَانٍ بَيْتَهُ، ومُقْتَنٍ مركوبَهُ مِن حرامٍ، هذا إذا كانت الوظيفةُ في نفسِهَا بعقدٍ على ما يَحِلُّ في دينِ اللهِ -تبارك وتعالى-؛ لأنه ينبغي أنْ تكونَ مما شرعَ الله؛ لأنَّ الرجُلَ الذي يعملُ في ماخور، يُقَدِّمُ الخمورَ، ويقومُ على العمل مُتفانيًا فيه بإخلاص! يقولُ: إنه يتحصلُ على أجرِهِ بِعَرَقِ جَبينِهِ! فأيُّ حُرمةٍ تلحقُهُ! والعملُ حرامٌ في أصلِهِ.

وإذا كان العملُ حلالًا كالغالبِ على جملةِ الأعمالِ، فوقعَ تقصيرٌ فيما تمَّ التعاقدُ عليه أصلًا؛ فإنَّ الكسبَ هاهنا يكونُ مِن حرامٍ، وما تحصلَ عليه لَحِقَتْهُ الحُرمةُ لا محالة، فإذا كان المرءُ متعاقدًا، وإذا كان موظفًا وعاملًا؛ فهو مُستأجَرٌ وأجيرٌ، يتحصلُ على مالٍ في نظيرِ منفعة، وهو قد قَبِلَ ذلك وأقرَّ به، وعَمِلَ على أساسِهِ، فهو مُلزَمٌ به ومُكَلَّفٌ بأنْ يأتيَ بما تعاقدَ عليه، فإنْ أخلَّ فَقَد تحصلَ على مالٍ مِن غيرِ مقابلٍ، فتحصلَ على مالٍ مِن سُحْتٍ، يَنْبُتُ منه لحمٌ مِن سُحْتٍ، وكلُّ لحمٍ نَبَتَ مِن سُحْتٍ فالنارُ أَوْلَى به.

فكثيرٌ مِن الناس حتى وإن كان في مهنةٍ هي حلالٌ في أصلِ الشرعِ لا يُؤديها كما ينبغي، ويتحصلُ على راتبِهِ مِن غيرِ أن يؤديَ المنفعةَ التي تعاقدَ عليها في أصلِ العقدِ، فهو آكل مِن حرامٍ(١).

---

(١)«من خطبة: هدايا الموظفين الجمعة ٥ من ربيع الأول ١٤٣١هـ الموافق ١٩-٢-٢٠١٠م».

عندنا في عصرِنَا هذا كلُّ موظفٍ في الدولةِ مهما كان موقعُهُ إنما هو أجيرٌ عند الدولةِ على مقتضى عقدٍ له بنودٌ قد خُطَّت وصِيغَت، ولكنْ هناك جهالةٌ فاشيةٌ عند الأُجَرَاء -يعني: عند الموظفين والعُمال- في معرفةِ بنودِ عقدِ الإجارةِ المعقودِ بينه وبين الجهةِ التي يعملُ أجيرًا لديها.

والإجارةُ: عقدٌ بمنفعةٍ على عِوَضٍ مِن مالٍ، فأنت تأتي بالمنفعةِ عقليةً كانت أو ماديةً في مقابلِ عِوَضٍ ماديٍّ معلوم(١).

«هَدَايَا المُوَظَّفِين»

وهدايا العُمَّالِ، هدايا المُوظَّفين في هذا الزمانِ ألحقَهَا الرسولُ ﷺ بالغُلُولِ، والغُلولُ: الأخذُ مِن الغنيمةِ قبل القسمةِ، أو هو الأخذُ مِن المالِ العامِ، أو هو التربُّحُ بسببِ العملِ الذي يعملُهُ الإنسانُ(٢).

«نَصَائِحُ غَالِيَة للأَطِبَّاءِ»

مِن المعلومِ أنَّ الطبيبَ له الحقُّ على حسبِ العقدِ المُبرمِ بينهُ وبين وزارةِ الصحةِ التي يعملُ أجيرًا لديها، له الحقُّ في أنْ يفتتحَ وأن يتَّخِذَ لنفسِهِ مع عَمَلِهِ في المَشْفَى -في المستشفى- أنْ يتخذَ لنَفْسِهِ عيادةً خارجيةً، وإذا لم يفعل ذلك فهو يتحصلُ مع راتبِهِ على ما يُسمى بـ (بدل عيادة)، وأمَّا إذا افتتحَ لنفسِهِ أو اتخذَ لنفسِهِ عيادةً خارجيةً؛ فإنه يُخصمُ منه بدلُ العيادة في هذه الحال.

---

(١) «مِن المحاضرة الثانية من سلسلة: أكل الحلال».

(٢) «مِن المحاضرة الثانية من سلسلة: أكل الحلال».

يعملُ في المستشفى في الوقتِ المطلوبِ منه أنْ يعملَ فيه بما يُرضِي اللهَ –جلَّت قدرتُهُ- وعلى حَسَبِ ما هو مطلوبٌ منهَ، يتقِّي اللهَ –تبارك وتعالى- في عَمَلِهِ، ولا يَتَّخِذُ المُستشفى كالأعرافِ –منطقة وسطى- إمَّا أنْ يدخلَ إليها بمريضٍ أتى به مِن عيادتِهِ لكي يستكملَ في المستشفى فحوصًا لذلك المريض، أو يأخذَ بيدِ مريضٍ مِن المستشفى ليذهبَ به إلى عيادتِهِ.

إذا ذهبَ المريضُ إلى الطبيبِ في عيادتِهِ فَدَفَعَ أَجْرَ الفحصِ، ثم دخلَ على الطبيبِ فلم يستطع الطبيبُ أنْ يُشَخِّصَهُ، هل يجبُ على الطبيبِ أنْ يَرُدَّ للمريضِ الأجرَ الذي دفعَهُ أو لا يجب؟ هل يجب عليه أنْ يُعلِمَهُ بأنه جاهلٌ بمرضِهِ وأنه لم يستطع له تشخيصًا أمْ يخدعُهُ ثم يصفُ له دواءً ليس بمُتعلقٍ بمرضِهِ، فيُكَلِّفُهُ مالًا في غيرِ محلِّهِ ويُمَكِّنُ للمرضِ مِن جسدِهِ، ويُفَوِّتُ عليه فرصةَ شفاءٍ كان يمكنُ أنْ تكونَ أرخصَ ثمنًا وأقلَّ وقعًا على بدنِهِ ممَّا يَتَأَتَّى بَعْدُ؟

هل يظَلُّ سَادِرًا مع جَهْلِهِ وهو لا يَعْلَمُ تَشْخِيصَ مَرِيضِهِ، فَيَصِفُ له دواءً أيَّ دواءٍ كما يقولون: إذا لم يَنْفَع لا يَضُرُّ، لا؛ هو يضُرُّ، يضُرُّ بالمريضِ ماليًّا، وأيضًا يضُرُّ به في بدنِهِ؛ لأنه يُمَكِّنُ للمرضِ المجهولِ الهُوِيَّةِ الذي لم يستطع له معرفةً، يُمَكِّنُ لهذا المرضِ في جسدِ المريضِ، وتطولُ المدةُ على الوقوعِ على الدواءِ المناسبِ للمرضِ حتى يأذنَ اللهُ –تبارك وتعالى- بالبُرْءِ والشِّفَاءِ.

وأيضًا هو عندما يفعلُ به ذلك يُفَوِّتُ عليه فرصةَ شفاءٍ في زمانٍ، وأنت تَعْلَمُ أنَّ الزمنَ أَصْلُ المَالِ، وأنَّ المالَ فرعُ الزمنِ، وإذن فهو يُفَوِّتُ عليه زمانًا كان مَحَلًّا لكسبِ مالٍ، فهو يُفَوِّتُ عليه منفعةً كانت تعودُ على الفردِ بمالٍ وتعودُ على المجتمعِ بمنفعةٍ أيضًا.

ولَكِنْ هل يَجِبُ على الطبيبِ إذا ما جَهِلَ؟

أولًا: هو لا يَجِبُ مطلقًا، بل ينبغي، بل يَحْرُمُ على الطبيبِ أنْ يعملَ في غَيْرِ تَخَصُّصِهِ، ويقولُ النبيُّ ﷺ: «**مَن طَبَّبَ وهو جاهلٌ بالطِّبِ فَعَلَيْهِ الضَّمَانُ**»، والعاملُ في غيرِ تخصصِهِ جاهلٌ بالتخصصِ الذي لم يتخصص فيه، وإذن فهو إذا عَالَجَ في غيرِ تَخَصُّصِهِ؛ فهو مُعالِجٌ فيما هو به جاهلٌ، وفيما هو له غيرُ عالِمٍ، وإذن فلا ينبغي عليه أنْ يجعلَ نفسَهُ مُتعرِّضًا لمِثلِ هذا الأمرِ في هذه الحالةِ.

ولكنْ هل تَجِدُ طبيبًا يقْوَى على أنْ يقولَ لمريضِهِ يا صاح –ترخيم يا صاحبي-: أنا لا أستطيعُ أنْ أَقَعَ عَلَى كُنْهِ عِلَّتِكَ، ولا أستطيعُ أنْ أُشَخِّصَ داءَكَ، أنا به جاهلٌ، ولم يفتح اللهُ ربُّ العالمين عينَ بصيرتي على حقيقةِ دائِكَ؟ فاذهب إلى فلانٍ، فأنا أَظُنُّ أنْ تَجِدَ تشخيصَكَ عندَهُ، ثم يَرُدُّ له المال، هل يقْوَى طبيبٌ على فِعْلِ ذلك؟!!

دَعْكَ مِن هذه، هل يجبُ عليه أنْ يرُدَّ المالَ الذي أخذَهُ إذا لم يستطع الوصولَ إلى عينِ التشخيصِ أو مُقارِبًا للتشخيصِ لا واقعًا على عينِهِ؟

يقولُ بعضُ أهلِ العلمِ: إنَّ المالَ الذي دُفِعَ لم يُدْفَع مِن أجلِ الوصولِ إلى عينِ التشخيصِ ولا مِن أجلِ الوصولِ إلى حقيقةِ الشِّفَاءِ؛ لأنَّ الشفاءَ بيدِ اللهِ وهذه أسباب، فقَد يأتي مِن ورائِهَا نفعٌ وقد لا يتأتى مِن ورائِهَا نفعٌ.

إذن هو يَدْفَعُ المالَ لأُجرةٍ قد أَجَّرَ بها الطبيبَ لزمانٍ يتحصلُ مِن الطبيبِ على منفعةٍ فيه، وهو قد استنفذَ هذا الزمانَ عندما قامَ الطبيبُ بفحصِهِ مُعْمِلًا فيه عِلمَهُ على الوجهِ اللائقِ بهذا الأمرِ، فوقعَ على ما ينبغي ولكنَّهُ لم يستطع الوصولَ إلى حقيقةِ التشخيصِ، إذن فهو مُسْتَوْجِبٌ للأَجْرِ في هذه الحالةِ، وبعضُهُم يقولون: ولكنَّهُ لم يَصِل إلى شيءٍ فَيَجِبُ عليه الرَّدُّ، هذا أمرٌ كما تَرَى عَسِيرٌ جِدًّا.

كذلك ما يَتَعَلَّقُ بالمَالِ العامِّ في المستشفيات، هل يجوزُ للطبيبِ أنْ يأخذَ شيئًا مِن الآلاتِ التي هي للمستشفى خاصةً، فيأخذُ هذه الأشياء لأنَّ عيادتَهُ ليس بها أمثال هذه الآلات، فيجعل ذلك لديه يقومُ به بأعمالٍ يتحصلُ مِن ورائِهَا على أجرٍ، يجوزُ أو لا يجوز؟!!(١)

عبادَ اللهِ فليجتهد الرَّجُلُ منكم في أداءِ عَمَلِهِ على النَّحْوِ المَرْضِيِّ، فإنَّ اللهَ ربَّ العالمين -جلَّت قدرتُهُ- قد جعل للناسِ مع الناس المنافعَ التي لا تُحصَى ولا تُعَدُّ.

وَصَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ عَلَى نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ ﷺ(٢).

---

(١) «مِن المحاضرة الثالثة من سلسلة: أكل الحلال».

(٢) «مِن المحاضرة الثانية من سلسلة: أكل الحلال».

«المَوْعِظَةُ الرَّابِعَةَ عَشْرَةَ»

«المُسَارَعَةُ فِي الخَيْرَاتِ»

إنَّ الْحَمْدَ لِلَّهِ نَحْمَدُهُ، وَنَسْتَعِينُهُ وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِاللَّـهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللَّـهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَا هَادِيَ لَهُ.

وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّـهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ.

وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ ﷺ.

أَمَّا بَعْدُ:

«المُسَارَعَةُ فِي الخَيْرَاتِ دَلَالَةٌ عَلَى حُسْنِ إِسْلَامِ المَرْءِ»

فَإِنَّ مِمَّا حَضَّ اللهُ -تبارك وتعالى- عَلَيْهِ، ورَغَّبَ فيهِ الرسولُ ﷺ: المُسَارَعَةُ فِي الخَيْرَاتِ، والمُسَارَعَةُ فِي الخَيْرَاتِ دَلَالَةٌ عَلَى حُسْنِ الإِسْلَامِ، وتَمَكُّنِ الإيمانِ مِنَ القَلْبِ؛ لأنَّ الإنسانَ إِذَا كَانَ عَلَى يَقِينٍ مِنْ لِقَاءِ رَبِّهِ -جَلَّ وَعَلَا-، وبِمَا بَعْدَ المَوْتِ؛ فَإِنَّهُ يَكُونُ مُجْتَهِدًا فِي تَحْصِيلِ الخَيْرِ لِنَفْسِهِ؛ حَتَّى يَلْقَى جَزَاءَ ذَلِكَ عِنْدَ رَبِّهِ.

والمُسَارَعَةُ فِي الخيراتِ نَدَبَ إِلَيْهَا اللهُ -تبارك وتعالى-، ودَلَّ عَلَى شَرَفِ الآخِذِينَ بِهَا، وحَضَّ عَلَيْهَا النَّبِيُّ ﷺ، ورَغَّبَ فِيهَا فِي كَثِيرٍ مِنْ أَحَادِيثِهِ ﷺ.

والمُسَارَعَةُ -فِي اللُّغَةِ-: مَأْخُوذَةٌ مِنْ مَادَّةِ السِّينِ وَالرَّاءِ والعَيْنِ (سَرُعَ)، وهِيَ تَدُلُّ على خِلَافِ البُطْءِ؛ فَالمُسَارَعَةُ هِيَ: خِلَافُ تَبَاطُئٍ، ومِنْهُ قَوْلُ العَرَبِ: لَسَرْعَانَ مَا صَنَعْتُ كَذَا، أَيْ: مَا أَسْرَعَ مَا صَنَعْتُهُ؛ فَالسُّرْعَةُ ضِدُّ البُطْءِ، وهِيَ تُسْتَخْدَمُ فِي الأَجْسَامِ، وفِي الأَبْعَادِ، قال: سَرُعَ فُلَانٌ، فَهُوَ سَرِيعٌ، وأَسْرَعَ فُلَانٌ، فَهُوَ مُسْرِعٌ، كما يُقَالُ: سَيْرٌ سَرِيعٌ، وفَرَسٌ سَرِيعٌ؛ فَالسُّرْعَةُ ضِدُّ البُطْءِ.

«حَثُّ اللهِ المُؤمِنِينَ عَلَى المُسَارَعَةِ فِي الخَيْرَاتِ»

اللهُ -تبارك وتعالى-نَدَبَ عِبَادَهُ المُؤمِنِينَ إِلَى المُسَارَعَةِ، وتَرْكِ التَّبَاطُؤِ في الخَيْرَاتِ، والمُسَابَقَةِ والمُبَادَرَةِ إلى تَحْصِيلِ الخَيْرَاتِ؛ حَتَّى نَلْقَى جَزَاءَ ذلك وثَوَابَهُ فِي الآخِرَةِ.

يَقُولُ اللهُ -تبارك وتعالى-: ﴿أُولَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ﴾ [المؤمنون: ٦١]، يَعْنِي: يُسَابِقُونَ مَنْ سَابَقَهُمْ إِلَيْهَا، فَهُمْ يَتَسَابَقُونَ فِيمَا بَيْنَهُمْ إِلَى الخَيْرَاتِ، وكُلٌّ يَرْجُو أَنْ يَكُونَ إِلَى الخَيْرَاتِ سَابِقًا.

﴿أُولَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ﴾، قُرِئَ «يُسْرِعُونَ» ﴿أُولَئِكَ يُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ﴾ يعني: هُمْ يَكُونُونَ سِرَاعًا إِلَى الخَيْرَاتِ.

واللهُ -تبارك وتعالى- يُخْبِرُنَا فِي كِتَابِهِ العَظِيمِ أَنَّهُ يَنْبَغِي عَلَيْنَا أَنْ نُسَارِعَ إِلَى المَغْفِرَةِ مِنَ اللهِ -جَلَّتْ قُدْرَتُهُ-.

﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ﴾[آل عمران: ١٣٣]، سَارِعُوا إِلَى ما يُوجِبُ المَغْفِرَةَ، وإلى الطاعةِ، أو أَدَاءِ الفَرَائِضِ، أَوِ الإِخْلَاصِ، أَوِ التَّوْبَةِ مِنَ الرِّبَا، أَوِ الثَّبَاتِ فِي القِتَالِ، أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ، وَهِيَ آيَةٌ عَامَّةٌ فِي جَمِيعِ مَا ذُكِرَ.

﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ﴾، فَالْمَعْنَى: سَارِعُوا إِلَى مَا يُوجِبُ المَغْفِرَةَ، ومَا يُوجِبُ المَغْفِرَةَ: الطَّاعَةُ.

﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ يَعْنِي: إِلَى مَا يُوجِبُ المَغْفِرَةَ مِن رَبِّكُمْ، وهِيَ الطَّاعَةُ بِأَدَاءِ الفَرَائِضِ، بِالْإِخْلَاصِ، بِالتَّوْبَةِ مِنَ الرِّبَا، بِالثَّبَاتِ فِي القِتَالِ، بِغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ أُمُورِ الخَيْرِ الَّتِي نَدَبَ إِلَيْهَا الشَّرْعُ.

ومَعْنَى قَوْلِ اللهِ -تبارك وتعالى-: ﴿فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾[البقرة: ١٤٨]: حَثٌّ واسْتِعْجَالٌ عَلَى جَمِيعِ الطاعاتِ بِالعُمُومِ، وهُوَ مَعْنَى قَوْلِ اللهِ -تبارك وتعالى-: ﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ﴾.

﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ مَعْنَاهَا: قَوْلُ اللهِ -تبارك وتعالى-: ﴿فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾ تَتَضَمَّنُ الحَثَّ والاِسْتِعْجَالَ على جَمِيعِ الطَّاعَاتِ بِالْعُمُومِ مِنْ غَيْرِ مَا وُقُوفٍ عِنْدَ حَدٍّ مَحْدُودٍ فِي طَاعَةِ اللهِ -جل وعلا-.

المُسَارَعَةُ إِلَى الشَّيْءِ: المُبَادَرَةُ إِلَيْهِ.

والفَرْقُ بَيْنَ السُّرْعَةِ والإِسْرَاعِ: أَنَّ الإِسْرَاعَ فِيهِ طَلَبٌ وَتَكَلُّفٌ، وأَمَّا السُّرْعَةُ؛ فإنَّهَا غَرِيزَةٌ، السُّرْعَةُ غَرِيزَةٌ فِي الإِنْسَانِ عِنْدَ الإِطْلَاقِ، وأَمَّا الإِسْرَاعُ؛ فَفِيهِ طَلَبُ السُّرْعَةِ وتَكَلُّفُهَا، فَـ«أَسْرَعَ فُلَانٌ» يَعْنِي: طَلَبَ ذلك مِنْ نَفْسِهِ، وتَكَلَّفَهُ؛ فَكَأَنَّهُ أَسْرَعَ المَشْيَ، أَيْ: عَجَّلَهُ، وأَمَّا «سَرُعَ فُلَانٌ»؛ فالمَعْنَى: أَنَّ السُّرْعَةَ فيهِ طَبْعٌ وَسَجِيَّةٌ.

فَالمُسَارَعَةُ فِي الخَيْرَاتِ: مُبَادَرَةٌ إلى الطَّاعَاتِ، وسَبْقٌ إِلَيْهَا، واسْتِعْجَالٌ فِي أَدَائِهَا، وَعَدَمُ الإِبْطَاءِ فِيهَا أَوْ تَأْخِيرِهَا.

حَضَّ اللهُ -تبارك وتعالى- على المُسَارَعَةِ فِي الخَيْرِ، وأَمَرَنَا اللهُ -تبارك وتعالى- بِذَلِكَ، فَقَالَ -جَلَّتْ قُدْرَتُهُ-: ﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾، فأَمَرَ اللهُ -تبارك وتعالى- بالمُسَارَعَةِ إِلَى المَغْفِرَةِ، يعني: بِتَحْصِيلِ أَسْبَابِ المَغْفِرَةِ، وهي الطَّاعَةُ.

وقَالَ الله -تبارك وتعالى-: ﴿لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ (١١٣) يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾[آل عمران: ١١٣، ١١٤].

وذَكَرَ رَبُّنَا -تبارك وتعالى- مَا كَانَ مِنْ زَكَرِيَّا وآلِهِ: ﴿وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ (٨٩) فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾[الأنبياء:٩٠، ٨٩].

وذَكَرَ اللهُ -تبارك وتعالى- مِنْ صِفَاتِ المُؤْمِنِينَ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ (٥٧) وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ (٥٨) وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ (٥٩) وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ (٦٠) أُولَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ﴾[المؤمنون: ٥٧-٦١].

وَأَمَرَ اللهُ -تبارك وتعالى- بِاسْتِبَاقِ الخَيْرَاتِ؛ ﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[البقرة: ١٤٨].

فِي آيَاتٍ كَثِيرَةٍ أَمَرَ اللهُ -تبارك وتعالى- فِيهَا بالمُسَارَعَةِ فِي الخَيْرَاتِ، والمُسَابَقَةِ إِلَيْهَا، وبَيَّنَ اللهُ -تبارك وتعالى- أَنَّ التَّوَانِيَ في طَلَبِ الخَيْرِ لَيْسَ بِالخَيْرِ، وأَنَّ الإِسْرَاعَ فِي طَلَبِ الخَيْرِ هُوَ الخَيْرُ، وأَنَّ الإِنْسَانَ يَنْبَغِي عَلَيْهِ أَنْ يَكُونَ مُسَارِعًا فِي تَحْصِيلِ المَغْفِرَةِ بِأَسْبَابِهَا وشُرُوطِهَا، وإِلَّا كَانَ مِنَ المُقَصِّرِينَ.

«أَمَرَ الرَّسُولُ ﷺ بِالمُسَارَعَةِ فِي الخَيْرَاتِ وَكَانَ أَسْرَعَ النَّاسِ إِلَيْهَا»

والرَّسُولُ ﷺ كان أَسْرَعَ النَّاسِ إلى الخَيْرِ، وما أَمَرَ ﷺ بِأَمْرٍ مِنْ أُمُورِ الخَيْرِ إِلَّا كَانَ أَوَّلَ الآتِينَ بِهِ، والمُسْرِعِينَ إِلَى تَحْصِيلِهِ، ومَا نَهَى عَنْ أَمْرٍ مِنْ أُمُورِ الشَّرِّ إِلَّا وكَانَ أَبْعَدَ النَّاسِ عنه ﷺ.

*مُسَارَعَةُ الصَّحَابَةِ –رَضِيَ اللهُ عَنْهُم- فِي الخَيْرَاتِ:

وكان أصحابُه -رضوان الله عليهم- مُسَارِعِينَ في الخيراتِ، مُسَابِقِينَ إليها، كما وَرَدَ عنْ عبدِ اللهِ بْنِ عُمَرَ -رضي الله عنهما- وهُوَ في «الصَّحِيحَيْنِ» قَالَ: أَقْبَلَ النَّبِيُّ ﷺ عَامَ الفَتْحِ، وَهُوَ مُرْدِفٌ أُسَامَةَ عَلَى القَصْوَاءِ -يَعْنِي: نَاقَةَ رسولِ اللهِ ﷺ- وَمَعَهُ بِلاَلٌ، وَعُثْمَانُ بْنُ طَلْحَةَ -وعثمانُ بنُ طَلْحَةَ كان مَعَهُ مَفَاتِيحُ الكَعْبَةِ كَمَا هو معلومٌ-، حَتَّى أَنَاخَ عِنْدَ البَيْتِ، ثُمَّ قَالَ لِعُثْمَانَ: «**ائْتِنَا بِالْمِفْتَاحِ**»، فَجَاءَهُ بِالْمِفْتَاحِ فَفَتَحَ لَهُ البَابَ -بابَ الكَعْبَةِ، وهذا في عامِ الفَتْحِ عِنْدَمَا مَنَّ اللهُ -تبارك وتعالى- على نَبِيِّهِ بالفَتْحِ الأَكْبَرِ، ودَخَلُوا مَكَّةَ فَاتِحِينَ بِرَحْمَةِ رَبِّ العالمين-.

فَدَخَلَ النَّبِيُّ ﷺ وَأُسَامَةُ، وَبِلاَلٌ، وَعُثْمَانُ، ثُمَّ أَغْلَقُوا عَلَيْهِ البَابَ، فَمَكَثَ النبيُّ ﷺ في جَوْفِ الكعبةِ نَهَارًا طَوِيلًا، ثُمَّ خَرَجَ -يقولُ عبدُ اللهِ بْنُ عُمَرَ-، وَابْتَدَرَ النَّاسُ الدُّخُولَ، فَسَبَقْتُهُمْ -يعني: كُلٌّ يُرِيدُ أَنْ يَدْخُلَ لِيُصَلِّيَ في المَوْضِعِ الذي صَلَّى فِيهِ النَّبِيُّ ﷺ أَوَّلًا، ولِيَعْلَمَ عِلْمَ ما صَنَعَ الرسولُ ﷺ في جَوْفِ الكَعْبَةِ؛ لِأَنَّهُمْ لَمْ يَرَوْا ذلك عَيَانًا؛ حَيْثُ أَغْلَقُوا البابَ عَلَيْهِ ﷺ ومَعَهُ أسامةُ وبِلَالٌ وعُثْمَانُ-.

قال: فَوَجَدْتُ بِلاَلًا قَائِمًا مِنْ وَرَاءِ البَابِ -بابِ الكعبةِ مِنْ دَاخِلٍ-، فَقُلْتُ لَهُ: أَيْنَ صَلَّى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ؟ فَقَالَ: صَلَّى بَيْنَ ذَيْنِكَ -يعني: بَيْنَ هَذَيْنِ- العَمُودَيْنِ المُقَدَّمَيْنِ، وَكَانَ البَيْتُ عَلَى سِتَّةِ أَعْمِدَةٍ سَطْرَيْنِ، صَلَّى بَيْنَ العَمُودَيْنِ مِنَ السَّطْرِ المُقَدَّمِ ﷺ، وَجَعَلَ البَابَ خَلْفَ ظَهْرِهِ -دَخَلَ النَّبِيُّ ﷺ الكعبةَ، وأَغْلَقَ البابَ خَلْفَهُ، وكَانَ فِي البَيْتِ سِتَّةُ أَعْمِدَةٍ، فِي كُلِّ سَطْرٍ ثَلَاثَةُ أَعْمِدَةٍ، فَذَهَبَ النَّبِيُّ ﷺ إِلَى السَّطْرِ المُقَدَّمِ، فَصَلَّى بَيْنَ العَمُودَيْنِ وظَهْرُهُ إلى البابِ ﷺ-، وَاسْتَقْبَلَ بِوَجْهِهِ الَّذِي يَسْتَقْبِلُكَ حِينَ تَلِجُ البَيْتَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الجِدَارِ -يعني: إذا دَخَلْتَ البَيْتَ؛ فإِنَّكَ تَسْتَقْبِلُ ذلك الحائِطَ الَّذِي يَكُونُ بالكعبةِ المُكَرَّمَةِ، فَوَصَلَ النبيُّ ﷺ إلى ما بَيْنَ العَمُودَيْنِ المُقَدَّمَيْنِ، وجَعَلَ ظَهْرَهُ إلى البابِ، فَصَلَّى ﷺ-.

قَالَ: «وَنَسِيتُ أَنْ أَسْأَلَهُ كَمْ صَلَّى، وَعِنْدَ المَكَانِ الَّذِي صَلَّى فِيهِ مَرْمَرَةٌ حَمْرَاءُ»، هذا وَصْفٌ لِلْحَالِ، يعني: عبدُ اللهِ بْنُ عُمَرَ يَقُولُ إنَّهُ كانَ في المَكَانِ الَّذِي صَلَّى فيهِ الرسولُ ﷺ مَرْمَرَةٌ حَمْرَاءُ؛ لِلدَّلَالَةِ عَلَى التَّحَقُّقِ مِنَ المَوْضِعِ الَّذِي صَلَّى عِنْدَهُ الرسولُ ﷺ بِإِعْطَاءِ دَلَالَةٍ شاهدةٍ وبُرْهَانٍ قَاطِعٍ بالمَوْضِعِ الذي صَلَّى فيه النَّبِيُّ ﷺ.

فَهَذِهِ مُسَابَقَةٌ مِنْ عبدِ اللهِ بْنِ عُمَرَ -رضي الله عنهما-.

لَمَّا خَرَجَ النبيُّ ﷺ مِنْ جَوْفِ الكَعْبَةِ؛ اِبْتَدَرَ الناسُ الدُّخُولَ، يعني: تَسَابَقَ النَّاسُ للدخولِ بَعْدَ أَنْ خَرَجَ الرسولُ ﷺ، قال: «فَسَبَقْتُهُمْ»، وكان أَحْرَصَ الناسِ على الخيرِ -رِضْوَانُ اللهِ عَلَيْهِ وَعَلَى أَبِيهِ-.

وعَنْ عُمَرَ بْنِ الخَطَّابِ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- قال: «أَمَرَنَا رسولُ اللهِ ﷺ أَنْ نَتَصَدَّقَ، فَوَافَقَ ذَلِكَ مَالًا -يَعْنِي: عِنْدِي، عِنْدَ عُمَرَ-، فَقُلْتُ: اليومَ أَسْبِقُ أَبَا بكرٍ إِنْ سَبَقْتُهُ يومًا.

يَتَسَابَقُونَ فِي الخَيْرِ، ويَتَنَافَسُونَ في البِرِّ، وكُلٌّ يريدُ أَنْ يَكُونَ سابقًا لِأَخِيهِ مِنْ غَيْرِ مَا حَسَدٍ؛ لأنَّ طَرِيقَ الآخِرَةِ يَسَعُ الخَلْقَ جَمِيعًا، طَرِيقُ الآخِرَةِ هو الَّذِي يَسَعُ الخَلْقَ جَمِيعًا، وأَمَّا طَرِيقُ الدُّنْيَا؛ فَلَا يَسَعُ مِنَ المُتَنَافِسِينَ إِلَّا الواحدَ بَعْدَ الواحِدِ؛ لأَنَّ الآخِرَةَ نَعِيمٌ مُقِيمٌ، وعَطَاءٌ مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ كَرِيمٍ، وهَذَا مُتَّسِعٌ لِلْعَامَّةِ.

وأَمَّا طَرِيقُ الدنيا؛ فالتَّنَافُسُ يَكُونُ على شَيْءٍ واحدٍ، على تَحْصِيلِ مالٍ بِعَيْنِهِ، فَإِذَا تَنَافَسَ الناسُ في تَحْصِيلِهِ؛ لا يَصْلُحُ إلا لِوَاحِدٍ، عَلَى مَنْصِبٍ بِذَاتِهِ، لَا يَصْلُحُ إِلَّا لِوَاحِدٍ، فَيَتَنَافَسُ فِيهِ الكَثِيرُ، فَلَا يُحَصِّلُهُ إِلَّا وَاحِدٌ، وحِينَئِذٍ يَتَعَادُونَ، ويَتَبَاغَضُونَ، ويَتَحَارَبُونَ، ويَتَقَاتَلُونَ، وأَمَّا طَرِيقُ الآخرةِ؛ فَوَاسِعٌ يَتَّسِعُ الجَمِيعَ.

فَأَبُو بَكْرٍ -رِضْوَانُ اللهِ عليه- كانَ عُمَرُ وَاضِعًا إِيَّاهُ فِي رَأْسِهِ؛ بِمَعْنَى أَنَّهُ كان دَائِمًا يَنْظُرُ إليه، وكَذَلِكَ يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ المُسْلِمُ، علَيْهِ أَنْ يَنْظُرَ إِلَى رَجُلٍ صَالِحٍ آتَاهُ اللهُ -تبارك وتعالى- زَهَادَةً أَوْ عِبَادَةً أَوْ فَضْلًا أَوْ عِلْمًا، فَيُحَاوِلُ أَنْ يَتَنَافَسَ مِنْ أَجْلِ الوُصُولِ إِلَى مَرْتَبَتِهِ، وَلَا يَنْظُرُ فِي أُمُورِ الدِّينِ إِلَى مَنْ هُوَ أَقَلُّ منه، وإنما يَنْظُرُ فِي أُمُورِ الآخِرَةِ إلى مَنْ هُوَ أَعْلَى منه.

وأَمَّا فِي أُمُورِ الدُّنْيَا؛ فَعَلَى الإنسانِ أَنْ يَنْظُرَ إلى مَنْ هُوَ أَقَلُّ مِنْهُ، فإذا مَا آتَاهُ اللهُ -تبارك وتعالى- الرِّزْقَ؛ لا يَحْتَقِرُهُ، يقول: نَحْنُ أَحْسَنُ وأَفْضَلُ وخَيْرٌ مِنْ غَيْرِنَا؛ فَقَدْ آتَانَا اللهُ وأَنْعَمَ عَلَيْنَا؛ فَإِنَّ فُلَانًا لَمْ يُؤْتِهِ اللهُ -تبارك وتعالى- ولَمْ يُعْطِهِ ما أَعْطَانَا، فَيَنْظُرُ الإنسانُ فِي أمورِ الدنيا إِلَى مَنْ هُوَ أَسْفَلُ منه، وأمَّا في أمورِ الآخِرَةِ؛ فَيَنْظُرُ الإنسانُ إلى مَنْ هو أَعْلَى منه.

فَأَبُو بكرٍ -رِضْوَانُ اللهِ عليه- آتَاهُ الله -تبارك وتعالى- فَضْلًا عَظِيمًا، وعُمَرُ -رَضِيَ اللهُ عنه- كان يَقُولُ عِنْدَمَا أَمَرَ الرسولُ ﷺ بالصَدَقَةِ: فَوَافَقَ ذَلِكَ بِقَدَرِ اللهِ مالًا عِنْدَ عُمَرَ، فقال: «اليومَ أَسْبِقُ أَبَا بَكْرٍ إِنْ سَبَقْتُهُ يومًا، قال: فَجِئْتُ بِنِصْفِ مَالِي»، وظَنَّ عُمَرُ أنه صَنَعَ صَنِيعًا عَظِيمًا، وأَتَى بِنِصْفِ المَالِ، فقال رسول الله ﷺ: «**مَا أَبْقَيْتَ لِأَهْلِكَ؟**»

قلتُ: مِثْلُهُ، أَوْ مِثْلَهُ، يَعْنِي: أَبْقَيْتُ مِثْلَهُ، أَوْ مِثْلُهُ أَبْقَيْتُهُ لِأَهْلِي.

فَقُلْتُ: مِثْلَهُ، يعني: مِثْلَ الذي جِئْتُكَ بِهِ يا رَسُولَ اللهِ أَبْقَيْتُهُ لِأَهْلِي، أَنَا قَسَمْتُ المَالَ نِصْفَيْنِ، فهذا نِصْفُهُ للهِ -تبارك وتعالى- بَيْنَ يَدَيْكَ يا رَسُولَ اللهِ ﷺ، وأَمَّا النِّصْفُ الآخَرُ؛ فَهُوَ لِلْأَوْلَادِ ولِلْأَهْلِ، فَسَدَّدَ النَّبِيُّ ﷺ، وأَتَى أبو بَكْرٍ بِكُلِّ ما عِنْدَهُ، لَمْ يَسْتَبْقِ شَيْئًا -رِضْوَانُ اللهِ عَلَيْهِ-، فقال: «**يا أَبَا بَكْرٍ؛ مَا أَبْقَيْتَ لِأَهْلِكَ؟**»

قال: أَبْقَيْتُ لَهُمُ اللهَ وَرَسُولَهُ.

قال عُمَرُ: واللهِ لَا أَسْبِقُهُ إِلى شَيْءٍ أَبَدًا.

هذا الرَّجُلُ لا يُسَابَقُ، أَبُو بَكْرٍ أَقَرَّ عُمَرُ -رِضْوَانُ اللهِ عَلَيْهِ- بِسَبْقِهِ، وقال: واللهِ لَا أُسَابِقُكَ إِلَى شَيْءٍ بَعْدَهَا أَبَدًا -رضي الله عنه-.

هذا الْحَدِيثُ أَخْرَجَهُ التِّرْمِذِيُّ فِي «جَامِعِهِ»، وهُوَ حَدِيثٌ صَحِيحٌ.

«الفَضْلُ العَظِيمُ فِي المُسَارَعَةِ إلى الخَيْرَاتِ»

المُسَارَعَةُ إلى الخَيْرَاتِ وَالأَعْمَالِ مَرْضَاةٌ للرَّبِّ -عَزَّ وَجَلَّ- وَمَغْضَبَةٌ للشَّيْطَانِ، والمُسَارَعَة فِي الخَيْرَاتِ تَرْفَعُ صَاحِبَهَا إِلَى جَنَّاتِ عَدْنٍ حَيْثُ النَّعِيمُ المُقِيمُ والفَضْلُ العَظِيمُ.

والسَّبْقُ إِلَى الخَيْرَاتِ يَجْعَلُ صَاحِبَهُ مِن المُفْلِحِينَ فِي الدُّنْيَا والآخِرَةِ، وَالمُبَادَرَةُ إِلَى العَمَلِ الصَّالِحِ تُوجِبُ نَوْعًا مِن التَّنَافُسِ الحَمِيدِ الَّذِي يَرْقَى بِهِ المُسْلِمُونَ فِي مُجْتَمَعِهِم.

وَالسَّابِقُونَ إِلَى الخَيْرَاتِ يُدْرِكُونَ مَقَاصِدَهُم وَلَا يَرْجِعُونَ خَائِبِينَ أَبَدًا، وَيَدْخُلُونَ إِذَا مَا سَابَقُوا إِلَى الخَيْرَاتِ الجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ، المُسَارَعَةُ إِلَى صَلَاةِ الجُمُعَةِ عَلَى سَبِيلِ المِثَالِ وَالذَّهَابُ إِلَيْهَا فِي السَّاعَةِ الأُولَى يُعَظِّمُ الأَجْرَ وَيُجَزِّلُ الثَّوَابَ.

وَالمُبَادَرَةُ بِالأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ تَجْعَلُ صَاحِبَهَا فِي مَأْمَنٍ مِنَ الفِتَنِ كَمَا أَخْبَرَ الرَّسُولُ ﷺ، وَكَذَلِكَ فِي مَأْمَنٍ مِن الأُمُورِ الَّتِي تَشْغَلُ الإِنْسَانَ وَتُلْهِيهِ مِثْلُ المَرَضِ وَالفَقْرِ وَالغِنَى المُطْغِي أَوْ الهَرَمِ -يَعْنِي بُلُوغَ أَقْصَى العُمُرِ-، وَالمُبَادَرَةُ إِلَى الصَّلَاةِ فِي أَوْقَاتِهَا وَعَدَمُ التَّخَلُّفِ عَن الجَمَاعَةِ الأُولَى يَجْعَلُ صَاحِبَهَا فِي فَضِيلَةٍ يَسْبِقُ بِهَا المُتَخَلِّفِينَ فِي أَبْعَدِ مِمَّا هُوَ بَيْنَ المَشْرِقَيْنِ وَالمَغْرِبَيْنِ.

فَنَسْأَلُ اللهَ -تَبَارَكَ وَتَعَالَى- إِلَى المُسَارَعَةِ فِي الخَيْرَاتِ، وَإِلَى المُسَابَقَةِ فِي تَحْصِيلِ الحَسَنَاتِ، وَأَنْ يُوَفِّقَنَا إِلَى المُبَادَرَةِ إِلَى العَمَلِ الصَّالِحِ، وَأَنْ يَهْدِيَنَا إِلَى الرُّشْدِ، وَأَنْ يُخْلِصَ نِيَّاتِنَا وَقَصْدَنَا، وَأَنْ يُحَسِّنَ أَقْوَالَنَا وَأَعْمَالَنَا، وَأَنْ يَجْعَلَنَا مِنَ المَقْبُولِينَ.

وَصَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ عَلَى نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ ﷺ(١).

---

(١)«مِن مُحَاضَرَةِ: المُسَارَعَةُ فِي الخَيْرَاتِ».

«المَوْعِظَةُ الخَامِسَةَ عَشْرَةَ»

«الوَفَاءُ بِالعَهْدِ»

إِنَّ الْحَمْدَ لِلَّهِ نَحْمَدُهُ، وَنَسْتَعِينُهُ وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِاللَّه مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللَّهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَا هَادِيَ لَهُ.

وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ ﷺ.

أَمَّا بَعْدُ:

فَإِنَّ أَصْدَقَ الْحَدِيثِ كِتَابُ اللَّـهِ، وَخَيْرَ الْهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَشَرَّ الْأُمُورِ مُحْدَثَاتُهَا، وَكُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ، وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ، وَكُلَّ ضَلَالَةٍ فِي النَّارِ.

أَمَّا بَعْدُ:

فَإِنَّ مِنَ الْأَخْلَاقِ الْإِنْسَانِيَّةِ الْعَظِيمَةِ الَّتِي تَعَارَفَ أَصْحَابُ الْعُقُولِ السَّلِيمَةِ عَلَى احْتِرَامِهَا وَتَقْدِيرِهَا وَتَعْظِيمِ مَنْ أَتَى بِهَا؛ إِنَّ مِنْ تِلْكَ الْأَخْلَاقِ: خُلُقَ الْوَفَاءِ.

وَقَدْ كَانَتِ الْعَرَبُ تَضْرِبُ الْأَمْثَالَ، فَمِنْ أَمْثَالِهِمْ: «هُوَ أَعَزُّ مِنَ الْوَفَاءِ»، فَلَمَّا رَأَوْا نُدْرَةَ هَذَا الْخُلُقِ وَعِزَّةَ وُجُودِهِ فِي النَّاسِ، يَظَلُّونَ الْأَمَدَ مُفْتَقِدِينَ إِلَيْهِ بَاحِثِينَ عَنْهُ، فَنَادِرًا مَا يَلْقَوْنَهُ، وَقَلَّ مَا يَجِدُونَهُ، وَعَلِمُوا أَنَّهُ صَعْبُ الْمَنَالِ جِدًّا، وَلَا يُدْرِكُهُ إِلَّا الْأَفْذَاذُ مِنَ الْبَشَرِ؛ ضَرَبُوا بِنُدْرَتِهِ الْوَفَاءَ، فَقَالُوا: «هُوَ أَعَزُّ مِنَ الْوَفَاءِ».

فَجَعَلُوا لِلشَّيْءِ الَّذِي لَا يُمْكِنُ أَنْ يُتَحَصَّلَ عَلَيْهِ إِلَّا بِشِقِّ النَّفْسِ أَوْ مَا فَوْقَ ذَلِكَ؛ جَعَلُوا لَهُ الْمَثَلَ الْمَضْرُوبَ بِالْوَفَاءِ الْمَفْقُودِ.

كَانَتِ الْعَرَبُ تُقَدِّرُ هَذَا الْخُلُقَ جِدًّا، فَلَمَّا جَاءَ سَيِّدُ الْأَوْفِيَاءِ ﷺ؛ ارْتَكَزَ -بَعْدَ ارْتِكَازِهِ عَلَى مَوْرُوثِ الْفِطْرَةِ السَّوِيَّةِ- عَلَى الْحَقَائِقِ الشَّرْعِيَّةِ الْمَرْعِيَّةِ.

الْوَفَاءُ: إِتْمَامُ الْعَهْدِ، وَإِكْمَالُ الشَّرْطِ.

ضِدُّهُ: الْغَدْرُ، وَهُوَ خُلُقٌ خَبِيثٌ، النَّبِيُّ ﷺ حَذَّرَ مِنْهُ كَثِيرًا، وَدَعَا فِي الْمُقَابِلِ ﷺ كَمَا دَعَا الْكِتَابُ الْعَزِيزُ إِلَى الْأَخْذِ بِنَقِيضِهِ، وَهُوَ الْوَفَاءُ.

وَقَدْ أَمَرَنَا اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ بِصِدْقِ اللِّسَانِ وَصِدْقِ الْفِعْلِ جَمِيعًا، وَهَذَا هُوَ الْوَفَاءُ.

الْوَفَاءُ: صِدْقُ اللِّسَانِ وَالْعَمَلِ مَعًا، وَهُوَ مُخْتَصٌّ بِالْإِنْسَانِ، فَمَهْمَا فَقَدَ الْإِنْسَانُ الْوَفَاءَ؛ فَقَدَ حَظَّهُ مِنَ الْإِنْسَانِيَّةِ أَصْلًا.

وَقَدْ أَمَرَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ فِي كِتَابِهِ الْعَظِيمِ بِالْوَفَاءِ فِي آيَاتٍ كَثِيرَةٍ:

يَقُولُ رَبُّنَا: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ﴾ [البقرة: ٤٠].

فَأَمَرَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ بِالْوَفَاءِ بِالْعَهْدِ، بِالْعَهْدِ الَّذِي قَطَعَهُ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ عَلَى بَنِي آدَمَ فِي عَالَمِ الذَّرِّ؛ ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى﴾ [الأعراف: ١٧٢].

فَهَذَا الْعَهْدُ الَّذِي أَخَذَهُ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ بِالْمِيثَاقِ الْأَوَّلِ؛ يُطَالِبُ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ بِالْوَفَاءِ بِهِ، وَالرُّجُوعِ إِلَى الْفِطْرَةِ الَّتِي لَمْ تَنْتَكِسْ؛ مِنْ أَجْلِ أَنْ يَكُونَ الْإِنْسَانُ إِنْسَانًا.

وَلَا يَسْتَطِيعُ هَذَا الْخُلُقَ إِلَّا الْأَفْذَاذُ الْأَقَلُّونَ مِنَ الْبَشَرِ، وَقَدْ بَيَّنَ لَنَا رَبُّنَا ذَلِكَ فِي كِتَابِهِ الْعَظِيمِ، يَقُولُ رَبُّنَا: ﴿وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ﴾ [الأعراف: ١٠٢]؟

فَأَكْثَرُهُمْ كَمَا تَرَى لَا عَهْدَ لَهُ، وَمَنْ لَا عَهْدَ لَهُ مِنْ أَهْلِ الْغَدْرِ لَا مَحَالَةَ، فَأَخْبَرَنَا اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ بِأَنَّ أَهْلَ التَّحَقُّقِ بِهَذَا الْخُلُقِ الْعَظِيمِ هُمُ الْأَقَلُّونَ عَدَدًا، الْأَرْفَعُونَ قَدْرًا.

الْوَفَاءُ: وَفَاءٌ بِالْعَهْدِ، وَوَفَاءٌ بِالْعَقْدِ، وَوَفَاءٌ بِالْوَعْدِ.

هَذَا مِنْ حَيْثُ الْمُوفَى بِهِ، فَالْوَفَاءُ: صِدْقُ اللِّسَانِ وَالْفِعْلِ جَمِيعًا، وَأَنْ يَكُونَ الْإِنْسَانُ عَلَى هَذَا النَّحْوِ مِنَ الصِّدْقِ ظَاهِرًا وَبَاطِنًا، وَحِينَئِذٍ إِذَا مَا تَعَلَّقَ الْوَفَاءُ بِشَيْءٍ أَتَى بِهِ عَلَى وَجْهِهِ مِنْ غَيْرِ مَا نُكْثٍ وَلَا غَدْرٍ، وَمِنْ غَيْرِ مَا ارْتِكَاسٍ فِي تِلْكَ الْحَمْئَةِ الْوَبِيلَةِ بِالْبُعْدِ عَنِ الْأَخْلَاقِ الَّتِي جَاءَ الرَّسُولُ ﷺ لِيُتَمِّمَهَا «**إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأُتَمِّمَ مَكَارِمَ الْأَخْلَاقِ**» ﷺ.

وَيَقُولُ فِي رِوَايَةٍ ﷺ: «**إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأُتَمِّمَ صَالِحَ الْأَخْلَاقِ**».

أَخْرَجَ الْإِمَامُ مُسْلِمٌ فِي «صَحِيحِهِ» بِسَنَدِهِ عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ رَبَاحٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ -فِيمَا يَأْتِي عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ بَعْدُ- قَالَ عَبْدُ اللهِ بْنُ رَبَاحٍ -رَحِمَهُ اللهُ-: وَفَدَتْ وُفُودٌ إِلَى مُعَاوِيَةَ وَذَلِكَ فِي رَمَضَانَ، فَكَانَ يَصْنَعُ بَعْضُنَا لِبَعْضٍ الطَّعَامَ، فَكَانَ أَبُو هُرَيْرَةَ -وَحُقَّ لَهُ؛ إِذْ هُوَ مِمَّنْ رَبَّاهُمْ عَلَى عَيْنِهِ نَبِيُّنَا مُحَمَّدٌ ﷺ- مِمَّا يُكْثِرُ أَنْ يَدْعُوَنَا إِلَى رَحْلِهِ -لِيُطْعِمَهُمْ-، فَقُلْتُ -يقول عَبْدُ اللهِ بْنِ رَبَاحٍ فِي سِيَاقِ حَدِيثِهِ، يَعْنِي: قَالَ لِنَفْسِهِ أَوْ لِأَهْلِهِ مُحَرِّضًا وَحَاثًّا- فَقُلْتُ: أَلَا أَصْنَعُ طَعَامًا فَأَدْعُوَهُمْ إِلَى رَحْلِي -وَأَفْعَلُ كَمَا يَفْعَلُ أَبُو هُرَيْرَةَ صَاحِبُ

النَّبِيِّ ﷺ-؟ فَأَمَرْتُ بِطَعَامٍ يُصْنَعُ –فَأَمَرَ أَهْلَهُ وَمَنْ كَانَ هُنَالِكَ فِي خِدْمَتِهِ أَنْ يَصْنَعُوا طَعَامًا-؟

قَالَ: ثُمَّ لَقِيتُ أَبَا هُرَيْرَةَ مِنَ الْعَشِيِّ –يَعْنِي: فِي آخِرِ النَّهَارِ-، فَقُلْتُ: الدَّعْوَةُ عِنْدِي اللَّيْلَةَ –كَانُوا فِي رَمَضَانَ كَمَا ذَكَرَ-، فَقَالَ: سَبَقْتَنِي، قُلْتُ: نَعَمْ، فَدَعَوْتُهُمْ.

فَقَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ –وَعِنْدَنَا فِي الْحَدِيثِ الَّذِي يَلِيهِ عِنْدَ مُسْلِمٍ –رَحْمَةُ اللهِ عَلَيْهِ- بِذَاتِ السِّيَاقِ لِنَفْسِ الرَّاوِي فِي ذَاتِ الْقِصَّةِ وَنَفْسِ الْحَدَثِ أَنَّهُمُ انْتَهَوْا إِلَى بَيْتِ عَبْدِ اللهِ بْنِ رَبَاحٍ وَمَعَهُمْ أَبُو هُرَيْرَةَ –رِضْوَانُ اللهِ عَلَيْهِ- وَلَمَّا يُدْرِكِ الطَّعَامُ بَعْدُ، يَعْنِي: هُوَ مُتَّصِلٌ بِالْحَالِ، وَهَذَا فَارِقُ مَا بَيْنَ (لَمْ) وَ(لَمَّا)، وَلَمْ يُدْرِكِ الطَّعَامُ بَعْدُ: فَهَذَا قَطْعٌ لِلصِّلَةِ بِالْحَالِ، وَلَمَّا يُدْرِكِ الطَّعَامُ بَعْدُ: يَعْنِي: وَلَمَّا يَنْضُجِ الطَّعَامُ بَعْدُ؛ وَلَكِنَّهُ عَلَى شَفَا نُضُوجٍ-.

يَقُولُ:–يَعْنِي: لَمَّا جَلَسُوا وَالطَّعَامُ لَمْ يُؤْتَ بِهِ بَعْدُ- أَلَا تُحَدِّثُنَا يَا أَبَا هُرَيْرَةَ بِحَدِيثٍ مِنْ أَحَادِيثِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، حَتَّى يُدْرِكَ طَعَامُنَا، حَتَّى يَنْضُجَ طَعَامُنَا؟

فَقَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: أَلَا أُعْلِمُكُمْ بِحَدِيثٍ مِنْ حَدِيثِكُمْ يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ –يَعْنِي: مَا أَخْتَارُ لَكُمْ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ إِلَّا حَدِيثًا مِنْ حَدِيثِكُمْ مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ-، ثُمَّ ذَكَرَ فَتْحَ مَكَّةَ، فَقَالَ: أَقْبَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ حَتَّى قَدِمَ مَكَّةَ –جَاءَ مِنَ الْمَدِينَةِ فِي جُنْدِ اللهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ مُقَاتِلِينَ مُجَاهِدِينَ لِفَتْحِ مَكَّةَ بَعْدَ نُكْثِ الْعَهْدِ، وَبَعْدِ نَقْضِ الْعَقْدِ، وَبَعْدَ إِخْلَافِ الْوَعْدِ، فَمَا هَيَّجَ عَلَيْهِمْ جُنْدَ الْإِسْلَامِ إِلَّا الْغَدْرُ، وَجَاءَ النَّبِيُّ الْوَفِيُّ ﷺ حَتَّى قَدِمَ مَكَّةَ-، فَبَعَثَ الزُّبَيْرَ عَلَى إِحْدَى الْمُجَنِّبَتَيْنِ، وَبَعَثَ خَالِدًا عَلَى الْمُجَنِّبَةِ الْأُخْرَى –الْمُجَنِّبَتَانِ: الْجَنَاحَانِ بَيْنَهُمَا قَلْبُ الْجَيْشِ-، وَبَعَثَ أَبَا عُبَيْدَةَ عَلَى الْحُسَّرِ –الَّذِينَ لَا خِوَذَ لَهُمْ، وَالَّذِينَ لَا أَدْرُعَ تَسْتُرُ صُدُورَهُمْ-، فَأَخَذُوا بَطْنَ الْوَادِي –يَعْنِي: فَمَضَوْا فِي بَطْنِ الْوَادِي مَعَ أَبِي عُبَيْدَةَ، أَعْنِي الْحُسَّرَ-، وَرَسُولُ اللهِ ﷺ فِي كَتِيبَةٍ –وَالْكَتِيبَةُ: الْقِطْعَةُ الْعَظِيمَةُ مِنَ الْجَيْشِ-.

قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ –رِضْوَانُ اللهِ عَلَيْهِ-: فَنَظَرَ فَرَآنِي، فَقَالَ: «أَبُو هُرَيْرَةَ».

قُلْتُ: لَبَّيْكَ يَا رَسُولَ اللهِ.

فَقَالَ: «**لَا يَأْتِينِي إِلَّا أَنْصَارِيٌّ**» -يَعْنِي: صِحْ بِهِمْ، اِهْتِفْ بِهِمْ، اِهْتِفْ بِالْأَنْصَارِ صِحْ بِهِمْ، وَادْعُهُمْ إِلَيَّ؛ وَلَكِنْ لَا يَأْتِينِي إِلَّا أَنْصَارِيٌّ- قَالَ: فَأَطَافُوا بِهِ –وَحَذَفَ هَاهُنَا حَدَثًا وَكَلَامًا، قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**لَا يَأْتِينِي إِلَّا أَنْصَارِيٌّ**».

قَالَ: فَأَحَاطُوا بِالنَّبِيِّ ﷺ، وَأَطَافُوا بِهِ، اِهْتِفْ لِي بِالْأَنْصَارِ، اُدْعُهُمْ إِلَيَّ، فَذَهَبْتُ، فَمَرَرْتُ بَيْنَ النَّاسِ أَدْعُو الْأَنْصَارَ وَاحِدًا وَاحِدًا؛ هَلُمُّوا إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَمَا مِنْهُمْ مِنْ وَاحِدٍ إِلَّا أَسْرَعَ طَائِرًا بِجَنَاحَيِ الشَّوْقِ إِلَى لِقَاءِ النَّبِيِّ ﷺ، حَتَّى كَانُوا عِنْدَهُ، فَأَطَافُوا بِهِ، حَذَفَ ذَلِكَ كُلَّهُ.

فَأَطَافُوا بِهِ، وَوَبَّشَتْ قُرَيْشٌ أَوْبَاشًا لَهَا وَأَتْبَاعًا -يَعْنِي: جَمَعَتِ السِّفْلَةَ وَالْأَوْبَاشَ وَسَقَطَ الْمَتَاعِ مِنَ النَّاسِ، فَجَعَلَتْهُمْ تَقْدِمَةً يَلْقَوْنَ مُحَمَّدًا وَجُنْدَهُ ﷺ، فَقَالُوا: نُقَدِّمُ هَؤُلَاءِ، فَإِنْ كَانَ لَهُمْ شَيْءٌ كُنَّا مَعَهُمْ -يَعْنِي: إِنْ أَصَابُوا مِنْ مُحَمَّدٍ ﷺ فَوزًا وَنَصْرًا كُنَّا مَعَهُمْ-، وَإِنْ أُصِيبُوا أَعْطَيْنَا الَّذِي سُئِلْنَا.

فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ لَمَّا رَأَى ذَلِكَ لِلْأَنْصَارِ: «**تَرَوْنَ إِلَى أَوْبَاشِ قُرَيْشٍ، وَأَتْبَاعِهِمْ**»، ثُمَّ قَالَ بِيَدَيْهِ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى -كَأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ هَكَذَا -وَأَمْسَكَ الشَّيْخُ كَفَّهُ بِكَفِّهِ إِشَارَةً لِاجْتِمَاعِهِمْ عَلَيْهِمْ-، «**تَرَوْنَ إِلَى أَوْبَاشِ قُرَيْشٍ، وَأَتْبَاعِهِمْ**» -يَعْنِي: قَدِ اجْتَمَعُوا عَلَيْكُمْ، وَقَالَ بَعْضُ الشُّرَّاحِ -وَهُوَ الَّذِي يُصَارُ إِلَيْهِ-: فَأَخْفَى شِمَالَهُ ﷺ، وَأَمْضَى عَلَيْهَا يَمِينَهُ هَكَذَا، قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**تَرَوْنَ إِلَى أَوْبَاشِ قُرَيْشٍ، وَأَتْبَاعِهِمْ**»، ثُمَّ جَعَلَ يَدَيْهِ هَكَذَا، يَعْنِي: اِفْرُوهُمْ فَرْيًا، وَمَثِّلُوا بِهِمْ مِنْ وَرَائِهِمْ-، قَالَ النبي ﷺ: «**حَتَّى تُوَافُونِي بِالصَّفَا**».

قَالَ: فَانْطَلَقْنَا فَمَا شَاءَ أَحَدٌ مِنَّا أَنْ يَقْتُلَ أَحَدًا إِلَّا قَتَلَهُ -لَا يَدْفَعُونَ عَنْ أَنْفُسِهِمْ-، وَمَا أَحَدٌ مِنْهُمْ يُوَجِّهُ إِلَيْنَا شَيْئًا -يَعْنِي: هُمْ لَا يُدَافِعُونَ إِلَّا بِقَدْرِ مَا يُدْفَعُونَ، لَا يَصْنَعُونَ شَيْئًا-، قَالَ -فَلَمَّا وَقَعَ ذَلِكَ مَاذَا حَدَثَ؟-: جَاءَ أَبُو سُفْيَانَ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، أُبِيحَتْ خَضْرَاءُ قُرَيْشٍ، لَا قُرَيْشَ بَعْدَ الْيَوْمِ -جَاءَ أَبُو سُفْيَانَ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ يَسْعَى حَثِيثًا، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ -وَكَانَ قَدْ أَسْلَمَ- أُبِيحَتْ خَضْرَاءُ قُرَيْشٍ -يَعْنِي: أُبِيدَتْ وَاسْتُأْصِلَتْ، وَيُقَالُ لِلْأَجْمَاعِ الَّذِينَ يُجْمَعُونَ مَعًا، وَلِلْأَوْزَاعِ الْمُتَفَرِّقِينَ إِذَا مَا انْضَمَّ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ؛ يُقَالُ لِذَلِكَ: خَضْرَاءُ، وَخَضْرَاؤُهُمْ: جَمَاعَاتُهُمْ، يَقُولُ لِلنَّبِيِّ ﷺ: أُبِيحَتْ خَضْرَاءُ قُرَيْشٍ، لَا قُرَيْشَ بَعْدَ الْيَوْمِ يَا رَسُولَ اللهِ.

النَّبِيُّ ﷺ فِي هَذَا الْمَوْطِنِ يَمُرُّ بِأَمْرَيْنِ كَبِيرَيْنِ:

فَأَمَّا الْأَوَّلُ: فَقَدْ أَخْرَجْتُمُونِي بَعْدَمَا طَارَدْتُمُونِي، وَحَاوَلْتُمْ قَتْلِي، فَتَرَصَّدْتُمْ بِي رَصَدًا، وَأَرَدْتُمْ أَنْ تَهْتَبِلُوا مِنِّي غِرَّةً لِلْقَضَاءِ عَلَيَّ، وَخَرَجْتُ، وَتَرَكْتُ، وَمَضَيْتُ، وَقَاتَلْتُ، وَجَاهَدْتُ، وَتَعِبْتُ، وَدَافَعْتُ عَنْ دِينِ اللهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، ثُمَّ أُبْتُ وَرَجَعْتُ، وَلَمْ أَرْجِعْ إِلَّا لِنُكْثِكُمْ بِعَهْدِكُمْ، وَنَقْضِكُمْ لِعَقْدِكُمْ، وَخَيْسِكُمْ بِوَعْدِكُمْ، فَلَمْ أَفْتَتْ عَلَيْكُمْ؛ فَمَاذَا تُرِيدُونَ؟!! لَكِنَّهُ الصَّبُورُ الْحَلِيمُ ﷺ، وَصَّى الْأَنْصَارَ قَبْلُ بِالْإِشَارَةِ هَكَذَا -أَمْسَكَ كَفَّهُ بِكَفِّهِ-، أَوْبَاشُهُمْ وَأَتْبَاعُهُمْ يَدْفَعُونَ بِهِمْ فِي وُجُوهِكُمْ -هَكَذَا وَأَمْسَكَ كَفَّهُ بِكَفِّهِ-، وَالْآنَ مَاذَا يَكُونُ الشَّأْنُ مَعَ الْأَنْصَارِ -رِضْوَانُ اللهِ عَلَيْهِمْ-؟

لَا قُرَيْشَ بَعْدَ الْيَوْمِ يَا رَسُولَ اللهِ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**مَنْ دَخَلَ دَارَ أَبِي سُفْيَانَ فَهُوَ آمِنٌ**»، فَقَالَتِ الْأَنْصَارُ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: أَمَّا الرَّجُلُ -يَعْنُونَ مُحَمَّدًا ﷺ، مَا الَّذِي أَلْجَأَهُمْ إِلَى هَذِهِ اللَّفْظَةِ، وَهُمْ مُلُوكُ الْبَيَانِ، وَسَلَاطِينُ الْبَلَاغَةِ، وَأَسَاطِينُ التَّعْبِيرِ أَيْضًا؟!! أَوَ مَا كَانَتْ هُنَالِكَ لَفْظَةٌ يُمْكِنُ أَنْ تَكُونَ هَاهُنَا مُعَبِّرَةً مُؤَدِّيَةً لِلْمَعْنَى الْمُرَادِ سِوَى هَذَا الْإِطْلَاقِ؟!- أَمَّا الرَّجُلُ؛ فَأَدْرَكَتْهُ رَغْبَةٌ فِي قَرْيَتِهِ، وَرَأْفَةٌ بِعَشِيرَتِهِ -تَدْرِي.. لَقَدْ قَالُوهَا كَأَنَّهَا تَوْطِئَةٌ لِعُذْرٍ؛ بَلْ كَأَنَّمَا دَفَعُوا بِهَا اعْتِذَارًا؛ يَعْنِي: النَّبِيُّ ﷺ حِينَمَا رَأَوْا رَأْفَتَهُ بِقَوْمِهِ، وَكَفَّهُ الْقَتْلَ عَنْهُمْ ﷺ؛ جَنَحَتْ بِهِ الطَّبِيعَةُ الْبَشَرِيَّةُ فِي أَعْلَى مَرَامِيهَا وَأَجْلَى مَسَامِيهَا، فَلَا عَتْبَ عَلَيْهِ هَاهُنَا، وَلَهُ الْعُذْرُ كُلُّهُ ﷺ، لِمَاذَا أَمَّنَ وَقَدْ أَمَرَ بِأَنْ نَجْعَلَ فِيهِمُ السَّيْفَ؟ لِمَاذَا قَالَ: مَنْ دَخَلَ دَارَ أَبِي سُفْيَانَ فَهُوَ آمِنٌ، وَمَنْ دَخَلَ الْمَسْجِدَ فَهُوَ آمِنٌ، وَمَنْ أَغْلَقَ عَلَيْهِ بَابَهُ فَهُوَ آمِنٌ؛ وَقَدْ أَمَرَنَا قَبْلُ وَانْتَدَبَنَا وَحْدَنَا: لَا تَدْعُ لِي إِلَّا الْأَنْصَارَ، وَلَا يَأْتِينِي إِلَّا أَنْصَارِيٌّ؟ وَهَذِهِ كَتِيبَةُ رَسُولِ اللهِ ﷺ يَأْتِيهَا الْأَمْرُ الْمُبَاشِرُ بِالْفِعْلِ، وَهِيَ تَفْعَلُ مَا أُمِرَتْ بِهِ عَلَى الْوَجْهِ مِنْ غَيْرِ مَا تَقْصِيرٍ، حَتَّى يَأْتِيَ الْأَمْرُ مِنَ الْبَشِيرِ النَّذِيرِ «**مَنْ دَخَلَ دَارَ أَبِي سُفْيَانَ فَهُوَ آمِنٌ**»، نَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ وَقَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: أَمَّا الرَّجُلُ ﷺ؛ فَأَدْرَكَتْهُ رَغْبَةٌ فِي قَرْيَتِهِ، وَرَأْفَةٌ بِعَشِيرَتِهِ.

قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: وَجَاءَ الْوَحْيُ -لَمْ يَنْقُلْهَا، أَعْنِي: الْقَوْلَةَ الَّتِي قِيلَتْ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ-، وَكَانَ إِذَا جَاءَ الْوَحْيُ لَا يَخْفَى عَلَيْنَا، فَإِذَا جَاءَ -يَعْنِي: الْوَحْيَ-؛ فَلَيْسَ أَحَدٌ يَرْفَعُ طَرْفَهُ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ حَتَّى يَنْقَضِيَ الْوَحْيُ، فَلَمَّا انْقَضَى الْوَحْيُ؛ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ**» قَالُوا: لَبَّيْكَ يَا رَسُولَ اللهِ.

قَالَ: «**قُلْتُمْ: أَمَّا الرَّجُلُ؛ فَأَدْرَكَتْهُ رَغْبَةٌ فِي قَرْيَتِهِ، وَرَأْفَةٌ بِعَشِيرَتِهِ؟**».

وَهَذَا دَلِيلٌ صَحِيحٌ صَرِيحٌ عَلَى أَنَّ الْوَحْيَ بِالسُّنَّةِ يَكُونُ مِنْ عِنْدِ اللهِ بِالطَّرِيقِ الْمُبَاشِرِ هَكَذَا.

قَالُوا: قَدْ كَانَ ذَاكَ.

قَالَ: «**كَلَّا**» -وَكَلَّا هَاهُنَا يُمْكِنُ أَنْ تَكُونَ عَلَى أَصْلِهَا -يَعْنِي: لَا، لَمْ يَحْدُثْ أَنْ أَخَذَتْنِي رَغْبَةٌ فِي قَرْيَتِي وَقَدْ خَرَجْتُ مِنْهَا مُهَاجِرًا، فَلَا أَعُودُ مِنْ هِجْرَتِي، وَإِنَّمَا أَنَا مُسْتَمِرٌّ عَلَى مَا كَانَ، وَأَيْضًا: لَا رَأْفَةَ فِي الْفِعْلِ الَّذِي كَانَ مِنْ كَفِّ الْقَتْلِ عَنْهُمْ وَلَا شَيْءَ؛ لِأَنَّهُمْ عَشِيرَةٌ، وَإِنَّمَا ذَلِكَ لِحِكَمٍ جَلِيلَةٍ، وَيُمْكِنُ أَنْ تَكُونَ (كَلَّا) هَاهُنَا بِمَعْنَى: حَقًّا، نَعَمْ، أَدْرَكَتْنِي رَغْبَةٌ فِي قَرْيَتِي وَرَأْفَةٌ بِعَشِيرَتِي؛ وَلَكِنِّي لَا أَسِيرُ عَلَى مُقْتَضَى رَغَبَاتِي الشَّخْصِيَّةِ، وَلَا أَعُودُ إِلَى قَنَاعَاتِي الذَّاتِيَّةِ، وَإِنَّمَا -كَمَا قَالَ ﷺ، قَالَ: كَلَّا، إِنِّي عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُهُ ﷺ، وَإِذَنْ؛ فَمَاذَا سَيَكُونُ بَعْدُ؟-

قَالَ: «**كَلَّا، إِنِّي عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُهُ، هَاجَرْتُ إِلَى اللهِ وَإِلَيْكُمْ، وَالْمَحْيَا مَحْيَاكُمْ، وَالْمَمَاتُ مَمَاتُكُمْ**».

يَا لَلْوَفَاءِ... الْمَحْيَا مَحْيَاكُمْ، وَالْمَمَاتُ مَمَاتُكُمْ، وَهَذِهِ أَرْضِي وَأَرْضُ آبَائِي، وَهَذِهِ دِيَارِي وَدِيَارُ أَجْدَادِي، وَهَذَا الْبَيْتُ بِأَشْرَفِ قَرْيَةٍ بِبَلْدَةٍ عَلَى ظَهْرِ الْأَرْضِ، حَبِيبٌ إِلَيَّ، عَزِيزٌ عَلَيَّ، بَنَاهُ أَبَوَايَ إِبْرَاهِيمُ وَإِسْمَاعِيلُ، وَإِنِّي لَأَوَدُّ، وَإِنِّي لَوَادٌّ أَنْ أَظَلَّ عِنْدَهُ أَطُوفُ بِهِ، وَأَسْتَلِمُ حَجَرَهُ، وَأَظَلُّ هَاهُنَا، وَلَكِنَّ الْأَمْرَ كَمَا أَمَرَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ وَقَدَّرَ، وَإِنَّهُ ﷺ لَا يَصْدُرُ فِي شَيْءٍ عَنْ شَيْءٍ مِنْ أَمْرِ نَفْسِهِ، وَإِنَّمَا كَمَا قَالَ لَهُ رَبُّهُ وَهُوَ يُتَرْجِمُ عَنِ الْوَحْيِ بِالسُّنَّةِ النَّبَوِيَّةِ، يَقُولُ النَّبِيُّ: «**وَالْمَحْيَا مَحْيَاكُمْ، وَالْمَمَاتُ مَمَاتُكُمْ**»، **فَأَظَلُّ بَيْنَكُمُ الْحَيَاةَ الْبَاقِيَةَ، فَإِذَا مِتُّ فَبَيْنَكُمْ أَمُوتُ، وَبِدِيَارِكُمْ أُدْفَنُ، وَقَبْرِي عِنْدَكُمْ وَلَدَيْكُمْ ﷺ.**

وَفَاءٌ مَا بَعْدَهُ وَفَاءٌ...

فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَبْكُونَ وَيَقُولُونَ: وَاللهِ؛ مَا قُلْنَا الَّذِي قُلْنَا إِلَّا الضِّنَّ بِاللهِ وَبِرَسُولِهِ ﷺ.

وَاللهِ مَا قُلْنَا مَا قُلْنَا إِلَّا أَنَّا أَشِحَّةٌ عَلَيْكَ، وَإِلَّا إِنَّا بُخَلَاءُ بِكَ غَايَةَ الْبُخْلِ، لَا نُفَرِّطُ فِيكَ أَبَدًا، وَلَا نَتَصَوَّرُ أَنْ نَعُودَ وَنُخَلِّيَكَ بَعْدَنَا، وَلَا أَنْ نُغَادِرَكَ فِي مَكَانٍ لَا تَكُونُ مَعَنَا فِيهِ ﷺ.

وَعَيْنًا بِعَيْنٍ، وَسِنًّا بِسِنٍّ، وَوَفَاءً بِوَفَاءٍ «**الْمَحْيَا مَحْيَاكُمْ، وَالْمَمَاتُ مَمَاتُكُمْ**».

فَصَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ عَلَى سَيِّدِ الْأَوْفِيَاءِ ﷺ.

قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**إِنَّ اللهَ وَرَسُولَهُ يُصَدِّقَانِكُمْ، وَيَعْذِرَانِكُمْ**».

إِنَّ اللهَ وَرَسُولَهُ يُصَدِّقَانِكُمْ فِيمَا قُلْتُمْ، وَيَعْذِرَانِكُمْ فِيمَا لَفَظْتُمْ؛ لِأَنَّ ذَلِكَ لَا يَصْدُرُ إِلَّا مِنَ الْحُبِّ كَمَا أَعْلَنْتُمْ عَنِ الضِّنِّ بِرَسُولِ اللهِ ﷺ.

قَالَ: فَأَقْبَلَ النَّاسُ إِلَى دَارِ أَبِي سُفْيَانَ، وَأَغْلَقَ النَّاسُ أَبْوَابَهُمْ -يُحَصِّلُونَ الْأَمَانَ-، قَالَ: وَأَقْبَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ، حَتَّى أَقْبَلَ إِلَى الْحَجَرِ، فَاسْتَلَمَهُ ثُمَّ طَافَ بِالْبَيْتِ، قَالَ: فَأَتَى عَلَى صَنَمٍ إِلَى جَنْبِ الْبَيْتِ كَانُوا يَعْبُدُونَهُ -أَهَذَا إِلَهٌ؟!! أَهَذَا يَنْفَعُ أَوْ يَضُرُّ؟!! أَهَذَا يَنْفَعُ نَفْسَهُ؟!! أَهَذَا يَدْفَعُ لَا يَنْفَعُ شَيْئًا مِنَ الضُّرِّ يَنْزِلُ عَلَى أُمِّ رَأْسِهِ، أَوْ يُصِيبُ لَا بِالْقَذَى، وَإِنَّمَا بِسِيَةِ الْقَوْسِ مِحْجَرَهُ وَعَيْنَهُ؟!! فَلْنَرَ.

قَالَ: وَفِي يَدِ رَسُولِ اللهِ ﷺ قَوْسٌ، وَهُوَ آخِذٌ بِسِيَةِ الْقَوْسِ -يَعْنِي: بِطَرَفِ الْقَوْسِ الْمَحْمِيِّ-، فَلَمَّا أَتَى عَلَى الصَّنَمِ؛ جَعَلَ ﷺ يَطْعُنُهُ فِي عَيْنِهِ -يَطْعَنُ بِهَذَا الْقَوْسِ الَّذِي فِي يَدِهِ فِي عَيْنِ ذَلِكَ الصَّنَمِ-، وَيَقُولُ ﷺ: ﴿جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ﴾ [الإسراء: ٨١].

فَلَمَّا فَرَغَ مِنْ طَوَافِهِ أَتَى الصَّفَا، فَعَلَا عَلَيْهِ حَتَّى نَظَرَ إِلَى الْبَيْتِ، وَرَفَعَ يَدَيْهِ، فَجَعَلَ يَحْمَدُ اللهَ، وَيَدْعُو بِمَا شَاءَ أَنْ يَدْعُوَ ﷺ.

النَّبِيُّ ﷺ مُعَلِّمُ الْبَشَرِيَّةِ الْوَفَاءَ...

أَخْرَجَ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- قَالَ: أَتَى جِبْرِيلُ النَّبِيَّ ﷺ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ؛ هَذِهِ خَدِيجَةُ قَدْ أَتَتْ مَعَهَا إِنَاءٌ فِيهِ إِدَامٌ أَوْ طَعَامٌ أَوْ شَرَابٌ، فَإِذَا هِيَ أَتَتْكَ فَاقْرَأْ عَلَيْهَا السَّلَامَ مِنْ رَبِّهَا وَمِنِّي، وَبَشِّرْهَا بِبَيْتٍ فِي الْجَنَّةِ مِنْ قَصَبٍ -مِنْ لُؤْلُؤٍ مُجَوَّفٍ أَوْ مِنْ ذَهَبٍ مَنْظُومٍ بِالْجَوْهَرِ- لَا صَخَبَ فِيهِ -لَا اخْتِلَاطَ لِلْأَصْوَاتِ بِارْتِفَاعِ غَوْغَائِيَّتِهَا- وَلَا نَصَبَ -لَا مَشَقَّةَ وَلَا تَعَبَ-». فَصَفَاءٌ فِي الْمَكَانِ، وَصَفَاءٌ فِي الْمَكِينِ، وَصَفَاءٌ فِي الْجَوِّ، وَصَفَاءٌ فِي الضَّمِيرِ، وَهِيَ الصَّفَاءُ كُلُّهُ -رِضْوَانُ اللهِ عَلَيْهَا أُمِّنَا-.

أَخْرَجَ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ عَنْ عَائِشَةَ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا-، قَالَتْ: «مَا غِرْتُ عَلَى أَحَدٍ مِنْ نِسَاءِ النَّبِيِّ ﷺ مَا غِرْتُ عَلَى خَدِيجَةَ، وَمَا رَأَيْتُهَا».

عَجِيبٌ!! هِيَ الَّتِي لَمْ تَرَهَا، وَهِيَ الَّتِي تَغَارُ مِنْهَا، وَبَلَغَتِ الْغَيْرَةُ مِنْهَا مَبْلَغَهَا، وَمَا غَارَتْ غَيْرَتَهَا مِنْهَا عَلَى وَاحِدَةٍ مِمَّنْ عَاصَرَتْهُنَّ تَحْتَ رَسُولِ اللهِ ﷺ؛ لِمَ؟! قَالَتْ: «وَلَكِنْ كَانَ رسول الله ﷺ يُكْثِرُ ذِكْرَهَا، وَرُبَّمَا ذَبَحَ الشَّاةَ، ثُمَّ يُقَطِّعُهَا أَعْضَاءً، ثُمَّ يَبْعَثُهَا فِي صَدَائِقِ خَدِيجَةَ -فِي صُوَيْحِبَاتِهَا-». هَذِهِ كَانَتْ تَأْتِينَا أَيَّامَ خَدِيجَةَ، أَنْعِمْ بِأَيَّامِ خَدِيجَةَ، اِذْهَبُوا بِهَذِهِ إِلَيْهَا، وَهَذِهِ كَانَتْ تَطْرُقُنَا أَيَّامَ خَدِيجَةَ، وَأَنْعِمْ بِأَيَّامِ خَدِيجَةَ، اِذْهَبُوا بِهَذِهِ إِلَى صَاحِبَةِ خَدِيجَةَ، وَهَكَذَا.

تَقُولُ عَائِشَةُ: «فَرُبَّمَا قُلْتُ: كَأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ فِي الدُّنْيَا امْرَأَةٌ إِلَّا خَدِيجَةُ».

فَيَقُولُ: «**إِنَّهَا كَانَتْ، وَكَانَتْ، وَكَانَ لِي مِنْهَا وَلَدٌ**».

مَزَايَا عَدِيدَةٌ، وَخِصَالٌ حَمِيدَةٌ، وَمَآثِرُ مَجِيدَةٌ، وَمِنْ مَآثِرِهَا: أَنَّهُ ﷺ لَمْ يَعْتِبْ عَلَيْهَا فِي عِشْرَتِهَا بِطُولِهَا مَرَّةً وَاحِدَةً، وَمَا أَغْضَبَتْهُ مَرَّةً قَطُّ، وَلَا رَاجَعَتْهُ فِي شَيْءٍ أَبَدًا -رِضْوَانُ اللهِ عَلَيْهَا-.

فَوَفَاؤُهُ وَفَاؤُهُ.

وَإِذَا صَحِبْتَ رَأَى الْوَفَاءَ مُجَسَّمَا ... فِي بُرْدِكَ الْأَصْحَابُ وَالْخُلَطَاءُ

وَإِذَا أَخَذْتَ الْعَهْدَ أَوْ أَعْطَيْتَهُ ... فَجَمِيعُ عَهْدِكَ ذِمَّةٌ وَوَفَاءُ ﷺ.

وَصَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ عَلَى نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ، وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ أَجْمَعِينَ(١).

---

(١)«من خطبة: خُلُقُ الوَفَاءِ – ٧ من ربيع الآخر ١٤٢٧هـ/ ٥/٥/٢٠٠٦م».

«المَوْعِظَةُ السَّادِسَةُ عَشْرَةَ»

«التَّقْوَى»

إنَّ الْحَمْدَ لِلَّهِ نَحْمَدُهُ، وَنَسْتَعِينُهُ وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِاللَّـهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللَّـهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَا هَادِيَ لَهُ.

وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّـهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ.

وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ ﷺ.

أَمَّا بَعْدُ:

فَالتَّقْوَى هِيَ وَصِيَّةُ اللهِ رَبِّ العَالَمِينَ لِلْأَوَّلِينَ وَالآخِرِينَ: ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُوا اللَّهَ﴾ [النساء: ١٣١]، فَتَقْوَى اللهِ رَبِّ العَالَمِينَ وَصِيَّةُ اللهِ لِلْأَوَّلِينَ وَالآخِرِينَ(١).

والتَّقْوَى: هِيَ أَنْ تَتَّقِيَ اللهَ رَبَّ العَالَمِينَ بِفِعْلِ المَأْمُورِ وَتَرْكِ المَحْظُورِ، فَهَذِهِ تَقْوَى اللهِ(٢).

التقوى كما بَيَّنَ أُبَيٌّ - رضوان الله عليه - للفاروقِ عمرَ - رضي الله عنه وأرضاه - إذ يسألُهُ وهو الفاروقُ الذي أتاهُ اللهُ ربُّ العالمينَ ما آتاهُ مِنَ الخيرِ والفضلِ والعطاءِ الجزيلِ، الذي يقولُ فيهِ النبيُّ صلى الله عليه وعلى آله وسلم إنَّه مِنَ المُحَدَّثِينَ، مِنْ أصحابِ الإلهامِ، كانَ يتنزلُ القرآنُ على ما يَرَى في كثيرٍ مِنَ المواضعِ كما هو معلومٌ -رضوان الله عليه وعلى الصحابةِ أجمعينَ- لا يستنكفُ أنْ يسألَ إذا لم يعلم عن الأمرِ الذي لا يعلمُهُ مَنْ يَعْلَمُهُ، فيقولُ: يا أُبَيٌ! ما التقوى؟

---

(١)«مِنْ خُطْبَةِ: الْحَرْبُ بِالْفَوَاحِشِ - الْجُمُعَةَ ٢٢ مِنْ جُمَادَى الْأُولَى ١٤٢٨هـ الْمُوَافِق ٨-٦-٢٠٠٧م».

(٢)«مِن خُطْبَةِ: يَا بَاغِي الشَّرِّ أَقْصِرْ - الجمعة ٢٣ شعبان ١٤٣٢ الموافق ١٣-٧-٢٠١٢م».

فيقولُ: يا أميرَ المؤمنينَ، أمَا سِرْتَ في طريقٍ ذِي شوكٍ؟

قالَ: بلى.

قال: ما صَنَعْتَ؟

قال: شَمَّرْتُ واجتهدتُ.

قال: فتلكَ التقوى.

فانظر إلى هذا الصحابيِّ الجليلِ -الذي هو أَقْرَأُ أُمَّةِ محمدٍ صلى الله عليه وعلى آله وسلم- كيفَ نَوَّرَ اللهُ ربُّ العالمينَ بَصِيرَتَهُ، وألقَى اللهُ ربُّ العالمينَ النُّورَ على لسانِهِ، وحَمَلَ عمرَ -رضوان الله عليه- حَمَلَهُ من وادِي المعاني إلى وادي المبانِي، وأخذَ بيدِهِ -رضوان الله عليهِمَا- إلى وسيلةٍ توضيحيةٍ تعليميةٍ ظاهرةٍ بأمرٍ حسيٍّ معلومٍ مُشَاهَدٍ -بل هو مُجَرَّبٌ-؛ لأنَّهُ سألَهُ عمَّا يصنعُ عندما يسيرُ في طريقٍ ذي شوكٍ، فَقَرَّرَهُ بدءًا: أمَا سِرْتَ في طريقٍ ذي شوكٍ؟

فعادت في المَخِيلَةِ الذهنيةِ العُمَرِيَّةِ وقائعُ مرتْ -وهي كثيرةٌ-، إذ كان يرعَى الغنمَ للخَطَّابِ، وكان الخَطَّابُ غليظَ الطبعِ جدًّا؛ فكان يضرِبُهُ ويُجِيعُهُ ويؤذيهِ كما أخبرَ هو عن أبيهِ بَعْدُ -رضوان الله عليه-، وكان يُدْعَى (عُمَيْرًا)، كان يُدْعَى (عُمَيْرًا) فَسُمِّيَ عُمَر -رضوان الله عليه-، كان مُتَوَقِّيًا.

واللهُ ربُّ العالمينَ شهيدٌ على ذلكَ خبيرٌ به، إذ كانَ يَخْطبُ يومًا ومُسترسلًا في خَطَابَتِهِ كما ينبغي أنْ يكونَ لسانُ الفاروقِ -رضوان الله عليه- ثم فجأةً حَادَ عن النهجِ الذي كانَ فيه سالكًا، وحادَ عن القصدِ الذي كانَ إليهِ قاصدًا، ثم أخذَ يقولُ مخاطبًا نفسَهُ: يا ابن الخَطَّابِ! لقد كنتَ وَضِيعًا فَرَفَعَكَ اللهُ، وكنتَ ذَلِيلًا فَأَعَزَّكَ اللهُ، وكنتَ تُدْعَى (عُمَيْرًا) فأصبحتَ تُسَمَّى (عُمَر)، وكنتَ، وكنتَ، وكنتَ....، حتى صِرْتَ أميرًا للمؤمنينَ.

ثمَّ عاد إلى وَصْلِ ما انقطَعَ من خُطْبَتِهِ، فلمَّا فَرَغَ أَقْبَلَ عليه صحبُهُ فقالوا: سمعنَا منكَ اليومَ حديثًا عجبًا، فأيُّ شيءٍ هذا؟! قال: إنِّي قد أعجبتني نفسِي في حالِ خَطَابَتِي فأردتُ أنْ أُؤدِّبَهَا، وأنْ أُلْزِمَهَا حَدَّهَا، وأنْ أُعَرِّفَهَا قَدْرَهَا -رضوان الله عليه-.

ومع ذلك وهو مُعَلِّمُ التقوى الخبيرُ بمسالكِهَا، النَّبِيهُ لجميعِ مَزَالِقِهَا، الحريصُ على تَتَبُّعِ كُلِّ ما أتى فيها يسألُ أُبَيًا -رضوان الله عليه-: ما التقوى يا أُبَيُّ؟ فيأخذُ أُبَيٌّ يدَاهُ إلى جَادَّةِ المعلومِ المُشاهدِ المُجَرَّبِ: أمَا سِرْتَ في طريقٍ ذي شوكٍ وأنتَ ترعى للخَطَّابِ أغنامَهُ، وأنتَ سائرٌ في سبيلِ اللهِ ربِّ العالمينَ مجاهدًا، وأنتَ تَعُسُّ بالليلِ تتفقدُ أحوالَ الرَّعِيَّةِ التي جعلَهَا اللهُ ربُّ العالمينَ مُعَلَّقَةً بخيطِ رقبتِكَ، أمَا سِرْتَ في طريق ذي شوكٍ؟ قال: بلى. قال: مَا صنعتَ؟ قال -في لَفْتَةٍ عُمَرِيَّةٍ ذكيةٍ مختصرةٍ مِنْ غيرِ ما إسهابٍ ولا تعويلٍ على كلامٍ لا يُفيد- قالَ: شَمَّرْتُ واجتهدتُ.

وانظر إليه مُشَمِّرًا وقد بانتْ ساقُهُ -رضوان الله عليه-، وقد أخذَ بِحُجْزَةِ إِزَارِهِ له رافعًا ثم هو مجتهدٌ يجعلُ الخَطْوَ رفيقًا، ويجعلُ الأناةَ رائدًا، ويجعلُ التمهلَ سائقًا، وينزلُ على أطرافِ الأصابعِ يُمَكِّنُ لرجلِهِ لقدمِهِ شيئًا مِنْ بعدِ شيءٍ يَتَوَقَّى، فإذا ما أحسَّ بأولِ أثرٍ مِنْ ألمٍ تَوَقَّى عن الألمِ رافعًا، يقولُ: فتلكَ التقوى يا أميرَ المؤمنينَ.

«دَرْبُ الْحَيَاةِ مَلِيءٌ بِأَشْوَاكِهَا»

هَذَا دَرْبُ الْحَيَاةِ مَلِيءٌ بِأَشْوَاكِهَا، مَلِيءٌ بِأَشْوَاكِ الْحَيَاةِ فِي التَّعَامُلِ مَعَ الخَلْقِ، فِي التَّعَامُلِ مَعَ الخَلْقِ المُفْضِي حَتْمًا إِلَى شَحْنَاءَ لَا يُحِبُّهَا اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ وَلَا يَرْضَاهَا، إِلَى أَحْقَادٍ وَأَحْسَادٍ، إِلَى هُمُومٍ وَغُمُومٍ، إِلَى ظُلْمٍ وَطُغْيَانٍ وَعُدْوَانٍ.

وَكَذَا التَّعَامُلُ مَعَ الْبَشَرِ، كَمَا قَالَ الشَّاعِرُ الْأَوَّلُ:

عَوَى الذِّئْبُ فَاسْتَأْنَسْتُ بِالذِّئْبِ إِذْ عَوَى ... وَصَــوَّتَ إِنْسَـــانٌ فَكِـدتُّ أَطِيــرُ

هَكَذَا، هَكَذَا فِي دَرْبِ الْحَيَاةِ، فِي أَشْوَاكِهَا، فَعَلَى الْمَرْءِ أَنْ يَكُونَ مُتَوَقِّيًا، وَأَنْ يُعْطِيَ كُلَّ ذِي حَقٍّ حَقَّهُ، وَأَنْ يَأْخُذَ بِزِمَامِ الْقَلْبِ بِيَدٍ مِنْ حَدِيدٍ، حَتَّى يُقِيمَهُ عَلَى صِرَاطِ رَبِّنَا الْحَمِيدِ؛ حَتَّى لَا يَزِلَّ وَلَا يَضِلَّ، وَحَتَّى لَا يَأْخُذَ الهَوَى بِزِمَامِ قَلْبِهِ، فَيُطَوِّحَ بِهِ فِي مَطَارِحَ لَا تَلِيقُ بِمُؤْمِنٍ أَبَدًا؛ فَضْلًا عَنْ أَنْ يَكُونَ مُحْسِنًا، فَضْلًا عَنْ أَنْ يَكُونَ لِلْغُفْرَانِ رَاجِيًا.

فَهَذَا هَذَا -عِبَادَ اللهِ!-(١)

«تَقْوَى اللهِ هِيَ الحِكْمَةُ مِنْ مَشْرُوعِيَّةِ الصِّيَامِ»

إِنَّ الصِّيَامَ مِنْ أَكْبَرِ أَسْبَابِ التَّقْوَى، قَالَ اللهُ -جلَّ وعلا-: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (١٨٣)﴾ [البقرة: ١٨٣].

قَالَ العَلَّامَةُ السَّعْدِيُّ -رحمهُ اللهُ تَعَالَى-: «يُخْبِرُ تَعَالَى بِمَا مَنَّ اللهُ بِهِ عَلَى عِبَادِهِ؛ بِأَنَّهُ فَرَضَ عَلَيْهِم الصِّيَامَ كَمَا فَرَضَهُ عَلَى الأُمَمِ السَّابِقَةِ؛ لِأَنَّهُ مِنَ الشَّرَائِعِ وَالأَوَامِرِ الَّتِي هِيَ مَصْلَحَةٌ لِلخَلْقِ فِي كُلِّ زَمَانٍ.

وَفِيهِ تَنْشِيطٌ لِهَذِهِ الأُمَّةِ؛ بِأَنَّهُ يَنْبَغِي لَكُمْ أَنْ تُنَافِسُوا غَيْرَكُمْ فِي تَكْمِيلِ الأَعْمَالِ، وَالمُسَارَعَةِ إِلَى صَالِحِ الخِصَالِ، وَأَنَّهُ لَيْسَ مِنَ الأُمُورِ الثَّقِيلَةِ الَّتِي خُصِّصْتُمْ بِهَا.

ثُمَّ ذَكَرَ تَعَالَى حِكْمَتَهُ فِي مَشْرُوعِيَّةِ الصِّيَامِ فَقَالَ: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾؛ فَإِنَّ الصِّيَامَ مِنْ أَكْبَرِ أَسْبَابِ التَّقْوَى؛ لِأَنَّ فِيهِ امْتِثَالَ أَمْرِ اللهِ وَاجْتِنَابَ نَهْيِهِ.

فَمِمَّا اشْتَمَلَ عَلَيْهِ مِنَ التَّقْوَى: أَنَّ الصَّائِمَ يَتْرُكُ مَا حَرَّمَ اللهُ عَلَيْهِ مِنَ الأَكْلِ وَالشُّرْبِ وَالجِمَاعِ وَنَحْوِهَا...الَّتِي تَمِيلُ إِلَيْهَا نَفْسُهُ، مُتَقَرِّبًا بِذَلِكَ إِلَى اللهِ، رَاجِيًا بِتَرْكِهَا ثَوَابَهُ، فَهَذَا مِنَ التَّقْوَى.

---

(١)«مِن خُطْبَة: مَا صَحَّ فِي لَيْلَةِ النِّصْفِ مِن شَعْبَان».

وَمِنْهَا: أَنَّ الصَّائِمَ يُدَرِّبُ نَفْسَهُ عَلَى مُرَاقَبَةِ اللهِ تَعَالَى، فَيَتْرُكُ مَا تَهْوَى نَفْسُهُ مَعَ قُدْرَتِهِ عَلَيْهِ؛ لِعِلْمِهِ بِاطِّلَاعِ اللهِ عَلَيْهِ.

وَمِنْهَا: أَنَّ الصِّيَامَ يُضَيِّقُ مَجَارِيَ الشَّيْطَانِ، فَإِنَّهُ يَجْرِي مِنَ ابْنِ آدَمَ مَجْرَى الدَّمِ، فَبِالصِّيَامِ يَضْعُفُ نُفُوذُهُ، وَتَقِلُّ مِنْهُ المَعَاصِي.

وَمِنْهَا: أَنَّ الصَّائِمَ فِي الغَالِبِ تَكْثُرُ طَاعَتُهُ، وَالطَّاعَاتُ مِن خِصَالِ التَّقْوَى.

وَمِنْهَا: أَنَّ الغَنِيَّ إِذَا ذَاقَ أَلَمَ الجُوعِ؛ أَوْجَبَ لَهُ ذَلِكَ مُوَاسَاةَ الفُقَرَاءِ المُعْدِمِينَ، وَهَذَا مِنْ خِصَالِ التَّقْوَى»(١).

«تَقْوَى اللهِ تَدْخُلُ فِي كُلِّ شَيْءٍ»

قَالَ الشَّيْخُ مُحَمَّد شَاكِر -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-: «إِيَّاكَ أَنْ تَظُنَّ أَنَّ تَقْوَى اللهِ هِيَ الصَّلَاةُ والصِّيَامُ وَنَحْوُهُمَا مِن العِبَادَاتِ فَقَط، إِنَّ تَقْوَى اللهِ تَدْخُلُ فِي كُلِّ شَيْءٍ، فَاتَّقِ اللهَ فِي عِبَادَةِ مَوْلَاكَ، لَا تُفَرِّطْ فِيهَا، وَاتَّقِ اللهَ فِي إِخْوَانِكَ لَا تُؤْذِ أَحَدًا مِنْهُم، وَاتَّقِ اللهَ فِي بَلَدِكَ، لَا تَخُنْهُ وَلَا تُسَلِّطْ عَلَيْهِ عَدُوًّا، وَاتَّقِ اللهَ فِي نَفْسِكَ وَلَا تُهْمِلْ فِي صِحَّتِكَ، وَلَا تَتَخَلَّقْ بِسِوَى الأَخْلَاقِ الفَاضِلَةِ».

*اتَّقِ اللهَ فِي وَطَنِكَ:

اتَّقِ اللهَ فِي وَطَنِكَ، لَا تَخُنْهُ وَلَا تُسَلِّطْ عَلَيْهِ عَدُوًّا، وَلَا تَدْفَعْهُ إِلَى الفَوْضَى والشِّقَاقِ.

إِنِّي لَأَعْجَبُ كَيْفَ يُمْكِنُ أَنْ يَخُونَ الخَائِنُونَ؟!!

أَيَخُونُ إِنْسَانٌ بِلَادَهُ؟!!

---

(١) «من خطبة: دَعْوَةُ الإِخْوَانِ لِلتَّوْبَةِ فِي رَمَضَانَ - الجمعة ٢٥ من شعبان ١٤٣٦هـ الموافق ١٢-٦-٢٠١٥م».

إِنْ خَانَ مَعْنَى أَنْ يَكُونَ فَكَيْفَ يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ؟!!

وَقَدْ تَضِيقُ أَخْلَاقُ الرَّجُلِ فَيَظُنُّ أَنَّ وَطَنَهُ قَد ضَاقَ بِهِ، وَالحَقُّ كَمَا قَالَ الشَّاعِرُ القَدِيمُ:

وَرَبِّكَ مَا ضَاقَت بِلَادٌ بِأَهْلِهَا *** وَلَكِنَّ أَخْلَاقَ الرِّجَالِ تَضِيقُ

وَحَالُ مَنْ فَارَقَ وَطَنَهُ هُوَ:

شَوْقٌ يَخُضُّ دَمِي إِلَيْهِ، كَأَنَّ كُلَّ دَمِي اشْتِهَاء

جُوعٌ إِلَيْهِ... كَجُوعِ دَمِ الغَرِيقِ إِلَى الهَوَاء

شَوْقُ الجَنِينِ إِذَا اشْرَأَبَّ مِن الظَّلَامِ إِلَى الوِلَادَه

إِنِّي لأَعْجَبُ كَيْفَ يُمْكِنُ أَنْ يَخُونَ الخَائِنُونَ

أَيَخُونُ إِنْسَانٌ بِلَادَهُ؟!!

إِنْ خَانَ مَعْنَى أَنْ يَكُونَ، فَكَيْفَ يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ؟!!

الشَّمْسُ أَجْمَلُ فِي بِلَادِي مِن سِوَاهَا، وَالظَّلَام

حَتَّى الظَّلَامُ هُنَاكَ أَجْمَلُ، فَهُوَ يَحْتَضِنُ الكِنَانَه

وَا حَسْرَتَاهُ!! مَتَى أَنَامُ

فَأُحِسُّ أَنَّ عَلَى الوِسَادَه مِنْ لَيْلِكِ الصَّيْفِيِّ طَلًّا فِيهِ عِطْرُكِ يَا كِنَانَه؟

مَا دَامَ الوَطَنُ إسلامِيًّا فَيَجِبُ الدفاعُ عَنْهُ، وَيَحْرُمُ الإِضْرَارُ بِهِ(١).

---

(١) «ملخص مِن كتابِ حُب الوطنِ الإسلاميِّ مِن الإيمان -طبعة مكتبة الفرقان الطبعة الأولى ٢٠٠٨م».

«عَلَيْكَ بِتَقْوَى اللهِ»

عَلَيْكَ بِتَقْوَى اللهِ فِي فِعْلِ أَمْرِهِ
وَتَجْتَنِبُ الْـمَنْـهِيَّ عَنْهُ وَتُبْعِدُ

وَكُنْ مُخْلِصًا للهِ وَاحْذَرْ مِنَ الرِّيَا
وَتَابِعْ رَسُولَ اللهِ إِنْ كُنْتَ تَعْبُدُ

تَوَكَّلْ عَلَى الرَّحمنِ حَقًّا وَثِقْ بِهِ
لِيَكْفِيكَ مَا يُغْنِيكَ حَقًّا وَتَرْشُدُ

تَصَبَّرْ عَنِ العِصْيَانِ وَاصْبِرْ لِـحُكْمِهِ
وَصَابِرْ عَلَى الطَّاعَاتِ عَلَّكَ تَسْعَدُ

وَكُنْ سَائِرًا بَيْنَ الْـمَخَافَةِ وَالرَّجَا
هُمَا كَجَنَاحَيْ طَائِرٍ حِينَ تَقْصِدُ

وَقَلْبَكَ طَهِّرْهُ وَمِنْ كُلِّ آفَةٍ
وَكُنْ أَبَدًا عَنْ عَيْبِهِ تَتَفَقَّدُ

وَجَمِّلْ بِنُصْحِ الْخَلْقِ قَلْبَكَ إِنَّهُ
لَأَعْلَى جَمَالٍ لِلْقُلُوبِ وَأَجْوَدُ

وَصَاحِبْ إِذَا صَاحَبْتَ كُلَّ مُوَفَّقٍ
يَقُودُكَ لِلْخَيْرَاتِ نُصْحًا وَيُرْشِدُ

وَإِيَّاكَ وَالْـمَرْءَ الَّذِي إِنْ صَحِبْتَهُ
خَسِـرْتَ خَسَارًا لَيْسَ فِيهِ تَرَدُّدُ

خُذِ العَفْوَ مِنَ أَخْلاقِ مَنْ قَدْ صَحِبْتَهُ
كَمَا يَأْمُرُ الرَّحْمَنُ فِيهِ وَيُرْشِـــدُ

تَرَحَّلْ عَنِ الدُّنْيَا فَلَيْسَتْ إِقَامَةً
وَلَكِنَّهَا زَادٌ لِـمَـنْ يَتَزَوّدُ

وَكُنْ سَالِكًا طُرْقَ الَّذِينَ تَقَدَّمُوا
إِلَى المَنْزِلِ البَاقِي الَّذِي لَيْسَ يَنْفَدُ

وَكُنْ ذَاكِرًا للهِ فِي كُلِّ حَالَةٍ
فَلَيْسَ لِذِكْرِ اللهِ وَقْتٌ مُقَيَّدُ

فَذِكْرُ إِلهِ الْعَرْشِ سِرًّا وَمُعْلَنًا
يُزِيلُ الشَّقَا وَالهَمَّ عَنْكَ وَيَطْرُدُ

وَيَجْلِبُ لِلْخَيْرَاتِ دُنْيًا وَآجِلًا
وَإِنْ يَأْتِكَ الْوَسْوَاسُ يَوْمًا يُشَـرِّدُ

فَقَدْ أَخْبَرَ المُخْتَارُ يَوْمًا لِصَحْبِهِ
بِأَنَّ كَثِيرَ الذِّكْرِ فِي السَّبْقِ مُفْرِدُ

وَوَصَّى مُعَاذًا يَسْتَعِينُ إِلَهَهُ
عَلَى ذِكْرِهِ وَالشُّكْرِ بِالْحُسْنِ يَعْبُدُ

وَأَوْصَى لِشَخْصٍ قَدْ أَتَى لِنَصِيحَةٍ
وَقَدْ كَانَ فِي حَمْلِ الشَّـرَائِعِ يَجْهَدُ

بِأَنْ لا يَزَلْ رَطْبًا لِسَانُكَ هٰذِهِ
تُعِينُ عَلَى كُلِّ الْأُمُورِ وَتُسْعِدُ

وَأَخْبَرَ أَنَّ الذِّكْرَ غَرْسٌ لِأَهْلِهِ
بِجَنَّاتِ عَدْنٍ وَالمَسَاكِنُ تُمْهَدُ

وَأَخْبَرَ أَنَّ اللهَ يَذْكُرُ عَبْدَهُ
وَمَعْهُ عَلَى كُلِّ الْأُمُورِ يُسَدِّدُ

وَأَخْبَرَ أَنَّ الذِّكْرَ يَبْقَى بِجَنةٍ
وَيَنْقَطِعُ التَكْلِيفُ حِينَ يُخَلَّدُوا

وَلَوْ لَمْ يَكُنْ فِي ذِكْرِهِ غَيْرَ أَنَّهُ
طَرِيقٌ إِلَى حُبِّ الْإِلَهِ وَمُرْشِدُ

وَيَنْهَى الفَتَى عَنْ غِيبَةٍ وَنَمِيمَةٍ
وَعَنْ كُلِّ قَوْلٍ لِلدِّيَانَةِ مُفْسِدُ

لَكَانَ لَنَا حَظٌّ عَظِيمٌ وَرَغْبَةٌ
بِكَثْرَةِ ذِكْرِ اللهِ نِعْمَ المُوَحَّدُ

وَلَكِنَّنَا مِنْ جَهْلِنَا قَلَّ ذِكْرُنَا
كَمَا قَلَّ مِنَّا لِلْإِلَهِ التَّعَبُّدُ

وَسَلْ رَبّكَ التَّوْفِيقَ وَالفَوْزَ دَائِمًا
فَمَا خَابَ عَبْدٌ لِلْمُهَيْمِنِ يَقْصِدُ

وَصَلِّ إِلهِي مَعْ سَلَامٍ وَرَحْمَةٍ
عَلَى خَيْرِ مَنْ قَدْ كَانَ لِلْخَلْقِ يُرْشِدُ

وَآلٍ وَأَصْحَابٍ وَمَنْ كَانَ تَابِعًا
صَلَاةً وَتَسْلِيمًا يَدُومُ وَيَخْلُدُ

فَلَا تُضَيِّعوا زَمَانَكَم، فَقَدْ أَظَلَّكُم -وَقَرُبَ مِنْكُم- شَهْرٌ عَظِيمٌ جَلِيلٌ كَبِيرٌ، فَاتَّقُوا اللهَ فِيهِ وَلَا تُضَيِّعُوهُ، وَلَا تُفْسِدُوهُ بِالرَّفَثِ وَاللَّغْوِ وَالفُسُوقِ، وَقَوْلِ الخَنَا وَالجَهْلِ، «**مَنْ لَمْ يَدَع قَوْلَ الزُّورِ وَالعَمَلَ بِهِ وَالجَهْلَ** -وَالمُرَادُ بِالجَهْلِ: مَا يَكُونُ مُتَعَلِّقًا بِالأَخْلَاقِ، لَا الَّذِي يَتَعَلَّقُ بِالعِلْمِ، بَلْ الَّذِي يَتَعَلَّقُ بِالحِلْمِ-».

أَمْسِكْ لِسَانَكَ، فَرُبَّ صَائِمٍ لَيْسَ لَهُ مِن صِيَامِهِ إِلَّا الجُوعُ وَالعَطَشُ، وَرُبَّ قَائِمٌ لَيْسَ لَهُ مِن قِيَامِهِ إِلَّا النَّصَبُ وَالسَّهَرُ، وَمَنْ لَمْ يَدَع قَوْلَ الزُّورِ وَالعَمَلَ بِهِ وَالجَهْلَ فَلَيْسَ للهِ حَاجَةٌ فِي أَنْ يَدَعَ طَعَامَهُ وَشَرَابَهُ... إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ مِنْكُم تَقْوَى القُلُوبِ ﴿لَن يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَكِن يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنكُمْ﴾ [الحج: ٣٧].

فَاللهُ لَا يَنْظُرُ إِلَى صُورِكُم وَلَا إِلَى أَشْكَالِكُم، وَلَا إِلَى أَجْسَادِكُم، وَلَكِن يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُم وَأَعْمَالِكُم.

اللهُ يُرِيدُ تَقْوَى القُلُوبِ، فَاتَّقُوا اللهَ، وَمَا حُصِّلَت تَقْوَاهُ بِمِثْلِ الصِّيَامِ –صِيَامِ رَمَضَانَ- ﴿لَعَلَّكُم تَتَّقُونَ﴾ فَذَكَرَ أَنَّهُ شَرَعَهُ لِهَذَا القَصْدِ، وَلِحِكَمٍ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ.

فَلْنَخْرُجْ قَلِيلًا مِن هَذَا الوَاقِعِ المَأفُونِ بِكُلِّ مَا فِيهِ وَكُلِّ مَا يَشْتَمِلُ عَلَيْهِ مِن خَلْطٍ وَخَبْطٍ، وَزُورٍ وَكَذِبٍ، وَخِدَاعٍ وَتَمْوِيهٍ، وَانْحِطَاطٍ فِي الأَخْلَاقِ، وَتَسَفُّلٍ فِي الأَقْوَالِ، فَلَتَت أَزِمَّةُ الأَلْسِنَةِ كَمَا انْفَلَتَت أَزِمَّةُ القُلُوبِ.

أَهْلُ السُّنَّةِ هُم شَامَةُ الخَلْقِ، وَهُم زُبْدَةُ الزُّبْدَةِ مِنَ النَّاسِ وَصَفْوَةُ الصَّفْوَةِ مِنْهُم، فَعَلَيْهِم أَنْ يَتَّقُوا اللهَ فِي أَزْمَانِهِم، وَأَنْ يَجْتَهِدُوا فِي العِبَادَةِ لِرَبِّهِم، وَفِي تَحْصِيلِ تَقْوَاهُ، وَفِي الإِخْلَاصِ لَهُ فِي المُعْتَقَدِ وَفِي النُّطْقِ وَفِي العَمَلِ وَاللهُ مِن وَرَاءِ القَصْدِ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ.

وَصَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ عَلَى نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ ﷺ وعلى آله وأصحابه أجمعين(١).

---

(١)«مِن خُطْبَةِ: يَا بَاغِي الشَّرِّ أَقْصِرْ - الجمعة ٢٣ شعبان ١٤٣٢ الموافق١٣-٧-٢٠١٢م».

«المَوْعِظَةُ السَّابِعَةَ عَشْرَةَ»

«حُسْنُ الخُلُقِ»

إِنَّ الْحَمْدَ لِلَّهِ نَحْمَدُهُ، وَنَسْتَعِينُهُ وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِاللَّه مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللَّهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَا هَادِيَ لَهُ.

وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ صلى الله عليه وآله وسلم.

أَمَّا بَعْدُ:

«حُسْنُ الخُلُقِ مِنْ كُبْرَى غَايَاتِ دِينِنَا»

فقَدْ حصرَ النبيُّ ﷺ الغايةَ مِن البعثةِ المحمديةِ في تمامِ صالحِ الأخلاقِ، فقالَ ﷺ: «**إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأُتَمِّمَ صَالِحَ الْأَخْلَاقِ**».

أخرجَهُ البخاريُّ في «الأدبِ»، والحاكمُ، وأحمدُ، وصححَهُ الشيخُ أحمد شاكر والشيخُ الألبانيُّ وغيرُهُما.

فلا عَجَبَ إذن أنْ يكونَ حُسْنُ الخُلُقِ غايةَ الغاياتِ في سَعْيِ العَبدِ لاستكمالِ الصفاتِ على أساسٍ مِن التوحيدِ المَكينِ، وثابتِ الإخلاصِ واليقين.

وقد كان إمامُ الأنبياءِ ﷺ في «حُسْنِ الخُلُقِ» على القمةِ الشامخةِ، وفوقَ الغايةِ والمُنتهى، فكان كما قال عنه ربُّهُ -عزَّ وجلَّ-: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤].

وهو ﷺ مع ذلك لا يَنْفَكُّ يدعو ربَّهُ في قيامِ الليلِ بقولِهِ: «**اللَّهُمَّ اهْدِنِي لِأَحْسَنِ الأَخْلاقِ، فَإِنَّهُ لا يَهْدِي لِأَحْسَنِهَا إِلَّا أَنْتَ، وَاصْرِفْ عَنِّي سَيِّئِهَا لَا يَصْرِفُ عَنِّي سَيِّئَهَا إِلَّا أَنْتَ**».

رواهُ مسلمٌ عن عليٍّ -رضي اللهُ عنه-.

يطلبُ مِن ربِّهِ أنْ يُرشِدَهُ لصوابِ الأخلاقِ، ويُوفِّقَهُ للتخلُّقِ به، وأنْ يصرفَ عنه قبيحَ الأخلاقِ ومذمومَ الصفاتِ، ويُبعِدَ ذلك عنه، مع أنهُ ﷺ على خُلُقٍ عظيمٍ، ومع أنَّ خُلَقَهُ القرآنُ الكريمُ.

أخبر سعدُ بن هشام بن عامرٍ أنه سألَ عائشةَ -رضي اللهُ عنها-، فقال: «قلتُ: يَا أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ، أَنْبِئِينِي عَنْ خُلُقِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ.

قَالَتْ: أَلَسْتَ تَقْرَأُ الْقُرْآنَ؟

قُلْتُ: بَلَى.

قَالَتْ: فَإِنَّ خُلُقَ نَبِيِّ اللَّهِ ﷺ الْقُرْآنُ». رواه مسلم.

ومعنى أنَّ خُلُقَهُ القرآنُ أنه يعملُ به، ويقفُ عند حدودِهِ، ويتأدبُ بآدابِهِ، ويعتبرُ بأمثالِهِ وقَصَصِهِ، ويتدبرُهُ، ويُحسِنُ تلاوتَهُ.

وإذا كان النبيُّ ﷺ مِن حُسنِ الخُلُقِ بهذه المثابةِ، وهو -مع ذلك- يسألُ الهدايةَ لأحسنِ الأخلاقِ، ويستعيذُ مِن سيِّئِهَا، فكيفُ يصنعُ مَن خُلُقُهُ إلى خُلُقِ النبيِّ ﷺ كقطرةٍ في بحرٍ أو دون ذلك؟!!

وكلُّ إنسانٍ -لا محالة- يجهلُ الكثيرَ مِن عيوبِ نَفْسِهِ، فإذا جَاهَدَ نَفْسَهُ أَدْنَى مجاهدةٍ حتى تَرَكَ فواحشَ المعاصي، فربما ظنَّ بنفسِهِ أنه قد هذَّبَ نفسَهُ، وصَفَّى أخلاقَهُ، وحسَّنَ خُلُقَهُ، واستغنى عن المجاهدةِ، واستنامَ إلى حُسنِ ظنِّهِ بنفسِهِ واتَّبَعَ هَوَاهُ.

ولا رَيْبَ أنَّ حاجةَ العبدِ المؤمنِ إلى حُسْنِ الخُلُقِ كحاجتِهِ إلى الهواءِ، بل أشدّ؛ لأنَّ فقْدَ الهواءِ يعني موتَ البدنِ، وفقْدَ الخُلُقِ الحَسَنِ يعني موتَ القلبِ، وفي موتِ القلبِ فَقْدُ الدينِ وهلاكُ الأبدِ.

«عَلَامَاتُ حُسْنِ الخُلُقِ»

وقد تَشْتَبِهُ المَسَالِكُ، وَتَتَشَابَهُ الدُّرُوبُ، وَتَضِلُّ الأفهامُ، وتَزِلُّ الأقدامُ، وتَعْظُمُ حاجةُ العبدِ إلى علامةٍ يعرفُ بها حُسنَ الخُلُقِ وجودًا وعدمًا، وتحصيلًا وَفَقْدًا، بحيثُ إنه مَن أشكَلَ عليه حالُهُ عَرَضَ نفسَهُ على تلك العلامةِ فعَرَفَ أين يكونُ مِن حُسنِ الخُلُقِ وسُوئِهِ.

إيرادُ جملةٍ مِن ذلك تُعْلِمُ العبدَ آيةَ حُسنِ الخُلُقِ:

قال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ (١) الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ (٢) وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ (٣) وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ (٤) وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ (٥) إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ (٦)

فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ (٧) وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ (٨) وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ (٩) أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ (١٠)﴾ [المؤمنون: ١-١٠].

وقالَ -عزَّ وجلَّ-: ﴿التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: ١١٢].

وقالَ اللهُ تعالى: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا (٦٣) وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا (٦٤) وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا (٦٥) إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا (٦٦) وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا (٦٧) وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا (٦٨) يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا (٦٩)

﴿إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا (٧٠) وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا (٧١) وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا (٧٢) وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا (٧٣) وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا (٧٤)﴾ [الفرقان: ٦٣-٧٤].

«فمَن أشكلَ عليه حالُهُ فليعرضْ نفسَهُ على هذه الآياتِ، فوجودُ جميع هذه الصفاتِ علامةُ حُسنِ الخُلُقِ، وفَقْدُ جميعِهَا علامةُ سوءِ الخُلُقِ، ووجودُ بعضِهَا دون بعضٍ يدُلُّ على البعضِ دونَ البعضِ، فليشتغل بتحصيلِ ما فقدَهُ وحِفظِ ما وجدَهُ.

«مِيزَانُ السَّوَاءِ النَّفْسِيِّ والأَخْلَاقِيِّ هُوَ أَخْلَاقُ النَّبِيِّ ﷺ»

عن عائشةَ -رضي الله عنها- أنَّها قالت: «**ما خُيِّرَ رسولُ اللهِ ﷺ بَيْنَ أَمْرَينِ إِلَّا أَخَذَ أَيْسَرَهُمَا، مَا لَمْ يَكُن إِثْمًا، فَإِنْ كَانَ إِثْمًا كَانَ أَبْعَدَ النَّاسِ مِنْهُ، وَمَا انْتَقَمَ رسولُ اللهِ ﷺ لِنَفْسِهِ فِي شَيْءٍ قَطُّ، إِلَّا أَنْ تُنْتَهكَ حُرْمَةُ اللهِ فَيَنْتَقِمُ بهَا للهِ**».

وإنْ كان رسولُ اللهِ ﷺ كَمَا قالَ أنسٌ –رضي الله عنه-: «**كانَ رسولُ اللهِ ﷺ أحسنَ الناسِ خُلُقًا**». متفقٌ عليه.

«أَحَبُّ المُسْلِمِينَ إِلَى الرَّسُولِ ﷺ أَحَاسِنُهُم أَخلَاقًا»

ولمَّا كان النبيُّ ﷺ أكملَ الناسِ خُلُقًا، وأحسنَهُم أخلاقًا، كان أَوْلَى الناسِ بالحُبِّ والقُربِ منه مَن بلغَ في حُسنِ الخُلُقِ مبلغًا مَرضيًّا، وتسنَّمَ مِن حُسنِ الخُلُقِ مكانًا عليًّا.

عن جابر -رضي الله عنه- أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قال: «**مِن أَحَبِّكُم إِلَيَّ وَأَقربِكُم مِنِّي مَجلِسًا يومَ القِيامَةِ: أَحَاسِنَكُم أَخلَاقًا، وَإِنَّ أَبغَضَكُم إِلَيَّ وَأَبعَدَكُم مِنِّي مَجلِسًا يَومَ القِيَامَةِ: الثَّرثَارُونَ، وَالمُتَشَدِّقُونَ، وَالمُتَفَيهِقُونَ**».

قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، قَد عَلِمنَا الثَّرثَارُونَ وَالمُتَشَدِّقُونَ، فَمَا المُتَفَيهِقُونَ؟

قَالَ: «**المُتَكَبِّرُونَ**». رواه الترمذيُّ وقال: «حديثٌ حسنٌ»، وَصَحَّحَهُ الألبانيُّ في «صحيح سُنَنِ الترمذيِّ».

قال النوويُّ -رحمهُ اللهُ-: «الثَّرْثَارُ: كثيرُ الكلامِ تَكَلُّفًا، المُتَشَدِّقُ: المُتَطَاوِلُ على النَّاسِ بِكَلَامِهِ وَيَتَكَلَّمُ بِمِلءِ فِيهِ تَفَاصُحًا وتَعْظِيمًا لِكَلَامِهِ، المُتَفيهقُ: مِن الفِهْقِ وهو الامْتِلَاءُ وهو الذي يَمْلأُ فَمَهُ بالكلامِ، وَيَتَوَسَّعُ فيه وَيُغْرِبُ به تَكَبُّرًا وارتفاعًا وإِظْهَارًا للفَضِيلَةِ على غَيْرِهِ»(١).

«خَطَرُ الانْهِيَارِ الأَخْلَاقِيِّ»

إنَّ أكبرَ الأخطارِ التي تتعرضُ لها أُمَّةٌ، إنَّ أعظمَ الأمراضِ التي تَفْتِكُ ببُنيانَهَا الحيَّ حتى يصيرَ ضعيفًا مهدومًا، إنَّ أكبرَ الأخطارِ وأعظمَ الأمراضِ الانهيارُ الخُلُقِيُّ، فإذا انهارت أخلاقُ أمةٍ فكَبِّر عليها أربعًا، ومعلومٌ أنَّ المعاصي سببُ النكباتِ، وأنه ما يُصيبُنَا شيءٌ إلَّا بذنبٍ، وأنَّ النعمَ لا تُرفعُ إلَّا بكُفرانِهَا وبتغييرِ ما بالنَّفْسِ(٢).

فالمجتمعُ إذا ما انهارت أخلاقُهُ، وإذا ما سقطت أخلاقُهُ في الحمئةِ الوبيلة، المجتمع إذا ظهرت فيه الفاحشة؛ فَكَبِّر عليه أربعًا، المجتمعُ لا يُحارَبُ بِمِثْلِ ما يُحارَبُ بنَشْرِ الفاحشةِ والرذيلةِ بين أبنائِه، وما تَمَكَّنَ أعداءُ الإسلامِ في داخلٍ ولا خارجٍ يومًا مِنْ المسلمين إلا بالعَبَثِ بأخلاقِهم وبثِّ النَّزَواتِ والشهواتِ مفتوحةً بمصارعِ أبوابِها أمامَ شهواتِهم ومَلذَّاتِهم.

---

(١)«باختصار من كتاب «حُسنِ الخُلُقِ» الطبعة الثالثة».

(٢)«خطبة الانهيار الأخلاقي».

فإذا انهارت الأخلاقُ؛ انهارَ المجتمعُ لا محالة، وقد عَلِمَ أعداءُ الإسلامِ في داخلٍ وخارجٍ؛ أنهم لن ينالوا بالمواجهةِ العسكريةِ بينهم وبين المسلمين شيئًا ذا بال؛ ولذلك كان التركيزُ كلُّهُ على بَثِّ الشُّبهاتِ بين المسلمين، وعلى إثارةِ نوازعِ العصبيةِ بين أبناءِ الإسلامِ العظيم، وبإثارةِ الشهواتِ وبَعْثِ النَّزَوَاتِ مِن مكامنِها، فإذا انهارت الأخلاقُ؛ انهارَ المجتمعُ لا محالة(١).

«جُمْلَةٌ مِن الأَخْلَاقِ الحَمِيدَةِ المُتَعَلِّقَةِ باللِّسَانِ»

*كن صادِقًا:

إنَّ الصِّدْقَ عَزِيزٌ، وَعَوِّد نَفْسَكَ الصِّدْقَ، فإنَّهُ يحتاجُ إلى تَعْوِيدٍ وَمَشَقَّةٍ، وَأَمْسِكْ لِسَانَكَ عَنِ اللغوِ، حَتَّى لا يَجُرَّكَ اللغْوُ إلى هذا الكَذِبِ المُسْتَقْبَحِ، واعْلَم أنَّ الكَذِبَ لا يَلِيقُ بِالرَّجُلِ ذي المُرُوءَةِ، وأنَّهُ لو نَادَى مُنَادٍ بين السماءِ والأَرْضِ أَنَّ الكَذِبَ حَلَالٌ مَا فَعَلَهُ؛ لِتَمَامِ مُرُوءَتِهِ وكَمَالِ رجولتِهِ؛ لأنَّ الكَذِبَ يُزْرِي به، وَيَحُطُّ مِن قَدْرِهِ، وَيُحَقِّرُ مِن شَأْنِهِ(٢).

*أَمْسِك لِسَانَكَ إِلَّا عَنْ خَيْرٍ:

قَالَ النوويُّ -رَحِمَهُ اللهُ-: «اعْلَم أنهُ يَنْبَغِي لِكُلِّ مُكَلَّفٍ أَنْ يَحْفَظَ لِسَانَهُ عن جميعِ الكلامِ؛ إلا كلامًا ظَهَرَت فيه المَصْلَحَةُ، ومَتَى اسْتَوَى الكلامُ وتَرْكُهُ في المَصْلَحَةِ؛ فَالسُّنَّةُ الإِمْسَاكُ عنه؛ لأَنَّهُ قد يَنْجَرُّ الكلامُ المُبَاحُ إلى حَرَامٍ أو مَكْرُوهٍ، وذلك كَثِيرٌ في العادةِ، والسَّلَامَةُ لا يَعْدِلُهَا شَيْء».

---

(١) «من خطبة الحرب بالفواحش - الجمعة ٢٢ من جمادى الأولى ١٤٢٨هـ الموافق ٨-٦-٢٠٠٧م».

(٢)«مِن خطبة: مِن آفَاتِ اللسانِ: الكَذِب - ١٠ من جمادى الأولى١٤٣٧هـ الموافق ١٩-٢-٢٠١٦م».

وعن أبي هُريرة-رضي اللهُ عنه- عن النبيِّ ﷺ قال: «**مَن كانَ يُؤمِنُ باللهِ واليَوْم الآخر فَلْيَقُل خَيْرًا، أو لِيَصْمُت**». متفقٌ عليه.

وهذا الحديثُ صريحٌ في أنهُ يَنْبَغِي أنْ لا يُتَكَلَّمَ إلَّا إذا كان الكلامُ خيرًا، وهو الذي ظَهَرَت مصلحتُهُ، ومتى شَكَّ في ظهورِ المَصْلَحَةِ، فَلَا يَتَكَلَّم.

وقد جَعَلَ النبيُّ ﷺ حِفْظَ اللسانِ مع حِفْظِ الفَرْجِ جَوَازًا إلى الجَنَّةِ ونَجَاةً مِن النَّارِ، فَمَن ضَمِنَ اللسَانَ والفَرْجَ؛ ضَمِنَ له النبيُّ ﷺ الجَنَّةَ، قَالَ ﷺ: «**مَنْ يَضْمَنْ لِي مَا بَيْنَ لَحْيَيْهِ وَمَا بَيْنَ رِجْلَيْهِ أَضْمَنْ لَهُ الْجَنَّةَ**». رواهُ البُخَاريُّ(١).

«طَبِّقُوا أَمْرَ اللهِ وَأَمْرَ رَسُولِهِ ﷺ بِالتَّحَلِّي بِحُسْنِ الخُلُقِ»

الرسولُ ﷺ يُطَبِّقُ أمرَ اللهِ ربِّ العالمين: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٩]، فإحسانُ التعامُلِ مع الخَلْقِ هو امتثالٌ لأمرِ الربِّ وامتثالٌ لأمرِ النبيِّ الأكرمِ ﷺ: «**وخَالِقِ النَاسَ بخُلُقٍ حَسَنٍ**».

خالِقِ النَاسَ: مِن المُفاعلَةِ بينكَ وبين الناس، يعني: فلتكن أخلاقُكَ المبذولةُ إليهم حَسَنَةً، خالِقِ النَاسَ: فهو فِعلُ أمرٍ وليس اسمًا كما يتبادرُ إلى أذهانِ الأعجميين مِمن لاثَت بألسنتِهم لُوثةُ العُجْمَةِ فحَرَفَت وحَرَّفَت عندَهُم سَنَنَ الفطرةِ اللغويةِ عن سبيلِهَا، «**وخالِقِ النَاسَ بخُلُقٍ حَسَنٍ**». فهو امتثالٌ لأمرِ اللهِ ربِّ العالمين، وامتثالٌ لأمرِ النبيِّ الأمين ﷺ، ويجعلُهُ النبيُّ ﷺ مُؤدِّيًا إلى مبلغٍ لا يُرتَقَى مُرتقاهُ إلَّا بشِقِّ النفسِ وبذلِ المجهودِ «**إنَّ الرجلَ ليبلغُ بحُسنِ الخُلُقِ درجةَ الصائمِ القائمِ**».

وَصَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ عَلَى نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَأَصحَابِهِ أَجمَعِينَ(٢).

(١)«خطبة من آفات اللسان الغيبة -خطبة الجمعة ٢٦ من جمادى الأولى١٤٣٧هـ / ١٢-٢-٢٠١٦م».

(٢) «مقطع بعنوان: حُسْنُ الخُلُقِ وخطورةِ الكلمةِ من سلسلة القول المبين».

«المَوْعِظَةُ الثَّامِنَةَ عَشْرَةَ»

«البِرُّ»

إنَّ الْحَمْدَ لِلَّهِ نَحْمَدُهُ، وَنَسْتَعِينُهُ وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللَّهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَا هَادِيَ لَهُ.

وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ ﷺ.

أَمَّا بَعْدُ:

فَإِنَّ أَصْدَقَ الْحَدِيثِ كِتَابُ اللَّـهِ، وَخَيْرَ الْهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَشَرَّ الْأُمُورِ مُحْدَثَاتُهَا، وَكُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ، وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ، وَكُلَّ ضَلَالَةٍ فِي النَّارِ.

أَمَّا بَعْدُ:

«مَعْنَى الْبِرِّ»

فَعَنِ النَّوَّاسِ بْنِ سَمْعَانَ ﷺ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، قال: «**البِرُّ حُسْنُ الخُلُقِ، والإِثْمُ: ما حَاكَ في نَفْسِكَ، وكَرِهْتَ أنْ يَطَّلِعَ عليهِ النَّاسُ**». رواهُ مسلمٌ في «صَحِيحِهِ».

البِرُّ: اسْمٌ جَامِعٌ لِلْخَيْرِ وَكُلِّ فِعْلٍ مَرْضِيٍّ.

البِرُّ حُسْنُ الخُلُقِ، والإِثْمُ: ما حَاكَ في نَفْسِكَ، وكَرِهْتَ أنْ يَطَّلِعَ عليهِ النَّاسُ.

وعَنْ وابِصَةَ بْنِ مَعْبَدٍ قال: أتيتُ رَسُولَ الله ﷺ، فقالَ: «**جِئْتَ تَسْأَلُ عن البرِّ والإثمِ؟**»

قُلْتُ: نعَمْ.

قال: «**استَفْتِ قَلْبَكَ، البِرُّ: ما اطمأنَّتْ إليهِ النَّفْسُ، واطمأنَّ إليهِ القلبُ، والإثمُ: ما حَاكَ في النَّفسِ، وتَرَدَّدَ في الصَّدْرِ، وإنْ أَفْتَاكَ النَّاسُ وَأَفْتَوْكَ**».

قَالَ النَّوَوِيُّ -رَحِمَهُ اللَّهُ-: حَدِيثٌ حَسَنٌ، رَوَيْنَاهُ فِي «مُسْنَدَي الْإِمَامَيْنِ أَحْمَدَ وَالدَّارِمِيِّ» بِإِسْنَادٍ حَسَنٍ.

هَذِهِ الْأَحَادِيثُ مُشْتَمِلَةٌ عَلَى تَفْسِيرِ الْبِرِّ وَالْإِثْمِ، وَبَعْضُهَا فِي تَفْسِيرِ الْحَلَالِ وَالْحَرَامِ، فَحَدِيثُ النَّوَّاسِ بْنِ سَمْعَانَ فَسَّرَ النَّبِيُّ ﷺ فِيهِ الْبِرَّ بِحُسْنِ الْخُلُقِ، وَفَسَّرَهُ فِي حَدِيثِ وَابِصَةَ وَغَيْرِهِ بِمَا اطْمَأَنَّ إِلَيْهِ الْقَلْبُ وَالنَّفْسُ، وَإِنَّمَا اخْتَلَفَ تَفْسِيرُهُ لِلْبِرِّ؛ لِأَنَّ الْبِرَّ يُطْلَقُ بِاعْتِبَارَيْنِ مُعَيَّنَيْنِ:

•أَحَدُهُمَا: بِاعْتِبَارِ مُعَامَلَةِ الْخَلْقِ: وَذَلِكَ يَكُونُ بِالْإِحْسَانِ إِلَيْهِمْ، وَرُبَّمَا خُصَّ بِالْإِحْسَانِ إِلَى الْوَالِدَيْنِ، فَيُقَالُ: بِرُّ الْوَالِدَيْنِ، وَيُطْلَقُ كَثِيرًا عَلَى الْإِحْسَانِ إِلَى الْخَلْقِ عُمُومًا.

وَكَانَ ابْنُ عُمَرَ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا- يَقُولُ: «الْبِرُّ شَيْءٌ هَيِّنٌ: وَجْهٌ طَلِيقٌ وَكَلَامٌ لَيِّنٌ».

وَإِذَا قُرِنَ الْبِرُّ بِالتَّقْوَى، كَمَا فِي قَوْلِهِ -عَزَّ وَجَلَّ-: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى﴾ [المائدة: ٢]؛ فَقَدْ يَكُونُ الْمُرَادُ بِالْبِرِّ: مُعَامَلَةَ الْخَلْقِ بِالْإِحْسَانِ، وَبِالتَّقْوَى: مُعَامَلَةَ الْحَقِّ بِفِعْلِ طَاعَتِهِ، وَاجْتِنَابِ مَحَارِمِهِ، وَقَدْ يَكُونُ أُرِيدَ بِالْبِرِّ: فِعْلُ الْوَاجِبَاتِ، وَبِالتَّقْوَى: اجْتِنَابُ الْمُحَرَّمَاتِ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ [المائدة: ٢] قَدْ يُرَادُ بِالْإِثْمِ: الْمَعَاصِي، وَبِالْعُدْوَانِ: ظُلْمُ الْخَلْقِ، وَقَدْ يُرَادُ بِالْإِثْمِ: مَا هُوَ مُحَرَّمٌ فِي نَفْسِهِ؛ كَالزِّنَا، وَالسَّرِقَةِ، وَشُرْبِ الْخَمْرِ، وَبِالْعُدْوَانِ: تَجَاوُزُ مَا أُذِنَ فِيهِ إِلَى مَا نُهِيَ عَنْهُ مِمَّا جِنْسُهُ مَأْذُونٌ فِيهِ؛ كَقَتْلِ مَنْ أُبِيحَ قَتْلُهُ لِقِصَاصٍ وَمَنْ لَا يُبَاحُ، وَأَخْذِ زِيَادَةٍ عَلَى الْوَاجِبِ مِنَ النَّاسِ فِي الزَّكَاةِ وَنَحْوِهَا، وَمُجَاوَزَةِ الْجَلْدِ فِي الَّذِي أُمِرَ بِهِ فِي الْحُدُودِ، وَنَحْوِ ذَلِكَ.

وَالْمَعْنَى الثَّانِي مِنْ مَعْنَى الْبِرِّ: أَنْ يُرَادَ بِهِ فِعْلُ جَمِيعِ الطَّاعَاتِ الظَّاهِرَةِ وَالْبَاطِنَةِ: كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٧].

فَالْبِرُّ بِهَذَا الْمَعْنَى يَدْخُلُ فِيهِ جَمِيعُ الطَّاعَاتِ الْبَاطِنَةِ؛ كَالْإِيمَانِ بِاللَّهِ، وَمَلَائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَالطَّاعَاتُ الظَّاهِرَةُ؛ كَإِنْفَاقِ الْأَمْوَالِ فِيمَا يُحِبُّهُ اللَّهُ، وَإِقَامِ الصَّلَاةِ، وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ، وَالْوَفَاءِ بِالْعَهْدِ، وَالصَّبْرُ عَلَى الْأَقْدَارِ؛ كَالْمَرَضِ وَالْفَقْرِ، وَعَلَى الطَّاعَاتِ؛ كَالصَّبْرِ عِنْدَ لِقَاءِ الْعَدُوِّ.

وَقَدْ يَكُونُ جَوَابُ النَّبِيِّ ﷺ فِي حَدِيثِ النَّوَّاسِ شَامِلًا لِهَذِهِ الْخِصَالِ كُلِّهَا؛ لِأَنَّ حُسْنَ الْخُلُقِ قَدْ يُرَادُ بِهِ التَّخَلُّقُ بِأَخْلَاقِ الشَّرِيعَةِ، وَالتَّأَدُّبُ بِآدَابِ اللَّهِ الَّتِي أَدَّبَ بِهَا عِبَادَهُ فِي كِتَابِهِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى لِرَسُولِهِ ﷺ ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤].

وَقَالَتْ عَائِشَةُ -رَضِيَ اللهُ عَنْهَا-: «كَانَ خُلُقُهُ ﷺ الْقُرْآنَ»، يَعْنِي: أَنَّهُ يَتَأَدَّبُ بِآدَابِهِ، فَيَفْعَلُ أَوَامِرَهُ، وَيَتَجَنَّبُ نَوَاهِيَهُ، فَصَارَ الْعَمَلُ بِالْقُرْآنِ لَهُ خُلُقًا كَالْجِبِلَّةِ وَالطَّبِيعَةِ لَا يُفَارِقُهُ، وَهَذَا أَحْسَنُ الْأَخْلَاقِ وَأَشْرَفُهَا وَأَجْمَلُهَا.

وَقَدْ قِيلَ: إِنَّ الدِّينَ كُلَّهُ خُلُقٌ.

«طُمَأْنِينَةُ الْقَلْبِ لِلْحَقِّ»

وَأَمَّا فِي حَدِيثِ وَابِصَةَ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ-؛ فَقَالَ ﷺ: «**الْبِرُّ مَا اطْمَأَنَّ إِلَيْهِ الْقَلْبُ، وَاطْمَأَنَّتْ إِلَيْهِ النَّفْسُ**»، وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ اللهَ فَطَرَ عِبَادَهُ عَلَى مَعْرِفَةِ الْحَقِّ، وَالسُّكُونِ إِلَيْهِ، وَقَبُولِهِ، وَرَكَّزَ فِي الطِّبَاعِ مَحَبَّةَ ذَلِكَ، وَالنُّفُورَ عَنْ ضِدِّهِ.

وَلِهَذَا سَمَّى اللَّهُ مَا أَمَرَ بِهِ «مَعْرُوفًا»، وَمَا نَهَى عَنْهُ «مُنْكَرًا»، وَأَخْبَرَ أَنَّ قُلُوبَ الْمُؤْمِنِينَ تَطْمَئِنُّ بِذِكْرِهِ، فَالْقَلْبُ الَّذِي دَخَلَهُ نُورُ الْإِيمَانِ، وَانْشَرَحَ بِهِ وَانْفَسَحَ؛ يَسْكُنُ لِلْحَقِّ، وَيَطْمَئِنُّ بِهِ وَيَقْبَلُهُ، وَيَنْفِرُ عَنِ الْبَاطِلِ وَيَكْرَهُهُ وَلَا يَقْبَلُهُ.

فَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ لَا يَلْتَبِسُ أَمْرُهُمَا عَلَى الْمُؤْمِنِ الْبَصِيرِ؛ بَلْ يَعْرِفُ الْحَقَّ بِالنُّورِ عَلَيْهِ، فَيَقْبَلُهُ قَلْبُهُ، وَيَنْفِرُ عَنِ الْبَاطِلِ، فَيُنْكِرُهُ وَلَا يَعْرِفُهُ.

فَدَلَّ حَدِيثُ وَابِصَةَ وَمَا فِي مَعْنَاهُ عَلَى الرُّجُوعِ إِلَى الْقُلُوبِ عِنْدَ الِاشْتِبَاهِ، فَمَا إِلَيْهِ سَكَنَ الْقَلْبُ، وَانْشَرَحَ إِلَيْهِ الصَّدْرُ؛ فَهُوَ الْبِرُّ وَالْحَلَالُ، وَمَا كَانَ خِلَافَ ذَلِكَ؛ فَهُوَ الْإِثْمُ وَالْحَرَامُ.

«الْإِثْمُ مَا حَاكَ فِي صَدْرِكَ»

وَقَوْلُهُ فِي حَدِيثِ النَّوَّاسِ: «**الْإِثْمُ مَا حَاكَ فِي الصَّدْرِ، وَكَرِهْتَ أَنْ يَطَّلِعَ عَلَيْهِ النَّاسُ**»: إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّ الْإِثْمَ مَا أَثَّرَ فِي الصَّدْرِ حَرَجًا، وَضِيقًا، وَقَلَقًا، وَاضْطِرَابًا، فَلَمْ يَنْشَرِحْ لَهُ الصَّدْرُ، وَمَعَ هَذَا؛ فَهُوَ عِنْدَ النَّاسِ مُسْتَنْكَرٌ، بِحَيْثُ يُنْكِرُونَهُ عِنْدَ اطِّلَاعِهِمْ عَلَيْهِ، وَهَذَا أَعْلَى مَرَاتِبِ مَعْرِفَةِ الْإِثْمِ عِنْدَ الِاشْتِبَاهِ، وَهُوَ مَا اسْتَنْكَرَهُ النَّاسُ عَلَى فَاعِلِهِ وَغَيْرِ فَاعِلِهِ.

وَقَوْلُهُ ﷺ فِي حَدِيثِ وَابِصَةَ وَأَبِي ثَعْلَبَةَ: «**وَإِنْ أَفْتَاكَ الْمُفْتُونَ**» يَعْنِي: أَنَّ مَا حَاكَ فِي صَدْرِ الْإِنْسَانِ فَهُوَ إِثْمٌ، وَإِنْ أَفْتَاهُ غَيْرُهُ بِأَنَّهُ لَيْسَ بِإِثْمٍ؛ فَهَذِهِ مَرْتَبَةٌ ثَانِيَةٌ، وَهُوَ أَنْ يَكُونَ الشَّيْءُ مُسْتَنْكَرًا عِنْدَ فَاعِلِهِ دُونَ غَيْرِهِ، وَقَدْ جَعَلَهُ أَيْضًا إِثْمًا.

وَهَذَا إِنَّمَا يَكُونُ إِذَا كَانَ صَاحِبُهُ مِمَّنْ شُرِحَ صَدْرُهُ بِالْإِيمَانِ، وَكَانَ الْمُفْتِي يُفْتِي لَهُ بِمُجَرَّدِ ظَنٍّ أَوْ مَيْلٍ إِلَى هَوًى مِنْ غَيْرِ دَلِيلٍ شَرْعِيٍّ.

وَهَذَا الضَّابِطُ مِنَ الأَهَمِيَّةِ بِمَكَانٍ؛ لأَنَّ إِنْسَانًا قَدْ يَقُولُ: مَهْمَا أَفْتَانِي مَنْ أَفْتَانِي؛ فَأَنَا لَا آخُذُ الفَتْوَى إِلَّا مِنْ قَلْبِي، وَيَكُونُ هُوَ مِنْ أَهْلِ الضَّلَالِ وَالزَّيْغِ، فَمِثْلُ هَذَا إِنَّمَا يَرْكَنُ قَلْبُهُ إِلَى مَا يَأْلَفُهُ مِنْ زَيْغِهِ وَضَلَالِهِ، وَلِأَنَّنَا لَوْ أَعَدْنَا الأَمْرَ بِرُمَّتِهِ إِلَى القُلُوبِ مَا وُجِدَت شَرِيعَةٌ وَلَا قَامَ دِينٌ؛ لأَنَّ القُلُوبَ قُلَّبٌ لَا تَسْتَقِرُّ عَلَى قَرَارٍ، وَلَكِنْ هَكَذَا، مَسْأَلَةُ إِرْجَاعِ الأَمْرِ إِلَى القَلْبِ وَإِنْ أَفْتَاكَ المُفْتُونَ إِنَّمَا يَكُونُ إِذَا كَانَ صَاحِبُهُ مِمَّنْ شُرِحَ صَدْرُهُ بِالْإِيمَانِ، وَكَانَ الْمُفْتِي يُفْتِي لَهُ بِمُجَرَّدِ ظَنٍّ أَوْ مَيْلٍ إِلَى هَوًى مِنْ غَيْرِ دَلِيلٍ شَرْعِيٍّ.

أَمَّا إِذَا أَتَاهُ بِالدَّلِيلِ الشَّرْعِيِّ حَتَّى وَإِنْ وُجِدَ النُّفْرَةَ فِي قَلْبِهِ؛ فَهَذَا لَا قِيمَةَ لَهُ -أَيْ هَذَا الَّذِي يَجِدُهُ فِي قَلْبِهِ لَا قِيمَةَ لَهُ بِإِزَاءِ الدَّلِيلِ الشَّرْعِيِّ-.

فَأَمَّا مَا كَانَ مَعَ الْمُفْتِي بِهِ دَلِيلٌ شَرْعِيٌّ؛ فَالْوَاجِبُ عَلَى الْمُسْتَفْتِي الرُّجُوعُ إِلَيْهِ؛ وَإِنْ لَمْ يَنْشَرِحْ لَهُ صَدْرُهُ، وَهَذَا كَالرُّخْصَةِ الشَّرْعِيَّةِ؛ مِثْلُ الْفِطْرِ فِي السَّفَرِ، وَالْمَرَضِ، وَكَقَصْرِ الصَّلَاةِ فِي السَّفَرِ، وَنَحْوِ ذَلِكَ مِمَّا لَا يَنْشَرِحُ بِهِ صُدُورُ كَثِيرٍ مِنَ الْجُهَّالِ، فَهَذَا لَا عِبْرَةَ بِهِ.

لِأَنَّهُ قَدْ يُقَالُ لَهُ: رَخَّصَ اللهُ -تَبَارَكَ وَتَعَالَى- لَكَ فِي السَّفَرِ أَنْ تُفْطِرَ، فَلَا تُعَذِّبْ نَفْسَكَ؛ لِأَنَّ القَاعِدَةَ فِي النِّهَايَةِ الَّتِي بِهَا الجَمْعُ بَيْنَ الأَحَادِيثِ بِالإِفْطَارِ فِي السَّفَرِ وَالصَّوْمِ فِيهِ؛ القَاعِدَةُ: الرُّجُوعُ إِلَى المَشَقَّةِ وَعَدَمِ المَشَقَّةِ، فَإِنْ كَانَ الصَّائِمُ يَجِدُ المَشَقَّةَ بِصِيَامِهِ فِي السَّفَرِ؛ فَالأَفْضَلُ فِي حَقِّهِ أَنْ يُفْطِرَ.

وَإِذَا كَانَ الصَّائِمُ لَا يَجِدُ المَشَقَّةَ فِي السَّفَرِ؛ فَلَهُ أَنْ يَصُومَ، وَبِهَذَا يُجْمَعُ بَيْنَ الأَحَادِيثِ الَّتِي دَلَّت عَلَى أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يُفْطِرُ فِي السَّفَرِ أَوْ لَا يُفْطِرُ، وَكَانَ ﷺ يَكُونُ بَعْضُ أَصْحَابِهِ مُفْطِرِينَ وَيَكُونُ بَعْضُهُم صَائِمِينَ كَمَا فِي الحَدِيثِ الَّذِي كَانَ فِيهِ مِنَ المُعَانَاةِ عَلَى الصَّائِمِينَ مَا فِيهِ، فَقَامَ المُفْطِرُونَ بِخِدْمَةِ الصَّائِمِينَ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**ذَهَبَ المُفْطِرُونَ اليَوْمَ بِالأَجْرِ**».

فَهَذِهِ الرُّخَصُ الشَّرْعِيَّةُ قَدْ تَجِدُ مِنَ النَّاسِ مَنْ لَا يَقْبَلُهَا، وَيَقُولُ: بَلْ أَنَا آخُذُ بِالعَزِيمَةِ فِي هَذَا، فَإِذَا أَفْتَاهُ مَنْ أَفْتَاهُ بِاتِّبَاعِ السُّنَةِ وَبِمَا وَرَدَ مِنَ الدَّلِيلِ الشَّرْعِيِّ الثَّابِتِ لَا يَنْشَرِحُ صَدْرُهُ لَهُ؛ لِجَهْلِهِ وَعَدَمِ عِلْمِهِ بِمَقَاصِدِ الشَّرِيعَةِ وَمَا يَنْبَغِي أَنْ يُؤْخَذَ بِهِ فِيهَا، فَهَذَا لَا عِبْرَةَ بِهِ، وَإِنَّمَا العِبْرَةُ بِالدَّلِيلِ الشَّرْعِيِّ.

وَقَدْ كَانَ النَّبِيُّ ﷺ أَحْيَانًا يَأْمُرُ أَصْحَابَهُ بِمَا لَا تَنْشَرِحُ بِهِ صُدُورُ بَعْضِهِمْ، فَيَمْتَنِعُونَ مِنْ فِعْلِهِ، فَيَغْضَبُ مِنْ ذَلِكَ، كَمَا أَمَرَهُمْ بِفَسْخِ الحَجِّ إِلَى الْعُمْرَةِ، فَكَرِهَهُ مَنْ كَرِهَهُ مِنْهُمْ، وَكَمَا أَمَرَهُمْ بِنَحْرِ هَدْيِهِمْ، وَالتَّحَلُّلِ مِنْ عُمْرَةِ الحُدَيْبِيَةِ، فَكَرِهُوهُ، -وَذَكَرُوا كَلَامًا وَقَعَ مِنْ عُمَرَ -رَضِيَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى عَنْهُ- فِي هَذَا الأَمْرِ الكَبِيرِ-، وَكَرِهَ الصَّحَابَةُ مُقَاضَاتَهُ لِقُرَيْشٍ عَلَى أَنْ يَرْجِعَ مِنْ عَامِهِ، وَعَلَى أَنَّ مَنْ أَتَاهُ مِنْهُمْ يَرُدُّهُ إِلَيْهِمْ.

وَالحَدِيثُ عِنْدَ البُخَارِيِّ فِي «الصَّحِيحِ» مِن رِوَايَةِ المِسْوَرِ بنِ مَخْرَمَة، وَكَذَا مِنْ رِوَايَةِ مَرْوَانَ بِهِ.

وَفِي الجُمْلَةِ؛ فَمَا وَرَدَ النَّصُّ بِهِ؛ فَلَيْسَ لِلْمُؤْمِنِ إِلَّا طَاعَةُ اللَّهِ وَرَسُولِهِ، وَيَنْبَغِي أَنْ يُتَلَقَّى ذَلِكَ بِانْشِرَاحِ الصَّدْرِ وَالرِّضَا؛ فَإِنَّ مَا شَرَعَهُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ يَجِبُ الْإِيمَانُ وَالرِّضَا بِهِ، وَالتَّسْلِيمُ لَهُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النِّسَاء: ٦٥].

وَأَمَّا مَا لَيْسَ فِيهِ نَصٌّ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ، وَلَا عَمَّنْ يُقْتَدَى بِقَوْلِهِ مِنَ الصَّحَابَةِ وَسَلَفِ الْأُمَّةِ؛ فَإِذَا وَقَعَ فِي نَفْسِ الْمُؤْمِنِ الْمُطْمَئِنِّ قَلْبُهُ بِالْإِيمَانِ، الْمُنْشَرِحِ صَدْرُهُ بِنُورِ الْمَعْرِفَةِ وَالْيَقِينِ مِنْهُ شَيْءٌ، وَحَاكَ فِي صَدْرِهِ لِشُبْهَةٍ مَوْجُودَةٍ، وَلَمْ يَجِدْ مَنْ يُفْتِي فِيهِ بِالرُّخْصَةِ إِلَّا مَنْ يُخْبِرُ عَنْ رَأْيِهِ -يَعْنِي: بِلَا دَلِيلٍ- وَهُوَ مِمَّنْ لَا يُوثَقُ بِعِلْمِهِ وَبِدِينِهِ، بَلْ هُوَ مَعْرُوفٌ بِاتِّبَاعِ الْهَوَى؛ فَهُنَا يَرْجِعُ الْمُؤْمِنُ إِلَى مَا حَكَّ فِي صَدْرِهِ؛ وَإِنْ أَفْتَاهُ هَؤُلَاءِ الْمُفْتُونَ.

وَقَد صَحَّ عَن ابْنِ مَسْعُودٍ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- أَنَّهُ قَالَ: «الإِثْمُ: حَوَازُّ القُلُوبِ».

وَقَالَ: «إِيَّاكُم وَحَزَّازَ القُلُوبِ»، فَمَا حَزَّ فِي قَلْبِكَ مِنْ شَيْءٍ فَدَعْهُ.

بِهَذِهِ الطَّرِيقَةِ الَّتِي مَرَّ ذِكْرُهَا، فَهَذَا هُوَ الخَلَاصُ مِنَ الشُّبْهَةِ الَّتِي رُبَّمَا أَلْقَاهَا بَعْضُ شَيَاطِينِ الإِنْسِ وَالجِنِّ بِسَبَبِ قَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ: «**اسْتَفْتِ قَلْبَكَ وَإِنْ أَفْتَاكَ المُفْتُونَ**».

وَالحَزُّ وَالحَكُّ مُتقَارِبَانِ فِي المَعْنَى، وَالمُرَادُ: مَا أَثَّرَ فِي القَلْبِ ضِيقًا وَحَرَجًا، وَنُفُورًا وَكَرَاهِيَةً.

وَقَدْ نَصَّ أَحْمَدَ هَاهُنَا بِالرُّجُوعِ إِلَى حَوَازِّ الْقُلُوبِ، وَإِنَّمَا ذَمَّ أَحْمَدُ وَغَيْرُهُ الْمُتَكَلِّمِينَ عَلَى الْوَسَاوِسِ وَالْخَطَرَاتِ مِنَ الصُّوفِيَّةِ؛ حَيْثُ كَانَ كَلَامُهُمْ فِي ذَلِكَ لَا يَسْتَنِدُ إِلَى دَلِيلٍ شَرْعِيٍّ؛ بَلْ إِلَى مُجَرَّدِ رَأْيٍ وَذَوْقٍ، كَمَا كَانَ يُنْكِرُ الْكَلَامَ فِي مَسَائِلِ الْحَلَالِ وَالْحَرَامِ بِمُجَرَّدِ الرَّأْيِ مِنْ غَيْرِ دَلِيلٍ شَرْعِيٍّ.

وَالرُّجُوعُ إِلَى الْأُمُورِ الْمُشْتَبِهَةِ إِلَى حَوَازِّ الْقُلُوبِ؛ فَقَدْ دَلَّتْ عَلَيْهِ النُّصُوصُ النَّبَوِيَّةُ، وَفَتَاوَى الصَّحَابَةِ.

«المَدَارُ فِي الشَّرِيعَةِ عَلَى الأَدِلَّةِ... فَاتَّقُوا اللهَ فِي دِينِكُم»

المَدَارُ فِي الشَّرِيعَةِ عَلَى الأَدِلَّةِ، لَا عَلَى مَا اشْتُهِرَ بَيْنَ النَّاسِ، النَّاسُ قَدْ يُشْتَهَرُ عِنْدَهُم شَيْءٌ وَيُفْتُونَ بِهِ وَلَيْسَ بِحَقٍّ، فَالمَدَارُ عَلَى الأَدِلَّةِ الشَّرْعِيَّةِ.

عَلَى الإِنْسَانِ دَائِمًا أَنْ يُطَالِبَ بِالدَّلِيلِ، إِذَا كَانَ هُوَ مِنْ أَهْلِ النَّظَرِ وَالبَحْثِ وَالمَعْرِفَةِ بِالدَّلِيلِ، لِأَنَّ العَامِيَّ لَا يَقْوَى عَلَى فَهْمِ الدَّلِيلِ، فَإِذَا طَالَبَ بِالدَّلِيلِ فَأُعْطَى الدَّلِيلَ فَهَذَا لَا يُفِيدُهُ شَيْئًا.

عَلَى الإِنْسَانِ أَلَّا يَبِيعَ دِينَهُ، خَاصَّةً أَنَّهُ يَبِيعُهُ رَخِيصًا، وَعَلَى المَرْءِ أَنْ يُحَافِظَ عَلَى آخِرَتِهِ حَتَّى تَسْتَقِيمَ لَهُ دُنْيَاهُ(١).

«أَعْظَمُ البِرِّ طَاعَةُ اللهِ تَعَالَى وَرَسُولِهِ (ص»)

لَقَدْ أَمَرَ اللَّهُ –تَبَارَكَ وَتَعَالَى- عِبَادَهُ بِاتِّبَاعِ نَبِيِّهِ ﷺ وَطَاعَتِهِ، وَالقَصِّ عَلَى أَثَرِهِ فِي آيَاتٍ كَثِيرَةٍ؛ مِنهَا:

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾ [آل عمران: ٣٢].

---

(١)«التَّعْلِيقُ وَالتَّهْذِيبُ عَلَى جَامِعِ العُلُومِ وَالحِكَمِ – المُحَاضَرَةُ ٤٢ الاثنين ١٨ من رمضان ١٤٣٣هـ / ٦-٨-٢٠١٢م».

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ * وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [آل عمران: ١٣١-١٣٢].

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿مَّن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ ۖ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾ [النساء: ٨٠].

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ ۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا * فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٤-٦٥].

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [النساء: ١٤].

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا﴾ [الأحزاب: ٣٦].

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾ [الجن: ٢٣].

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ۖ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الحجرات: ١].

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَّا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُم بَعْضًا ۚ قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا ۚ فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٣].

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ ۖ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا ۚ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ [النور: ٥٤].

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا﴾ [الحشر: ٧].

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٢١]. وَالآيَاتُ فِي هَذَا المَعنَى كَثِيرَةٌ(١).

«مِنْ أَعْظَمِ البِرِّ: بِرُّ الوَالِدَيْنِ»

إِنَّ حَقَّ الْأَبَوَيْنِ يَلِي حَقَّ اللهِ -تَبَارَكَ وَتَعَالَى- وَحَقَّ رَسُولِ اللهِ ﷺ فِي الْفَرْضِيَّةِ وَالْوُجُوبِ؛ فَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْخَلْقِ لَيُفَرِّطُونَ فِي هَذَا الْحَقِّ، وَلَا يَلْتَفِتُونَ إِلَيْهِ، وَلَا يُلْقُونَ لَهُ بَالًا؛ بَلْ يَعْتَدِي الْوَاحِدُ مِنْهُمْ عَلَى هَذَا الْحَقِّ الْمَكِينِ الَّذِي ذَكَرَهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ بَعْدَ الْأَمْرِ بِعِبَادَتِهِ، فَقَالَ -جَلَّ وَعَلَا-: ﴿وَاعْبُدُوا اللهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾.

﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا (٢٣) وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا (٢٤)﴾ [الإسراء: ٢٣-٢٤].

فَأَمَرَ اللهُ -تَبَارَكَ وَتَعَالَى- بَعْدَ الْأَمْرِ بِإِخْلَاصِ الْعِبَادَةِ لِوَجْهِهِ الْكَرِيمِ بِبِرِّ الْوَالِدَيْنِ وَبِالْإِحْسَانِ إِلَيْهِمَا، فَهَذَا مِنْ آكَدِ الْحُقُوقِ وَمِنْ أَجَلِّهَا.

وَبَيَّنَ رَبُّنَا -تَبَارَكَ وَتَعَالَى- أَنَّهُ لَا يُجِيزُ لِأَحَدٍ أَنْ يَتَلَفَّظَ بِكَلِمَةِ سُوءٍ تَنِمُّ عَنْ ضَجَرٍ يُحِسُّهُ فِي نَفْسِهِ، فَيُعْلِنُهُ بِلِسَانِهِ، ﴿ فَلَا تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾، فَلَمْ يُجِزْ رَبُّنَا -تَبَارَكَ وَتَعَالَى- أَنْ يَتَأَفَّفَ الْإِنْسَانُ مِنْ أَبَوَيْهِ إِذَا بَلَغَا الْكِبَرَ، وَصَارَا إِلَى حَالٍ لَا يَتَحَكَّمَانِ فِيهَا فِي الْبَوْلِ وَالْغَائِطِ، فَيَتَأَفَّفُ مِنْهُمَا مُتَضَجِّرًا، وَقَدْ كَانَا يَرَيَانِ مِنْهُ مِثْلَ ذَلِكَ وَأَعْظَمَ مِنْهُ وَلَا يَتَضَجَّرَانِ، وَإِنَّمَا يَأْتِيَانِ بِهِ بِسَمَاحَةِ نَفْسٍ وَطِيبِ خَاطِرٍ.

---

(١)«مِن خُطْبَة: رَدُّ الاعْتِدَاءِ عَلَى السُّنَّةِ النَّبَوِيَّةِ - الجمعة ٢٤ من ربيع الأول ١٤٣٨هـ/ ٢٣-١٢-٢٠١٦م».

فَنَهَى رَبُّنَا –تَبَارَكَ وَتَعَالَى- عَنْ تَأَفُّفِ الْمَرْءِ مِنْ أَبَوَيْهِ أَوْ مِنْ أَحَدِهِمَا؛ لِأَنَّ اللهَ –تَبَارَكَ وَتَعَالَى- جَعَلَ حَقَّهُمَا عَظِيمًا، وَجَعَلَ الْوَاجِبَ عَلَى الْعَبْدِ تِجَاهَهُمَا وَاجِبًا جَسِيمًا، وَإِذَا فَرَّطَ فِي ذَلِكَ فَلَا يَلُومَنَّ إِلَّا نَفْسَهُ؛ فَإِنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَدْ أَخْبَرَ أَنَّهُ «**مَا مِنْ ذَنْبٍ أَجْدَرَ أَنْ تُعَجَّلَ لَهُ الْعُقُوبَةُ فِي الدُّنْيَا مَعَ مَا يُدَّخَرُ لَهُ مِنَ الْعُقُوبَةِ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْبَغْيِ وَقَطِيعَةِ الرَّحِمِ**»، وَإِنَّ أَوْلَى الْأَرْحَامِ بِالرِّعَايَةِ لَهِيَ مَا يَتَّصِلُ بِالْأَبَوَيْنِ، وَالنَّبِيُّ ﷺ قَدْ سُئِلَ عَنْ هَذَا الْأَمْرِ الْعَظِيمِ، فَأَجَابَ ﷺ بِتَرْتِيبٍ وَاضِحٍ لَا لَبْسَ فِيهِ وَلَا غُمُوضَ؛ فَإِنَّ رَجُلًا سَأَلَ النَّبِيَّ ﷺ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ؛ مَنْ أَحَقُّ النَّاسِ بِحُسْنِ صَحَابَتِي؟

قَالَ: «**أُمُّكَ**».

قَالَ: ثُمَّ مَنْ؟

قَالَ: «**أُمُّكَ**».

قَالَ: ثُمَّ مَنْ؟

قَالَ: «**أُمُّكَ**».

قَالَ: ثُمَّ مَنْ؟

قَالَ: «**أَبُوكَ**».

فَذَكَرَ النَّبِيُّ ﷺ أَنَّ أَحَقَّ النَّاسِ بِحُسْنِ الصُّحْبَةِ لِلْأُمِّ، وَكَرَّرَ ذَلِكَ ﷺ مِرَارًا، ثُمَّ ذَكَرَ الْأَبَ بَعْدُ.

وَقَدْ قَالَ الْعُلَمَاءُ: إِنَّ ذَلِكَ لِأَنَّ مَا أَدَّتْهُ لَا يَكُونُ مَنْظُورًا؛ مِمَّا وَجَدَتْهُ مِنْ أَلَمِ الْحَمْلِ وَالْوَضْعِ، وَمَا كَانَ مِنَ التَّرْبِيَةِ وَالرِّعَايَةِ فِي الصِّغَرِ، فَكُلُّ ذَلِكَ لَا يُدْرِكُهُ الْمَرْءُ إِذَا عَلَتْ بِهِ السُّنُونُ، وَإِنَّمَا يَرَى الرِّعَايَةَ مِنْ أَبِيهِ قَائِمًا، وَيَرَى الْإِنْفَاقَ عَلَيْهِ سَارِيًا، فَقَدْ يُفَرِّطُ فِي حَقِّ الْأُمِّ حِينَئِذٍ، فَدَلَّ النَّبِيُّ ﷺ عَلَى هَذَا الْأَمْرِ بِهَذِهِ الصُّورَةِ.

وَشَيْءٌ آخَرُ؛ لِأَنَّهَا ضَعِيفَةٌ لَا تَسْتَطِيعُ أَنْ تَدْفَعَ عَنْ نَفْسِهَا، وَلَقَدْ يَكُفُّ الرَّجُلُ عَنْ أَبِيهِ خَوْفًا مِنْ قُوَّتِهِ، وَتَوَقِّيًا لِبَطْشِهِ، وَأَمَّا الْأُمُّ؛ فَلِضَعْفِهَا وَلِأُنُوثَتِهَا وَلِرِقَّتِهَا؛ فَإِنَّهُ يُمْكِنُ أَنْ يَعْتَدِيَ عَلَيْهَا مِنْ غَيْرِ مَا ضَابِطٍ مَّا يَضْبِطُهُ، وَلَا كَافٍّ يَكُفُّهُ، فَنَبَّهَ الرَّسُولُ ﷺ عَلَى هَذَا الْأَمْرِ بِهَذِهِ الصُّورَةِ.

وَشَيْءٌ آخَرُ؛ هُوَ أَنَّ الرَّجُلَ قَدْ يَسْتَحْيِي مِنْ عُقُوقِ أَبِيهِ فِي مَحْضَرٍ مِنَ النَّاسِ؛ خَوْفَ الْمَلَامَةِ مِنْهُمْ، وَحَيَاءً مِنْ مُوَاقَعَةِ هَذَا الْأَمْرِ الَّذِي تَسْتَفْظِعُهُ النُّفُوسُ السَّوِيَّةُ، وَلَا تَقْبَلُهُ الْأَرْوَاحُ الْمُسْتَقِيمَةُ، وَلَمَّا كَانَتِ الْأُمُّ فِي سَتْرٍ تَحُفُّهَا جُدْرَانُهَا، وَيُمْكِنُ أَنْ يَعُقَّهَا مِنْ غَيْرِ أَنْ يَرَاهَا أَحَدٌ وَلَا أَنْ يَلُومَهُ، نَبَّهَ النَّبِيُّ ﷺ إِلَى هَذَا الْأَمْرِ الْعَظِيمِ بِهَذِهِ الصُّورَةِ.

وَشَيْءٌ آخَرُ، وَهُوَ: أَنَّ الْمَرْأَةَ لَمَّا كَانَتْ ضَعِيفَةً، وَكَانَتْ لِأُنُوثَتِهَا رَقِيقَةً، وَقَدْ تَكُونُ سَرِيعَةَ الْغَضَبِ، فَإِذَا مَا عَقَّهَا لَمْ تَتَمَاسَكْ، وَلَمْ تَتَجَلَّدْ، وَأَسْرَعَتْ فِي الدُّعَاءِ عَلَى ابْنِهَا الَّذِي عَقَّهَا أَوْ أَسَاءَ إِلَيْهَا، فَرَاعَى النَّبِيُّ ﷺ هَذِهِ الطَّبِيعَةَ، وَأَمَرَ الْوَلَدَ بِأَنْ يُحْسِنَ صَحَابَتَهَا مَرَّةً وَمَرَّةً وَمَرَّةً؛ حَتَّى لَا يُلْجِئَهَا إِلَى الدُّعَاءِ عَلَيْهِ، فَتُصَادِفُ بِقَدَرِ اللهِ -تَبَارَكَ وَتَعَالَى- وَقْتًا يَسْتَجِيبُ اللهُ -تَبَارَكَ وَتَعَالَى- فِيهِ دُعَاءَ مَنْ دَعَاهُ، وَيَكُونُ قَدْ ظَلَمَهَا وَأَسَاءَ إِلَيْهَا، فَيُسْتَجَابُ لَهَا فِيهِ، وَحِينَئِذٍ لَا يَنْفَعُهُ نَدَمٌ، وَلَا يَكُفُّ عَنْهُ مَا أَصَابَهُ شَيْءٌ مِنْ حَوْلٍ وَلَا حِيلَةٍ، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ الْعَظِيمِ.

النَّبِيُّ ﷺ أَخْبَرَ أَنَّ الْوَالِدَ أَوْسَطُ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ، فَقَالَ: «**الْوَالِدُ أَوْسَطُ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ، فَخُذْ أَوْ فَدَعْ**»؛ يَعْنِي: إِنْ أَرَدْتَ أَنْ تَدْخُلَ مِنْ أَوْسَطِ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ؛ فَدُونَكَ بِرَّ أَبِيكَ؛ فَإِنَّ أَبَاكَ هُوَ أَوْسَطُ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ كَمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ.

رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ فِي «الْمُسْنَدِ» بِسَنَدِهِ عَنْ أُمِّنَا أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ عَائِشَةَ -رَضِيَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى عَنْهَا- عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ، قَالَ: «**أُرِيتُ فِي الْمَنَامِ فِي الرُّؤْيَا أَنِّي كُنْتُ فِي الْجَنَّةِ، فَسَمِعْتُ رَجُلًا يَقْرَأُ الْقُرْآنَ، فَقُلْتُ: مَنْ هَذَا؟**»

قَالُوا: هُوَ حَارِثَةُ بْنُ النُّعْمَانِ.

فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ لِعَائِشَةَ: «**كَذَاكِ الْبِرُّ، كَذَاكِ الْبِرُّ**»، وَكَان بَرًّا بِأُمِّهِ، فَأُرِيَهُ النَّبِيُّ ﷺ، وَسَمِعَ تِلَاوَتَهُ لَمَّا قَبَضَهُ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ-، أُرِيَهُ النَّبِيُّ ﷺ فِي الرُّؤْيَا، وَسَمِعَ تِلَاوَتَهُ فِي الْجَنَّةِ لِبِرِّهِ بِأُمِّهِ، وَكَانَ أَبَرَّ النَّاسِ بِأُمِّهِ -رَضِيَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى عَنْهُ-(١).

«ثَلَاثُونَ وَصِيَّةً لِلْأَبْنَاءِ فِي بِرِّ الْوَالِدَيْنِ»

***وَهَذِهِ نَصَائِحُ لِلْأَبْنَاءِ إِذَا أَخَذُوا بِهَا؛ اسْتَقَامَتْ حَيَاتُهُم، وَكَانُوا عَلَى رَجَاءِ الْعَافِيَةِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ:

١*أَطِعْ أُمَّكَ وَأَبَاكَ فِي كُلِّ مَا بِهِ أَمَرَاكَ مَا لَمْ يَكُنْ مَعْصِيَةً.

٢*خَاطِبْهُمَا بِلُطْفٍ وَأَدَبٍ، وَانْهَضْ لَهُمَا إِذَا دَخَلَا عَلَيْكَ.

٣*حَافِظْ عَلَى سُمْعَتِهِمَا، وَشَرَفِهِمَا، وَمَالِهِمَا، وَعِرْضِهِمَا.

٤*أَكْرِمْهُمَا، وَأَعْطِهِمَا كُلَّ مَا يَطْلُبَانِ مَا لَمْ يَكُنْ مُحَرَّمًا.

---

(١)«مِن خُطْبَة: عَاقِبَةُ العُقُوق».

٥*شَاوِرْهُمَا في أَعْمَالِكَ وأُمُورِكَ.

٦*أَكْثِرْ مِنَ الدُّعَاءِ وَالِاسْتِغْفَارِ لَهُمَا.

٧*إِذَا كَانَ عِنْدَهُمَا ضَيْفٌ؛ فَاجْلِسْ بِقُرْبِ البَابِ، وَرَاقِبْ نَظَرَاتِهِمَا لَعَلَّهُمَا يَأْمُرَانِ بِشَيْءٍ خُفْيَةً.

٨*اِعْمَلْ مَا يَسُرُّهُمَا مِنْ غَيْرِ أَنْ يَأْمُرَاكَ بِهِ، فَهَذَا إِذَا أُمِرَ بِهِ؛ قَلَّلَ مِن شَأْنِ المَسَرَّةِ.

٩*لَا تَرْفَع صَوْتَكَ عَاليًا أَمَامَهُمَا، وَلا تُقَاطِعْهُمَا أَثْنَاءَ الكلامِ.

١٠*ولا تُجَادِلهُمَا في أَمْرٍ، وَإِذَا كُنْتَ عَلَى يَقِينٍ مِمَّا أَنْتَ عَلَيْهِ؛ فَحَاوِلْ أَنْ تُقْنِعَهُمَا بِالحُسْنَى، فَإِنْ أَصَرَّا عَلَى رَأْيِهِمَا؛ فَلَا تُعَانِدْهُمَا وَلَو كَانَا عَلَى خَطَأٍ.

وَهَذَا كُلُّهُ إِنَّمَا يَتَعَلَّقُ بِأَمْرِ الدُّنْيَا، وأَمَّا أمورُ الآخرةِ؛ فَيُبَيَّنُ فِيهَا الحَقُّ بِرِفْقٍ.

١١*لا تَكْذِبْ عَلَى أَبَوَيْكَ.

١٢*وَلَا تَأْخُذ شَيْئًا لَم يَأْذَنَا بِأَخْذِهِ.

١٣*لا تُسَافِرْ إِذَا لَم يَأْذَنَا لَكَ.

١٤*إِذَا كُنْتَ مُبْتَلًى بِمَعْصِيَةٍ كَالتَّدْخِينِ مَثَلًا –سَلِ اللهَ العافية-؛ فَلَا تَفْعَلْ تِلْكَ المَعْصِيَةَ أَمَامَهُمَا، وَإِنْ سَمَحَا لَكَ بِذَلِكَ.

١٥*لا تُزْعِج أَبَوَيْكَ إِذَا كَانَا نَائِمَيْنِ، -وَتَذْكُرُ حَدِيثَ الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ انْطَبَقَتْ عَلَيْهِمُ الصَّخْرَةُ حَبْسًا في الغَارِ، وأَنَّ أَحَدَهُمَا تَوَسَّلَ إِلَى اللهِ -تَبَارَكَ وَتَعَالَى- بِعَمَلٍ صَالِحٍ يَخُصُّ بِرَّ أَبَوَيْهِ، وَأَنَّهُمَا كَانَا كَبِيرَيْنِ، وَكَانَ يَأْتِي إِذَا رَاحَ مِنْ رَعْيِهِ بِأَغْنَامِهِ فَيَحْلِبُ، ثُمَّ يَأْتِي بِالقَعْبِ -قَدَحٌ كبيرٌ- يَجْعَلُهُ على يَدِهِ، وَيَقِفُ حَتَّى يَشْرَبَا، فَتَأَخَّرَ مَرَّةً، ثُمَّ جَاءَ، فَوَجَدَهُمَا

قَد نَامَا، فَظَلَّ قَائِمًا عِنْدَهُمَا واللَّبَنُ عَلَى يَدِهِ، وَالصِّبْيَانُ يَتَضَاغَوْنَ - يَبْكُونَ وَيَصِيحُونَ جُوعًا- حَوْلَهُ حَتَّى استيْقَظَا، لَا تُزْعِجهُمَا إِذَا كَانَا نَائمِيْن.

١٦*ولا تُفَضِّلْ زَوْجَتَكَ وَلَا وَلَدَكَ عَلَيْهِمَا.

١٧*وَلَا تَلُمْهُمَا إِذَا عَمِلَا عَمَلًا لَا يُعْجِبُكَ.

١٨*وَلَا تحْمَلْ عَلَيْهِمَا بِفَضْلِ عَقْلِكَ، فَرُبَّمَا آتَاكَ اللهُ عِلْمًا وَعَقْلًا، وَكَانَا جَاهِلَيْنِ؛ فَرُبَّمَا تَكَلَّمَا فَأَضْحَكَا النَّاسَ بِكَلَامِهِمَا، فَلَا تَبْتَئِسْ، وَلَا تَلُمْهُمَا إِذَا عَمِلَا عَمَلًا لَا يُعْجِبُكَ.

١٩*وَلَا تَضْحَكْ بِحَضْرَتِهِمَا إِذَا لَمْ يَكُنْ ثَمَّةَ سَبَبٌ للضَّحِكِ.

٢٠*وَلَا تَتَنَاوَلْ طَعَامًا مِمَّا يَلِيهِمَا.

٢١*وَلَا تَمُدَّ يَدَكَ إِلى الطَّعَامِ قَبْلَهُمَا.

٢٢*وَلَا تَنَمْ وَلَا تَضْطَجِعْ وَهُمَا جَالِسَانِ.

٢٣*وَلَا تَجْلِسْ قَبْلَهُما.

٢٤*وَلَا تَمْشِ أَمَامَهُما.

٢٥*وَلَا تُسَمِّهِما بِاسْمِهِما.

٢٦*وَلَا تَمُدَّ رِجْلَكَ أَمَامَهُمَا.

٢٧*وَلَا تَجْلِسْ فِي العُلُوِّ وَيَجْلِسَانِ فِي السُّفْلِ.

٢٨*وَلَا تَمْشِ بِجَانِبِ أَبِيكَ فِي الطَّرِيقِ؛ بَلْ تَأَخَّرْ عَنْهُ قَلِيلًا؛ إِلَّا إِذَا كَانَتِ الطَّرِيقُ مَخُوفَةً، فَحِينَئِذٍ تَتَقَدَّمُ أَنْتَ رِدْءًا -مُعِينًا وَنَاصِرًا- لَهُ وَحِيَاطَةً وَحِفْظًا.

٢٩*لَبِّ نِدَاءَهُمَا مُسْرِعًا إِذَا نَادَيَاكَ.

٣٠*لَا تُصَاحِبْ غَيْرَ رَجُلٍ بَارٍّ بِوَالديْهِ، وإِيَّاكَ وَصَاحِبَ العُقُوقِ(١).

اللَّهُمَّ اجْعَلْنَا مِنَ الْبَرَرَةِ الصَّادِقِينَ، وَلَا تَجْعَلْنَا مِنَ العَقَقَةِ الْمُجْرِمِينَ يَا رَبَّ العَالَمِينَ، وَيَا أَكْرَمَ الْأَكْرَمِينَ، وَيَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ، وَيَا ذَا الْقُوَّةِ الْمَتِينَ.

إِنَّهُ تَعَالَى عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ.

وَصَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ على نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ وعلى آلِهِ وأصحابِهِ أَجْمَعِينَ(٢).

---

(١)«مقطع: ثَلَاثُونَ وَصِيَّة للأبناءِ فَاحْرِص عَلَيْهَا».

(٢)«مِن خُطْبَةِ: عَاقِبَةُ العُقُوقِ».

«المَوْعِظَةُ التَّاسِعَةُ عَشْرَةَ»

«فَضْلُ العَشْرِ الأَوَاخِرِ ولَيْلَةُ القَدْرِ»

إنَّ الْحَمْدَ لِلَّهِ نَحْمَدُهُ، وَنَسْتَعِينُهُ وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِاللَّـه مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللَّـهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَا هَادِيَ لَهُ.

وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّـهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ.

وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ ﷺ.

أَمَّا بَعْدُ:

«عِبَادَةُ النَّبِيِّ ﷺ فِي الْعَشْرِ الْأَوَاخِرِ»

فإنَّ صيامَ رمضانَ ما يَزَالُ يَرْتَقِي بالنَّفْسِ في مَدَارِجِ الكمالِ؛ حتى يَبْلُغَ الصائمُ العَشْرَ الأواخرَ مِن رمضان، وفيها الاعتكافُ؛ لِعُكُوفِ القلبِ على اللهِ، ولِجَمْعِيَّةِ القلبِ على سَيِّدِهِ ومَوْلَاه، ولِلْفِكْرِ في تحصيلِ مَرْضَاةِ الله، وما يُقَرِّبُ منه تعالى في عُلَاهُ.

وفي العَشْرِ: اِلْتِمَاسُ ليلةِ القَدْرِ، وهي خَيْرٌ مِنْ ألفِ شهر.

في «الصحيحين» عن عائشة -رضي الله عنها- قالت: «**كَانَ رَسُوْلُ اللهِ ﷺ إِذَا دَخَلَ الْعَشْرُ؛ شَدَّ مِئْزَرَه، وَأَحْيَا لَيْلَه، وَأَيْقَظَ أَهْلَه**».

هذا لفظ البخاري.

«**كَانَ رَسُوْلُ اللهِ ﷺ إِذَا دَخَلَ الْعَشْرُ؛ شَدَّ مِئْزَرَه، وَأَحْيَا لَيْلَه، وَأَيْقَظ أَهْلَه**».

قد يَفْهَمُ فَاهِمٌ أَنَّ قَوْلَهَا -رضي الله عنها-: «**أَحْيَا لَيْلَه**» أنه كان يُحْيِي الليلَ كلَّهُ بالصلاة!

وقد رَدَّت هي-رضي الله عنها- هذا الفَهْمَ، فقالت: «**ما عَلِمْتُ رسولَ اللهِ -صلي الله عليه وسلم- صَلَّى ليلةً كاملةً حتى أَصْبَحَ**».

ولكنْ «أَحْيَا لَيْلَهُ» بالصلاةِ، بتلاوةِ كتابِ الله، بالذِّكْرِ، بالفِكْرِ في أحوالِ الآخرة، والقيامِ بين يَدَيْ رَبِّ العِزَّةِ -تَبَارَكَ وَتَعَالَى- في القيامةِ؛ يُقَرِّبُ عَبْدَهُ، يُدْنِيهِ، يُلْقِي عليه كَنَفَهُ؛ يُقَرِّرُهُ: «**أَتَذْكُرُ ذَنْبَ كذا؟ أَتَذْكُرُ ذَنْبَ كذا؟**»

فيقول: أَيْ رَبِّ -أَيْ أَذْكُرُ-، أَيْ رَبِّ أَذْكُرُ، حتى إذا أَيْقَنَ بالهَلَكَةِ؛ قال له ربُّهُ -وهو الرحمنُ الرحيم- : «**قد سَترتُ ذلك عليك في الدنيا، وأنا أغفرُهُ لك اليوم، ويُؤمرُ به إلى الجنَّةِ**».

«**أَحْيَا لَيْلَهُ**»: يُحْيِي لَيْلَهُ بالعبادة، ليس شرطًا بالصلاةِ في طُولِ الليل؛ فما فَعَلَ ذلك في ليلةٍ حتى أصبح- ﷺ-، كما قالت عائشةُ -رضي الله عنها-.

ولفظُ مُسلمٍ: «**أَحْيَا اللَّيْلَ، وَأَيْقَظَ أَهْلَهُ، وَجَدّ وَشَدّ الْمِئْزَرَ -صلى اللهُ عليه وآله سلم-**».

«**وجَدَّ**» في العبادةِ بالزيادةِ على العادة.

«**وَجَدَّ**» وهو رسولُ اللهِ ﷺ وقد غَفَرَ اللهُ له ما تَقَدَّمَ من ذَنْبِهِ وما تَأَخَّرَ!

«**وَجَدَّ**» في العبادةِ بالزيادةِ على العادة.

«**وَشَدَّ الْمِئْزَرَ**»: للتَّفَرُّغِ للعبادة؛ بالتشميرِ، بالاجتهادِ، أَوْ هو كنايةٌ عن اعتزالِ النِّسَاء.

«**وَجَدَّ وَشَدَّ الْمِئْزَرَ ﷺ**».

وفي روايةٍ لمسلم عن عائشةَ -رضي الله عنها- قالت: «**كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَجْتَهِدُ فِيْ الْعَشْرِ مَا لَا يَجْتَهِدُ فِيْ غَيْرِهِ**»؛ لأنه ﷺ كان يَلْتَمِسُ لَيْلَةَ القَدْرِ.

«خَصَائِصُ الْعَشْرِ الْأَوَاخِرِ»

عَشْرُ رمضانَ الأخيرةُ فيها الخَيْرَات، وفيها الأُجورُ الكثيرة، وفيها الفضائلُ المشهورة والخصائصُ العظيمة.

وقد كان النبيُّ - صلى الله عليه وآله سلم- يَعْتَكِفُ العَشْرَ الأواخرَ مِن رمضان؛ إلَّا أنْ يكونَ - ﷺ- مُسافرًا في جهادٍ في سبيلِ اللهِ لغَزْوٍ، لالتماسِ مرضاةِ الله.

فالاعتكاف سنَّةٌ مِن السُّننِ الثابتة، دلَّ عليها كتابُ ربِّنا، وسُنَّةُ نبيِّنا، وإجماعُ الأمة.

والمقصِدُ الأجَلُّ: تفريغُ القلبِ للعكوفِ على العبادة والذِّكْرِ، لالتماسِ الأجرِ بتَحَرِّي ليْلَة القَدْرِ، وبالبُعْدِ عن الدنيا بكُلِّ ما فيها مِنْ مَآسيها ومَبَاهِرِهَا، بكلِّ ما يَشْغَلُ القلبَ عن الربِّ -تَبَارَكَ وَتَعَالَى- وصراطِهِ المستقيم وطلبِ الآخرة.

وفي العَشْرِ الأواخرِ مِن شهرِ رمضان: لَيْلَةُ القَدْرِ، وهي خَيْرٌ مِن ألفِ شَهْر.

فَعَشْرُ رَمَضَانَ الأخيرةُ فيها الخَيْرَاتُ والأجورُ الكثيرةُ، وفيها الفضائلُ المشهورةُ والخصائصُ العظيمة، ومنها:-

*أنَّ النبيَّ -صلى اللهُ عليه وآله سلم- كان يجتهدُ في العَشْرِ الأواخرِ ما لا يجتهدُ في غيرِهِ، وهذا شاملٌ للاجتهادِ في جميع أنواعِ العبادةِ؛ مِن صلاةٍ وتِلاوةٍ وذِكْرٍ وصَدَقةٍ وغيرِها.

***ومِن خصائصِ العَشْرِ:** أنَّ النبيَّ -صلى الله عليه وآله سلم- كان يُوقِظُ أهلَهُ في العَشْرِ للصَّلاة.

«**أَيْقَظ أَهْلَه...أَحْيَا لَيْلَه**»: كأنَّ الليلَ كان مَوَاتًا؛ بل كان، إذ لا يُذْكَرُ فيه اللهُ، فإذا عُبِدَ فيه اللهُ؛ حَيِي.

«**أَحْيَا لَيْلَه، وَأَيْقَظ أَهْلَهُ**» للصلاةِ والذِّكْرِ؛ حِرْصًا على اغتنامِ هذه الليالي المُبَارَكة؛ لأنها فرصةُ العُمُرِ، وغَنيمةٌ لمَن وَفَّقَهُ اللهُ.

ومِن الخُسرانِ العظيمِ والحِرمانِ الكبيرِ: أنْ يُمْضِيَ المسلمونَ هذه الأوقات الثمينة في اللهوِ الباطلِ، والعَبَثِ الفَاجرِ، واللغوِ الزائلِ، وهذا مِن تَلاعُبِ الشيطانِ بِهم، ومِن مَكْرِهِ بِهم، وصَدِّهِ إيَّاهم عن سبيلِ الله، ومِن إغوائِهِ لهم، وقد قالَ ربُّنا -جَلَّ وعَلا- للشيطانِ اللعين: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عليهمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾ [الحجر: ٤٢].

فمَن تَبِعَ الغاوي؛ فهو غَاوي، مَن اتَّبَعَ الغَوِيَّ؛ فهو غَوِيٌّ، ومَن اتَّبَعَ الشيطانَ فهو من الغاوين، كما قالَ ربُّ العالمين.

فَمِن الخُسْرَانِ المُبين....مِن الخسارةِ الفَادحة: أنْ تُمَضَّى الأوقاتُ في ليالِ العَشْرِ في اللهوِ الباطلِ.

وقد تَكَالبَ المُنحرفونَ والمُنحرفات على المُسلمين في مَخادعِهم؛ ليَشْغَلُوهم عن العبادةِ والتِّلاوةِ والذِّكْرِ، وليُغْرُوهم بالنظرِ والاستماعِ إلى كلِّ ما حَرَّمَ اللهُ -جلَّ وعلا- مِمَّا هو فُسُوقٌ مَحْضٌ، وزَيْفٌ صِرْفٌ، ومعصيةٌ بَحْت.

*سُنَّةُ الاعْتِكَافِ فِي العَشْرِ الْأَوَاخِرِ وَالْتِمَاسُ لَيْلَةِ الْقَدْرِ فِيهَا:

***من خصائصِ العَشْرِ**: الاعتكافُ فيها، والاعتكافُ سُنَّةٌ ثابتةٌ بالكتابِ والسُّنَّةِ، وبإجماعِ الأمة.

وقد اعتكفَ النبيُّ ﷺ، واعتكفَ معه أصحابُهُ وبَعْدَهُ؛ فاعتكفوا مَعَهُ، واعتكفوا بَعْدَهُ -صلى اللهُ عليه وآله وسلم، ورضيَ اللهُ عنهم-.

أخرجَ مُسلمٌ في «صحيحه» بسندِهِ من روايةِ أبي سعيد الخُدريِّ -رضي الله عنه- قال: **«اعتكفَ رَسُوْلُ اللهُ ﷺ الْعَشْرَ الْأَوْسَطَ مِنْ رَمَضَانَ، يَلْتَمِسُ لَيْلَةَ الْقَدْرِ قَبْلَ أَنْ تُبَانَ لَهُ** -أي: قبل أن تُظْهَرَ له-.

فَاعْتَكَفَ الْعَشْرَ الْأَوْسَطَ مِنْ شهر رَمَضَانَ -أي: في عام-، **يَلْتَمِسُ لَيْلَةَ الْقَدْرِ قَبْلَ أَنْ تُبَانَ لَهُ، فَلَمَّا انْقَضَيْنَ** -يعني: العَشْرَ الأَوْسَطَ- **أَمَرَ بِالْبِنَاءِ فَقُوِّضَ** -أي: أُزيلَ، يعني: الخِبَاء الذي كان يعتكفُ فيه ﷺ يُضْرَبُ له في المسجد-، **فَلَمَّا انْقَضَيْنَ؛ أَمَرَ بِالْبِنَاءِ فَقُوِّضَ**-أي: أُزيل-.

ثُمَّ أُبِيْنَتْ لَهُ أَنَّهَا فِيْ الْعَشْرِ الْأَوَاخِرِ، فَأَمَرَ بِالْبِنَاءِ -أي: الخِبَاءِ- **فَأُعِيْدَ، ثُمَّ خَرَجَ عَلَى النَّاسِ،** فَقَالَ: «**يَا أَيُّهَا النَّاسُ؛ إِنَّهَا كَانَتْ أُبِيْنَتْ لِيَ لَيْلَةُ الْقَدْرِ، وَإِنِّي خَرَجْتُ لِأُخْبِرَكُمْ بِهَا، فَجَاءَ رَجُلَانِ يَحْتَقَّانِ** -أي: كُلٌّ يَدَّعي أنَّ الحقَّ له-».

وفي روايةٍ «**يَتَلَاحَيَانِ**»: كُلٌّ قد أَمْسَكَ بِلِحْيَةِ صاحبِهِ.

وفي رواية «**يَسْتَبَّانِ**».

«مَعَهُمَا الشَّيْطَانُ، فَنُسِّيتُهَا، فَالْتَمِسُوْهَا فِيْ الْعَشْرِ الْأَوَاخِرِ مِنْ رَمَضَانَ، الْتَمِسُوْهَا فِيْ التَّاسِعَةِ وَالسَّابِعَةِ وَالْخَامِسَةِ».

«فَجَاءَ رَجُلَانِ يَحْتَقَّانِ مَعَهُمَا الشَّيْطَانُ؛ فَنُسِّيتُهَا، أو فَأُنْسِيتُها».

أي: نُسِّيَ تحديدَ عِلْمِها بقَطْعٍ ويقين، لا أنها في العَشْرِ الأواخر مِن شهرِ رمضان!

وهذا مِن شؤمِ الخصامِ والخِلافِ والجِدال: «**فجاء رجلان يَحْتَقّانِ...يَسْتَبّانِ... يَتَلَاحَيَانِ، مَعَهُمَا الشّيْطَانُ؛ فَأُنْسِيتُها**».

فكم من الخيرِ يُرْفعُ لوقوعِ الخصامِ والخلافِ والجدالِ، والمُنَاقَرَةِ كَمُنَاقَرَةِ الدُّيُوك؟!!

قال رسولُ اللهِ ﷺ: «**الْتَمِسُوْهَا فِيْ التَّاسِعَةِ وَالْسَّابِعَةِ وَالْخَامِسَةِ**».

بَيَّنَ أبو سعيد -رضيَ اللهُ عنه- أنَّ التاسعةَ هي: الثانيةُ والعشرون، والسابعةُ هي: الرابعةُ والعشرون، والخامسةُ هي: السادسة والعشرون.

فَفَهِمَ -رضي اللهُ عنه- أنَّ ليلةَ القَدْرِ قد تكونُ في الأشفاعِ كما تكونُ في الأوتارِ مِنَ العَشْرِ الأواخرِ من رمضان، وإلى هذا أشارَ شيخُ الإسلامِ -رحمهُ اللهُ تعالى-.

«**فِيْ تَاسِعَةٍ تَبْقَى، فِيْ سَابِعَةٍ تَبْقَى، فِيْ خَامِسَةٍ تَبْقَى، في ثالثةٍ تَبقى**»، إذا كان الشهرُ تسعةً وعشرين.

وإذا كان الشهرُ ثلاثين؛ فَيَصْدُقُ أنْ تكونَ في الأوتار، كما يَصْدُقُ أنْ تكونَ في الأشفاع.

وعليه؛ فمَنْ أرادَ أنْ يُصيبَ لَيْلَةَ القَدْرِ؛ فعليه أنْ يجتهدَ في العشرِ الأواخرِ كلِّها مِنْ غيرِ ما تمييز، وإنَّ خَصَّ الأوتارَ بمزيدِ عنايةٍ فلا بأس؛ لدلالةِ النصوصِ على ذلك.

*فَضَائِلُ لَيْلَةِ القَدْرِ:

في العَشْرِ الأواخرِ: لَيْلَةُ القَدْرِ التي شَرَّفَهَا اللهُ تعالى على غيرِها، ومَنَّ على هذه الأمةِ بها، وأَنْعَمَ عليها بجزيلِ خَيْرِها، وأشادَ اللهُ تعالى بِفَضْلِهَا؛ فَقَالَ -جَلَّ وعلا-: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ * فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ [الدخان: ٣-٤].

مِن بَرَكَةِ ليلةِ القَدْرِ: أنَّ هذا القرآنَ المبارك أُنْزِلَ فيها، وقد وَصَفَها اللهُ تعالى بأنه يُفْرَقُ فيها كُلُّ أَمْرٍ حكيمٍ مِنْ أوامرِ اللهِ المُحْكَمَةِ العظيمةِ المُتْقَنَةِ، التي ليس فيها خللٌ ولا نَقْصٌ ولا باطل ﴿ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ العَلِيمِ﴾ [الأنعام: ٩٦].

﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ* وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ * لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ* تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ* سَلَامٌ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ﴾ [القدر: ١-٥].

القَدْرُ: بمعني الشَّرَفِ والتعظيمِ، أو بمعني التقديرِ والقضاءِ؛ لأنَّ ليلةَ القَدْرِ يُفْصَلُ فيها مِنَ اللوْحِ المحفوظِ إلي الكَتَبَةِ ما هو كائنٌ من أَمْرِ اللهِ سبحانه في تلك السَّنَةِ مِن الأرزاقِ والآجالِ والخيرِ والشرِّ: مَن يُولَد ومَن يموت، مَن يُرفعُ ومَن يُخْفَض، مَن يُعَزُّ ومَن يُذَلُّ، مَن يُعْطَى ومَن يُحْرَم، مَن يَحُجُّ ومَن يَعتمر إلى غيرِ ذلك مِن ألوانِ التقدير.

لأنَّ التقديرَ -كما هو معلوم- تقديرٌ أزليٌّ، كَتَبَ اللهُ -تبارك وتعالى- مقاديرَ كلِّ شيءٍ قبلَ أنْ يَخلقَ السموات والأرض بخمسين ألف سنة، وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ.

واللهُ ربُّ العالمين يَجْعَلُ نُسخةً من هذا التقديرِ الأزليِّ في ليلةِ القَدْرِ مِن كلِّ عام إلى الكَتَبَة، وفيها ما هو كائنٌ مِن أَمْرِ اللهِ سبحانه في تلك السَّنةِ من الأرزاقِ والآجالِ، والخيرِ والشرِّ، وغيرِ ذلك مِنْ كلِّ أَمْرٍ حكيم مِنْ أوامرِ اللهِ المُحْكَمَةِ المُتْقَنَةِ.

ولَيلةُ القَدْرِ شريفةٌ عظيمةٌ، يُقَدِّرُ اللهُ فيها ما يكونُ في السَّنَةِ إلى ليلةِ القَدْرِ من العامِ بَعْدَهُ، وما يَقْضِيهِ اللهُ تعالى مِن أوامرِهِ الحكيمةِ وأمورِهِ الجليلة.

﴿لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾ [القدر: ٣]، يعني: في الفَضْلِ والشَّرَفِ، وكثرةِ الثوابِ والأجرِ؛ لِذَا مَن قَامَهَا إيمانًا واحتسابًا؛ غُفِرَ لَهُ ما تَقَدَّمَ مِن ذَنْبِهِ.

وفي سورةِ القَدْرِ مِن فضائلِ ليلةِ القَدْرِ: أنَّ اللهَ أَنْزَلَ فيها القرآنَ المجيد الذي به هدايةُ البَّشَرِ، وسعادتُهم في الدنيا والآخرة، وكذلك ما يَدُلُّ عليه الاستفهامُ مِن التفخيمِ والتعظيم: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ﴾ [القدر: ٢].

وكلُّ «**ما أَدْرَاكَ**» في القرآنِ أَدْرَاهُ، وكلُّ ما يُدريك لم يُدْرِه.

إذَا قالَ بَعد هذا الاستفهام الذي هو للتفخيمِ والتعظيمِ والتشويق: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ * لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾ [القدر: ٢-٣]؛ فكُلُّ «**وما أدراك**» في القرآنِ أَدْرَاهُ.

وهي خيرٌ من ألفِ شهرٍ، كما قَضَى بذلك ربُّنا -جلَّ وعلا-.

والملائكةُ تتنزلُ فيها، وَهُم لا يتنزلونَ إلا بالخيرِ والبركةِ والرحمةِ؛ حتى تضيقَ بِهم الأرضُ، وهو أحدُ القَوْلينِ في معنى القَدْرِ.

القَدْرُ: الشَّرَفُ.

والقَدْر: الضِّيقُ.

قالوا: لأنَّ الأرضَ تضيقُ بالملائكةِ من كثرتِهم، والملائكةُ لا تتنزلُ إلا بالخيرِ والبركةِ والرحمةِ.

﴿**والرُّوحُ**﴾: وهو جبريلُ -عليه السلام -.

ومما يَدُلُّ على فَضْلِها في سورةِ القَدْرِ: أنها سلام؛ ﴿سَلَامٌ هِيَ﴾.

وقد أتى بالجُملةِ مَعرَّفةَ الطرفين، لا...بَلْ إنه -جلَّ وعلا- ذكرها هكذا تفخيمًا وتعظيمًا وتكريمًا وتشريفًا: ﴿سَلَامٌ هِيَ﴾، فدلَّ على كَوْنِها سلامًا لُحْمَةً وسُدَى، فهي سلامٌ مَحْض؛ ﴿سَلَامٌ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ﴾؛ فهي سَاجيةٌ صافية «**طَلِقَةٌ بَلِجَةٌ**» كما قال رسولُ اللهِ؛ إذ هي سَلَامٌ، تتنزلُ فيها الملائكةُ، يتنزلُ فيها مِن ربِّنَا السلامِ السلامُ على أهلِ الأرضِ؛ حتى يَصِيروا إلى السلامِ مِن بَعْدِ الضِّيقِ والشِّدَّةِ والعناءِ والكَرْبِ، فتجدُ الرُّوحُ مُنْطَلَقَها و يجدُ القلبُ مُستقرَّهُ، وما يدري أحدٌ متى يجدُ قَلْبُهُ مُستقرَّهُ؟!

﴿سَلَامٌ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ﴾؛ لكثرةِ السلامةِ فيها مِن العذابِ، لِمَا يقومُ به العبدُ مِن طاعةِ اللهِ -جلَّ وعلا-.

ومما يَدُلُّ على عظيمِ قَدْرِها ورِفْعَةِ شأنِها وجليلِ قَدْرِها: أنَّ اللهَ أنزلَ فيها سورةً برأسِها؛ تُتلى، يُتَعَبَّدُ للهِ بتلاوتِها إلى أنْ يَرفعَ اللهُ الكتابَ المجيدَ بين يَدي الساعةِ مِن الصُّدورِ والسُّطور.

ولا تختصُ ليلةُ القَدْرِ بلَيْلَةٍ مُعيَّنَةٍ في جميعِ الأعوامِ، بل تنتقلُ، فتكونُ في عامٍ ليلةَ سَبْعٍ وعشرين مثلًا، وفي عامٍ ليلةَ خمسٍ وعشرين، وهكذا...تَبَعًا لمشيئةِ اللهِ تعالى وحِكمته.

ودليلُ ذلك: قولُه ﷺ: «**التمسوها فِيْ تَاسِعَةٍ تَبْقَىَ، فِيْ سَابِعَةٍ تَبْقَىَ، فِيْ خَامِسَةٍ تَبْقَىَ**».

قال الحافظ في «الفتح»: «الأرجحُ: أنها في العَشْرِ الأخير، وأنها تَنْتَقِل».

فالأرجحُ على حَسَبِ دلالاتِ النصوص: أنَّ لَيْلَةَ القَدْرِ في العَشْرِ الأواخرِ مِنْ شهرِ رمضان، وأنها في أوتارِ العَشْرِ، وأنها تَنْتَقِلُ؛ فليست في ليلةِ بعَيْنِها، تكونُ ثابتةً في كلِّ عامٍ، ولكنَّها تنتقلُ كمَا هو الأرجحُ.

وقد أَخْفَى اللهُ -تبارك وتعالى- عن العبادِ تحديدَ لَيْلَةِ القَدْرِ بِقَطْعٍ؛ رحمةً بهم؛ ليَكْثُرَ عَمَلُهم في طلبِ لَيْلَةِ القَدْرِ في تلك الليالي الفاضلة، بالذِّكْرِ والصلاة، وبالدعاءِ والإخباتِ، وبالبكاءِ والإنابة؛ ليزدادوا من اللهِ قُرْبًا، وليَكْثُرَ لهم من اللهِ الثوابُ، وليُعْلَمَ مَنْ كان جَادًّا في طلبِها، حريصًا عليها مِمن كان كسلانًا مُتهاونًا.

أَخفى اللهُ ربُّ العالمين رِضاهُ في طاعتِهِ؛ فلا تدري بِمَ يَرْضَى عنك مما تَتَزَلَّفُ به إليه؟

ولا تَدري؛ أيُّ ذلك يُقْبَلُ لديه ويُعتمدُ عنده؟

فأَخْفَى رضاهُ في طاعتِهِ، كما أخفى سَخَطَهُ في معصيتِهِ.

وقد أَخْفَى اللهُ ربُّ العالمين ساعةَ الإجابةِ في يومِ الجُمُعةِ، في ساعاتِهِ، والأرجحُ: أنها الساعةُ الأخيرةُ قبل المغرب من يومِ الجُمُعة، لا يوافقُها عَبْدٌ يَسْأَلُ اللهَ ربَّ العالمين أَمْرًا مِن أمورِ الدنيا والآخرة؛ إلا آتاهُ اللهُ إياه.

وذلك لِيَحْرِصَ الناسُ على فِعْلِ الخيرات، وبَذْلِ النفوسِ في طاعةِ الله، وتفريغِ الأوقاتِ لعبادةِ الله؛ فأَخْفَى اللهُ -ربُّ العالمين- لَيْلَةَ القَدْرِ في العَشْرِ الأواخرِ مِن رمضان.

قال رسولُ الله: «**فَنُسِّيْتُهَا، وَعَسَى أَنْ يَكُوْنَ خَيْرًا لَكُمْ**»؛ أي: لتزدادوا اجتهادًا في العبادةِ والطلب، ولأنكم إذا عَلِمتم تحديدَها بقَطْعٍ في لَيْلةٍ مُحددةٍ؛ تَوفرتم على العبادةِ في تلك الليلة، ثم كَسَلْتُم بعدَ ذلك، وفَتَرْتُم عن العبادة والذِّكْرِ، ولا كذلك فِعْلُ المُتقين؛ فإنَّ النبيَّ الأمينَ ﷺ مع أنَّ الله -جلَّ وعلا- قد أخبرَهُ أنه قد غَفَرَ له ما تَقَدَّمَ من ذنبِهِ؛ إلا أنه «**كَانَ يَقُوْمُ الْلَّيْلَ حتى تَتَوَرَّمَ قَدَمَاهُ، حَتَّىَ تَتَفَطَّرُ قَدَمَاهُ**»، فلمَّا رُوجعَ في ذلك قال: «**أَفَلَا أَكُوْنُ عَبْدًا شَكُوْرًا؟!!**» ﷺ.

يُسْأَلُ اللهُ -تبارك وتعالى- في لَيْلَةِ القَدْرِ وفي كلِّ حينٍ العَفوَ والمعافاة.

يَسألُ العبدُ ربَّهُ-جلَّ وعلا- في ليلةِ القَدْرِ العفوَ والمعافاةَ؛ قالت عائشةُ -رضيَ اللهُ عنها- كما في الحديثِ الصحيح الذي أخرجَهُ أحمدُ في «المُسندِ»:

قُلْتُ: يَا رَسُوْلَ اللّه؛ أرأيتَ إِنْ وَافَقْتُ لَيْلَةَ الْقَدْرِ؛ مَا أَقُوْلُ فِيْهَا؟

قَالَ: «**قُوْلِيْ: الْلَّهُمّ إِنَّكَ عَفُوٌّ تُحِبُّ الْعَفْوَ فَاعْفُ عَنِّيْ**».

لو كان هناك طلبٌ هو أعلى مِن هذا؛ لذَكَرَهُ النبيُّ ﷺ لعائشة -رضيَ اللهُ تبارك وتعالى عنها-.

لأنَّ النبيَّ ﷺ أَخْبَرَ أنها أَحبُّ الناسِ إليه؛ لمَّا سأَلَهُ عمرو بن العاص -رضي الله عنه-: مَنْ أَحَبُّ الْنّاسِ إِلَيْكَ يا رسولَ الله؟

قَالَ: «**عَائِشَةُ**».

قَالَ: فمِنَ الرِّجَالِ؟

قَالَ: «**أَبُوْهَا**» -رضي الله عنه وعنها وعن الصحابة أجمعين-.

فهذا اختيارُ الحبيبِ للحبيب.

يختارُ النبيُّ ﷺ لعائشةَ في الليلةِ المباركةِ التي يُقْبَلُ فيها الدُّعاءُ، ويُجْزَلُ فيها العطاءُ، وتُمْحَى فيها الخطايا، وتُزالُ فيها السيئات، يَخْتَارُ لها رسولُ اللهِ هذا الدعاءَ: «**الْلَّهُمَّ إِنَّكَ عَفُوٌّ تُحِبُّ الْعَفْوَ فَاعْفُ عَنِّيْ**».

ولو كان هناك ما هو فَوْقَهُ؛ لذَكَرَهُ لها -ﷺ، ورضيَ اللهُ عنها-.

هو العفوُّ، وهو يحبُّ العَفو؛ فيُحِبُّ أنْ يعفو عن عبادِهِ، ويحبُّ مِن عبادِهِ أنْ يعفوَ بعضُهم عن بعض، فإذا عفا بعضُهم عن بعض؛ عاملَهم بعفوِهِ، وعَفْوُهُ أَحَبُّ إليه من عقوبتِهِ.

كان النبيُّ ﷺ يقول: «**أَعُوْذُ بِرِضَاكَ مِنْ سَخَطِكَ، وَبِمُعَافَاتِكَ مِنْ عُقُوْبَتِكَ**»، كما في «صحيح مسلم».

عَفْوهُ أَحَبُّ إليه مِن عقوبته؛ «**وَأَعُوْذُ بِمُعَافَاتِكَ مِنْ عُقُوْبَتِكَ**»: مِن نِقْمَتِكَ.

قال مُطَرِّفُ بنُ عبد الله: «لَأَنْ أَبِيتَ نائمًا وأُصْبِحَ نادمًا؛ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَبِيتَ قائمًا وأُصْبِحَ مُعْجَبًا».

الإخلاصَ...الإخلاصَ!

نسألُ اللهَ أنْ يرزقَنا إيَّاه.

هو عُقْدَةُ المسألة، وحَرْفُها وقُطْبُها الذي عليه تدور.

«**أولئك قَوْمٌ إِذَا خَلَوْا بِمَحَارِمِ اللهِ انْتَهَكُوهَا**»؛ فلم ينفعهم عملٌ صالح.

وتأمَّل في وصفِ ما يكون: «**أَعْمَالٌ كأَمْثَالِ جِبَالِ تِهَامَةَ بَيْضَاءَ؛ يَجْعَلَهَا الله هَبَاءً مَنْثُوْرًا**»؛ كالقُطنِ الْمَنْتُوفِ الْمَنْدُوفِ؛ يَجْعَلَهَا اللهُ هَبَاءً مَنْثُوْرًا، والجبالُ متماسكةٌ صُلْبَةٌ قائمةٌ، مُتلاحمة بذَرَّاتِها، وبصَخْرِها، وبمُكوِّناتِها.

ولكنْ وَا أَسَفَاهُ! ما من لُحْمَةٍ ها هنا تَرْبِط؛ فأعمالٌ متناثرةٌ لا حقيقةَ لها، يَجْعَلُ هَا اللهُ هَبَاءً مَنْثُوْرًا.

«لَأَنْ أَبِيتَ نائمًا وأُصْبِحَ نادمًا؛ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَبِيتَ قائمًا وأُصْبِحَ مُعْجَبًا»؛ لأنه لا يُقْبَلُ مع الإعجابِ عَمَلٌ، والنَّدَمُ من شروطِ التوبةِ؛ فإذا استَكْمَلَت شُروطَها؛ كانت نَصوحًا مقبولاً.

فاحرص في العَشْرِ الأواخرِ على التصفيةِ والتزكيةِ على الكتابِ والسُّنةِ ومنهاجِ النُّبوة، وخَلِّفْ دُنياك وَرَاءَكَ، وأَقْبِل صحيحًا؛ حتى تصيرَ مُعَافَى.

اللَّهُمَّ إنكَ عفوٌّ تحبُّ العفو فاعفُ عنَّا.

وصلى اللهُ وسلَّم على نبيِّنا مُحَمَّد، وعلى آلهِ وأصحابِهِ أجمعين(١).

---

(١)«مِنْ خُطْبَة: الصَّائِمُونَ الْمُفْلِسُون - الجمعة ١٩ من رمضان ١٤٣٢هـ الموافق ١٩-٨-٢٠١١م».

«المَوْعِظَةُ العُشْرُونَ»

«حِفْظُ اللسَانِ»

إنَّ الْحَمْدَ لِلَّهِ نَحْمَدُهُ، وَنَسْتَعِينُهُ وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِاللَّـه مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللَّـهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَا هَادِيَ لَهُ.

وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّـهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ.

وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ ﷺ.

أَمَّا بَعْدُ:

«حِفْظُ اللِّسَانِ عَنِ البَاطِلِ وَثَمَرَاتُهُ»

فَقَد قَالَ النَّوَوِيُّ -رَحِمَهُ اللهُ-: «اعْلَمْ أَنَّهُ يَنْبَغِي لِكُلِّ مُكَلَّفٍ أَنْ يَحْفَظَ لِسَانَهُ عَن جَمِيعِ الكَلَامِ؛ إِلَّا كَلَامًا ظَهَرَت فِيهِ المَصْلَحَةُ، وَمَتَى اسْتَوَى الكَلَامُ وَتَرْكُهُ فِي المَصْلَحَةِ؛ فَالسُّنَّةُ الإِمْسَاكُ عَنْهُ؛ لأَنَّهُ قَد يَنجَرُّ الكَلَامُ المُبَاحُ إِلَى حَرَامٍ أَو مَكْرُوهٍ، وَذَلِكَ كَثِيرٌ فِي العَادَةِ وَالسَّلَامَةُ لَا يَعْدِلُهَا شَيْءٌ».

وَعَن أَبِي هُرَيْرَةَ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- عَن النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**مَنْ كَانَ يُؤمِنُ بِاللهِ وَاليَوْمِ الآخِرِ فَلْيَقُلْ خَيْرًا، أَوْ لِيَصْمُت**». مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ.

وَهَذَا الحَدِيثُ صَرِيحٌ فِي أَنَّهُ يَنبَغِي أَنْ لَا يُتَكَلَّمَ إِلَّا إِذَا كَانَ الكَلَامُ خَيْرًا، وَهُوَ الَّذِي ظَهَرَت مَصْلَحَتُهُ، وَمَتَى شَكَّ فِي ظُهُورِ المَصْلَحَةِ، فَلَا يَتَكَلَّم.

وَقَد جَعَلَ النَّبِيُّ ﷺ حِفْظَ اللسَانِ مَعَ حِفْظِ الفَرْجِ جَوَازًا إِلَى الجَنَّةِ وَنَجَاةً مِنَ النَّارِ، فَمَنْ ضَمِنَ اللسَانَ وَالفَرْجَ؛ ضَمِنَ لَه النَّبِيُّ ﷺ الجَنَّةَ، قَالَ ﷺ: «**مَنْ يَضْمِن لِي مَا بَيْنَ لَحْيَيْهِ وَمَا بَيْنَ رِجْلَيْهِ أَضْمَنْ لَهُ الجَنَّةَ**». رَوَاهُ البُخَارِيُّ.

قَالَ الحَافِظُ: «الضَّمَانُ بِمَعْنَى الوَفَاءِ بِتَرْكِ المَعْصِيَةِ، فَأَطْلَقَ الضَّمَانَ وَأَرَادَ لَازِمَهُ، وَهُوَ أَدَاءُ الحَقِّ الَّذِي عَلَيْهِ، فَالمَعْنَى: مَن أَدَّى الحَقَّ الَّذِي عَلَى لِسَانِهِ مِن النُّطْقِ بِمَا يَجِبُ عَلَيْهِ أَو الصَّمْتِ عَمَّا لَا يَعْنِيهِ، وَأَدَّى الحَقَّ الَّذِي عَلَى فَرْجِهِ مِن وَضْعِهِ فِي الحَلَالِ وَكَفِّهِ عَن الحَرَامِ، وَقَوْلُهُ لِحْيَيْهِ: هُمَا العَظْمَانِ فِي جَانِبَيْ الفَمِ، وَالمُرَادُ بِمَا بَيْنَهُمَا: اللسَانُ وَمَا يَتَأَتَّى بِهِ النُّطْقُ، وَمَا بَيْنَ الرِّجْلَيْنِ: الفَرْجُ.

وَفِي بَيَانِ أَنَّ اللسَانَ قَائِدُ الأَعْضَاءِ فِي الاسْتِقَامَةِ وَالاعْوِجَاجِ، أَخْبَرَ النَّبِيُّ ﷺ فِيمَا رَوَاهُ عَنْهُ أَبُو سَعِيد الخُدْرِيِّ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- أَنَّهُ: «**إِذَا أَصْبَحَ ابْنُ آدَمَ، فَإِنَّ الأَعْضَاءَ كُلَّهَا تُكَفِّرُ اللِّسَانَ، فَتَقُولُ: اتَّقِ اللهَ فِينَا؛ فَإِنَّمَا نَحْنُ بِكَ، فَإِنْ اسْتَقَمْتَ اسْتَقَمْنَا، وَإِنْ اعْوَجَجْتَ اعْوَجَجْنَا**». رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ، وابنُ خُزَيْمَةَ وَصَحَّحَهُ وَكَذَا صَحَّحَهُ الأَلْبَانِيُّ.

وَتَكْفِيرُ الأَعْضَاءِ لِلِّسَانِ كِنَايَةٌ عَن تَنْزِيلِ الأَعْضَاءِ مَنْزِلَةَ الكَافِرِ بِالنِّعَمِ.

وَقد جعَلَ النَّبِيُّ ﷺ اللِّسَانَ أَخْوَفَ مَا يَخَافُ عَلَى سُفْيَانَ بن عَبْدِ اللهِ الثَّقَفِيِّ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ-، فَقَدْ قَالَ: قُلْتُ يَا رَسولُ اللهِ حَدِّثْنِي بِأَمْرٍ أَعْتَصِمُ بِهِ، قَالَ: «**قُلْ رَبِّيَ اللهُ ثُمَّ اسْتَقِم**».

قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ مَا أَخْوَفَ مَا تَخَافُ عَلَيَّ؟ «**فَأَخَذَ بِلِسَانِ نَفْسِهِ ثُمَّ قَالَ: هَذَا**».

رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ وَقَالَ: «حَسَنٌ صَحِيحٌ»، وَابْنُ مَاجه وَصَحَّحَهُ الأَلْبَانِيُّ.

وَأَوَّلُ مَذْكُورٍ ذَكَرَهُ النَّبِيُّ ﷺ لِعُقْبَةَ ابن عَامِر -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- فِي بَيَانِ النَّجَاةِ، هُوَ: أَمْسِكْ عَلَيْكَ لِسَانَكَ، فَعَن عُقْبَةَ بن عَامِرٍ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- قَالَ: قُلْتُ يَا رَسُولَ اللهِ مَا النَّجَاةُ؟

قَالَ: «**أَمْسِكْ عَلَيْكَ لِسَانَكَ وَلْيَسَعْكَ بَيْتُكَ وَابْكِ عَلَى خَطِيئَتِكَ**». رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ وَقَالَ: «حَدِيثٌ حَسَنٌ»، وَصَحَّحَهُ الأَلْبَانِيُّ.

وَفِي حَدِيثِ مُعَاذ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- جَعَلَ النَّبِيُّ ﷺ كَفَّ اللِّسَانِ عَمَّا يَسُوءُ وَلَا يُرْضِي الرَّبَّ مِلَاكَ الأُمُورِ العَظِيمَةِ الَّتِي ذَكَرَهَا لِمُعَاذَ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ-، ثُمَّ بَيَّنَ النَّبِيُّ ﷺ أَنَّهُ لَا يَكُبُّ النَّاسَ في النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِم أَوْ قَالَ: **«عَلَى مَنَاخِرِهِم إِلَّا حَصَائِدُ أَلْسِنَتِهِم»**، عَن مُعَاذَ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- قَالَ: كُنْتُ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ في سَفَرٍ، فَأَصْبَحْتُ يَوْمًا قَرِيبًا مِنْهُ وَنَحْنُ نَسِيرُ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَخْبِرْنِي بِعَمَلٍ يُدْخِلُنِي الجَنَّةَ وَيُبَاعِدُنِي مِن النَّارِ.

قَالَ: «**لَقَدْ سَأَلْتَ عَنْ عَظِيمٍ وَإِنَّهُ لَيَسِيرٌ عَلَى مَنْ يَسَّرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ، تَعْبُدُ اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا وَتُقِيمُ الصَّلَاةَ، وَتُؤْتِي الزَّكَاةَ، وَتَصُومُ شَهْرَ رَمَضَانَ، وَتَحُجَّ الْبَيْتَ**». ثُمَّ قَالَ: **أَلَا أَدُلُّكَ عَلَى أَبْوَابِ الْخَيْرِ**: «**الصَّوْمُ جُنَّةٌ، وَالصَّدَقَةُ تُطْفِئُ الخَطِيئَةَ كَمَا يُطْفِئُ المَاءُ النَّارَ، وَصَلَاةُ الرَّجُلِ مِنْ جَوْفِ اللَّيْلِ، ثُمَّ تَلَا قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ. فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة: ١٦-١٧].**

ثُمَّ قَالَ: **أَلَا أُخْبِرُكَ بِرَأْسِ الأَمْرِ وَعَمُودِهِ وَذِرْوَةِ سَنَامِهِ؟».**

قَالَ: قُلْتُ: بَلَى يَا رَسُولَ اللهِ.

قَالَ: **«رَأْسُ الْأَمْرِ الْإِسْلَامُ، وَعَمُودُهُ فَالصَّلَاةُ، وَذِرْوَةُ سَنَامِهِ الجِهَادُ» ثُمَّ قَالَ: أَلَا أُخْبِرُكَ بِمِلَاكِ ذَلِكَ كُلِّهِ؟».**

قَالَ: قُلْتُ: بَلَى يَا رَسُولَ اللهِ.

فَأَخَذَ بِلِسَانِهِ وَقَالَ: **«كُفَّ عَلَيْكَ هَذَا».**

قال: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَإِنَّا بِمَا نَتَكَلَّمُ بِهِ؟

فقال: «ثَكِلَتْكَ أُمُّكَ، **وَهَلْ يَكُبُّ النَّاسَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِم إِلَّا حَصَائِدُ أَلْسِنَتِهِم؟!»**.

رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ وَقَالَ: «حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ»، وَابْنُ مَاجَه وَصَحَّحَهُ الأَلْبَانِيُّ.

وَقَوْلُهُ ﷺ: «**بِمِلَاكِ**»: أَيْ بِمَا يَمْلِكُ بِهِ الإِنْسَانُ ذَلِكَ كُلَّهُ، بِحَيْثُ يَسْهُلُ عَلَيْهِ جَمِيعُ مَا ذُكِرَ، وَقَوْلُهُ: يَكُبُّ مِن كَبَّهُ إِذَا صَنعَهُ، وَحَصَائِدُ أَلْسِنَتِهِم: بِمَعْنَى مَحْصُودَاتِهِم، عَلَى تَشْبِيهِ مَا يَتَكَلَّمُ بِهِ الإِنْسَانُ بِالزَّرْعِ المَحْصُودِ بِالمِنْجَلِ، فَكَمَا أَنَّ المِنْجَلَ يَقْطَعُ مِن غَيْرِ تَمييزٍ بَيْنَ رَطْبٍ وَيَابِسٍ، وَجَيِّدٍ وَرَدِيءٍ، فَكَذَلِكَ لِسَانُ المِكْثَارِ؛ يَتَكَلَّمُ بِكُلِّ فَنٍّ مِنَ الكَلَامِ مِن غَيْرِ تَمييزٍ بَيْنَ مَا يَحسُنْ وَمَا يَقْبُحُ.

وَفِي إِعْرَاضِ المَرْءِ عَمَّا لَا يَعْنِيهِ سَمْتٌ حَسَنٌ، وَعَلَامَةٌ مِن عَلَامَاتِ حُسْنِ الإِسْلَامِ كَمَا أَخْبَرَ بِذَلِكَ أَبُو هُرَيْرَةَ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- عَن رَسُولِ اللهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «**مِنْ حُسْنِ إِسْلَامِ المَرْءِ تَرْكُهُ مَا لَا يَعْنِيهِ**». أَخْرَجَهُ التِّرْمِذِيُّ وَابْنُ مَاجه، وَصَحَّحَهُ الأَلْبَانِيُّ.

فَمَنْ عَرَفَ قَدْرَ زَمَانِهِ وَأَنَّهُ رَأْسُ مَالِهِ، لَمْ يُنْفِقْهُ إِلَّا فِي فَائِدَةٍ، ، وَهَذِهِ المَعْرِفَةُ تُوجِبُ حَبْسَ اللِّسَانِ عَنِ الكَلَامِ فِيمَا لَا يَعْنِي؛ لأَنَّهُ مَنْ تَرَكَ ذِكْرَ اللهِ تَعَالَى، وَاشْتَغَلَ بِمَا لَا يَعْنِيهِ، كَانَ كَمَنْ قَدَرَ عَلَى أَخْذِ جَوْهَرَةٍ، فَأَخَذَ عِوَضَهَا مَدَرَةً أَوْ بَعْرَةً، وَهَذَا مِن خُسْرَانِ العُمُرِ.

«آدَابُ الْكَلَامِ»

وَأَمَّا آدَابِ الْكَلَامِ:

فَقَدْ قَالَ المَاوَرْدِيُّ: «اعْلَمْ أَنَّ لِلْكَلَامِ آدَابًا إِنْ أَغْفَلَهَا الْمُتَكَلِّمُ أَذْهَبَ رَوْنَقَ كَلَامِهِ، وَطَمَسَ بَهْجَةَ بَيَانِهِ، وَلَهَى النَّاسَ عَنْ مَحَاسِنِ فَضْلِهِ بِمُسَاوِئِ أَدَبِهِ، فَعَدَلُوا عَنْ مَنَاقِبِهِ بِذِكْرِ مَثَالِبِهِ».

فَمِن آدَابِ الكَلَامِ: «أَنْ لَا يَتَجَاوَزَ فِي مَدْحٍ وَلَا يُسْرِفَ فِي ذَمٍّ وَإِنْ كَانَتِ النَّزَاهَةُ عَنِ الذَّمِّ كَرَمًا وَالتَّجَاوُزُ فِي الْمَدْحِ مَلَقًا يَصْدُرُ عَنْ مَهَانَةٍ، وَالسَّرَفُ فِي الذَّمِّ انْتِقَامٌ يَصْدُرُ عَنْ شَرٍّ، وَكِلَاهُمَا شَيْنٌ وَإِنْ سَلِمَ مِنَ الْكَذِبِ».

وَحُكِيَ عَنِ الْأَحْنَفِ بْنِ قَيْسٍ أَنَّهُ قَالَ: «سَهِرْتُ لَيْلَتِي أُفَكِّرُ فِي كَلِمَةٍ أُرْضِي بِهَا سُلْطَانِي وَلَا أُسْخِطُ بِهَا رَبِّي فَمَا وَجَدْتهَا».

وَقَالَ عَبْدُ اللهِ بن مَسْعُودٍ: «إِنَّ الرَّجُلَ لَيَدْخُلُ عَلَى السُّلْطَانِ وَمَعَهُ دِينُهُ؛ فَيَخْرُجُ وَمَا مَعَهُ دِينُهُ. قِيلَ: وَكَيْفَ ذَلِكَ؟ قَالَ: يُرْضِيهُ بِمَا يُسْخِطُ اللهَ -عَزَّ وَجَلَّ-».

وَسَمِعَ **ابْنُ الرُّومِيِّ** رَجُلًا يَصِفُ رَجُلًا وَيُبَالِغُ فِي مَدْحِهِ فَأَنْشَأَ يَقُولُ:

إِذَا مَا وَصَفْتَ امْرَأً لِامْرِئٍ .... فَلَا تَغْلُ فِي وَصْفِهِ وَاقْصِدْ

فَـإِنَّـــك إِنْ تَغْـلُ تَغْـــلُ ....الظُّنُونُ فِيهِ إِلَى الْأَمَدِ الْأَبْعَدِ

فَيَضْأَلُ مِنْ حَيْثُ عَظَّمْتَهُ .... لِفَضْلِ الْمَغِيبِ عَلَى الْمَشْهَدِ

وَمِنْ آدَابِ الْكَلَامِ: «أَنْ لَا تَبْعَثَهُ الرَّغْبَةُ وَالرَّهْبَةُ عَلَى الِاسْتِرْسَالِ فِي وَعْدٍ أَوْ وَعِيدٍ يَعْجِزُ عَنْهُمَا وَلَا يَقْدِرُ عَلَى الْوَفَاءِ بِهِمَا، فَإِنَّ مَنْ أَطْلَقَ بالوَعْدِ والوَعِيدِ لِسَانَهُ وَأَرْسَلَ فِيهِمَا عِنَانَهُ، وَلَمْ يَسْتَثْقِلْ مِنَ الْقَوْلِ مَا يَسْتَثْقِلُهُ مِنَ الْعَمَلِ، صَارَ وَعْدُهُ نَكْثًا وَوَعِيدُهُ عَجْزًا».

وَمِنْ آدَابِ الْكَلَامِ: «أنه إِنْ قَالَ قَوْلًا حَقَّقَهُ بِفِعْلِهِ، وَإِذَا تَكَلَّمَ بِكَلَامٍ صَدَّقَهُ بعَمِلَهُ، فَإِنَّ إِرْسَالَ الْقَوْلِ اخْتِيَارٌ، وَإِنَّ الْعَمَلَ بِهِ اضْطِرَارٌ، وَلَئِنْ يَفْعَلَ مَا لَمْ يَقُلْ أَجْمَلُ مِنْ أَنْ يَقُولَ مَا لَمْ يَفْعَلْ».

قَالَ بَعْضُ الْحُكَمَاءِ: أَحْسَنُ الْكَلَامِ مَا لَا يُحْتَاجُ فِيهِ إِلَى الْكَلَامِ؛ أَيْ يُكْتَفِي بِالْفِعْلِ فيه مِنْ الْقَوْلِ. الْقَوْلُ مَا صَدَّقَهُ الْفِعْلُ، وَالْفِعْلُ مَا وَكَّدَهُ الْعَقْلُ، لَا يَثْبُتُ الْقَوْلُ إِذَا لَمْ يَكُنْ يُقِلُّهُ مِنْ تَحْتِهِ الْأَصْلُ.

وَمِنْ آدَابِ الْكَلَامِ: أَنْ يُرَاعِيَ مَخَارِجَ كَلَامِهِ بِحَسَبِ مَقَاصِدِهِ وَأَغْرَاضِهِ، فَإِنْ كَانَ تَرْغِيبًا قَرَنَهُ بِاللِّينِ وَاللُّطْفِ، وَإِنْ كَانَ تَرْهِيبًا خَلَطَهُ بِالْخُشُونَةِ وَالْعُنْفِ.

فَإِنَّ لِينَ اللَّفْظِ فِي التَّرْهِيبِ وَخُشُونَتُهُ فِي التَّرْغِيبِ خُرُوجٌ عَنْ مَوْضِعِهِمَا وَتَعْطِيلٌ لِلْمَقْصُودِ بِهِمَا، فَيَصِيرُ الْكَلَامُ لَغْوًا وَالْغَرَضُ الْمَقْصُودُ لَهْوًا.

وَقَدْ قَالَ أَبُو الْأَسْوَدِ الدُّؤَلِيُّ لِابْنِهِ: «يَا بُنَيَّ إنْ كُنْت فِي قَوْمٍ فَلَا تَتَكَلَّمْ بِكَلَامِ مَنْ هُوَ فَوْقَك فَيَمْقُتُوك، وَلَا بِكَلَامِ مَنْ هُوَ دُونَك فَيَزْدَرُوك».

وَمِنْ آدَابِ الْكَلَامِ: أَنْ لَا يَرْفَعَ بِكَلَامِهِ صَوْتًا مُسْتَكْرَهًا وَلَا يَنْزَعِجَ لَهُ انْزِعَاجًا مُسْتَهْجَنًا، وَلْيَكُفَّ عَنْ حَرَكَةٍ تَكُونُ طَيْشًا وَعَنْ حَرَكَةٍ تَكُونُ عِيًّا، فَإِنَّ نَقْصَ الطَّيْشِ أَكْثَرُ مِنْ فَضْلِ الْبَلَاغَةِ.

وَقَدْ رُوِي أَنَّ الْحَجَّاجَ قَالَ لِأَعْرَابِيٍّ: أَخَطِيبٌ أَنَا ؟ قَالَ: نَعَمْ لَوْلَا أَنَّك تُكْثِرُ الرَّدَّ، وَتُشِيرُ بِالْيَدِ، وَتَقُولُ أَمَّا بَعْدُ.

وَمِنْ آدَابِهِ: أَنْ يَتَجَافَى هجرَ الْقَوْلِ وَمُسْتَقْبَحَ الْكَلَامِ، وَلْيَعْدِلْ إلَى الْكِنَايَةِ عَمَّا يُسْتَقْبَحُ صَرِيحُهُ وَيُسْتَهْجَنُ فَصِيحُهُ؛ ولِيَبْلُغَ الْغَرَضَ وَلِسَانُهُ نَزِهٌ وَأَدَبُهُ مَصُونٌ.

وَقَدْ قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ عَلِيٍّ فِي قَوْله تَعَالَى: ﴿وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا﴾ [الفرقان: ٧٢]، قَالَ: كَانُوا إذَا ذَكَرُوا الْفُرُوجَ كَنَّوْا عَنْهَا، وَكَمَا أَنَّهُ يَصُونُ لِسَانَهُ عَنْ ذَلِكَ، فَهَكَذَا يَصُونُ عَنْهُ سَمْعَهُ، فَلَا يَسْمَعُ خَنَا وَلَا يُصْغِي إلَى فُحْشٍ، فَإِنَّ سَمَاعَ الْفُحْشِ دَاعٍ إلَى إظْهَارِهِ، وَذَرِيعَةٌ إلَى إنْكَارِهِ، وَإِذَا وَجَدَ عَنِ الْفُحْشِ مُعْرِضًا كَفَّ قَائِلُ الْفُحْشِ وَكَانَ إعْرَاضُهُ أَحَدَ النَّكِيرَيْنِ، كَمَا أَنَّ سَمَاعَهُ أَحَدُ الْبَاعِثَيْنِ.

وقد أَنْشَدَ أَبُو الْحَسَنِ بْنُ الْحَارِثِ الْهَاشِمِيُّ:

تَحَـرَّ مِـــنْ الطُّـــرُقِ أَوْسَاطَهَـا *** وَعُدْ عَـنِ الْمَوْضِـعِ الْمُشْـتَبِهْ

وَسَمْعَك صُنْ عَنْ قَبِيحِ الْكَلَامِ *** كَصَوْنِ اللِّسَانِ عَنِ النُّطْقِ بِهِ

فَإِنَّك عِنْدَ اسْتِــمَاعِ الْقَـبِيح *** شَرِيــكٌ لِقَائِلِــهِ فَانْتَبِــهْ

وَمِمَّا يَجْرِي مَجْرَى فُحْشِ الْقَوْلِ وَهُجْرِهِ وفِي وُجُوبِ اجْتِنَابِهِ، وَلُزُومِ تَنَكُّبِهِ، مَا كَانَ شَنِيعَ الْبَدِيهَةِ مُسْتَنْكَرَ الظَّاهِرِ، وَإِنْ كَانَ عَقِبَ التَّأَمُّلِ سَلِيمًا، وَبَعْدَ الْكَشْفِ وَالرَّوِيَّةِ مُسْتَقِيمًا.

«آفَاتُ اللِّسَانِ»

وَآفَاتُ اللِّسَانِ كَثِيرَةٌ مُتَنَوِّعَةٌ، وَلَهَا فِي القُلُوبِ حَلَاوَةٌ، وَلَهَا بَوَاعِثُ مِن الطَّبْعِ، وَلَا نَجَاةَ مِن خَطَرِهَا إِلَّا بِالصَّمْتِ، وَالصَّمْتُ يَجْمَعُ الهِمَّةَ وَيُفرِّغُ الفِكْرَ.

وَفِي الحَدِيثِ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «**مَنْ يَضْمَنُ لِي مَا بَيْنَ لَحْيَيْهِ، وَمَا بَيْنَ رِجْلَيْهِ أَضْمَنُ لَهُ الجَنَّةَ**».

وَفِي حَدِيثٍ آخَر، رَوَاهُ أَحْمَدُ فِي «المُسْنَدِ»، وَحَسَّنَهُ الأَلْبَانِيُّ وَغَيْرُهُ: «**لَا يَسْتَقِيمُ إِيمَانُ عَبْدٍ حَتَّى يَسْتَقِيمَ قَلْبُهُ، وَلَا يَسْتَقِيمُ قَلْبُهُ حَتَّى يَسْتَقِيمَ لِسَانُهُ**».

وَقَد قَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ-: «مَا شَيْءٌ أَحْوَجُ إِلَى طُولِ سَجْنٍ مِنْ لِسَانٍ».

وَقَالَ أَبُو الدَّرْدَاء -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ-: «أَنْصِفْ أُذُنَيْكَ مِنْ فِيكَ، فَإِنَّمَا جُعِلَت لَكَ أُذُنَانِ وَفَمٌ وَاحِدٌ؛ لِتَسْمَعَ أَكْثَرَ مِمَّا تَتَكَلَّمُ بِهِ».

وَقَالَ الحُسَيْنُ بْنُ مَخْلَدٍ: «مَا تَكَلَّمْتُ مُنْذُ خَمْسِينَ سَنَةٍ بِكَلِمَةٍ أُرِيدُ أَنْ أَعْتَذِرَ عَنْهَا».

مِن آفَاتِ اللِّسَانِ: الشِّرْكُ بِاللهِ:

قَالَ ابْنُ رَجَبٍ -رَحِمَهُ اللهُ-: «مَعْصِيَةُ النُّطْقِ يَدْخُلُ فِيهَا الشِّرْكُ وَهُوَ أَعْظَمُ الذُّنُوبِ عِنْدَ اللهِ -عَزَّ وَجَلَّ-، وَيَدْخُلُ فِيهَا القَوْلُ عَلَى اللهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَهُوَ قَرِينُ الشِّرْكِ».

فَإِنَّ آفَاتِ الكَلَامِ مَا تَزَالُ تَخْبِطُ فِي دَرَكَاتِ البَاطِنِ حَتَّى تَسْتَوِي عَلَى حَمْئَةِ القَوْلِ عَلَى اللهِ بِلَا عِلْمٍ، وَلَم يُبِحِ اللهُ -عَزَّ وَجَلَّ- لِأَحَدٍ أَنْ يَتَقَوَّلَ عَلَيْهِ، وَلَا أَنْ يُسْنِدَ لَهُ مَا لَمْ يَقُلْهُ، بَلْ قَالَ عَنْ صَفِيِّهِ وَخَلِيلِهِ مُحَمَّدٍ ﷺ: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ. لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ. ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ. فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ﴾ [الحاقة: ٤٥-٤٧].

وَحَرَّمَ اللهُ -عَزَّ وَجَلَّ- القَوْلَ عَلَيْهِ بِلَا عِلْمٍ تَحْرِيمًا صَرِيحًا، فَقَالَ بَعْدَ أَنْ بَيَّنَ أَنْوَاعَ المُحَرَّمَاتِ وَبَعْضُهَا أَغْلَظُ مِن بَعْضٍ: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُواْ بِاللّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَن تَقُولُواْ عَلَى اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٣].

قَالَ الإِمَامُ ابْنُ القَيِّمِ -رَحِمَهُ اللهُ-: «القَوْلُ عَلَى اللهِ بِلَا عِلْمٍ هُوَ أَشَدُّ هَذِهِ المُحَرَّمَاتِ تَحْرِيمًا وَأَعْظَمُهَا إِثْمًا وَتَجْرِيمًا».

وِلِهَذَا ذُكِرَ فِي المَرْتَبَةِ الرَّابِعَةِ مِن المُحَرَّمَاتِ، الَّتِي اتَّفَقَت عَلَيْهَا الشَّرَائِعُ وَالأَدْيَانُ، وَلَا تُبَاحُ بِحَالٍ، بَلْ لَا تَكُونُ إِلَّا مُحَرَّمَةً وَلَيْسَت كَالمَيْتَةِ، وَالدَّمِ، وَلَحْمِ الخِنْزِيرِ الَّذِي يُبَاحُ فِي حَالٍ دُونَ حَالٍ.

وَقَالَ -جَلَّ وَعَلَا-: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَٰذَا حَلَالٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ. مَتَاعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النحل:١٦-١٧]. فَتَقَدَّمَ إِلَيْهِم سُبْحَانَهُ بِالوَعِيدِ عَلَى الكَذِبِ عَلَيْهِ فِي أَحْكَامِهِ، وَقَوْلِهِم لِمَا لَم يُحَرِّمْهُ؛ هَذَا حَرَامٌ وَلِمَا لَمْ يُحِلَّهُ؛ هَذَا حَلَالٌ، وَهَذَا بَيَانٌ مِنْهُ سُبْحَانَهُ أَنَّهُ لَا يَجُوزُ لِلعَبْدِ أَنْ يَقُولَ هَذَا حَلَالَ وَهَذَا حَرَامٌ إِلَّا بِمَا عَلِمَ أَنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ أَحَلَّهُ وَحَرَّمَهُ(١).

---

(١)«من آفات اللسان الغيبة - خطبة الجمعة ٢٦ من جمادى الأولى١٤٣٧هـ الموافق ١٢-٢-٢٠١٦م».

«جُمْلَةٌ مِن الأَخْلَاقِ الحَمِيدَةِ المُتَعَلِّقَةِ باللِّسَانِ»

*كن صادِقًا:

إنَّ الصِّدْقَ عَزِيزٌ، وَعَوِّد نَفْسَكَ الصِّدْقَ، فإنَّهُ يحتاجُ إلى تَعْوِيدٍ وَمَشَقَّةٍ، وَأَمْسِكْ لِسَانَكَ عَنِ اللغْوِ، حَتَّى لا يَجُرَّكَ اللغْوُ إلى هذا الكَذِبِ المُسْتَقْبَحِ، واعْلَم أنَّ الكَذِبَ لا يَلِيقُ بِالرَّجُلِ ذي المُرُوءَةِ، وأنَّهُ لو نَادَى مُنَادٍ بَيْنَ السماءِ والأَرْضِ أَنَّ الكَذِبَ حَلَالٌ مَا فَعَلْتُهُ؛ لِتَمَامِ مُرُوءَتِهِ وكَمَالِ رجولتِهِ؛ لأنَّ الكَذِبَ يُزْرِي به، وَيَحُطُّ مِن قَدْرِهِ، وَيُحَقِّرُ مِن شَأْنِهِ(١).

*أَمْسِك لِسَانَكَ إِلَّا عَنْ خَيْرٍ:

قَالَ النوويُّ -رَحِمَهُ اللهُ-: «اعْلَم أنهُ يَنْبَغِي لِكُلِّ مُكَلَّفٍ أَنْ يَحْفَظَ لِسَانَهُ عن جميعِ الكلامِ؛ إلا كلامًا ظَهَرَت فيه المَصْلَحَةُ، ومَتَى اسْتَوَى الكلامُ وتَرْكُهُ في المَصْلَحَةِ؛ فَالسُّنَّةُ الإِمْسَاكُ عنه؛ لأَنَّهُ قد يَنْجَرُّ الكلامُ المُبَاحُ إلى حَرَامٍ أو مَكْرُوهٍ، وذلك كَثِيرٌ في العادةِ، والسَّلَامَةُ لا يَعْدِلُهَا شَيْء».

وعن أبي هُريرة-رضي اللهُ عنه- عن النبيِّ ﷺ قال: «**مَن كَانَ يُؤمِنُ باللهِ واليَوْمِ الآخرِ فَلْيَقُل خَيْرًا، أو لِيَصْمُت**». متفقٌ عليه.

وهذا الحديثُ صريحٌ في أنهُ يَنْبَغِي أنْ لا يُتَكَلَّمَ إلَّا إذا كان الكلامُ خيرًا، وهو الذي ظَهَرَت مصلحتُهُ، ومتى شَكَّ في ظهورِ المَصْلَحَةِ، فَلَا يَتَكَلَّم، وقد جَعَلَ النبيُّ ﷺ حِفْظَ اللسانِ مع حِفْظِ الفَرْجِ جَوَازًا إلى الجَنَّةِ ونَجَاةً مِن النَّارِ، فَمَن ضَمِنَ اللسَانَ والفَرْجَ؛ ضَمِنَ له النبيُّ ﷺ الجَنَّةَ، قَالَ ﷺ: «**مَنْ يَضْمَنْ لِي مَا بَيْنَ لَحْيَيْهِ وَمَا بَيْنَ رِجْلَيْهِ أَضْمَنْ لَهُ الْجَنَّةَ**». رواهُ البُخَارِيُّ.

(١) «مِن خطبة: مِن آفَاتِ اللسانِ: الكَذِب - ١٠ من جمادى الأولى١٤٣٧هـ الموافق ١٩-٢-٢٠١٦م»

(١) «خطبة من آفات اللسان الغيبة -خطبة الجمعة ٢٦ من جمادى الأولى١٤٣٧هـ الموافق ١٢-٢-٢٠١٦م».

*مِن أعْظَمِ آفَاتِ اللسَانِ: الكلامُ فيما لا يَعني:

عن أبي هريرة -رضي الله عنه- قال: قال رسولُ اللهِ ﷺ: «**مِنْ حُسْنِ إِسْلامِ الْمَرْءِ تَرْكُهُ مَا لا يَعْنِيهِ**». أخرجَهُ الترمذيُّ، وابن ماجَه عن أبي هريرة -رضي الله عنه-، وأخرجه أحمد، والطبرانيُّ في «الكبير» عن الحسين بن علي -رضي الله عنهما-، وصححه الألبانيُّ في «صحيحِ الجامع» وغيرُه.

وهذا الحديثُ العظيم: «**مِنْ حُسْنِ إِسْلامِ الْمَرْءِ تَرْكُهُ مَا لا يَعْنِيهِ**» أصلٌ كبيرٌ في تأديبِ النَّفْسِ وتهذيبِهَا، وَتَرْكِ ما لا جَدْوَى فيه ولا نَفْع.

قال ابن رجبٍ -رحمه الله-: «هذا الحديثُ أصلٌ عظيمٌ مِن أصولِ الأدبِ، وقد حَكَى الإمامُ أبو عمرو بن الصلاح عن أبي مُحمد بن أبي زيد -إمامِ المالكية في زَمَانِهِ- أنه قال: جِماعُ آدابِ الخيرِ وأزِمَّتُه تَتَفَرَّعُ مِن أربعةِ أحاديث:

١*قولُ النبيِّ ﷺ: «**مَن كانَ يُؤمَنُ باللهِ واليوم الآخر فَلْيَقُل خَيْرًا أو ليَصْمُتْ**».

٢*وقولُهُ ﷺ: «**مِنْ حُسْنِ إِسْلامِ الْمَرْءِ تَرْكُهُ مَا لا يَعْنِيهِ**».

٣*وقولُهُ ﷺ للذي اخْتَصَرَ له الوَصِيَّةَ: «**لَا تَغْضَبْ**».

٤*وقولُهُ ﷺ: «**المُؤمِنُ يُحِبُّ لأخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ**»(١).

---

(١) «من آفات اللسان: الكلام فيما لا يعني -خطبة الجمعة ٨ من رجب ١٤٣٧هـالموافق ١٥-٤-٢٠١٦م»

«فَلْنَتَّقِ اللهَ فِي أَلْسِنَتِنَا»

«فَيَنْبَغِي عَلَيْنَا أَنْ نَتَّقِيَ اللهَ -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى- فِي أَلْسِنَتِنَا، وَلْنَعْلَم أَنَّ الغِيبَةَ مِن حُقُوقِ العِبَادِ، يَعْنِي لَنْ تَتُوبَ مِنْهَا إِلَّا إِذَا أَحَلَّكَ مَنْ اغْتَبْتَهُ، تَوَرَّطْتَ؛ لأَنَّكَ إِذَا تُبْتَ إِلَى اللهِ؛ فَكَفَفْتَ عَنِ الغِيبَةِ، وَعَزَمْتَ عَلَى أَلَّا تَعُودَ وَنَدِمْتَ عَلَى مَا فَعَلْتَ؛ لَا تَصِحُّ تَوْبَتُكَ، إِذَا كَانَتِ التَّوْبَةُ مُتَعَلِّقَةً بِحُقُوقِ العِبَادِ حَتَّى تُؤَدِّيَ الحُقُوقَ إِلَى أَصْحَابِهَا.

هَل تَذْهَب إِلَى مَنِ اغْتَبْتَهُ؛ لِتَقُولَ: اغْتَبْتُكَ، فَاجْعَلْنِي فِي حِلٍّ؟ سَيَقُولُ لَكَ: مَاذَا قُلْتَ؟ فَإِنْ قُلْتَ؛ دَارَت المَعْرَكَةُ وَرُبَّمَا سُفِكَتِ الدِّمَاءُ، وَإِنْ لَم تَقُل؛ قَالَ: لَا وَاللهِ، لَا أُسَامِحُكَ حَتَّى نَمْثُلَ بَيْنَ يَدَيْ اللهِ -عَزَّ وَجَلَّ-.

لِمَاذَا تُوَرِّطُ نَفْسَكَ؟!

قَالَ الحَسَنُ -رَحِمَهُ اللهُ-: «لَو كُنْتُ مُغْتَابًا أَحَدًا؛ لَاغْتَبْتُ أَبَوَيَّ، هُمَا أَوْلَى بِحَسَنَاتِي».

مَا دُمْتَ تُوَزِّعُ الحَسَنَاتِ!!

مَا دُمْتَ تُوَزِّعُ الحَسَنَاتِ، فَأَبَوَاكَ أَوْلَى بِحَسَنَاتِكَ.

وَمِنَ السَّفَهِ العَقْلِيِّ وَالفَسَادِ الفِكْرِيِّ وَالخَلَلِ النَّفْسِيِّ؛ أَنْ يَقَعَ المَرْءُ فِي الغِيبَةِ؛ لأَنَّهُ لَن يَغْتَابَ إِلَّا مَن يُبْغِضُهُ، لَن يَغْتَابَ إِلَّا مَن يَكْرَهُهُ، فَأَنْتَ تُهْدِي لَهُ حَسَنَاتِكَ، تَجْعَلُ رَقَبَتَكَ فِي يَدِهِ، وَهُوَ لَكَ عَدُوٌّ، وَهُوَ لَكَ مُبْغِضٌ وَأَنْتَ لَهُ كَذَلِكَ، هَلْ هَذَا مِنَ العَقْلِ فِي شَيْءٍ؟!

اتَّقُوا اللهَ مَعْشَرَ المسْلِمِينَ، وَأَمْسِكُوا أَلْسِنَتَكُم.

وَنَسْأَلُ اللهَ أَنْ يَحْفَظَ أَلْسِنَتَنَا مِن كُلِّ سُوءٍ، وَقُلُوبَنَا مِن كُلِّ وَارِدِ شَرٍّ، وَأَنْ يَغْفِرَ لِأَمْوَاتِنَا وَأَمْوَاتِ المُسْلِمِينَ.

اللَّهُمَّ اغْفِر لِأَمْوَاتِنَا وَأَمْوَاتِ المُسْلِمِينَ، وَارْحَمْنَا وَارْحَم أَمْوَاتَنَا وَأَمْوَاتَ المُسْلِمِينَ

وَصَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ عَلَى نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ، وَعَلَى آلِهِ، وَأَصْحَابِهِ أَجْمَعِينَ(١).

---

(١)«من خطبة: من آفات اللسان الغيبة - خطبة الجمعة ٢٦ من جمادى الأولى١٤٣٧هـ / ١٢-٢-٢٠١٦م».

«المَوْعِظَةُ الحَادِيَةُ وَالعُشْرُونَ»

«الكَلِمَةُ الطَّيِّبَةُ»

إنَّ الْحَمْدَ لِلَّهِ نَحْمَدُهُ، وَنَسْتَعِينُهُ وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِاللَّـه مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللَّـهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَا هَادِيَ لَهُ.

وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّـهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ.

وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ ﷺ.

أَمَّا بَعْدُ:

«مَثَلُ الْكَلِمَةِ الطَّيِّبَةِ وَالكَلِمَةِ الخَبِيثَةِ فِي كِتَابِ اللهِ»

فَقَدْ ضَرَبَ اللهُ -تَبَارَكَ وَتَعَالَى- المَثَلَ فِي كِتَابِهِ العَزِيزِ لِلْكَلِمَةِ الطَّيِّبَةِ وَالكَلِمَةِ الخَبِيثَةِ، فَالْكَلِمَةُ الطَّيِّبَةُ؛ كَالشَّجَرَةِ الطَّيِّبَةِ: أَصْلُهَا ثَابِتٌ، وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ؛ تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا، وَالكَلِمَةُ الخَبِيثَةُ؛ كَالشَّجَرَةِ الخَبِيثَةِ: اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الأَرْضِ، مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ.

قَالَ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ، تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ، وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ الأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ، يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾ [إبراهيم: ٢٤-٢٧].

قَالَ العَلَّامَةُ السَّعْدِيُّ -رَحِمَهُ اللهُ-: «يَقُولُ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً﴾، وَهِيَ شَهَادَةُ أَن لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَفُرُوعُهَا ﴿كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ﴾ وَهِيَ النَّخْلَةُ، ﴿أَصْلُهَا ثَابِتٌ﴾ فِي الأَرْضِ ﴿وَفَرْعُهَا﴾ مُنْتَشِرٌ ﴿فِي السَّمَاءِ﴾، وَهِيَ كَثِيرَةُ النَّفْعِ دَائِمًا، ﴿تُؤْتِي أُكُلَهَا﴾ أَيْ: ثَمَرَتَهَا، ﴿كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾.

فكَذَلِكَ شَجَرَةُ الإيمانِ، أَصْلُهَا ثابتٌ في قَلْبِ المُؤْمِنِ، عِلْمًا واعْتِقادًا، وفَرْعُهَا مِنَ الكَلِمِ الطَّيِّبِ، والعَمَلِ الصالِحِ، والأخلَاقِ المَرْضِيَّةِ، والآدَابِ الحسنةِ في السماءِ دائمًا، يَصْعَدُ إلى اللهِ مِنْهُ مِنَ الأعمالِ والأقوالِ التي تُخْرِجُهَا شَجَرَةُ الإيمانِ؛ ما يَنْتَفِعُ به المؤمنُ، وَيَنْتَفِعُ به غَيْرُهُ.

﴿وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ لعلَّهُمْ يتَذَكَّرُونَ ما أَمَرَهُمْ به، ونَهَاهُمْ عنه؛ فَإِنَّ في ضَرْبِ الأمثالِ تَقْرِيبًا للمَعَانِي المَعْقُولَةِ مِنَ الأَمْثَالِ المَحْسُوسَةِ، ويَتَبَيَّنُ المَعْنَى الذي أرادَهُ اللهُ غايَةَ البيانِ، ويَتَّضِحُ غَايَةَ الوُضُوحِ، وهذا مِنْ رحمتِهِ وحُسْنِ تَعْلِيمِهِ، فَلِلَّهِ أَتَمُّ الحَمْدِ وأَكْمَلُهُ وأَعَمُّهُ، فهذه صِفَةُ كَلِمَةِ التوحيدِ، وصِفَةُ ثَبَاتِهَا في قَلْبِ المُؤْمِنِ.

ثم ذَكَرَ ضِدَّهَا؛ وهي كلمةُ الكُفْرِ وفُرُوعُهَا، **فقال**: ﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ﴾ خَبِيثَةِ المَأْكَلِ والمَطْعَمِ، وهي: شجرةُ الحَنْظَلِ ونَحْوُهَا، ﴿اجْتُثَّتْ﴾: هذهِ الشجرةُ، ﴿مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ﴾ أي: مِنْ ثُبُوتٍ، فَلَا عُرُوقَ تُمْسِكُهَا، ولا ثمرةَ صَالِحَةَ تُنْتِجُهَا؛ بَلْ إنْ وُجِدَ فيها ثَمَرَةٌ؛ فَهِيَ ثمرةٌ خبيثةٌ، كذلك كَلِمَةُ الكُفْرِ والمَعَاصِي، ليس لها ثُبُوتٌ نافِعٌ في القَلْبِ، ولا تُثْمِرُ إلا كُلَّ قَوْلٍ خَبِيثٍ، وعَمَلٍ خَبِيثٍ، يَسْتَضِرُّ به صَاحِبُهُ، ولا يَنْتَفِعُ، ولا يَصْعَدُ إلى اللهِ مِنْهُ عَمَلٌ صَالِحٌ، ولا يَنْفَعُ نَفْسَهُ، ولا يَنْتَفِعُ بِهِ غَيْرُهُ.

﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾

يُخْبِرُ تعالى أنَّهُ يُثبِّتُ عِبَادَهُ المؤمنينَ، أيْ: الذين قامُوا بِمَا عليهم مِنَ الإِيمَانِ القَلْبِيِّ التَّامِّ، الذي يَسْتَلْزِمُ أعمالَ الجَوَارِحِ ويُثْمِرُهَا، فَيُثَبِّتُهُمُ اللهُ في الحياةِ الدنيا عندَ وُرُودِ الشُّبُهَاتِ؛ بالهِدَايَةِ إلى اليَقِينِ، وعِنْدَ عُرُوضِ الشهواتِ بالإِرَادَةِ الجَازِمَةِ على تَقْدِيمِ ما يُحِبُّهُ اللهُ على هَوَى النَّفْسِ ومُرَادِهَا.

وفِي الآخِرَةِ عِنْدَ المَوْتِ بالثَّبَاتِ على الدِّينِ الإسلاميِّ، والخَاتِمَةِ الحَسَنَةِ، وفي القَبْرِ عِنْدَ سُؤَالِ المَلَكَيْنِ بالجوَابِ الصحيحِ، إذا قِيلَ للمَيِّتِ: مَنْ رَبُّكَ؟ وما دِينُكَ؟ ومَنْ نَبِيُّكَ؟ هَدَاهُمْ للجَوَابِ الصحيحِ؛ بِأَنْ يَقُولَ المُؤْمِنُ: رَبِّيَ اللهُ، ودِينِي الإسلامُ، ونَبِيِّي محمدٌ -عليهِ الصلاةُ وأَزْكَى السلامِ-.

﴿وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ﴾: عن الصَّوَابِ في الدنيا والآخِرَةِ، ﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾[النحل:٣٣](١).

«مَعْنَى الْكَلِمَةِ الطَّيِّبَةِ –لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ-»

دينُ اللهِ رَبِّ العَالَمِينَ الذي أَرْسَلَ بِهِ رُسُلَهُ، وأَنْزَلَ به كُتُبَهُ، ومَا تَضَمَّنَتْهُ «لا إلٰه إلا اللهُ» فَهْمًا لِمَعْنَاها، وعَمَلًا بِمُقْتَضَاهَا، وتَحْقِيقًا لِشُرُوطِها، ومُجَانَبَةً لِنَوَاقِضِهَا، وتَحْقِيقًا لَهَا في الحَيَاةِ. وإِنَّمَا وقَعَتِ المَعْرَكَةُ في قَبُولِهَا وَرَدِّهَا، وفي خِلَافِ المشركينَ حَوْلَها.

وأَمَّا أنْ يَظُنَّ ظَانٌّ أَنَّ **«لا إلَهَ إِلَّا اللهُ»**؛ إنما هي إثباتُ وُجُودِ الصَّانِعِ الحكِيمِ المُدَبِّرِ الكريمِ....إلى آخِرِ ما يقولون، ثم يَصْرِفُ العبادةَ لغيرِ اللهِ -جلَّ وعلا-، فليس هذا بِدِينِ مُحَمَّدٍ ولا هو بِدِينِ المُرْسَلِينَ، ولا هو بمَوْطِنِ النِّزَاعِ بَيْنَ النبيِّ وقومِهِ، بلْ بَيْنَ الأنبياءِ وأَقْوَامِهِمْ.

---

(١)«مِن خُطْبَةِ: فَضْلُ الصَّمْتِ وَحِفْظُ اللِّسَانِ - ٢٦ من ربيع الثاني ١٤٣٧هـ الموافق ٥-٢-٢٠١٦م».

فكُلُّهُمْ جَاءُوا لِكَيْ يَكُونَ الدُّعَاءُ كُلُّهُ للهِ، والاِسْتِغَاثَةُ باللهِ، والتَّوَكُّلُ على اللهِ، والمَحَبَّةُ للهِ، إلى غَيْرِ ذلك مِنْ تلك العِبَادَاتِ.

كُلُّهم يقولُ: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾.

وهذا مَعْنَى الكلمةِ الطَّيِّبَةِ؛ ﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ﴾: هذا هو النَّفْيُ، ﴿وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا﴾، نَفْيٌ وإثباتٌ، فلا بُدَّ مِنَ الكُفْرِ بِكُلِّ ما يُعْبَدُ مِنْ دونِ اللّهِ، والنَّاسُ **يقولونَ:** إِنَّنا إذا اسْتَغَثْنَا بالمخلوقين؛ فإِنَّنا لا نَعْبُدُهُمْ مِنْ دُونِ رَبِّ العالمين.

فَيُقَالُ: ما الفَرْقُ بَيْنَ هذه الاستغاثةِ على هذا النَّحْوِ، واسْتِغَاثَةِ المُتَقَدِّمِينَ؟!!

يقولون: نحن لا نَذْبَحُ لهم، وليس الذَّبْحُ بِعِبَادَةٍ لهم.

وهذا تَدْلِيسٌ في تَدْلِيسٍ؛ لأنهمْ يَأْتُونَ بِبَهِيمَةِ الأنعامِ التي لا تُذْبَحُ إلا للهِ، ولا تُنْذَرُ إلَّا لله، ولا تُقَدَّمُ قُرْبانًا وطَاعَةً إلا لله، يَشْتَرُونَها بِنِيَّةِ أَنَّها لِفُلَانٍ أو فُلَانَةٍ، وتُرَبَّى سَائِبَةً لا تُمَسُّ، إذْ هي مِنْ سَوَائِبِ فُلَانٍ أو فلانةٍ، وتُسَاقُ إلى مَنْحَرِهَا على اسْمِ فُلَانٍ وفُلَانَةٍ.

ثُمَّ يَقَعُ التَّدْلِيسُ باللِّسَانِ لَفْظًا، فَيَقُولُ قائِلُهم: ما ذَبَحْتُهَا لِأَجْلِهِ، وإنما ذَبَحْتُ باسْمِ اللهِ واللّهُ أَكْبَرُ، وهذا كُلُّهُ زُورٌ وضَلَالٌ، ومعلومٌ أنَّ الأسماءِ لا تُغَيِّرُ مِنْ حقيقةِ المُسَمَّى شيئًا.

فلَوْ أنَّ إنسانًا سَمَّى الخَمْرَ ماءً؛ ما أَخْرَجَ ذلك الخَمْرَ عن حَقِيقَتِهَا، وما صَارَتْ بالتَّسْمِيَةِ ماءًا، وإنما هي خَمْرٌ على حَقِيقَتِهَا، إنْ شَرِبَهَا حُدَّ، وإنْ قَالَ بِحِلِّهَا كَفَر، إلى غَيْرِ ذلك مِنَ الأَحْكَامِ؛ وإنْ سَمَّاها بِغَيْرِ اسْمِهَا(١).

---

(١)«مِن خُطْبَةِ: أُمَّةُ التَّوْحِيدِ – ١٤ من ربيع الثاني ١٤٣٠هـ/ ١٠/٤/٢٠٠٩م».

وقَدْ بَيَّنَ النَّبِيُّ ﷺ قَدْرَ الكلمةِ الطَّيِّبَةِ، وقَدْرَ الكلمةِ الخبيثَةِ، فقال ﷺ: «**إِنّ الْعَبْدَ لَيَتَكَلّمُ بِالْكَلِمَةِ مِنْ رِضْوَانِ اللّه، لَا يُلْقِي لَهَا بَالًا، يَرْفَعُهُ اللّه بِهَا دَرَجَاتٍ، وَإِنّ الْعَبْدَ لَيَتَكَلّمُ بِالْكَلِمَةِ مِنْ سَخَطِ اللّه، لَا يُلْقِي لَهَا بَالًا، يَهْوِي بِهَا فِي جَهَنّمَ**». رواه البخاري.

وقال ﷺ فيما رواه عنه أبو هريرة -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ-: «**إِنَّ الْعَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مَا يَتَبَيَّنُ فِيهَا، يَزِلُّ بِهَا إلى النَّارِ أَبْعَدَ مما بَيْنَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ**». متفقٌ عليه.

قال النَّوَوِيُّ -رَحِمَهُ اللهُ-: «معني «يَتَبَيَّنُ» أيْ: يُفَكِّرُ أنها خَيْرٌ أَمْ لَا».

وقال الحافظُ -رَحِمَهُ اللهُ-: «قولُه «مَا يَتَبَيَّنُ فيها» أي: لا يَتَطَلَّبُ مَعْنَاهَا، أي: لا يُثْبِتُهَا بِفِكْرِه، ولا يَتَأَمَّلُها حَتَّى يَتَثَبَّتَ فيها، بلْ يقولُها إلا إنْ ظَهَرَتِ المصلحةُ في القولِ».

وعن بلالِ بنِ الحَارِثِ المُزَنِيِّ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قال: «**إِنَّ الرَّجُلَ لَيَتَكَلَّمُ بالكلمةِ مِنْ رِضْوَانِ اللهِ** تعالى، **مَا كَانَ يَظُنُّ أَنْ تَبْلُغَ ما بَلَغَتْ، يَكْتُبُ اللهُ له بها رِضْوَانَهُ إلى يَوْمِ يَلْقَاهُ، وإِنَّ الرَّجُلَ لَيَتَكَلَّمُ بالكَلِمَةِ مِنْ سَخَطِ اللهِ، ما كان يَظُنُّ أَنْ تَبْلُغَ ما بَلَغَتْ، يَكْتُبُ اللهُ له بها سَخَطَهُ إلى يَوْمِ يَلْقَاهُ**».

أخرجه مالِكٌ في «المُوَطَّأِ»، **والترمذِيُّ، وقال**: «حَدِيثٌ حَسَنٌ صحيحٌ»، وأحمدُ، وابنُ مَاجَه، وصححهُ الألبانيُّ.

وفي هذه الأحاديثِ؛ بَيَانٌ شَافٍ بِشَأْنِ الكلمةِ، وأينَ تَبْلُغُ بِصَاحِبِهَا مِنْ دَرجَاتِ الرِّضْوَانِ في الجِنَانِ إنْ كانتْ طَيِّبَةً، وكيفَ تَهْوِي بِقَائِلِهَا دَرَكَاتٍ فِي الشَّقَاءِ والنارِ إنْ كانت خَبِيثَةً.

وقد أَخْبَرَ اللهُ -عَزَّ وَجَلَّ- في كتابِهِ الكريمِ أنَّ أَلْفَاظَ العِبَادِ مُحْصَاةٌ عليهم، لا يَنِدُّ مِنْهَا عَنِ الإِحْصَاءِ لَفْظٌ، **فقَالَ -عز وجل-**: ﴿مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [قّ:١٨]، أي: ما يَلْفِظُ العبدُ مِنْ قَوْلٍ إلّا ولَدَيْهِ مَلَكٌ يَرْقُبُهُ، ﴿عَتِيدٌ﴾ أي: حَاضِرٌ مَعَهُ، لا يَغِيبُ عنه.

قال ابنُ كَثِيرٍ -رَحِمَهُ اللهُ-:

«﴿مَا يَلْفِظُ﴾ أي: ابْنُ آدَمَ ﴿مِن قَوْلٍ﴾ أي: ما يَتَكَلَّمُ بِكَلِمَةٍ، ﴿إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ أي: إِلَّا ولَهَا مَنْ يَرْقُبُهَا، مُعِدٌّ لِذَلِكَ يَكْتُبُهَا، لا يَتْرُكُ كلمةً ولا حَرَكَةً، **كمَا قَالَ -جل وعلا-**: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ كِرَامًا كَاتِبِينَ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [الانفطار:١٠-١٢].

وعن أبي هريرةَ (رض)، عن النَّبِيِّ ﷺ قال: «**مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ؛ فَلْيَقُلْ خَيْرًا أَوْ لِيَصْمُتْ**». متفقٌ عليه.

وهذا الحَدِيثُ صَرِيحٌ في أَنَّهُ، يَنْبَغِي أَنْ لا يَتَكَلَّمَ؛ إِلَّا إِذَا كان الكلامُ خَيْرًا، وهو الذي ظَهَرَتْ مَصْلَحَتُهُ، ومَتَى شَكَّ في ظُهُورِ المَصْلَحَةِ؛ فلا يَتَكَلَّمُ.

واللِّسَانُ مِنْ نِعَمِ اللهِ العظيمةِ، ولَطَائِفِ صُنْعِهِ الغَرِيبَةِ؛ فإنَّهُ صَغِيرٌ جِرْمُهُ، عَظِيمٌ طَاعَتُهُ وجُرْمُهُ؛ إذ لا يَسْتَبِينُ الكُفْرُ والإيمانُ إِلَّا بِشَهَادَةِ اللسانِ، وَهُمَا غايَةُ الطاعةِ والعِصْيَانِ.

والكَلَامُ تَرْجُمَانٌ يُعَبِّرُ عَنْ مُسْتَوْدَعَاتِ الضَّمَائِرِ، وَيُخْبِرُ بِمَكْنُونَاتِ السَّرَائِرِ، لَا يُمْكِنُ اسْتِرْجَاعُ بَوَادِرِهِ، وَلَا يُقْدَرُ عَلَى رَدِّ شَوَارِدِهِ، فَحَقٌّ عَلَى الْعَاقِلِ أَنْ يَحْتَرِزَ مِنْ زَلَلِهِ؛ بِالْإِمْسَاكِ عَنْهُ أَوْ بِالْإِقْلَالِ مِنْهُ، فلا يَتَكَلَّمُ إلا فِيمَا يَرْجُو فيه الرِّبْحَ والزِّيَادَةَ في دِينِهِ، فإذا أرادَ أنْ يَتَكَلَّمَ بالكلمةِ؛ نَظَرَ، هل فيها رِبْحٌ وفَائِدَةٌ أَوْ لَا؟

ومِنَ العَجَبِ؛ أَنَّ الإنسانَ يَهُونُ عليه التَّحَفُّظُ والِاحْتِرَازُ مِنْ أَكْلِ الحَرَامِ، والظُّلْمِ، والزِّنَا، والسَّرِقَةِ، وشُرْبِ الخَمْرِ، ومِنَ النَّظَرِ المُحَرَّمِ، وغَيْرِ ذلك، ويَصْعُبُ عليه التَّحَفُّظُ مِنْ حركَةِ لسانِهِ؛ حَتَّى يُرَى الرَّجُلُ يُشَارُ إليه بالدِّينِ، والزُّهْدِ، والعِبَادَةِ، وهو يتَكَلَّمُ بالكلمةِ مِنْ سَخَطِ اللهِ؛ لا يُلْقِي لها بالًا، يَنْزِلُ بالكَلِمَةِ الوَاحِدَةِ مِنْهَا أَبْعَدَ مما بَيْنَ المَشْرِقِ والمَغْرِبِ.

وكَمْ تَرَى مِنْ رَجُلٍ مُتَوَرِّعٍ عنِ الفَوَاحِشِ والظُّلْمِ، ولِسَانُهُ يَفْرِي في أعراضِ الأحياءِ والأمْوَاتِ، ولا يُبَالِي ما يَقُولُ؟!! فإنَّ أَيْسَرَ حَرَكَاتِ الجَوَارِحِ حركةُ اللسانِ، وهي أَضَرُّهَا على العبدِ.

وقد قال –جل وعلا-: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ (١) الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ (٢) وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ (٣)﴾ [المؤمنون: ١-٣].

ومِنْ هُنَا؛ كان حَرِيًّا بالمُسْلِمِ أنْ يَضْبِطَ لسانَه، ويُسَائِلَ نفسَهُ قَبْلَ أَنْ يَتَحَدَّثَ؛ عن جَدْوَى الحَدِيثِ، وفائِدَتِهِ، ولَمَّا كانتْ آفاتُ اللسانِ كثيرةً، ولَهَا في القَلْبِ حَلَاوَةً، ولها بَوَاعِثُ مِنَ الطَّبْعِ؛ فلا نَجَاةَ مِنْ خَطَرِهَا إلا بِالصَّمْتِ.

واسْتِقَامَةُ القَلْبِ مُرْتَبِطَةٌ باسْتِقَامَةِ اللِّسَانِ، وفي الحديثِ الذي أخرجه أحمدُ بسَنَدٍ حَسَنٍ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قال: «**لَا يَسْتَقِيمُ إيمانُ عَبْدٍ حَتَّى يَسْتَقِيمَ قَلْبُهُ، ولا يَسْتَقِيمُ قَلْبُهُ حَتَّى يَسْتَقِيمَ لِسَانُهُ**».

وعَنِ النَّبِيِّ ﷺ قال: «**إذا أَصْبَحَ ابْنُ آدَمَ؛ فَإِنَّ الأَعْضَاءَ كُلَّهَا تُكَفِّرُ اللسانَ** –أَيْ: تَذِلُّ له وتَخْضَعُ-، **فتَقُولُ: اِتَّقِ اللهَ فِينَا، فَإِنَّمَا نَحْنُ بِكَ، فَإِنِ اسْتَقَمْتَ اسْتَقَمْنَا، وإِنِ اعْوَجَجْتَ اعْوَجَجْنَا**».

وعن أبي موسى -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- **قال**: قلتُ: يا رسولَ اللهِ؛ أَيُّ المسلمينَ أَفْضَلُ؟

قال: «**مَنْ سَلِمَ المُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ ويَدِهِ**». أخرجه البخاري ومسلم.

وعن عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- **قال**: قلتُ: يا رَسُولَ اللهِ؛ ما النَّجَاةُ؟

قال: «**أَمْسِكْ عليكَ لِسَانَكَ، ولْيَسَعْكَ بيتُك، وابْكِ على خَطِيئَتِكَ**»

أخرجه الترمذيُّ، وأبو داودَ، وهو صحيحٌ لِغَيْرِهِ.

وعن سَهْلِ بْنِ سعدٍ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا- **قال**: قال رسولُ اللهِ ﷺ: «**مَنْ يَضْمَنْ لِي ما بَيْنَ لَحْيَيْهِ، ومَا بَيْنَ رِجْلَيْهِ؛ أَضْمَنْ له الجنةَ**». رواه البخاري.

ورَوَى الطبرانيُّ عن مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ قال: يا رسولَ اللهِ؛ أَكُلَّ مَا نَتَكَلَّمُ به يُكْتَبُ علينا؟

قال: «**ثَكِلَتْكَ أُمُّكَ؛ وهل يَكُبُّ الناسَ على مَنَاخِرِهِمْ في النارِ إلا حَصَائِدُ أَلْسِنَتِهِمْ؟! إِنَّكَ لنْ تَزَالَ سَالِمًا مَا سَكَتَّ، فإذا تَكَلَّمْتَ كُتِبَ لك أو عليك**».

وعن أنسِ بْنِ مالكٍ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- أَنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قال: «**أَلَا هل عَسَى رَجُلٌ منكمْ أنْ يَتَكلمَ بالكلمةِ؛ يُضْحِكُ بها القَوْمَ، فَيَسْقُطُ بها أَبْعَدَ مِنَ السماءِ، أَلَا عَسَى رَجُلٌ يَتَكَلَّمُ بالكلمةِ؛ يُضْحِكُ بها أصحابَهُ، فَيَسْخَطُ اللهُ بها عليه، لا يَرْضَى عنه، حَتَّى يُدْخِلَهُ النارَ**»، وهذا حديثٌ حَسَنٌ.

اِعْلَمْ -عَلَّمَنِي اللهُ وإياكَ- أنَّ لِسَانَكَ أَدَاةٌ مُصْلَتَةٌ، يَتَغَالَبُ عَلَيْهِ عَقْلُكَ وغَضَبُكَ وهَوَاكَ، فَكُلُّ غَالِبٍ عليه؛ مُسْتَمْتِعٌ به، وصَارِفُهُ في مَحَبَّتِهِ، فإذا غَلَبَ على لسانِك عقلُكَ فهو لَكَ، وإنْ غَلَبَ عليه شَيْءٌ مِنْ أَشْبَاهِ ما سَمَّيْتُ لكَ؛ فهو لِعَدُوِّكَ، فإذا اسْتَطَعْتَ أنْ تَحْتَفِظَ به وتَصُونَهُ، فلا يَكُونَ إلا لكَ، ولا يَسْتَوْلِي عليهِ أوْ يُشَارِكَكَ فيه عَدُوُّكَ؛ فَافْعَلْ».

قال المَاوَرْدِيُّ -رَحِمَهُ اللهُ-: «واعْلَمْ أنَّ لِلْكَلَامِ شُرُوطًا لا يَسْلَمُ المتكلِّمُ مِنَ الزَّلَلِ إلا بها، ولا يَعْرَى مِنَ النَّقْصِ إلا بَعْدَ أنْ يَسْتَوْفِيَها، وهي أربعةُ شروطٍ:

فالشَّرْطُ الأَوَّلُ: أنْ يكونَ الكلامُ لِدَاعٍ يَدْعُو إليه، إمَّا في اجْتِلَابِ نَفْعٍ، أو في دَفْعِ ضَرَرٍ.

والشرطُ الثاني: أنْ يَأْتِيَ به في مَوْضِعِهِ، ويَتَوَخَّى به إِصَابَةَ فُرْصَتِهِ.

والشَّرْطُ الثالثُ: أنْ يَقْتَصِرَ منه على قَدْرِ الحَاجَةِ.

والشَّرْطُ الرابِعُ: أنْ يَتَخَيَّرَ اللَّفْظَ الذِي يَتَكَلَّمُ به».

وقالوا: «خَيْرُ الأَلْسُنِ: المَخْزُونُ، وخَيْرُ الكلامِ: المَوْزُونُ، فَحَدِّثْ إِنْ حَدَّثْتَ بِأَفْضَلَ مِنَ الصَّمْتِ، وَزَيِّنْ حَدِيثَكَ بالوَقَارِ وحُسْنِ السَّمْتِ».

إنَّ الطَّيْشَ في الكلامِ يُتَرْجِمُ عن خِفَّةِ الأحْلَامِ، وما دَخَلَ الرِّفْقُ في شَيْءٍ إِلَّا زَانَهُ، وما زَانَ المُتَكَلِّمَ إلا الرَّزَانَةُ.

قال ابنُ حِبَّانَ -رَحِمَهُ اللهُ-: «الواجبُ على العاقِلِ؛ أنْ يَلْزَمَ الصَّمْتَ إلى أنْ يَلْزَمَهُ الكلامُ، فمَا أَكْثَرَ مَنْ نَدِمَ إذا نَطَقَ، وأَقَلَّ مَنْ يَنْدَمُ إذا سَكَتَ، وأَطْوَلُ الناسِ شَقَاءً، وأَعْظَمُهُمْ بَلَاءً؛ مَنِ ابْتُلِيَ بلِسَانٍ مُطْلَقٍ، وفُؤَادٍ مُطْبَقٍ».

واللِّسَانُ فيه عَشْرُ خِصَالٍ يَجِبُ على العاقِلِ أنْ يَعْرِفَهَا، ويَضَعَ كُلَّ خَصْلَةٍ منها في مَوْضِعِهَا:

- هو أَدَاةٌ يُظْهَرُ بها البَيَانُ.
- وشاهدٌ يُخْبِرُ عن الضَّمِيرِ.
- وناطِقٌ يُرَدُّ به الجَوَابُ.
- وحاكِمٌ يُفْصَلُ به الخِطَابُ.
- وشافِعٌ تُدْرَكُ به الحاجَاتُ.
- ووَاصِفٌ تُعْرَفُ به الأشياءُ.
- وحَاصِدٌ يُذْهِبُ الضَّغِينَةَ.
- ونَازِعٌ يَجْذِبُ المَوَدَّةَ.
- ومُسَلٍّ يُذَكِّي القلوبَ ويُزَكِّيهَا.
- ومُعَزٍّ تُرَدُّ به الأحزانُ.

ولَقَدْ أَحْسَنَ الذي قال:

إنْ كَانَ يُعجِبُكَ السُكُوتُ فَإِنَّهُ *** قَدْ كَانَ يُعْجِبُ قَبْلَكَ الأَخْيَارَا

وَلَئِنْ نَدِمْتَ عَلَى سُكُوتِي مَرَّةً *** فَلَقَدْ نَدِمْتَ عَلَى الْكَلامِ مِرَارَا

إِنَّ السُّكُوتَ سَلامَةٌ وَلَرُبَّمَا *** زَرَعَ الْكَلامُ عَدَاوَةً وَضِرَارَا

وَإِذَا تَقَرَّبَ خَاسِرٌ مِنْ خَاسِرٍ *** زَادَ بِذَاكَ خُسَارَةً وَتَبَارَا

وقال -رَحِمَهُ اللهُ-:

«الواجبُ على العاقِلِ: أَنْ يُنْصِفَ أُذُنَيْهِ مِنْ فِيهِ، ويَعْلَمَ أنه إِنَّما جُعِلَتْ له أُذُنَانِ وفَمٌ واحدٌ؛ لِيَسْمَعَ أَكْثَرَ مما يقولُ؛ لأنه إذا قَالَ رُبَّما نَدِمَ، وإنْ لمْ يَقُلْ لمْ يَنْدَمْ، وهو على رَدِّ ما لَمْ يَقُلْ أَقْدَرُ منه على رَدِّ ما قَالَ، والكَلِمَةُ إذا تَكَلَّمَ بها مَلَكَتْهُ، وإنْ لَمْ يَتَكَلَّمْ بها مَلَكَها، والعَجَبُ مِمَّنْ يَتَكَلَّمُ بالكلمةِ إذا هيَ رُفِعَتْ؛ رُبَّمَا ضَرَّتْهُ، وإنْ لمْ تُرْفَعْ لَمْ تَضُرَّهُ، العَجَبُ منه كَيْفَ لا يَصْمُتُ؟!! ورُبَّ كلمةٍ سَلَبَتْ نعمةً».

وقال النووي -رَحِمَهُ اللهُ-: «اِعْلَمْ أنه ينبغِي لِكُلِّ مُكَلَّفٍ أَنْ يَحْفَظَ لسانَهُ عن جميعِ الكلامِ؛ إِلَّا كَلَامًا تَظْهَرُ المصلحةُ فيه، ومَتَى اسْتَوَى الكَلَامُ وتَرْكُهُ في المَصْلَحَةِ؛ فالسُّنَّةُ الإمساكُ عنه؛ لأنه قد يَنْجَرُّ الكلامُ المُبَاحُ إلى حَرَامٍ أو مَكْرُوهٍ؛ بَلْ هذا كثيرٌ؛ بَلْ هذا غَالِبٌ في العَادَةِ، والسلامةُ لا يَعْدِلُهَا شَيْءٌ».

وقال ابنُ القَيِّمِ -رَحِمَهُ اللهُ-: «يَقُولُ الشيطانُ لِأَبْنَائِهِ: قُومُوا على ثَغْرِ اللِّسَانِ في ابْنِ آدَمَ؛ فإنه الثَّغْرُ الأَعْظَمُ، وهو قُبَالَةُ المَلِكِ؛ فَأَجْرُوا عليهِ مِنَ الكلامِ ما يَضُرُّهُ ولا يَنْفَعُهُ، وامْنَعُوهُ أَنْ يَجْرِيَ عليه شيءٌ مما يَنْفَعُهُ؛ مِنْ ذِكْرِ اللهِ تعالى، واستغفارِهِ، وتِلَاوَةِ كتابِهِ، ونَصِيحَةِ عِبَادِهِ، والتَّكَلُّمِ بالعِلْمِ النافِعِ، ويكونُ لكمْ في هذا الثَّغْرِ أَمْرَانِ عَظِيمَانِ، لا تُبَالُوا بِأَيِّهِمَا ظَفَرْتُمْ:

أحدُهُمَا: التَّكَلُّمُ بالباطِلِ؛ فَإِنَّ المُتَكَلِّمَ بالباطِلِ أَخٌ مِنْ إخوانِكُمْ، ومِنْ أَكْبَرِ جُنْدِكُمْ وأَعْوَانِكُمْ.

يقولُ إِبْلِيسُ لِأَبْنَائِهِ:

والثاني: السُّكُوتُ عنِ الحقِّ؛ فإنَّ السَّاكِتَ عنِ الحقِّ أَخٌ لَكُمْ أَخْرَسُ، كما أنَّ الأوَّلَ أَخٌ نَاطِقٌ، ورُبَّمَا كان الأَخُ الثانِي أَنْفَعَ أَخَوَيْكُمْ لَكُمْ، أَمَا سَمِعْتُمْ قَوْلَ النَّاصِحِ: (المُتَكَلِّمُ بالباطِلِ شيطانٌ ناطِقٌ، والسَّاكِتُ عَنِ الحَقِّ شيطانٌ أَخْرَسُ)؟.

يقولُ إبليسُ لأبنائِهِ:

فالرِّبَاطَ الرِّبَاطَ على هذا الثَّغْرِ –يَعْنِي: على ثَغْرِ اللِّسَانِ مِنَ الإنسانِ- أنْ يتكلَّمَ بحَقٍّ، أو يُمْسِكَ عنْ باطلٍ، وزَيِّنُوا لِابْنِ آدَمَ التَّكَلُّمَ بالباطِلِ بِكُلِّ طريقٍ، وخَوِّفُوهُ مِنَ التَّكَلُّمِ بالحَقِّ بِكُلِّ طَرِيقٍ.

واعْلَمُوا يا بَنِيَّ أنَّ ثَغْرَ اللِّسَانِ هو الذي أُهْلِكُ منه بَنِي آدَمَ، وأَكُبُّهُمْ منه على مَنَاخِرِهِمْ في النَّارِ؛ فَكَمْ لِي مِنْ قَتِيلٍ وأَسِيرٍ وجَرِيحٍ أَخَذْتُهُ مِنْ هذا الثَّغْرِ.

وأُوصِيكُمْ بِوَصِيَّةٍ فَاحْفَظُوهَا –يُوصِي إبليسُ بَنِيهِ-؛ فيقُولُ: لِيَنْطِقْ أحدُكُم على لسانِ أَخِيهِ مِنَ الإِنْسِ بالكلمةِ، ويكونُ الآخَرُ على لِسَانِ السَّامِعِ؛ فَيَنْطِقُ باسْتِحْسَانِهَا، وتَعْظِيمِهَا، والتَّعَجُّبِ منها، ويَطْلُبُ مِنْ أخيهِ إِعَادتَهَا، وكُونُوا أعوانًا على الإنسِ بِكُلِّ طَرِيقٍ، وادْخُلُوا عليهِمْ مِنْ كُلِّ بابٍ، واقْعُدُوا لهم كُلَّ مَرْصَدٍ، أَمَا سَمِعْتُمْ قَسَمِيَ الذي أَقْسَمْتُ به لِرَبِّهِمْ حَيْثُ قُلْتُ: ﴿فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ (١٦) ثُمَّ لآتِيَنَّهُم مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ وَلاَ تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ (١٧)﴾ [الأعراف:١٦،١٧].

أَوَ مَا تَرَوْنِي قَدْ قَعَدْتُ لِابْنِ آدَمَ بِطُرُقِهِ كُلِّهَا، فَلَا يَفُوتُنِي مِنْ طريقٍ إلا قَعَدْتُ له بطَرِيقٍ غيرِهِ، حَتَّى أُصِيبَ منه حَاجَتِي أَوْ بَعْضَها».

وقد قال عَلِيٌّ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ-: «مَغْرِسُ الكلامِ القَلْبُ، ومَسْتَوْدَعُهُ الفِكْرُ، ومُقَوِّيهِ القَلْبُ، ومُبْدِؤُهُ اللِّسَانُ، وجِسْمُهُ الحُرُوفُ، ورُوحُهُ المَعْنَى، وحِلْيَتُهُ الإِعْرَابُ».

قالوا: «ولْيَحْذَرْ مِنْ فاحِشِ الكلامِ؛ ولو على وَجْهِ الحِكَايَةِ، وفي حَالِ القَبْضِ والغَضَبِ؛ لأنه إلى الزَّلَلِ أَقْرَبُ، وأَحْسَنُ ضَابِطٍ أنْ يُقَالَ: لا يَتَكَلَّمُ إلا بِمَا تَمَسُّ الحاجةُ إليه، ورُبَّ كلامٍ جَوَابُهُ السُّكُوتُ».

كما قِيلَ: ما كُلُّ قَوْلٍ له جَوَابٌ *** جَوَابُ ما يُكْرَهُ السُّكُوتُ

أَقْلِلْ كَلَامَكَ واسْتَعِذْ مِنْ شَرِّهِ *** إنَّ البَلَاءَ بِبَعْضِهِ مَقْرُونُ

وَاحْفَظْ لِسَانَكَ وَاحْتَفِظْ مِنْ عِيِّهِ ***حَتَّى يَكُونَ كَأَنَّهُ مَسْجُونُ

وَكِّلْ فُؤَادَكَ باللِّسَانِ وَقُلْ لَهُ *** إنَّ الكَلَامَ عَلَيْكُمَا مَوْزُونُ

فَزِنَاهُ وَلْيَكُ مُحْكَمًا ذَا قِلَّةٍ *** إِنَّ البَلَاغَةَ فِي القَلِيلِ تَكُونُ

عن مَالِكِ بنِ أَنَسٍ -رَحِمَهُ اللهُ- **قال:** «كُلُّ شَيْءٍ يُنْتَفَعُ بِفَضْلِهِ -أَيْ: بزِيَادَتِهِ- إِلَّا الكلامَ؛ فإِنَّ فَضْلَهُ يَضُرُّ».

وعنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ-: «لَا خَيْرَ في الحَيَاةِ إِلَّا لِأَحَدِ رَجُلَيْنِ؛ مُنْصِتٍ وَاعٍ، أَوْ مُتَكَلِّمٍ عَالِمٍ».

وقال أبو حاتِمٍ -رَحِمَهُ اللهُ-: «الواجِبُ على العَاقِلِ؛ أنْ لَا يُغَالِبَ الناسَ على كَلَامِهِم، ولا يَعْتَرِضَ عليهِمْ فيه؛ لأنَّ الكَلَامَ وإنْ كان في وَقْتِهِ حَظْوَةً جَلِيلَةً؛ فإنَّ الصَّمْتَ في وَقْتِهِ مَرْتَبَةٌ عَالِيَةٌ، ومَنْ جَهِلَ بالصَّمْتِ، وَعِيَ بالمَنْطِقِ؛ فَإِنَّ الإنسانَ إنما هو صُورَةٌ مُمَثلَةٌ أَوْ ضَالَّةٌ مُهْمَلَةٌ لَوْ لَا اللسانُ، واللهُ -عَزَّ وَجَلَّ- رَفَعَ درجَةَ اللِّسَانِ على سائِرِ الجوارِحِ، فليس منها شَيْءٌ أَعْظَمَ أَجْرًا منه إذا أَطَاعَ، ولا أَعْظَمَ ذَنْبًا مِنْهُ إذَا جَنَى».

فإنْ كان يَجْنِي اللَّوْمَ مَا أَنْتَ قَائِلٌ *** وَلَمْ يَكُ مِنْهُ النَّفْعُ فَالصَّمْتُ أَيْسَرُ

فَلَا تُبْدِ قَوْلًا مِنْ لِسَانِكَ لَمْ يَرْضَ *** مَوَاقِعَهُ مِنْ قَبْلِ ذَاكَ التَّفَكُّرُ

فعَلَيْنَا أَنْ نَحْفَظَ أَلْسِنَتَنا؛ لِنَحْفَظَ طَاقَةَ عُقُولِنَا، وصَفَاءَ أَذْهَانِنَا؛ ولِنَفْرُغَ لذِكْرِ ربِّنَا، وعبادة إلهِنا؛ ولِكَيْ يَنْقَطِعَ ذلك السَّيْلُ الهَادِرِ الجَارِفُ، مما يُمَزِّقُ العَلَاقَاتِ الِاجْتِمَاعِيَّةَ، ويُنْشِئُ العَدَاوَاتِ الأَثِيمَةَ في صُفُوفِ المُسْلِمِينَ؛ مِنَ الغِيبَةِ والنميمةِ، والكَذِبِ، وَالبُهتانِ، والرِّيبَةِ، ومَا أَشْبَهَ.

رَحِمَ اللهُ رَجُلًا قالَ خَيْرًا فَسَلِمَ، أَوْ صَمَتَ فَغَنِمَ.

واللهُ المستَعَانُ، وعَلَيْهِ التُّكْلَانُ، وهُوَ حَسْبُنَا ونِعْمَ الوَكِيلُ.

وَصَلَّى اللهُ وَسَلَّمْ عَلَى نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلَهِ وَأَصْحَابِهِ أَجْمَعِينَ(١).

---

(١)«مِن خُطْبَةِ: فَضْلُ الصَّمْتِ وَحِفْظِ اللِّسَانِ - ٢٦ من ربيع الثاني ١٤٣٧هـ الموافق ٥-٢-٢٠١٦م».

«المَوْعِظَةُ الثَّانِيَةُ وَالعِشْرُونَ»

«مَعَانِي الإِيثَارِ فِي الإِسْلَامِ»

إِنَّ الْحَمْدَ لِلَّهِ نَحْمَدُهُ، وَنَسْتَعِينُهُ وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِاللَّـهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللَّـهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَا هَادِيَ لَهُ.

وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّـهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ.

وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ ﷺ.

أَمَّا بَعْدُ:

«إِيثَارُ مَحَبَّةِ اللهِ وَرَسُولِهِ ﷺ عَمَّا سِوَاهُمَا»

فَيَقُولُ النَّبِيُّ ﷺ فِيمَا يَرْوِيهِ أَنَسٌ –رِضْوَانُ اللهِ عليه- عنهُ مَرْفوعًا، فيما أَخْرَجَهُ الشَّيْخَانِ: «**وَجَدَ حَلَاوَةَ الإِيمَانِ مَنْ كانَ اللهُ وَرَسُولُهُ أحبَّ إليه مِمَّا سُواهُمَا، وَمَنْ أَحَبَّ المَرْءَ لا يُحِبُّهُ إلَّا للهِ، ومَن كَرِهَ أنْ يَعُودَ في الكُفْرِ بَعْدَ إذ أَنْقَذَهُ اللهُ مِنْهُ كَمَا كَرِهَ أنْ يُلقَى في النَّارِ**».

لا يَجِدُ أَحَدٌ طَعْمَ الإيمَانِ حَتَّى يَكُونَ اللهُ ورسولُهُ أَحَبَّ إليهِ مِمَّا سِوَاهُمَا، ولِلْإِيمَانِ حَلَاوَةٌ حِسِّيَّةٌ، وحَلَاوَةٌ مَعْنَوِيَّةٌ، فَأَمَّا الحلَاوَةُ الحِسِّيَّةُ؛ فَتَرْجَمَها بِلَالٌ –رِضْوَانُ اللهِ عَلَيْهِ- وعَلَيْهِ تُبَّانٌ قَصِيرٌ –يعني: ثَوْبٌ يَسْتُرُ العَوْرَةَ لَيْسَ إلَّا-، يُقَادُ برَسَنٍ –بِحَبْلٍ بَالٍ- في مَكَّةَ في حَرِّهَا، في لَأْوَائِهَا، في سَعِيرِ قَيْظِهَا، ثم يُجْعَلُ على الرِّمَالِ المُحْرِقَةِ قَدْ شَوَتْهَا الشمسُ، لو وُضِعُ عليه اللَّحْمُ النِّيءُ لَصَارَ نَضِيجًا، فَيُجْعَلُ على تلك الرِّمَالِ المُتَلَهِّبَةِ بِلَظَى وَقْعِ حَرِّ الشَّمْسِ بِنَارِهَا، ولَيْسَ عليهِ مِن ثَوْبٍ، ويُوضَعُ على صدْرِهِ الحَجَرُ الضَّخْمُ، فَمَا يَزِيدُ عَلَى أَنْ يَقُولَ: أَحَدٌ أَحَدٌ.

فَأَيْنَ الأَعْصَابُ بِحِسِّهَا؟!!

وأين المُسْتَقْبِلَاتُ العَصَبِيَّةُ بِمُسْتَقْبَلَاتِهَا؟!!

وأين هو الجِهَازُ العَصَبِيُّ كَامِنًا وَبَادِيًا وَظَاهِرًا؟!!

أَعُطِّلَ؟!!

حَاشَا للهِ، بَلْ هُوَ على حَالِهِ؛ ولَكِنَّمَا المُؤَثِّرُ الأَعْلَى يَذْهَبُ بِالمُؤَثِّرِ الأَدْنَى وَلَا مَحَالَةَ، مَاتَ أَبُوكِ، مَاتَ أَخُوكِ، مَاتَ وَلَدُكِ، مَاتَ زَوْجُكِ، مَاذَا فَعَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ؟

المُؤَثِّرُ الأَعْلَى وهو في عَالَمِ الأَعْصَابِ قَائِمٌ بِقَانُونٍ، المُؤَثِّرُ الأَعْلَى يَذْهَبُ بالمُؤَثِّرِ الأَدْنَى، فكَأَنَّمَا يَمْحَقُهُ وهُوَ قَائِمٌ شَاخِصٌ بَادٍ، على الرِّمَالِ المُحْرِقَةِ فِي حَرِّ الشَّمْسِ بِلَظَاهَا، بِلَا ثَوْبٍ وَلَا حَائِلٍ، والحَجَرُ الضَّخْمُ تَزْهَقُ مِنْهُ النَّفْسُ، وَلَا يَتَرَدَّدُ النَّفَسُ، وهُوَ لا يَزِيدُ علَى أَنْ يَقُولَ: «أَحَدٌ أَحَدٌ»، حَتَّى فِي غُصَصِ المَوْتِ، وفِي سَكَرَاتِهِ، وفي كُرَبِهِ، وفِي وَقْعِ سِهَامِهِ بِشِيَاتِهِ، فِي كُلِّ ذَلِكَ لَا يَزِيدُ عَلَى أَنْ يَقُولَ: «غَدًا أَلْقَى الأَحِبَّةَ، مُحَمَّدًا وَحِزْبَهُ ﷺ».

فَهَذِهِ مَحَبَّةٌ مَادِّيَّةٌ، ولَيْسَتْ بِمَحَبَّةٍ مَعْنَوِيَّةٍ، المَحَبَّةُ المَعْنَوِيَّةُ مَحَبَّةٌ عَقْلِيَّةٌ، كَمَا يُحِبُّ الرَّجُلُ الصَّالِحُ الصَّالِحِينَ مِنَ الرِّجَالِ، والعَالِيَ مِنَ المُثُلِ والكَرِيمَ مِنَ الأَخْلَاقِ، فَهِيَ مَحَبَّةٌ عَقْلِيَّةٌ مَحْضٌ، وأَمَّا هَذِهِ المَحَبَّةُ؛ فَمَحَبَّةٌ بَادِيَةٌ تُتَرْجَمُ في دُنْيَا اللهِ رَبِّ العالَمِينَ، وذَلِكَ مِنَ الأَصْحَابِ، وكان شَابًّا –رِضْوَانُ اللهِ عليه وعليهِمْ جَمِيعًا- هُنَالِكَ فِي بَدْرٍ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ، وأُصِيبَتْ يَدُهُ، أُصِيبَ ذِرَاعُهُ، ولَمْ يَبْقَ مُتَعَلِّقًا إِلَّا بِمُتَعَلِّقٍ يَسِيرٍ مِنْ جِلْدَةٍ هُنَالِكَ، فوَجَدَ أَنَّهُ هَكَذَا مما يُعَوِّقُ الأَدَاءَ الحَسَنَ على النَّحْوِ الذي يُرْضِي اللهَ ربَّ العالمين؛ وإِنْ كانَ قَدْ أَصْبَحَ مَعْذُورًا، ولَكِنْ إِنَّمَا العُذْرُ عِنْدَهُ، عِنْدَهُ عِنْدَهُ أَنْ تَبْلُغَ الرُّوحُ الحُلْقُومَ، ثُمَّ تَفِيضُ إلى أَمْرِ اللهِ ربِّ العالمين، وأَمَّا قَبْلَ ذلك عِنْدَهُ فَلَا عُذْرَ هُنَالِكَ، فماذا كان؟

وجدَهَا غَيْرَ صالِحَةٍ لِقِتَالٍ، وإنما عَادَتْ عِبْئًا، عَادَتْ حِمْلًا، عَادَتْ مُعَوِّقَةً، فَوَدَعَهَا ووَضَعَهَا تَحْتَ رُكْبَتِهِ أَوْ تَحْتَ قَدَمِهِ، ثم تَمَطَّى فَصَارَتْ شيئًا مَلْقِيًّا، ثم عَادَ إلى الجِهَادِ، إلى الجِلَادِ، إلى الكِفَاحِ مُقَاتِلًا –رِضْوَانُ اللهِ عليه-، فأَيْنَ الأَلَمُ هَاهُنَا؟!!

وآخَرُ يَأْتِيهُ سَهْمٌ غَادِرٌ بِرَمْيَةٍ مَاكِرَةٍ مِنْ خَلْفٍ وَمَا كَانَ مُدْبِرًا، ومَا كان مُوَلِّيًا، فَنَفَذَتْ، فصَدَرَ منه شَلَّالٌ مِنْ دِمَاءٍ زَكِيَّةٍ طاهِرَةٍ كالنَّافُورَةِ صاعِدَةً صعُدًا إلى الظُّهْرِ إِلَى السماءِ، فَأَخَذَ يَحْفِنُ الدِّمَاءَ، ويُلْقِي بِهَا إلى وَجْهِ السماءِ، يقولُ: فُزْتُ ورَبِّ الكَعْبَةِ، فُزْتُ وَرَبِّ الكَعْبَةِ، فُزْتُ وَرَبِّ الكَعْبَةِ.

ذَاقَ طَعْمَ الإيمانِ، فوجدَهُ حِسًّا وحَقِيقَةً بِحَرَكَةٍ وسُلُوكٍ وتَطْبِيقٍ عَمَلِيٍّ في الحيَاةِ، «**مَنْ كان اللهُ ورسولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا**»، اُنْظُرْ إليه في دِقَّةِ أَدَائِهِ ﷺ، لا يُنَازِعُكَ في الحُبِّيَّةِ، إِذِ الدِّينُ دِينُ اللهِ، واللهُ ربُّ العالمين خَالِقُ الخَلْقِ وفَاطِرُهُمْ وبَارِئُهُمْ، وَهُوَ أَعْلَمُ بِهِمْ ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الملك: ١٤].

وإِذَنْ فَغَرَائِزُكَ غَرَائِزُكَ، وَنَزَوَاتُكَ نَزَوَاتُكَ، وشَهَوَاتُكَ شَهَوَاتُكَ، لا تُنَازِعُ في شَيْءٍ مِنْ ذلك مَا كان مَحْكُومًا بالمَنْهَجِ قَائِمًا دَاخِلَ الإِطَارِ مُتَحَرِّكًا عَلَى الكِتَابِ والسُّنَّةِ، ولِذَلِكَ لَمْ يُنَازِعْ في الحُبِّيَّةِ، وإنما نَازِعَ في الأَحَبِّيَّةِ، «**حتى يكونَ اللهُ ورسولُهُ أحبَّ إليه مما سواهُمَا**».

«عَلَامَةُ إِيثَارِ النَّبِيِّ ﷺ وَمَحَبَّتِهِ: طَاعَتُهُ»

وعَلَامَةُ مَحَبَّةِ النَّبِيِّ ﷺ الصَّادِقَةُ: طَاعَتُهُ –طاعةُ الرَّسُولِ ﷺ-، وخُذْ إِلَيْكَ مِثَالًا بِشَيْءٍ يَسِيرٍ:

إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ رَأَى يومًا رَجُلًا مِنْ أَصْحَابِهِ، وبِيَدِهِ خَاتَمٌ مِنْ ذَهَبٍ، فَلَمَّا رَآهُ في يدِهِ ﷺ نَزَعَهُ، وقالَ: «**إِنَّ الذَّهَبَ وَالحَرِيرَ حَرَامٌ عَلَى رِجَالِ أُمَّتِي، حَلَالٌ لِنِسَائِهَا**».

فَأَلْقَاهُ، وقامَ النَّبِيُّ ﷺ، فَدَخَلَ، فقالَ بَعْضُ الأَصْحَابِ لِلصَّحَابِيِّ: خُذْهُ فَانْتَفِعْ بِهِ.

قال: ما كُنْتُ لِآخُذَهُ بَعْدَ إِذْ أَلْقَاهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ.

وفي روايةٍ أخرى: كان أَحَدُهُمْ جَعَلَ فِي أُصْبُعِهِ خَاتَمًا مِنْ حَدِيدٍ، فَأَخَذَهُ النبيُّ ﷺ فألقاهُ، وقال: «**يَعْمِدُ أحدُكُم إلى جَمْرَةٍ مِنْ نَارٍ فَيَجْعَلُهَا في أُصْبُعِهِ**».

فَلَمَّا قَامَ؛ قِيلَ: قال –رِضْوَانُ اللهِ عليه–: واللهِ ما كُنْتُ لِآخُذَ شَيْئًا طَرَحَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ.

ظاهِرٌ كَبَاطِنٍ يَا صاحِبِي، لَا إِضْمَارَ لِشَيْءٍ لِا يَبْدُو عَلَى صفحَةِ الوَجْهِ؛ صفْحَةُ القَلْبِ تُبْدِيهِ، وإِنَّمَا هُوَ قَانُونُ المَحَبَّةِ بَادِيًا، ومَنْ كَانَ صادِقًا في حُبِّ مُحَمَّدٍ فَلْيُطِعْهُ ﷺ(١).

«الجَزَاءُ الحَسَنُ لِإِيثَارِ الآخِرَةِ عَلَى الدُّنْيَا»

قال تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا (١٨)﴾ [الإسراء: ١٨]: مَن كانَ مِن المَوْضُوعِينَ في الحَيَاةِ الدُّنْيَا مَوْضِعَ الامْتِحَانِ، يُرِيدُ بِاسْتِمْرَارٍ وَتَجَدُّدٍ الحَيَاةَ العَاجِلَةَ فِي الدُّنْيَا كَافِرًا بِالآخِرَةِ، وَلَا يَسْعَى للنَّعِيمِ فِيهَا سَعْيًا مَا؛ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ مِن مَتَاعِ الحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَذَّاتِهَا، لِمَن نُرِيدُ أَنْ نَفْعَلَ بِهِ ذَلِكَ مِن عِبَادِنَا بِحِكْمَتِنَا وَعِلْمِنَا، ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ فِي الآخِرَةِ جَهَنَّمَ يَدْخُلُهَا وَيَحْتَرِقُ بِنَارِهَا، حَالَ كَوْنِهِ مَلُومًا عَلَى مَا جَنَى مِنْ إِثْمٍ عَظِيمٍ، مَطْرُودًا مُبْعَدًا مِن رَحْمَةِ اللهِ، مَعَ إِهَانَتِهِ وَإِذْلَالِهِ، يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا.

﴿وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا (١٩)﴾ [الإسراء: ١٩]: وَمَن أَرَادَ ثَوَابَ الآخِرَةِ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ، وَسَعَى لِلآخِرَةِ بِطَاعَةِ اللهِ وَالْتِزَامِ شَرِيعَتِهِ، وَهُوَ مُؤمِنٌ إِيمَانًا صحِيحًا صادِقًا، وَمَاتَ عَلَى ذَلِكَ؛ فَأولئكَ رَفِيعُوا المَنْزِلَةِ كَانَ سَعْيُهُم عِنْدَ رَبِّهِم مَقْبُولًا مَثْنِيًّا عَلَيْهِ.

---

(١)«محبةُ الأصحابِ للنبي المُهاب - الجمعة ١٨ من المحرم ١٤٢٧هـ - الموافق ١٧-٢-٢٠٠٦م».

﴿كُلًّا نُمِدُّ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا (٢٠)﴾ [الإسراء: ٢٠]: نَزِيدُ كِلَا الفَرِيقَيْنِ؛ مَن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمَن يُرِيدُ الآخِرَةَ بِرِزْقِهِمَا جَمِيعًا مِن عَطَاءِ رَبِّكَ، وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ فِي الدُّنْيَا الَّتِي جَعَلَهَا اللهُ لابْتِلَاءِ عِبَادِهِ مَمْنُوعًا عَن أَحَدٍ مِمَّنْ يُرِيدُ إِعْطَاءَهُ؛ مُؤمِنًا كَانَ أَوْ كَافِرًا، وَفْقَ حِكْمَتِهِ تَعَالَى وَعِلْمِهِ.

﴿انْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا (٢١)﴾ [الإسراء: ٢١]: انْظُرْ وَتَفَكَّرْ أَيُّهَا المُخَاطَبُ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُم عَلَى بَعْضٍ فِي عَطَاءَاتِنَا مِن مَتَاعِ الدُّنْيَا وَزِينَتِهَا، وَللآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ مُتَفَاضِلَاتٍ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ، وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا بِعَطَاءَاتِ النَّعِيمِ وَوَسَائِلِهِ فِيهَا، وَيُقَابِلُ هَذَا تَفَاوتُ المُعَذَّبِينَ فِي النَّارِ بِتَنَازُلِ الدَّرَكَاتِ وَانْحِطَاطِهَا حَتَّى الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنْهَا، وَبِتَزَايُدِ مَقَادِيرِ العَذَابِ بِحَسَبِ مَقَادِيرِ ذُنُوبِهِم وَجَرَائِمِهِم الَّتِي اكْتَسَبُوهَا بِإِرَادَتِهِم وَاخْتِيَارَاتِهِم فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا(١).

«مَدْحُ الإِيثَارِ فِي حُظُوظِ النَّفْسِ وَالدُّنْيَا»

قَالَ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: ٩].

الأَنْصَارُ الذينَ تَوَطَّنُوا المَدِينَةَ وَاتَّخَذُوهَا سَكَنًا، وَأَسْلَمُوا فِي دِيَارِهِم، وَأَخْلَصُوا فِي الإِيمَانِ، وَتَمَكَّنُوا فِيهِ مِن قَبْلِ هِجْرَةِ المُهَاجِرِينَ إِلَيْهِم؛ يُحِبُّونَ مَن هَاجَرَ إِلَيْهِم مِن المُسْلِمِينَ، وَيُنْزِلُونَهُم فِي مَنَازِلِهِم، وَيُشَارِكُونَهُم فِي أَمْوَالِهِم، وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِم حَزَازَةً وَغَيْظًا وَحَسَدًا مِمَّا أُعْطِيَ المُهَاجِرُونَ مِن الفَيْءِ دُونَهُم؛ عِفَّةً مِنْهُم، وَشُعُورًا بِحَقِّ المُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أَصَابَهُم الفَقْرُ بِسَبَبِ الهِجْرَةِ.

---

(١)«من سلسلة: «القراءة والتعليق على مختصر تفسير القرآن».

ويُؤْثِرُ الأَنْصَارُ المُهَاجِرِينَ بِأَمْوَالِهِم وَمَنَازِلِهِم عَلَى أَنْفُسِهِم؛ وَلَو كَانُوا بِهِم فَاقَةٌ وَحَاجَةٌ إِلَى مَا يُؤْثِرونَ بِهِ، وَمَن يَكْفِهِ اللهُ الحَالَةَ النَّفْسَانِيَّةَ الَّتِي تَقْتَضِي مَنْعَ المَالَ حَتَّى يُخَالِفَهَا فِيمَا يَغْلِبُ عَلَيْهَا مِنَ البُخْلِ وَالحِرْصِ الشَّدِيدِ الَّذِي يَدْفَعُ إِلَى ارْتِكَابِ كَبَائِرِ الإِثْمِ، فَيُنْفِقُ مَالَهُ فِي سَبِيلِ اللهِ تَعَالَى فِي المَصَارِفِ الَّتِي أَمَرَ اللهُ بِالإِنْفَاقِ فِيهَا طَيِّبَ النَّفْسِ بِذَلِكَ؛ مَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ بِهَذَا المَعْنَى؛ فَأولئكَ الفُضَلَاءُ رَفِيعُوا الدَّرَجَةِ هُم وَحْدَهُم الظَّافِرُونَ بِكُلِّ خَيْرٍ، الفَائِزُونَ بِكُلِّ مَطْلَبٍ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ.

وَفِي الآيَةِ: مَدْحُ الإِيثَارِ فِي حُظُوظِ النَّفْسِ وَالدُّنْيَا.

يُصْرَفُ جُزْءٌ مِن هَذَا المَالِ لِلفُقَرَاءِ المُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللهِ، الَّذِينَ أُجْبِرُوا عَلَى تَرْكِ أَمْوَالِهِم وَأَوْلَادِهِم، يَرْجُونَ أَنْ يَتَفَضَّلَ اللهُ عَلَيْهِم بِالرِّزْقِ فِي الدُّنْيَا وَبِالرِّضْوَانِ فِي الآخِرَةِ، وَيَنْصُرُونَ اللّهَ، وَيَنْصُرُونَ رَسُولَهُ بِالجِهَادِ فِي سَبِيلِ اللهِ.

أولَئِكَ المُتَّصِفُونَ بِتِلْكَ الصِّفَاتِ هُمُ الرَّاسِخُونَ فِي الإِيمَانِ حَقًّا، وَالأَنْصَارُ الَّذِينَ نَزَلُوا المَدِينَةَ مِن قَبْلِ المُهَاجِرِينَ، وَاخْتَارُوا الإِيمَانَ بِاللهِ وَبِرَسُولِهِ، يُحِبُّونَ مِن هَاجَرَ إِلَيْهِم مِن مَكَّةَ، وَلَا يَجِدُونَ فِي صدُورِهِم غَيْظًا وَلَا حَسَدًا عَلَى المُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللهِ إِذَا مَا أُعطُوا شَيْئًا مِن الفَيْءِ وَلَم يُعْطَوْا هُم، وَيُقَدِّمُونَ عَلَى أَنْفُسِهِم المُهَاجِرِينَ فِي الحُظُوظِ الدُّنْيَوِيَّةِ وَلَو كَانُوا مُتَّصِفِينَ بِالفَقْرِ وَالحَاجَةِ، وَمَن يَقِهِ اللهُ حِرْصَ نَفْسِهِ عَلَى المَالِ، فَيَبْذُلُهُ فِي سَبِيلِهِ، فَأُولئِكَ هُم الفَائِزُونَ بِنَيْلِ مَا يَرْتَجُونَهُ وَالنَّجَاةِ مِمَّا يَرْهَبُونَهُ(١).

---

(١)«من سلسلة: «القراءة والتعليق على مختصر تفسير القرآن».

«مَوَاقِفُ عَمَلِيَّةٌ فِي الإِيثَارِ مِن سِيرَةِ أَصْحَابِ خَيْرِ البَرِيَّةِ ﷺ»

النَّبِيُّ ﷺ كَانَ يُرَبِّي أَصْحَابَهُ عَلَى الْبَذْلِ وَالْجُودِ وَالْكَرَمِ، وَيَحُضُّهُمْ عَلَى الصَّدَقَةِ، كَمَا فِي «الصَّحِيحِ» عَنْ عُمَرَ –رضي الله عنه- قَالَ: رَغَّبَ النَّبِيُّ ﷺ فِي الصَّدَقَةِ يَوْمًا، وَقَدْ صادَفَ ذَلِكَ مَالًا عِنْدِي، فَقُلْتُ: الْيَوْمَ أَسْبِقُ أَبَا بَكْرٍ إِنْ سَبَقْتُه يَوْمًا.

قَالَ: فَانْقَلَبْتُ إِلَى أَهْلِي فَأَتَيْتُ بِشَطْرِ مَالِي -يَعْنِي بِنِصْفِهِ- حَتَّى وَضَعْتُهُ بَيْنَ يَدَيْ رَسُولِ اللهِ ﷺ.

فَقَالَ: «**مَا أَبْقَيْتَ لِأَهْلِكَ؟**»

قُلْتُ: مِثْلَهُ.

قَال: ثُمَّ جَاءَ أَبُو بَكْرٍ، فَوَضَعَ مَا أَتَى بِهِ بَيْنَ يَدَيِ النَّبِيِّ ﷺ.

فَقَالَ: «**مَا أَبْقَيْتَ لِأَهْلِكَ؟**»

قَالَ: أَبْقَيْتُ لَهُمُ اللهَ وَرَسُولَهُ .

فَقَالَ عُمَرُ –رضي الله عنه-: لَا جَرَمَ، لَا أُسَابِقُكَ إِلَى شَيْءٍ بَعْدَهَا أَبَدًا .

فَأَذْعَنَ لَهُ بِالسَّبْقِ، وَصَدَّقَ فِعْلُ أَبِي بَكْرٍ مَا كَانَ فِي نَفْسِ عُمَرَ –رضي الله عنه-: الْيَوْمَ أَسْبِقُهُ إِنْ كُنْتُ سَابِقَهُ يَوْمًا مِنَ الدَّهْرِ، وَمَعَ ذَلِكَ لَمْ يَسْبِقْهُ.

وَهُمْ لَمْ يَكُونُوا يَكْنِزُونَ شَيْئًا مِنَ الْمَالِ، وَلَا يَحْرِصُونَ عَلَيْهِ؛ بَلْ كَانُوا أَجْوَدَ الْخَلْقِ بَعْدَ النَّبِيِّ ﷺ بِعَطِيَّةٍ وَهِبَةٍ، وَصِلَةٍ وَبِرٍّ.

وَالرَّسُولُ ﷺ يُعَلِّمُهُمْ، وَيَدْعُوهُمْ إِلَى ذَلِكَ، وَيُرَبِّيهِمْ عَلَيْهِ، حَتَّى إِنَّهُ ﷺ كَانَ جُودُهُ لَا يُبْقِي لَدَيْهِ شَيْئًا مِمَّا يُمْكِنُ أَنْ يُقِيتَ ذَا كَبِدٍ رَطْبَةٍ، حَتَّى إِنَّ رَجُلًا -كَمَا فِي «الصَّحِيحَيْنِ»- جَاءَ النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ: إِنِّي مَجْهُودٌ -يَعْنِي بَلَغَ مِنِّي الْجَهْدُ مَبْلَغَهُ، بِفَقْرٍ وَعَوَزٍ وَجُوعٍ-.

فَأَرْسَلَ الرَّسُولُ ﷺ إِلَى بَعْضِ أَبْيَاتِ أَزْوَاجِهِ: «**هَلْ عِنْدَكِ مِنْ شَيْءٍ؟**»

فَقَالَت -وَقَدْ رَدَّتْ مَنْ أَرْسَلَهُ إِلَيْهَا رَسولُنَا ﷺ بِهَذِهِ الرِّسَالَةِ-: لَا وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ، مَا عِنْدِي إِلَّا الْمَاءُ.

فَأَرْسَلَ إِلَى أُخْرَى، حَتَّى ذَهَبَ رَسُولُ رَسُولِ اللهِ إِلَى أَبْيَاتِ أَزْوَاجِهِ جُمَع، وَكُلُّهُنَّ يَقُلْنَ: وَالَّذِي بَعَثَك بِالْحَقِّ مَا عِنْدَنَا إِلَّا الْمَاءُ.

فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**مَنْ يُضَيِّفُ ضَيْفَ رَسُولِ اللهِ ﷺ؟**»

فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ: أَنَا.

لِأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ رَغَّبَ دَاعِيًا: «**مَنْ يُضِفْ ضَيْفَ رَسُولِ اللهِ ﷺ يَرْحَمْهُ اللهُ**» وَعَلَى الرَّفْعِ «**مَنْ يُضِفْ ضَيْفَ رَسُولِ اللهِ ﷺ يَرْحَمُهُ اللهُ**».

فَقَال: أَنَا يَا رَسُولَ اللهِ.

فَأَخَذَ بِيَدِهِ، فَانْقَلَبَ بِهِ إِلَى رَحْلِهِ، ثُمَّ أَتَى أَهْلَهُ، فَقَالَ: هَلْ عِنْدَكِ مِنْ شَيْءٍ؟

قَالَتْ: مَا عِنْدِي إِلَّا قُوتُ صِبْيَانِي، مَا عِنْدِي إِلَّا عَشَاءُ صِبْيَانِي.

قَالَ: فَنَوِّمِيهِمْ، فَعَلِّلِيهِمْ؛ حَتَّى إِذَا نَامُوا قَدِّمِي طَعَامَ الصِّبْيَانِ بَيْنَ يَدَيْ ضَيْفِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، ثُمَّ قومِي إِلَى الْـمِصْبَاحِ فَأَطْفِئِيهِ.

يَعْنِي: قَومِي إِلَى السِّرَاجِ وَلَا تُطْفِئِيهِ فِي هَذِهِ الْـمَسْأَلَةِ إِطْفَاءً كَامِلًا، وَإِنَّمَا تَقُومُ إِلَيْهِ مِنْ أَجْلِ أَنْ تَخْفِضَ مِنْ ضَوْئِهِ شَيْئًا.

حَتَّى إِذَا جَلَسْنَا؛ نُرِي الضَّيْفَ أَنَّا نَأْكُلُ؛ قَوْمِي إِلَى السِّرَاجِ فَأَطْفِئِيهِ.

فَقَرَّبَتِ الطَّعَامَ، وَقَامَتْ إِلَى الْمِصْبَاحِ، ثُمَّ جَاءَتْ إِلَى الطَّعَامِ، حَتَّى إِذَا ظَنَّ الرَّجُلُ أَنَّهُمَا يَأْكُلَانِ قَامَتْ إِلَى الْمِصْبَاحِ فَأَطْفَأَتْهُ.

وَأَكَلَ ضَيْفُ رَسُولِ اللهِ ﷺ طَعَامَ صبْيَانِ الْأَنْصَارِيِّ بِمَحْضَرٍ مِنْ أُمِّهِمْ، لَا تَجِدُ مَسًّا لِلْحُزْنِ فِي قَلْبِهَا، وَلَا ثَارَةً لِلْوَجْدِ فِي نَفْسِهَا، وَإِنَّمَا تَرَى الْبَذْلَ وَالْجُودَ أَحَبَّ إِلَيْهَا مِنْ إِطْعَامِ صبْيَانِهَا، كَذَلِكَ كَانُوا.

وَفِي الْحَدِيثِ الَّذِي هُو حَسَنٌ بِشَوَاهِدِهِ، أَخْرَجَهُ أَبُو دَاوُدَ فِي «سُنَنِهِ»، عَن عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبِي بَكْرٍ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «**هَلْ أَطْعَمَ مِنْكُمُ الْيَوْمَ مِسْكِينًا؟**».

فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: أَنَا يَا رَسُولَ اللهِ؛ دَخَلْتُ الْـمَسْجِدَ فَرَأَيْتُ مِسْكِينًا، وَكِسْرَةٌ مِنْ خُبْزٍ فِي يَدِ وَلَدِي عَبْدِالرَّحْمَنِ، فَأَخَذْتُهَا مِنْهُ، وَأَعْطَيْتُهَا الْمِسْكِينَ.

فَيَجِدُ وَقْعَهَا بِحَلَاوَتِهَا بِذَوْقِهَا فِي فَمِهِ، وَعَلَى مَعِدَتِه أَحَبَّ إِلَيْهِ؛ لِأَنَّهَا تَبْقَى بَقَاءً سَرْمَدِيًّا بِثَوَابِهَا، وَأَثَرِهَا، وَعَطَائِهَا مِنْ عِنْدِ رَبِّهَا بِعَطَاءٍ لَا يَنْفَدُ، فَيَجِدُ ذَلِكَ أَحْلَى وَأَرْسَخَ فِي ذَوْقِ هَذَا الْفَقِيرِ الَّذِي تَعَرَّضَ وَلَمْ يَسْأَلْ، ثُمَّ يَجِدُ ذَلِكَ أَرْسَخَ ثَبَاتًا فِي نَفْسِهِ وَفِي مَعِدَتِهِ مِمَّا لَوْ كَانَتْ فِي نَفْسِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ، فِي مَعِدَتِهِ، وَهُوَ فِلْذَةُ كَبِدِهِ.

نَعُودُ إِلَى الْأَنْصَارِيِّ، فَإِنَّهُ لَمَّا أَطْعَمَ ضَيْفَ رَسُولِ اللهِ ﷺ عَلَى ذَلِكَ النَّحْوِ الْـمَوْصوفِ، وَمَضَى اللَّيْلُ يَطْوِي سَاعَاتِه طَيًّا، حَتَّى إِذَا انْبَلَجَ الصُّبْحُ، وَإِذَا مَا جَاءَ بِفَلَقٍ نَيِّرٍ مُبِينٍ؛ ذَهَبَ إِلَى النَّبِيِّ الْأَمِينِ ﷺ، فَبَشَّرَهُ، فَقَالَ: «**عَجِبَ اللهُ مِنْ صنِيعِكُمَا اللَّيْلَةَ**» عَجِبَ اللهُ -جَلَّتْ قُدْرَتُهُ- مِنْ صنِيعِكَ وَفُلَانَةَ اللَّيْلَةَ مَعَ ضَيْفِ رَسُولِ اللهِ ﷺ.

لَا تَبْغِ عَلَى الْإِطْعَامِ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا، وَإِنَّمَا تَقَعُ صدَقَتُكَ فِي يَدِ اللهِ، فَيُرَبِّيهَا لَكَ، كَمَا يُرَبِّي أَحَدُكُمْ فَلُوَّهُ، يَعْنِي مُهْرَهُ، فَمَا يَزَالُ يَرْبُو وَيَرْبُو حَتَّى تَكُونَ التَّمْرَةُ جَبَلًا مِنْ تَمْرٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَيَقُولُ: يَا رَبِّ أَنَّى هَذَا، وَمَا امْتَلَكْتُ عُشْرَ مِعْشَارِهِ فِي الدُّنْيَا أَبَدًا.

يَقُولُ: «صَدَقَتُكَ فِي يَوْمِ كَذَا، مَا زِلْتُ أُرَبِّيهَا لَكَ» يَعْنِي: أَزِيدُهَا لَكَ بَرَكَةً، وَعَطَاءً، وَبِرًّا، حَتَّى صارَتْ إِلَى مَا تَرَى.

إِنَّ الرَّسُولَ ﷺ لَمَّا كَانَ قَافِلًا عَائِدًا مِنْ حُنَيْنٍ، بَعْدَ أَنْ نَفَّلَهُ اللهُ الْغَنَائِمَ الْكَثِيرَة، وَسَاقَ إِلَيْهِ النِّعَمَ الْوَفِيرَةَ، وَآتَاهُ اللهُ أَمْوَالَ الْقَوْمِ وَأَعْطَاهُ إِيَّاهَا، لَمَّا أَنْ عَادَ؛ أَقْبَلَتْ عَلَيْهِ الْأَعْرَابُ مِنْ كُلِّ صوْبٍ يَسْأَلُونَهُ، وَهُوَ يَعُودُ الْقَهْقَرِيّ، حَتَّى خَطِفَتْ سَمُرَةٌ هُنَالِكَ رِدَاءَ رَسُولِ اللهِ ﷺ.

وَالسَّمُرَةُ: شَجَرَةٌ ذَاتُ شَوْكٍ.

أَخَذ النَّبِيُّ ﷺ وَهُمْ يَزْحفُونَ عَلَيْهِ يَتَقَهْقَرُ، حَتَّى كَانَ عِنْدَ تِلْكَ الشَّجَرَةِ بِشَوْكِهَا، فَخَطِفَ فَرْعٌ مِنْ فُرُوعِ تِلْكَ الشَّجَرَةِ رِدَاءَ رَسُولِ اللهِ ﷺ.

فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**وَاللهِ، لَوْكَانَ لِي عَدَدَ هَذِهِ الْعِضَاةِ** -وَهُو شَجَرٌ ذُو شَوْكٍ يَكُونُ فِي الْبَوَادِي، لَوْ كَانَ لِي عَدَدَ هَذَا الشَّجَرِ- **أَنْعَامًا وَنَعَمًا لَفَرَّقْتُهَا فِيكُمْ، وَلَمْ أُبْقِ شَيْئًا، وَمَا وَجَدْتُمُونِي جَبَانًا، وَلَا كَذَّابًا، وَلَا بَخِيلًا**»ﷺ.

يَقُولُ النَّبِيُّ ﷺ: «لَوْ أَنَّ اللهَ أَعْطَانِي بِعَدَدِ هَذَا الشَّجَرِ-لَا يَتَنَاهَى- نَعَمًا مِنَ الْإِبِلِ خَاصَّةً، أَوْ مِنَ الْإِبِلِ وَالْبَقَرِ وَالْغَنَمِ -عَلَى قَوْلٍ عِنْدَ أَهْلِ اللُّغَةِ- لَوْ أَنَّ اللهَ آتَانِي عَدَدَ هَذَا الشَّجَرِ نَعَمًا لَفَرَّقْتُهُ فِيكُمْ، وَلَمْ أُبْقِ شَيْئًا، ثُمَّ لَا تَجِدُونِي بَعْدُ جَبَانًا وَلَا كَذُوبًا، وَلَا بَخِيلًا» ﷺ .

وَالرَّسُولُ ﷺ أَخْبَرَ أَنَّ أَدْوَى الدَّاءِ، وَأَنَّ أَعْظَمَ الْأَمْرَاضِ: هُوَ الْبُخْلُ.

فَقَالَ ﷺ عِنْدَمَا سَأَلَ الْقَوْمَ عَنْ سَيِّدِهِمْ.

قَالُوا: فُلَانٌ عَلَى أَنَّا نُبَخِّلُهُ، يَعْنِي نَرْمِيهِ بِصِفَةِ الْبُخْلِ.

فَقَالَ الرَّسُولُ ﷺ: «**وَأَيُّ دَاءٍ أَدْوَى مِنَ الْبُخْلِ**؟!».

يَعْنِي: مِثْلُ هَذَا الْبَخِيلِ لَا يَصْلُحُ أَنْ يَكُونَ سَيِّدًا فِي قَوْمِهِ.

وَقَدْ كَانَ الرَّسُولُ ﷺ يُخْبِرُ النَّاسَ مِنْ أَصْحَابٍ وَمَنْ يَلِي، يُخْبِرُهُمْ أَنَّهُ مَا مِنْ يَوْمٍ جَدِيدٍ إِلَّا وَاللهِ -تَبَارَك وَتَعَالَى- يَجْعَلُ مَلَكَيْنِ هُنَالِكَ قَائِمِينَ، يَقُولُ أَحَدُهُمَا: «**اللَّهُمَّ أَعْطِ مُنْفِقًا خَلَفًا، وَيَقُولُ الْآخَرُ: اللَّهُمَّ أَعْطِ مُمْسِكًا تَلَفًا**».

وَيَقُولُ النَّبِيُّ ﷺ:إِنَّ اللهَ -جَلَّتْ قُدْرَتُهُ- قَدْ وَعَدَ وَعْدًا لَا يَتَخَلَّفُ؛ لِأَنَّ اللهَ -تَبَارَكَ وَتَعَالَى- لَا يَضْطَرُّهُ شَيْءٌ إِلَى شَيْءٍ، وَإِنَّمَا إِرَادَتُهُ نَافِذَةٌ، وَعَطَاؤُهُ كَلَامٌ، وَبَرَكَتُهُ كَلَامٌ، وعَذَابُهُ كَلَامٌ، يَعْنِي: يَقُولُ لِلشَّيْءِ: كُنْ فَيَكُونُ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ.

فَأَخْبَرَ الرَّسُولُ ﷺ أَنَّ اللهَ -تَبَارَك وَتَعَالَى- أَخْبَرَ أَنْ أَنْفِقْ أُنْفِقْ عَلَيْكَ، «**يَا ابْنَ آدَمَ؛ أَنْفِقْ أُنْفِقْ عَلَيْكَ**»، فَهَذَا شَرْطٌ مُعَلَّقٌ عَلَى ذَلِكَ الشَّرطِ الْـمَشْرُوطِ، فَمَتَى مَا تَحَقَّقَ؛ جَاءَ الْجَزَاءُ بِفَضْلِ الْـمَلِيكِ الْـمَعْبُودِ.

يَقُولُ رَبُّنَا -جَلَّتْ قُدْرَتُهُ- : « يَا ابْنَ آدَمَ؛ أَنْفِقْ أُنْفِقْ عَلَيْكَ».

يَقُولُ النَّبِيُّ ﷺ: « **يَمِينُهُ مَلْئَى، سَحَّاءَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ** »، هَكَذَا عَلَى النَّصْبِ عَلَى الظَّرْفِيَّةِ «**سَحَّاءَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ، لَا تَغِيضُهَا نَفَقَةٌ**»

نَعَمْ! لَو أَنَّكَ نَظَرْتَ مَا أَنْفَقَ، وَكَمْ أَنْفَقَ مُنْذُ خَلَقَ الْخَلْقَ؛ لَعَلِمْتَ أَنَّ ذَلِكَ مُسْتَعْظَمٌ عِنْدَ الْخَلْقِ، وَأَمَّا عِنْدَ اللهِ -تَبَارَكَ وَتَعَالَى-؛ فَشَيْءٌ هَيِّنٌ يَسِيرٌ.

«**لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ، وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ قَامُوا فِي صعِيدٍ وَاحِدٍ فَسَأَلُونِي، فَأَعْطَيْتُ كُلَّ وَاحِدٍ مَسْأَلَتَهُ**».

وَأَنْتَ خَبِيرٌ بِنَفْسِيَّةِ الْخَلْقِ فِي مِثْلِ هَذَا الْـمَوْقِفِ عَلَى التَّمَامِ؛ لِأَنَّ الْإِنْسَانَ إِذَا قَامَ بَيْنَ يَدَيِ اللهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَقَدْ تَحَقَّقَ بِوَعْدٍ مِنَ اللهِ -تَبَارَكَ وَتَعَالَى- بِإِنْفَاذِ مَا يَطْلُبُهُ، وبِتَحْصِيلِ مَا يَتَطَلَّبُهُ؛ فَإِنَّهُ لَا يَدَّخِرُ وُسْعًا فِي تَعْظِيمِ الْـمَسْأَلَةِ، فَكَمْ مِنْ طَالِبٍ يُرِيدُ مِثْلَ الدُّنْيَا خَمْسِينَ مَرَّةً إِلَى أَضْعَافٍ مُضَاعَفَةٍ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا اللهُ؟!!

لَوْ قَامُوا إِنْسًا وَجِنًّا، لَوْ قَامُوا فِي صعِيدٍ وَاحِدٍ، فَسَأَلُونِي، فَأَعْطَيْتُ كُلَّ وَاحِدٍ مَسْأَلَتَهُ؛ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمَّا عِنْدِي إِلَّا كَمَا يَنْقُصُ الْـمِخْيَطُ إِذَا أُدْخِلَ الْبَحْرَ» وَهُوَ صَقِيلٌ لَا يَحْمِلُ شَيْئًا، وَلَوْ كَانَ غَيْرَ صَقِيلٍ؛ فَمَا يَحْمِلُ؟! لَا يَحْمِلُ شَيْئًا، وَإِنَّمَا هُوَ مَثَلٌ عَلَى سَبِيلِ التَّقْرِيبِ، وَلَوْ كَانَتْ ذَرَّةً أَوْ أَقَلَّ مِنْهَا؛ لَمَا نَقَصَتْ مِنْ مُلْكِ اللهِ -تَبَارَكَ وَتَعَالَى-، هُوَ ذُو الْعَطَاءِ وَذُو الْـمِنَّةِ- سُبْحَانَه سُبْحَانَه.

«الْجُودُ وَالْإِيثَارُ فِي رَمَضَانَ»

إِنَّ الرَّسُولَ ﷺ كَانَ أَجْوَدَ النَّاسِ، وَكَانَ أَجْوَدَ مَا يَكُونُ فِي رَمَضَانَ؛ فَهَذَا مَحَلٌّ لِلتَّرْبِيَةِ الْعَمَلِيَّةِ عَلَى الْجُودِ، وَالْبَذْلِ، وَالْعَطَاءِ.

وَالنَّبِيُّ ﷺ يُمَارِسُ ذَلِك فِي وَاقِعِ الْحَيَاةِ، وَفِي ظَاهِرِ الْأَمْرِ؛ لِيَقْتَدِيَ بِهِ مَنْ هُنَالِكَ مِنْ أَصْحَابِهِ، وَمَنْ يَأْتِي بَعْدُ مِنَ الْـمُسْلِمِينَ، حَتَّى يَرِثَ اللهُ الْأَرْضَ وَمَن عَلَيْهَا.

«وَكَانَ أَجْوَدَ مَا يَكُونُ فِي رَمَضَانَ» يَعْنِي: يَبْلُغُ الْجُودُ مِنْهُ غَايَةَ الْوُسْعِ بِحَيْثُ لَا جُودَ فَوْقَ جُودِهِ يَكُونُ لِـمَخْلُوقٍ أَبَدًا ﷺ.

وَالنَّبِيُّ ﷺ يَجُودُ فِي رَمَضَانَ مَا لَا يَجُودُ فِي غَيْرِهِ مِن زَمَانِ الْعَامِ.

وَقَدْ كَانَ الصَّالِحُونَ عَلَى هَذَا؛ فَهَذَا الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ، كَانَ صائِمًا، وَكَانَ غُلَامُهُ صائِمًا، كَانَ لَدَيْهِ غُلَامٌ مِنَ الْأَعْبُدِ يَخْدُمُهُ، وَكَانَ صائِمًا كَحَالِهِ، فَلَمَّا أَنِ اقْتَرَبَ الْـمَغْرِبُ، وَآذَنَ بِالدُّنُوِّ؛ طَرَقَ طَارِقٌ الْبَابَ، فَدَخَلَ الْغُلامُ وَخَرَجَ، ثُمَّ أَتَى إِلَى سَيِّدِهِ، فَلَمْ يَتَكَلَّمْ، فَقَالَ: مَا الشَّأْنُ؟

قَالَ: إِنَّ سَائِلًا جَاءَ يَسْأَلُ، فَأَعْطَيْتُهُ.

قَالَ: وَمَا أَبْقَيْتَ؟

قَالَ: أَعْطَيْتُهُ مَا عِنْدَنَا كُلَّهُ .

قَالَ: أَلَمْ تُبْقِ لِإِفْطَارِنَا شَيْئًا؟

قَالَ: لَا.

قَالَ: إِذَنْ هَذَا الَّذِي تَصْنَعُهُ يَدُلُّ عَلَى شَيْءٍ: وَهُوَ أَنَّكَ كَبِيرُ كَثِيْرُ عَظِيمُ التَّوَكُّلِ، قَلِيلُ ضَعِيفُ الْعِلْمِ.

أَنْتَ كَثِيرُ التَّوَكُّلِ، قَلِيلُ الْعِلْمِ.

فَلَمْ يَرُدَّ عَلَيْهِ شَيْئًا، فَلَمَّا أَنْ آذَنَ الْـمَغْرِبُ بِالدُّنُوِّ، وَآنَ أَوَانُ إِفْطَارِ الصَّائِمِينَ؛ طَرَقَ الْبَابَ طَارِقٌ، فَدَخَلَ بِصَحْفَةٍ عَظِيمَةٍ عَلَيْهَا مِنْ أَطَايِبِ الطَّعَامِ.

فَقَال ذَلِكَ الدَّاخِلُ- وَكَانَ عَبْدًا- لِلْحَسَنِ: أَنَا بِاللهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، ثُمَّ بِكَ.

قَالَ: وَمَا ذَلِكَ؟

قَالَ: إِنَّ سَيِّدِي قَدْ قَالَ: إِنْ قَبِلَ مِنْكَ هَذَا الطَّعَامَ؛ فَأَنْتَ حُرٌّ لِوَجْهِ اللهِ، فَاقْبَلْهُ حَتَّى تَعْتِقَ رَقَبَتِي، وَتَنَالَ الثَّوَابَ الْجَزِيلَ عِنْدَ اللهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ.

فَقَالَ: قَدْ قَبِلْنَاهُ .

وَلَمَّا انْصَرَفَ الرَّجَلُ- وَقَدْ صارَ حُرًّا؛ أَقْبَلَ عَبْدُ الْحَسَنِ عَلَيْهِ، أَقْبَلَ الْعَبْدُ الَّذِي لِلْحَسَنِ عَلَيْهِ، فَقَالَ: يَا سَيِّدِي، إِنَّكَ لَكَثِيرُ الْعِلْمِ، ضَعِيفُ الْيَقِينِ.

يَقُولُ لَهُ رَدًّا عَلَى مَقَالَتِهِ السَّابِقَةِ، عِنْدَمَا قَالَ لَهُ لِعَظِيمِ تَوَكُّلِهِ: أَنْتَ كَثِيرُ الْيَقِينِ، قَلِيلُ الْعِلْمِ.

وَالْآنَ خُذْهَا مِمَّنْ يُحْسِنُ أَنْ يُسَدِّدَ فِي مَقْتَلٍ، وَيَضْرِبَ فِي مَفْصَلٍ، خُذْهَا إِلَيْكَ: «وَأَمَّا أَنْتَ؛ فَكَثِيرُ الْعِلْمِ، قَلِيلُ الْيَقِينِ» أَنَا قَلِيلُ الْيَقِينِ، أَمْ كَثِيرُ الْيَقِينِ؟ كَثِيرُ الْيَقِينِ، قَلِيلُ الْعِلْمِ، وَأَمَّا أَنْتَ فَقَلِيلُ الْيَقِينِ، كَثِيرُ الْعِلْمِ، فَلَمْ يُغْنِ عَنْكَ شَيْئًا.

وَمَا الْعِلْمُ فِي الْـمُنْتَهَى إِلَّا مِنْ أَجْلِ تَحْصِيلِ الْيَقِينِ؟!

وَمَا الْعِلْمُ بِشَيْءٍ إِنْ لَمْ يُورِثِ الْخَشْيَةَ، وَإِنَّمَا الْعِلْمُ الْخَشْيَةُ.

الرَّسُولُ ﷺ كَانَ أَجْوَدَ الْخَلْقِ، وَكَانَ أَجْوَدَ مَا يَكُون فِي رَمَضَانَ؛ بَلْ إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ يَحُضُّ عَلَى مُمَارَسَةِ الْجُودِ، وَالْخُرُوجِ مِنْ إِطَارِ شُحِّ النَّفْسِ، وَإِمْسَاكِهَا؛ إِذِ الشُّحُّ أَبْلَغُ الْبُخْلِ، وَأَعْظَمُهُ.

فَمَتَى مَا لَمْ يَخْرُجِ الْعَبْدُ مِنْ شُحِّ نَفْسِهِ، وَمَتَى مَا لَمْ يَوقِ اللهُ -تَبَارَكَ وَتَعَالَى- عَبْدًا شُحَّ نَفْسِهِ؛ فَإِنَّهُ قَدْ جَانَبَ الْفَلَاحَ، وَوَاقَعَ الطِّلاحَ.

وَأَمَّا الَّذِينَ يَقِيهِمُ اللهُ شُحَّ أَنْفُسِهِمْ؛ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ جَانَبُوا الطِّلَاحَ، وَوَاقَعُوا الصَّلَاحَ بِشَهَادَةِ الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ لِهَذَا الصِّنْفِ الْكَرِيمِ.

اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ يُبَيِّنُ لَنَا عَلَى لِسَانِ نَبِيِّنَا ﷺ طَرِيقَةً عَمَلِيَّةً لِلْخُرُوجِ مِنْ قَيْدِ النَّفْسِ، وَمِنْ أَسْرِ شُحِّهَا؛ مِنْ أَجْلِ أَنْ يَتَدَرَّبَ الْإِنْسَانُ عَلَى الْعَطَاءِ، وَيَجْعَلُهَا النَّبِيُّ ﷺ حَالَةً مِن حَالَاتِ الْبَذْلِ الَّذِي لَا يَتَنَاهَى؛ حَتَّى إِنَّهُ لَيَقُولُ: «**وَابْتِسَامُكَ فِي وَجْهِ أَخِيكَ صدَقَةٌ**».

وَمَا هِيَ بِشَيْءٍ فِي حَقِيقَةِ الْأَمْرِ، وَلَكِنَّهَا عُنْوَانٌ عَلَى بَاطِنٍ مُنْبَسِطٍ لِخَلْقِ اللهِ الْـمُؤْمِنِينَ، وَأَمَّا كَذَاذَةُ الطَّبْعِ، وَأَمَّا الْغِلْظَةُ وَالْجَفَاءُ وَالفَظَاظَةُ؛ فَلَا يُمْكِنُ أَنْ تُبِضَّ شَيْئًا مِن ابْتِسَامٍ، وِلَا شَيْئًا مِنْ فَرَحٍ يَلْقَى بِهِ مُؤْمِنٌ مَؤْمِنًا، وَيُلَاقِي بِهِ مُسْلِمٌ مُسْلِمًا.

النَّبِيُّ ﷺ يُرَغِّبُ فِي إِفْطَارِ الصَّائِمِ، وَيُخْبِرُنَا النَّبِيُّ ﷺ أَنَّ مَنْ فَطَّرَ فِيهِ- أَيْ فِي رَمَضَانَ- صائِمًا كَانَ لَهُ مِثْلُ أَجْرِهِ؛ وَلَوْ بِمَذْقَةٍ مِنْ مَاءٍ أَوْ لَبَنٍ، وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ، يَجْعَلُ اللهُ -جَلَّتْ قُدْرَتُهُ- الثَّوَابَ وَافِرًا، وَيَجْعَلُ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ الْعَطَاءَ وَاصِلًا؛ وَلَوْ عَلَى جَرْعَةِ مَاءٍ.

فَمَا أَبْلَغَهُ مِنْ عَطَاءٍ لَا يُقَابِلُ إِلَّا جَرْعَةً مِنْ مَاءٍ هِيَ مَبْذُولَةٌ فِي كُلِّ حِينٍ لِطَالِبِهَا بِفَضْل رَبِّهَا وَقُدْرَتِهِ.

يَا لَهُ مِنْ دِينٍ لَوْ كَانَ لَهُ رِجَالٌ!!

يَا لَهُ مِن دِينٍ لَوْ كَانَ لَهُ رِجَالٌ!!

وَصَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ عَلَى نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ أَجْمَعِينَ(١).

---

(١)«مِن خطْبَة: رَمَضَان دَعْوَةٌ للجُودِ والكَرَم».

«المَوْعِظَةُ الثَّالِثَةُ وَالعُشْرُونَ»

«غُضُّوا أَبْصَارَكُم وَاحْذَرُوا الفَوَاحِشَ المُهْلِكَةَ»

إنَّ الْحَمْدَ لِلَّهِ نَحْمَدُهُ، وَنَسْتَعِينُهُ وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِاللَّه مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللَّهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَا هَادِيَ لَهُ.

وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ ﷺ.

أَمَّا بَعْدُ:

فَإِنَّ أَصْدَقَ الْحَدِيثِ كِتَابُ اللَّـهِ، وَخَيْرَ الْهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَشَرَّ الْأُمُورِ مُحْدَثَاتُهَا، وَكُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ، وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ، وَكُلَّ ضَلَالَةٍ فِي النَّارِ.

أَمَّا بَعْدُ:

«دِينُ الْإِسْلَامِ الْعَظِيمِ هُوَ دِينُ الطَّهَارَةِ»

فَإِنَّ دِينَ الْإِسْلَامِ الْعَظِيمِ هُوَ دِينُ الطَّهَارَةِ، دِينُ طَهَارَةِ الْبَاطِنِ وَالظَّاهِرِ عَلَى السَّوَاءِ، أَمَرَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ بِطَهَارَةِ الْقُلُوبِ وَالْأَرْوَاحِ وَالْأَنْفُسِ، وَأَمَرَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ بِطَهَارَةِ الْأَبْدَانِ وَالثِّيَابِ وَالْأَمْكِنَةِ، وَهُوَ دِينُ الْعِفَّةِ وَدِينُ الْعَفَافِ، يَنْفِي الْفَاحِشَةَ وَيُحَارِبُهَا وَيَسُدُّ الْمَسَالِكَ الَّتِي تُؤَدِّي إِلَيْهَا.

﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ [الأعراف: ٣٣].

«فَضِيلَةُ خُلُقِ الْحَيَاءِ فِي الْإِسْلَامِ»

وَاللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ أَخْبَرَنَا عَلَى لِسَانِ نَبِيِّنَا الْأَمِينِ ﷺ عَنْ عِظَمِ فَضِيلَةِ الْحَيَاءِ، وَأَنَّ اللهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ جَعَلَ هَذَا الْخُلُقَ خُلُقَ الْإِسْلَامِ، وَخَلَّقَ النَّبِيَّ ﷺ مِنْهُ بِالنَّصِيبِ الْأَوْفَى.

وَجَعَلَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ الْحَيَاءَ حَاجِزًا عَنِ الْوُقُوعِ فِيمَا حَرَّمَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ، وَجَعَلَ الْحَيَاءَ مِنْ خُلُقِ الْمَلَائِكَةِ الْمُطَهَّرِينَ.

وَالنَّبِيُّ ﷺ فِي وَصْفِهِ فِي خُلُقِ الْحَيَاءِ الَّذِي كَانَ عِنْدَهُ: «أَنَّهُ كَانَ أَحْيَا مِنَ الْعَذْرَاءِ فِي خِدْرِهَا ﷺ».

«إِذَا انْهَارَتِ الْأَخْلَاقُ انْهَارَ الْمُجْتَمَعُ»

الْمُجْتَمَعُ إِذَا مَا انْهَارَتْ أَخْلَاقُهُ، وَإِذَا مَا سَقَطَتْ أَخْلَاقُهُ فِي الْحَمْأَةِ الْوَبِيلَةِ، الْمُجْتَمَعُ إِذَا ظَهَرَتْ فِيهِ الْفَاحِشَةُ؛ انْهَارَ لَا مَحَالَةَ، وَقَدْ عَلِمَ أَعْدَاءُ الْإِسْلَامِ فِي دَاخِلٍ وَخَارِجٍ؛ أَنَّهُمْ لَنْ يَنَالُوا بِالْمُوَاجَهَةِ الْعَسْكَرِيَّةِ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْمُسْلِمِينَ شَيْئًا ذَا بَالٍ؛ وَلِذَلِكَ كَانَ التَّرْكِيزُ كُلُّهُ عَلَى بَثِّ الشُّبُهَاتِ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ، وَعَلَى إِثَارَةِ نَوَازِعِ الْعَصَبِيَّةِ بَيْنَ أَبْنَاءِ الْإِسْلَامِ الْعَظِيمِ، وَبِإِثَارَةِ الشَّهَوَاتِ وَبَعْثِ النَّزَوَاتِ مِنْ مَكَامِنِهَا، فَإِذَا انْهَارَتِ الْأَخْلَاقُ؛ انْهَارَ الْمُجْتَمَعُ لَا مَحَالَةَ.

«كَيْفَ كَانَتْ مُعَامَلَةُ أَطْهَرِ الرِّجَالِ مَعَ أَطْهَرِ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ؟»

ضَرَبَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ لَنَا الْأَمْثَالَ بِأَطْهَرِ الْقُلُوبِ عَلَى الْأَرْضِ بَعْدَ الْأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ.

***فَقَالَ رَبُّنَا -جَلَّتْ قُدْرَتُهُ- فِي كِتَابِهِ الْعَظِيمِ:** ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ ۚ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ﴾ [الأحزاب: ٥٣].

وَالضَّمِيرُ هَاهُنَا: يَعُودُ إِلَى الْأَصْحَابِ -أَصْحَابِ النَّبِيِّ الْكَرِيمِ ﷺ- وَإِلَى أُمَّهَاتِ الْمُؤْمِنِينَ، وَإِذَا سَأَلْتُمْ يَا أَصْحَابَ مُحَمَّدٍ، ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ﴾ أَيْ: سَأَلْتُمْ أُمَّهَاتِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿مَتَاعًا﴾ فِيمَا يَكُونُ مِنْ أَوَانِي الدُّنْيَا الَّتِي تُسْتَعْمَلُ فِي حَاجَاتِهَا.

﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ﴾: مِنْ غَيْرِ رُؤْيَةٍ، وَإِنَّمَا هُوَ سُؤَالٌ هَكَذَا عَلَى صَوْتٍ يُسْمَعُ وَإِجَابَةٍ تَأْتِي بِلَا مَزِيدٍ، ﴿ذَٰلِكُمْ﴾: يَعْنِي ذَلِكُمُ السُّؤَالَ عَلَى ذَلِكَ النَّحْوِ الْمَذْكُورِ؛ بِالسُّؤَالِ صَوْتًا مِنْ غَيْرِ رُؤْيَةٍ وَلَا دُخُولٍ، ﴿أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ﴾ يَا أَصْحَابَ مُحَمَّدٍ، ﴿وَقُلُوبِهِنَّ﴾ يَا أَزْوَاجَ النَّبِيِّ الْأَمِينِ.

فَهَذِهِ أَطْهَرُ الْقُلُوبِ طُرًّا؛ وَمَعَ ذَلِكَ أَمَرَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ عِنْدَ السُّؤَالِ بِهَذَا الِاحْتِرَازِ الْمَتِينِ؛ لِأَنَّهُنَّ قُدْوَةٌ وَأُسْوَةٌ لِسَائِرِ النِّسَاءِ، وَكَذَلِكَ أَصْحَابُ النَّبِيِّ ﷺ قُدْوَةٌ وَأُسْوَةٌ لِسَائِرِ الرِّجَالِ مِنْ أُمَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ.

«أَمْرُ اللهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ لِلنِّسَاءِ بِعَدَمِ الْخُضُوعِ بِالْقَوْلِ»

يَقُولُ رَبُّنَا -جَلَّتْ قُدْرَتُهُ- فِي حَقِّ أُمَّهَاتِ الْمُؤْمِنِينَ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُنَّ-: ﴿يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ النِّسَاءِ ۚ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾ [الأحزاب: ٣٢].

فَأَخْبَرَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ نِسَاءَ النَّبِيِّ الْأَمِينِ ﷺ أَنَّهُنَّ لَسْنَ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ إِنِ اتَّقَيْنَ اللهَ -تَبَارَكَ وَتَعَالَى-، ﴿فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ﴾: بِاللِّينِ فِيهِ وَتَرْقِيقِ النَّبْرَةِ، فَنَهَى اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ عَنِ الْخُضُوعِ بِالْقَوْلِ؛ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ.

كَيْفَ يَعْرِفُ الرَّجُلُ أَنَّ فِي قَلْبِهِ مَرَضًا؟

فَإِنْ وَجَدَ عِنْدَ سَمَاعِ النَّغْمَةِ الَّتِي تَلِينُ بِهَا الْمَرْأَةُ وَتُرَقِّقُهَا شَيْئًا مِنَ الشَّهْوَةِ الْخَفِيَّةِ يَتَحَرَّكُ فِي قَلْبِهِ؛ فَفِي قَلْبِهِ مَرَضٌ، فَالْفِرَارَ الْفِرَارَ، وَإِلَّا تَوَرَّطَ تَوَرُّطًا.

فَأَمَرَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ بِعَدَمِ الْخُضُوعِ بِالْقَوْلِ مِنَ النِّسَاءِ، فَعَلَى الْمَرْأَةِ أَلَّا تُرَقِّقَ صَوْتَهَا، وَأَلَّا تَلِينَ بِقَوْلِهَا، وَأَلَّا تَخْضَعَ بِالْقَوْلِ مَعَ غَيْرِ مَحَارِمِهَا، فَإِنَّ ذَلِكَ مِمَّا نَهَى اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ عَنْهُ أَشْرَفَ النِّسَاءِ طُرًّا، وَهُنَّ أَزْوَاجُ النَّبِيِّ الْكَرِيمِ ﷺ وَرَضِيَ اللهُ عَنْهُنَّ، مَعَ الْقَوْلِ الْمَعْرُوفِ مِنْ غَيْرِ نُطْقٍ بِمَا يَسُوءُ، وَلَا إِغْلَاظٍ وَلَا فُحْشٍ فِيهِ.

وَأَمَّا الْآنَ؛ فَإِنَّكَ تَرَى النِّسَاءَ يَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ مَعَ غَيْرِ الْمَحَارِمِ مَا لَا يَفْعَلْنَ مَعَ الْمَحَارِمِ؛ مَا لَا يَفْعَلْنَ مَعَ زَوْجٍ -مَعَ زَوْجٍ لَهُ حَقٌّ-، فَيَأْتِي الْخُضُوعُ بِالْقَوْلِ: فِي هَاتِفٍ يُهَاتَفُ بِهِ مَنْ لَا يَحِلُّ أَنْ يَكُونَ الْكَلَامُ مَعَهُ عَلَى هَذَا النَّحْوِ وَلَوْ كَانَ اسْتِفْتَاءً فِي دِينِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، فَيَا لَلَّهِ كَمْ سُفِحَتْ أَعْرَاضٌ وَكَمِ انْتُهِكَتْ، وَكَمْ كُشِفَتْ سَوْآتٌ وَكَمْ عُرِّيَتْ مِنْ أَجْلِ هَذَا الْخُضُوعِ بِالْقَوْلِ عِنْدَ غَيْرِ الْمَحَارِمِ!!

«إِيَّاكُمْ وَالدُّخُولَ عَلَى النِّسَاءِ مِنْ غَيْرِ الْمَحَارِمِ، وَالتَّحْذِيرُ مِنَ الِاخْتِلَاطِ»

قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: **«إِيَّاكُمْ وَالدُّخُولَ عَلَى النِّسَاءِ»**.

قَالَ: فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ: أَفَرَأَيْتَ الْحَمْوَ؟

قَالَ: «**الْحَمْوُ الْمَوْتُ**».

وَالْحَمْوُ: أَقَارِبُ الزَّوْجِ مِمَّنْ لَيْسَ بِمَحْرَمٍ لِلزَّوْجَةِ، فَإِنَّ أُصُولَ الزَّوْجِ وَإِنْ عَلَتْ؛ هُمْ مِنَ الْمَحَارِمِ، وَكَذَلِكَ فُرُوعُهُ وَإِنْ سَفُلُوا؛ هُمْ مِنَ الْمَحَارِمِ، وَأَمَّا الْحَوَاشِي؛ فَمِنَ الْأَجَانِبِ عَنِ الْمَرْأَةِ؛ كَالْأَخِ وَابْنِ الْأَخِ، وَكَذَلِكَ مَا يَتَأَتَّى بَعْدَ ذَلِكَ مِنْ أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْخُلُونَ مِنْ أَقَارِبِ الزَّوْجِ عَلَى الْمَرْأَةِ.

-الْحَمْوُ ؟!

فَقَالَ: «**الْحَمْوُ الْمَوْتُ**»: أَيْ كَمَا يَنْبَغِي عَلَيْكَ أَنْ تَفِرَّ مِنْ أَسْبَابِ الْمَوْتِ إِذَا مَا رَأَيْتَهَا نَازِلَةً عَلَيْكَ، فَكَذَلِكَ يَنْبَغِي عَلَيْكَ أَنْ تَفِرَّ مِنَ الْجَمْعِ بَيْنَ نِسَائِكَ وَأَقَارِبِكَ مِنَ الرِّجَالِ مِمَّنْ لَمْ تَثْبُتْ لَهُمُ الْمَحْرَمِيَّةُ.

فَجَعَلَ النَّبِيُّ ﷺ هَذَا السِّتْرَ مَضْرُوبًا لِعَفَافٍ وَعِفَّةٍ وَطُهْرٍ وَطَهَارَةٍ، فَأَمَّا إِذَا مَا رُفِعَ؛ فَحِينَئِذٍ يَتَأَتَّى الْفُحْشُ وَالْفَاحِشَةُ، وَلَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ أَنْ يَثِقَ بِنَفْسِهِ فِي أَمْثَالِ هَذِهِ الْأُمُورِ كَائِنًا مَا كَانَ أَمْرُهُ، فَإِنَّ أَسْبَابَ الْغِوَايَةِ لَا تَنْضَبِطُ، وَإِنَّ الْمَخْذُولَ لَمَنْ خَذَلَهُ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ، وَالْمَرْءُ إِذَا تَلَوَّثَتْ صَفْحَتُهُ بِالْوُقُوعِ فِي الزِّنَا وَالتَّوَرُّطِ فِي الْفَاحِشَةِ؛ فَقَدْ تَلَوَّثَ.

وَالنَّبِيُّ ﷺ يَمْنَعُ مِنْ هَذَا الِاخْتِلَاطِ عَلَى هَذَا النَّحْوِ، وَكَثِيرٌ مِنَ الْخَلْقِ يَتَسَاهَلُونَ، فَلَا يَلُومَنَّ امْرُؤٌ إِلَّا نَفْسَهُ.

«أَمْرُ اللهِ لِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَضِّ الْبَصَرِ»

قَالَ رَبُّنَا -جَلَّتْ قُدْرَتُهُ-: ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ﴾، يَعْنِي: إِذَا أَتَتْ نَظْرَةُ الْفَجْأَةِ فَاصْرِفْ بَصَرَكَ، وَهَذَا وَاجِبٌ وَفَرْضٌ.

﴿وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ﴾، قَوْلًا وَاحِدًا؛ فَهَذَا لَيْسَ فِيهِ شَيْءٌ مِنْ تَبْعِيضٍ، وَإِنَّمَا هُوَ كُلٌّ يُؤْتَى بِهِ كُلًّا مِنْ غَيْرِ تَفْرِيطٍ.

﴿وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ﴾، ثُمَّ ﴿إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾، يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ.

«تَحْرِيمُ النَّظَرِ إِلَى الْعَوْرَاتِ الْمَكْشُوفَةِ فِي الشَّوَارِعِ أَوِ التِّلْفَازِ أَوِ الْمَجَلَّاتِ»

وَالنَّبِيُّ ﷺ قَدْ أَخْبَرَ أَنَّ الْعَيْنَيْنِ تَزْنِيَانِ كَمَا فِي الْحَدِيثِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ -رَضِيَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى عَنْهُ- عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**الْعَيْنَانِ تَزْنِيَانِ، وَزِنَاهُمَا النَّظَرُ**».

تَحْسَبُ أَنَّ النَّظَرَ إِذَا مَا سُرِّحَ فِي مَحَارِمِ اللهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ نَظَرًا؛ فِي صُورَةٍ صَامِتَةٍ مَطْبُوعَةٍ، أَوْ صُورَةٍ نَاطِقَةٍ مُشَاهَدَةٍ مُبْصَرَةٍ، تَظُنُّ أَنَّ ذَلِكَ مِمَّا كَنَزْتَهُ لِنَفْسِكَ دُنْيَا وَآخِرَةً، وَأَنَّ ذَلِكَ مِمَّا حَصَّلْتَهُ لَكَ ذُخْرًا، وَأَنَّ ذَلِكَ مِمَّا قَدْ حُزْتَهُ لَدَيْكَ كَنْزًا مَكْنُوزًا؟!

وَاهِمٌ أَنْتَ يَا صَاحِبِي!!

وَأَمَرَ الْمُؤْمِنَاتِ بِذَلِكَ؛ أَنْ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ، وَأَنْ يَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ.

«نَهْيُ النَّبِيِّ الشَّدِيدُ وَوَعِيدُهُ الْأَكِيدُ أَنْ تَخْرُجَ النِّسَاءُ مُتَعَطِّرَاتٍ»

ذَكَرَ النَّبِيُّ الْكَرِيمُ ﷺ أَنَّ الْمَرْأَةَ إِذَا اسْتَعْطَرَتْ -أَيْ، مَسَّتْ عِطْرًا- وَخَرَجَتْ، فَكُلُّ عَيْنٍ تَنْظُرُ إِلَيْهَا زَانِيَةٌ؛ وَالْمَرْأَةُ إِذَا مَسَّتْ طِيبًا فَلَا يَحِلُّ لَهَا أَنْ تَذْهَبَ إِلَى الْمَسْجِدِ، يَقُولُ النَّبِيُّ ﷺ: «**فَهِيَ زَانِيَةٌ، وَكُلُّ عَيْنٍ تَنْظُرُ إِلَيْهَا زَانِيَةٌ**».

«لَعَنَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْمُتَشَبِّهِينَ مِنَ الرِّجَالِ بِالنِّسَاءِ، وَالْمُتَشَبِّهَاتِ مِنَ النِّسَاءِ بِالرِّجَالِ».

عِنْدَ الْبُخَارِيِّ فِي «صَحِيحِهِ» عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَبَّاسٍ -رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهُمَا- أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «**لَعَنَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْمُتَشَبِّهِينَ مِنَ الرِّجَالِ بِالنِّسَاءِ، وَالْمُتَشَبِّهَاتِ مِنَ النِّسَاءِ بِالرِّجَالِ**».

فَلَعَنَ النَّبِيُّ ﷺ الْمُخَنَّثَ الَّذِي يَتَكَسَّرُ فِي كَلَامِهِ أَوْ لِبَاسِهِ أَوْ فِي مِشْيَتِهِ يَتَشَبَّهُ بِالنِّسَاءِ، فَهَذَا مَلْعُونٌ بِلَعْنَةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ.

وَلَعَنَ رَسُولُ اللهِ ﷺ الْمَرْأَةَ الْمُتَرَجِّلَةَ، فَجَعَلَهَا النَّبِيُّ ﷺ مَلْعُونَةً، وَاللَّعْنُ: هُوَ الطَّرْدُ مِنْ رَحْمَةِ اللهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَدُعَاءُ النَّبِيِّ ﷺ مُسْتَجَابٌ.

فَالْمُتَرَجِّلَةُ الْمُتَشَبِّهَةُ بِالرِّجَالِ فِي كَلَامِهَا أَوْ فِي حَرَكَاتِهَا أَوْ فِي ثِيَابِهَا أَوْ فِي حَرَكَةِ حَيَاتِهَا أَوْ فِي مُزَاحَمَتِهَا لِلرِّجَالِ بِكُلِّ سَبِيلٍ، هَذِهِ مَلْعُونَةٌ بِلَعْنَةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ.

«تَحْرِيمُ لُبْسِ الْفَتَاةِ أَوِ الْمَرْأَةِ لِلْبِنْطَالِ»

وَأَخْرَجَ أَبُو دَاوُدَ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى- بِسَنَدٍ صَحِيحٍ نَظِيفٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ -رَضِيَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى عَنْهُ- عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**لَعَنَ اللهُ -تَبَارَكَ وَتَعَالَى- مَنْ لَبِسَ لِبْسَةَ النِّسَاءِ مِنَ الرِّجَالِ، وَمَنْ لَبِسَتْ لِبْسَةَ الرِّجَالِ مِنَ النِّسَاءِ**» فِي مَعْنَى مَا قَالَ ﷺ.

فَكُلُّ امْرَأَةٍ تَتَّخِذُ الْبِنْطَالَ ثَوْبًا؛ فَهَذِهِ مَلْعُونَةٌ بِلَعْنَةِ اللهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ.

فَالنَّبِيَّ ﷺ لَعَنَ الْمَرْأَةَ الَّتِي تَتَّخِذُ لِبْسَةَ الرِّجَالِ، وَالْبِنْطَالُ مِنْ لِبَاسِ الرِّجَالِ كَمَا هُوَ مَعْلُومٌ، فَأَيُّمَا امْرَأَةٍ اتَّخَذَتْ ذَلِكَ ثَوْبًا وَلِبَاسًا فَهِيَ مَلْعُونَةٌ بِلَعْنَةِ اللهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ.

فَيَنْبَغِي لِمَنْ جَعَلَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ لَهُ وَلَايَةً أَنْ يَأْخُذَ عَلَى يَدَيْ مَنْ فَعَلَتْ ذَلِكَ وَأَلَّا يُمَكِّنَهَا مِنْ ذَلِكَ؛ فَإِنَّهُ مَسْئُولٌ؛ لِأَنَّ النبيَّ ﷺ قَالَ: «**كُلُّكُمْ رَاعٍ، وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، الرَّجُلُ فِي بَيْتِهِ رَاعٍ وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ**».

«الْوَعِيدُ الشَّدِيدُ لِلْكَاسِيَاتِ الْعَارِيَاتِ»

يَقُولُ النَّبِيُّ ﷺ: «**صِنْفَانِ مِنْ أَهْلِ النَّارِ لَمْ أَرَهُمَا** -يَعْنِي لَمْ يَكُنْ لِهَذَيْنِ الصِّنْفَيْنِ مِنْ وُجُودٍ فِي زَمَنِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَذَكَرَ: «**وَنِسَاءٌ كَاسِيَاتٌ عَارِيَاتٌ مُمِيلَاتٌ مَائِلَاتٌ، رُءُوسُهُنَّ كَأَسْنِمَةِ الْبُخْتِ الْمَائِلَةِ، لَا يَدْخُلْنَ الْجَنَّةَ وَلَا يَجِدْنَ رِيحَهَا، وَإِنَّ رِيحَهَا لَيُوجَدُ مِنْ مَسِيرَةِ كَذَا وَكَذَا**».

«**وَنِسَاءٌ كَاسِيَاتٌ عَارِيَاتٌ**»: حَتَّى وَلَوْ كَانَتْ قَدْ جَعَلَتِ السِّدَالَ قَائِمًا، فَلَا يُبْصَرُ مِنْهَا شَيْءٌ، كَاسِيَةٌ عَارِيَةٌ مِنَ التَّقْوَى بَاطِنًا؛ فَهِيَ دَاخِلَةٌ، أَوْ هِيَ كَاسِيَةٌ بِشُفُوفٍ تَشِفُّ وَثِيَابٍ تَصِفُ، ثُمَّ هِيَ كَاسِيَةٌ عَارِيَةٌ فِي آنٍ وَاحِدٍ، قَوْلَانِ لِأَهْلِ الْعِلْمِ.

يَقُولُ النَّبِيُّ ﷺ: «**مُمِيلَاتٌ مَائِلَاتٌ**»: تُمِيلُ بِالْخَنَا، فَهِيَ مَائِلَةٌ عَنِ الْحَقِّ ظَاهِرًا وَبَاطِنًا، «**مُمِيلَاتٌ مَائِلَاتٌ، رُءُوسُهُنَّ كَأَسْنِمَةِ الْبُخْتِ**»: وَالبُخْتُ: إِبِلٌ لَهَا سَنَامٌ يَمِيلُ بِقِمَّةِ الشَّعْرِ فِيهِ نَاحِيَةً، وَكَذَلِكَ تَجِدُ الْمَرْأَةَ مِنْ هَؤُلَاءِ كَاسِيَةً عَارِيَةً، تَخْرُجُ بِثِيَابٍ إِلَى الْأَجَانِبِ مِنْ غَيْرِ الْمَحَارِمِ مِمَّنْ لَا يَجُوزُ أَنْ يَنْظُرَ إِلَى شَيْءٍ مِنْهَا قَطُّ.

وَعَلَى الْمَرْأَةِ الَّتِي آمَنَتْ بِرَبِّهَا وَسَتَرَتْ جَسَدَهَا أَنْ تَتَّقِيَ اللهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ، فَلَا تَتَبَرَّجَ بِحِجَابِهَا، فَهَذَا شَيْءٌ شَائِنٌ لَا يَلِيقُ، وَالْحِجَابُ الْآنَ قَدْ تَبَرَّجَ، نَعَمْ صَارَ الْحِجَابُ يَحْتَاجُ حِجَابًا، فَقَدْ تَبَرَّجَ الْحِجَابُ!!

«اتَّقِ اللهَ فِي نَفْسِكَ، وَاتَّقِ فِتْنَةَ النِّسَاءِ، وَكَمَا تَدِينُ تُدَانُ»

فَعَلَى الْمَرْءِ أَنْ يَكُونَ وَاعِيًا، وَعَلَى الْمُسْلِمِ -وَعَلَى الْمُسْلِمَةِ أَيْضًا- أَنْ يَعْرِفَ طَرِيقَهُ إِلَى رَبِّهِ، فَالْحَيَاةُ مُنْقَضِيَةٌ أَيُّهَا الْأَحِبَّةُ، مُنْقَضِيَةٌ، ثُمَّ هِيَ لَيْسَتْ عَلَى الشَّبَابِ تَدُومُ، وَمَعْلُومٌ أَنَّ مَنْ تَوَرَّطَ فِي تِلْكَ الشَّهَوَاتِ؛ عُوقِبَ دُنْيَا وَآخِرَةً إِنْ لَمْ تَصِحَّ تَوْبَتُهُ، وَيَعُودُ إِلَى اللهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ، فَلَا بُدَّ أَنْ يُعَاقَبَ، وَالْجَزَاءُ مِنْ جِنْسِ الْعَمَلِ، كَمَا قَالَ الشَّاعِرُ الْحَكِيمُ:

مَنْ يَزْنِ فِي امْرَأَةٍ بِأَلْفَيْ دِرْهَمٍ *** فِي بَيْتِهِ يُـزْنَى بِغَيْرِ الدِّرْهَمِ

إِنَّ الزِّنَا دَيْنٌ فَإِنْ أَسْلَفْتَهُ *** كَانَ الْوَفَا مِنْ أَهْلِ بَيْتِكَ فَاعْلَمِ

وَالْمَرْأَةُ كَمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: هِيَ أَشَدُّ فِتْنَةٍ تُرِكَتْ قَطُّ بَعْدَ النَّبِيِّ -ﷺ-، وَأَشَدُّ خَطَرًا عَلَى الرِّجَالِ، «**مَا تَرَكْتُ فِتْنَةً هِيَ أَشَدُّ خَطَرًا عَلَى الرِّجَالِ مِنَ النِّسَاءِ**».

«**إِذَا ظَهَرَ الزِّنَا وَالرِّبَا فِي قَرْيَةٍ؛ فَقَدْ أَحَلُّوا بِأَنْفُسِهِمْ عَذَابَ اللَّهِ**».

وَالْمَرْأَةُ مُكَرَّمَةٌ فِي الْإِسْلَامِ؛ دِينِ الطَّهَارَةِ، دِينِ الْعِفَّةِ، وَأَمَّا هَذَا الَّذِي يَحْدُثُ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ؛ فَهُوَ -وَاللهِ- مُعَجِّلٌ بِالسُّقُوطِ فِي الْهَاوِيَةِ.

فَحُدُودُ اللهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ يَنْبَغِي أَلَّا تُعْتَدَى، وَمَحَارِمُ اللهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ يَنْبَغِي أَلَّا تُنْتَهَكَ، وَإِلَّا فَهُوَ الدَّمَارُ، وَهُوَ الْخَرَابُ؛ لِأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَدْ أَخْبَرَ أَنَّهُ «**إِذَا ظَهَرَ الزِّنَا وَالرِّبَا فِي قَرْيَةٍ؛ فَقَدْ أَحَلُّوا** -أَيْ: أَنْزَلُوا- **بِأَنْفُسِهِمْ عَذَابَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ**».

فَيَنْبَغِي عَلَيْنَا أَنْ نَعُودَ مِنْ قَرِيبٍ، وَأَنْ نَفْزَعَ إِلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَأَنْ نَتْرُكَ الْمَعَاصِيَ جَانِبًا، وَأَنْ نُغَادِرَ هَذَا الْفُحْشَ الْفَاحِشَ الَّذِي تَعَجُّ بِهِ الدُّنْيَا.

اللَّهُمَّ اسْتُرْنَا بِسِتْرِكَ الْجَمِيلِ، وَاجْعَلْ تَحْتَ السِّتْرِ مَا يُرْضِيكَ، فَيَا طَالَمَا سَتَرْتَ عَلَى مَا لَا يُرْضِيكَ.

وَصَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ عَلَى نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ ﷺ(١).

---

(١)«مِنْ خُطْبَةِ: الْحَرْبُ بِالْفَوَاحِشِ - الْجُمُعَةَ ٢٢ مِنْ جُمَادَى الْأُولَى ١٤٢٨هـ الْمُوَافِقَ ٨-٦-٢٠٠٧م».

«الْمَوْعِظَةُ الرَّابِعَةُ وَالعِشْرُونَ»

«سَلَامَةُ الصَّدْرِ»

إنَّ الْحَمْدَ لِلَّهِ نَحْمَدُهُ، وَنَسْتَعِينُهُ وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِاللَّـه مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللَّـهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَا هَادِيَ لَهُ.

وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّـهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ.

وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ ﷺ.

أَمَّا بَعْدُ:

«وُجوبُ اجْتِهَادِ المُسْلِمِ فِي الخَلَاصِ مِنَ الشِّرْكِ وَالشَّحْنَاءِ»

فَإِنَّ الْمَرْءَ يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ حَرِيصًا عَلَى أَنْ يَكُونَ طَاهِرَ الجَنَانِ، مُبَرَّأَ الْأَرْكَانِ مِنْ أَنْ يَكُونَ وَاقِعًا فِيمَا يُغْضِبُ الْعَزِيزَ الدَّيَّانَ؛ بَلْ يَكُونُ بَاحِثًا عَنْ مَرْضَاةِ الرَّحِيمِ الرَّحْمَنِ.

عَلَى الْمَرْءِ أَنْ يَكُونَ مُجْتَهِدًا فِي الْخَلَاصِ مِنَ الشِّرْكِ ظَاهِرًا وَبَاطِنًا؛ بِتَصْفِيَةِ الْقَلْبِ مِمَّا يَعْلَقُ بِهِ مِنَ الشَّوَائِبِ، وَمَا يَجُرُّ إِلَيْهِ الشِّرْكُ مِنْ تِلْكَ الْمَادَّةِ الْقَذِرَةِ بِالحَمْئَةِ الْمَسْنُونَةِ؛ مِنْ تِلْكَ الشَّحْنَاءِ بِالْبَغْضَاءِ، بِالْغِلِّ، بِالْحَسَدِ.

وَيَا للهِ! هَلْ تَجِدُ أَحَدًا مِنَ الْمُسْلِمِينَ نَقِيَّ الْفِطْرَةِ سَوِيَّ الطَّوِيَّةِ يُمْكِنُ أَنْ يَنْطَوِيَ بَاطِنُهُ عَلَى مِثْلِ هَذَا القَذَرِ لِأَحَدٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ؟!

«**وَلَا يُؤمِنُ أَحَدُكُم حَتَّى يُحِبَّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ**» كَمَا قَالَ الرَّسُولُ ﷺ، لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُم إِيمَانًا صَحِيحًا كَامِلًا مُعْتَبَرًا فِي مِيزَانِ اللهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ مَقْبُولًا عِنْدَ اللهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ حَتَّى يُحِبَّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ؛ فَكَيْفَ بِتِلْكَ الْمَادَّةِ الْقَذِرَةِ مِنَ الشَّحْنَاءِ؛ مِنَ الحِقْدِ، مِنَ الْغِلِّ، مِنَ الْحَسَدِ، مِنَ الْبَغْضَاءِ، تَنْطَوِي عَلَيْهَا نَفْسٌ مُشَوَّهَةٌ حَتَّى يَتَشَوَّهَ الظَّاهِرُ تَبَعًا؟!

وَفِي «صَحِيح سُنَنِ ابْنِ مَاجَه» عَن عَبْدِ اللهِ بْن عَمْرو - رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا -: «قِيلَ لِلنَّبِيِّ ﷺ: مَن أَفْضَلُ النَّاسِ؟

فَقَالَ ﷺ: «**كُلُّ مَخْمُومِ القَلْبِ صَدُوقِ اللِّسَانِ** -كُلُّ مَخْمومِ القَلْبِ صَدُوقِ اللِّسَانِ هَذَا أَفْضَلُ النَّاسِ-».

فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ؛ صَدوق اللِّسَانِ عَرَفْنَاهُ؛ فَمَا مَخْمُومُ القَلْبِ؟

قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**هو التَّقِيُّ النَّقِيُّ الَّذِي لَا إِثْمَ فِيهِ وَلَا بَغْيَ، وَلَا غِلَّ فِيهِ وَلَا حَسَدَ**».

فَأَفْضَلُ الأَعْمَالِ عِنْدَ اللهِ رَبِّ العَالَمِينَ، وَأَفْضَلُ الخَلْقِ عِنْدَ اللهِ -جَلَّ وَعَلَا-: سَلَامَةُ الصَّدْرِ، وَمَنْ كَانَ عَن الغِلِّ وَالحَسَدِ مُنَزَّهًا، وَمِنْ ذَلِكَ مُبَرَّءًا.

عَلَى المَرْءِ أَنْ يَكُونَ مُجْتَهِدًا فِي الخَلَاصِ مِنَ الشِّرْكِ ظَاهِرًا وَبَاطِنًا بِتَصْفِيَةِ القَلْبِ مِمَّا يَعْلَقُ بِهِ مِنَ الشَّوَائِبِ، وَمَا يَجُرُّ إِلَيْهِ الشِّرْكُ مِنْ تِلْكَ المَادَّةِ القَذِرَةِ بِالحَمْئَةِ المَسْنُونَةِ مِنْ تِلْكَ الشَّحْنَاءِ، بِالبَغْضَاءِ، بِالغِلِّ، بِالحَسَدِ.

وَيَا للهِ! وَاللهِ لَو كُشِفَ الحِجَابُ؛ لَرَأَيْتَ هُنَاكَ نُفُوسًا وَرَاءَ تِلْكَ المَادَّةِ العَظْمِيَّةِ الجِلْدِيَّةِ اللَّحْمِيَّةِ نُفُوسًا سَبُعِيَّةً ونُفُوسًا كَلْبِيَّةً، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ أَجْنَاسِ الحَيَوَانَاتِ، كُلٌّ عَلَى حَسَبِ مَا صَارَ إِلَيْهِ مِنْ تِلْكَ المِيزَاتِ الَّتِي تَمَيَّزَتْ بِهَا تِلْكَ الحَيَوَانَاتِ، فَنَسْأَلُ اللهَ أَنْ يُطَهِّرَنَا مِنَ المَعَائِبِ ظَاهِرًا وَبَاطِنًا، إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ.

مِنَ العِبَادَاتِ العَظِيمَةِ -عِبَادَ اللهِ!-: تَخْلِيَةُ القَلْبِ للهِ رَبِّ العَالَمِينَ مُبَرَّءًا مِنْ كُلِّ عَيْبٍ، مُنَزَّهًا مِنْ كُلِّ شِرْكٍ، مُوَحِّدًا رَبَّهُ -جَلَّ وَعَلَا- تَوْحِيدًا صَحِيحًا بِالانْطِرَاحِ بَيْنَ يَدَيْهِ، وَبِالْانْطِرَاحِ عَلَى عَتَبَاتِ رَحَمَاتِهِ رَاجِيًا مَا عِنْدَهُ مِنَ الفَضْلِ، خَائِفًا مِمَّا لَدَيْهِ مِنَ العِقَابِ وَالعَذَابِ أَنْ يَنْزِلَ بِسَاحَتِهِ، رَاجِيًا وَخَائِفًا، مُقْبِلًا لَا مُدْبِرًا، مُتَقَصِّيًا أَثَرَ نَبِيِّهِ ﷺ ظاهرًا وباطنًا، بَعِيدًا عَنْ كُلِّ حِقْدٍ وَغِشٍ وَحَسَدٍ، مُنَقِّيًا لِذَاتِهِ مِنْ دَاخِلِهَا،

مَخْمُومَ القَلْبِ كَمَا قَالَ رَسُولُ الرّبِّ مُحَمَّدٍ ﷺ: «**أَفْضَلُ النَّاسِ: مَنْ كَانَ صَدُوقَ اللِّسَانِ مَخْمُومَ الْقَلْبِ، الَّذِي لَا يَنْطَوِي عَلَى إِثْمٍ وَلَا بَغْيٍ، التَّقِيُّ النَّقِيُّ الَّذِي لَا إِثْمَ فِيهِ وَلَا بَغْيَ، وَلَا غِلَّ فِيهِ وَلَا حِقْدَ وَلَا حَسَدَ**».

هَذَا حَدِيثٌ ثَابِتٌ عَنْ نَبِيِّكُم ﷺ، يُوَضِّحُ أَفْضَلَ النَّاسِ عِنْدَ اللهِ، وَأَكْرَمَ النَّاسِ فِي مِيزَانِ اللهِ رَبِّ العَالَمِينَ مَنْ هَذَّبَ النَّفْسَ وصَفَّاهَا، وَرَقَّ القَلْبَ وَأَعْلَاهُ عَلَى مَنْهَجِ اللهِ رَبِّ العَالَمِينَ كِتَابًا وَسُنَّةً، وَأَمَّا مَنْ دَسَّاهَا؛ فَقَدْ خَابَ كَمَا قَرَّرَ ربُّنَا -جَلَّ وَعَلَا- فِي كِتَابِهِ العَظِيمِ(١).

«صَلَاحُ المَرْءِ وَالحَيَاةِ بِصَلَاحِ القَلْبِ وَسَلَامَةِ الصَّدْرِ»

كَيْفَ يَصْلُحُ الْمَرْءُ؟ كَيْفَ تَصْلُحُ الْحَيَاةُ؟

كَمَا قَالَ رَسُولُ اللَّـهِ ﷺ: «**أَلَا وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً، إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ؛ أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ**».

كَيْفَ يَصْلُحُ الْقَلْبُ؟

يَصْلُحُ الْقَلْبُ بِالْخُلُوصِ مِنَ الشِّرْكِ، وَالْبِدْعَةِ، وَالْحِقْدِ، وَمَذْمُومِ الْخِصَالِ.. هَذَا صَلَاحُ الْقَلْبِ.

وَالنَّبِيُّ ﷺ رَتَّبَ الْجَزَاءَ عَلَى الشَّرْطِ: «**إِذَا صَلَحَتْ؛ صَلَحَ**»، «**أَلَا وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً**»: قِطْعَةٌ مِنَ اللَّحْمِ بِمِقْدَارِ مَا يُمْضَغُ -صَغِيرَةٌ هِيَ-، «**إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ؛ أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ**».

---

(١) «مِن خُطْبَةِ: مَا صَحَّ فِي لَيْلَةِ النِّصْفِ مِنْ شَعْبَانَ».

هُنَا جَزَاءٌ قَدْ رُتِّبَ عَلَى شَرْطِهِ؛ فَلَا صَلَاحَ إِلَّا بِصَلَاحٍ، لَا صَلَاحَ لِلْجَسَدِ...لَا صَلَاحَ لِلْحَيَاةِ إِلَّا بِصَلَاحِ الْقَلْبِ -كَمَا قَالَ رَسُولُ اللَّـهِ-، وَإِذَا فَسَدَ الْقَلْبُ؛ فَسَدَ الْجَسَدُ، وَفَسَدَتِ الْحَيَاةُ.

كَيْفَ صَلَاحُ الْقَلْبِ -إِذَنْ-؟

بِخُلُوصِهِ مِنَ الشِّرْكِ، وَخُلُوصِهِ مِنَ الْبِدْعَةِ، وَخُلُوصِهِ مِنَ الْحِقْدِ وَمَذْمُومِ الْخِصَالِ.

النَّاسُ لَا تَحْيَا بِالْأَجْسَادِ؛ تَحْيَا بِالْقُلُوبِ، بِالْأَرْوَاحِ، وَإِنْ كَانَتْ هُنَالِكَ مُعَلَّقَةً بَيْنَ الْحَيَاةِ وَالْمَوْتِ بِنَفَسٍ يَتَرَدَّدُ، بِنَفَسٍ يَتَرَدَّدُ، لَا يَأْتِي مِنْ دَاخِلٍ؛ وَإِنَّمَا يُفْرَضُ عَلَى الرِّئَتَيْنِ فَرْضًا، يُفْرَضُ فَرْضًا، يُفْرَضُ فَرْضًا، بِنَفَسٍ يَتَرَدَّدُ.

نَعَمْ! النَّاسُ تَحْيَا بِالْقُلُوبِ، بِالْأَرْوَاحِ، بِرَصِيدِ الرُّوحِ وَالْقَلْبِ، تَحْيَا فِي الْحَيَاةِ لَا بِشَبَقٍ يَحْيَا بِهِ الْمَرْءُ فِي كَثْرَةِ صِفَاتٍ كَأَنَّهُ عُصْفُورٌ، وَلَا بِتَحَمُّلٍ يَمْضِي بِهِ الْمَرْءُ فِي الْحَيَاةِ كَأَنَّهُ الْبَغْلُ أَوِ الْجَمَلُ.

لَا؛ وَإِنَّمَا هِيَ الْأَرْوَاحُ وَحَيَاةُ الْقُلُوبِ، بِرَصِيدٍ يَحْيَا بِهِ الْمَرْءُ، يَبْذُلُ بِهِ الْمَرْءُ، بِكَلِمَةٍ صَالِحَةٍ، وَعَمَلٍ مُطْمَئِنٍّ عَلَى قَرَارٍ، بِعَقِيدَةٍ ثَابِتَةٍ، فَإِذَا جَاءَ الْمَوْتُ؛ جَاءَتِ الشَّهَادَةُ -إِنْ شَاءَ اللَّـهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ-، وَالْأَمْرُ بَعْدُ بِيَدِ اللَّـهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ، يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ، وَيَحْكُمُ مَا يُرِيدُ، وَإِلَيْهِ الْمَرْجِعُ وَالْمُنْتَهى، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ.

فَاللَّهُمَّ مُنَّ بِحُسْنِ الْخَاتِمَةِ، مُنَّ بِحُسْنِ الْخَاتِمَةِ، مُنَّ بِحُسْنِ الْخَاتِمَةِ؛ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ.

قَالَ رَسُولُ اللَّـهِ ﷺ: «**إِنَّ اللَّـهَ -عَزَّ وَجَلَّ- يُحِبُّ مَعَالِيَ الْأَخْلَاقِ، وَيَكْرَهُ سَفْسَافَهَا**»، السَّفْسَافُ كَالْعَسَلِ فِي ظَاهِرِهِ، وَمَنْ وَقَعَ فِيهِ فَهُوَ كَالذُّبَابِ فِي ظَاهِرِهِ وَبَاطِنِهِ، لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَتَخَلَّصَ مِنْهُ، وَلَا أَنْ يَنْفَكَّ عَنْهُ.

فَحَذَارِ، فَحَذَارِ، فَحَذَارِ أَنْ تَتَوَرَّطَ فِي ذَلِكَ؛ فَإِنَّ الْعُمُرَ قَصِيرٌ.

عَلَيْكَ أَنْ تَتَخَلَّصَ مِنْ هَذِهِ الْأُمُورِ: مِنَ الشِّرْكِ، وَمِنَ الْبِدْعَةِ، وَمِنَ الْحِقْدِ خَاصَّةً.

وَهَذَا الْحِقْدُ مَا هُوَ؟

الْغَضَبُ إِنْ لَمْ يَسْتَطِعِ الْمَرْءُ لَهُ إِنْفَاذًا، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ مُخْرِجًا؛ كُظِمَ -لَا دِينًا؛ وَإِنَّمَا عَجْزًا-؛ يَصِيرُ حِقْدًا، يَسْتَثْقِلُ بِهِ الْمَرْءُ الْمَحْقُودَ عَلَيْهِ -يَسْتَثْقِلُهُ-، يَكْرَهُ النِّعْمَةَ الْوَاصِلَةَ إِلَيْهِ، يَتَمَنَّى لَهُ الْهَلَاكَ، وَيَكْرَهُ لَهُ الْخَيْرَ، يَحْقِدُ عَلَيْهِ؛ كَالْجَمَلِ إِذَا أَنْفَذَ غَضَبَهُ مِنْ بَعْدِ كَظْمِهِ -وَكَانَ قَبْلُ كَظِيمًا-، فَإِذَا أُطْلِقَ -فَإِذَا أُطْلِقَ-؛ فَإِنَّهُ حِينَئِذٍ يُنْفِذُ غَضَبَهُ حِقْدًا مَسْمُومًا.

فَإِنَّ الصَّفْحَ وَالتَّسَامُحَ وَالصَّبْرَ وَالْوَفَاءَ وَالْبَذْلَ؛ كُلُّ أُولَئِكَ خِصَالٌ مَحْمُودَةٌ، وَشِيَاةٌ مَرْمُوقَةٌ، كُلُّ أُولَئِكَ غَايَاتٌ تَتَقَطَّعُ دُونَ بُلُوغِهَا الْأَعْنَاقُ.

«الْقِيَمُ لَا تَتَجَزَّأُ، وَالْأَخْلَاقُ لَا تَتَبَعَّضُ»

قَدْ يَعْلَمُ الْمَرْءُ فِي نَفْسِهِ خَلَلًا بِاخْتِلَالِ صِفَةٍ مِنْ صِفَاتِ الْخَيْرِ فِيهِ، نَعَمْ! بِاخْتِلَالِ صِفَةٍ يَضَعُ الْيَدَ عَلَيْهَا عِنْدَ تَفْتِيشِهِ فِي أَطْوَاءِ قَلْبِهِ وَمَطَاوِيهِ، فَيَضَعُ الْيَدَ عَلَيْهَا هُنَا، هُنَا خَلَلٌ يَحْتَاجُ إِصْلَاحًا، وَلَا يُصْلِحُ الْقُلُوبَ إِلَّا الَّذِي فَطَرَهَا، هُنَا، هَذَا الْخَلَلُ قَدْ يَلْتَهِمُ الْحَيَاةَ وَلَا يُصْلَحُ، قَدْ يُمْضِي الْمَرْءُ عُمْرَهُ فِي إِصْلَاحِ خَلَلٍ وَاحِدٍ فِي مَنْظُومَةِ الْأَخْلَاقِ.

وَهِيَ مَنْظُومَةٌ مُتَكَامِلَةٌ؛ فَإِنَّ الْقِيَمَ لَا تَتَبَعَّضُ، وَالْأَخْلَاقُ لَا تَتَجَزَّأُ، نَعَمْ لَا عَلَى اعْتِبَارِ الْمَجْمُوعِ، وَلَا عَلَى اعْتِبَارِ الْأَزْمَانِ وَالْحَالَاتِ.

الْقِيَمُ لَا تَتَبَعَّضُ، الْأَخْلَاقُ لَا تَتَجَزَّأُ، لَا عَلَى اعْتِبَارِ الْمَجْمُوعِ؛ بِمَعْنَى: أَنَّ الْعَبْدَ يُرِيدُ أَنْ يَكُونَ وَفِيًّا وَهُوَ خَائِنٌ، يُرِيدُ أَنْ يَكُونَ مُخْلِصًا وَهُوَ غَدَّارٌ، يُرِيدُ أَنْ يَكُونَ بَذُولًا وَهُوَ شَحِيحٌ بَخِيلٌ، يُرِيدُ أَنْ يَكُونَ مُحَصِّلًا لِخُلُقٍ فَاقِدًا لِبَقِيَّةِ الْأَخْلَاقِ، لَا تَتَجَزَّأُ الْقِيَمُ، كُلٌّ فَاعِلٌ بِحَيَاةٍ، فَإِذَا مَا تَجَزَّأَ؛ صَارَ كَائِنًا مُشَوَّهًا لَا يَمُتُّ بِصِلَةٍ إِلَى الْأَخْلَاقِ.

الْقِيَمُ لَا تَتَجَزَّأُ، وَالْأَخْلَاقُ لَا تَتَبَعَّضُ، لَا بِاعْتِبَارِ الْمَجْمُوعِ، وَلَا بِاعْتِبَارِ الْحَالاتِ، يَعْنِي: تَأْتِي الْفُرْصَةُ السَّانِحَةُ لِلْخِيَانَةِ وَالْمَرْءُ عَلَى خُلُقِ الْوَفَاءِ، فَيُنَحِّيهِ جَانِبًا وَيُوَاقِعُ الْخِيَانَةَ، ثُمَّ يَرْتَدِي لَبُوسَ الْوَفَاءِ!

لَا؛ لَا بِاعْتِبَارِ الْحَالَاتِ وَلَا بِاعْتِبَارِ الْأَزْمَانِ: أَنْ يَكُونَ أُسْبُوعًا وَفِيًّا وَأُسْبُوعًا عَلَى الْغَدْرِ مُقِيمًا، أَنْ يَكُونَ أُسْبُوعًا مُخْلِصًا وَأُسْبُوعًا عَلَى الشِّرْكِ وَالْكُفْرَانِ قَائِمٌ وَدَائِمٌ وَمُقِيمٌ!

لَا تَتَبَعَّضُ؛ لَا عَلَى اعْتِبَارِ الْمَجْمُوعِ، وَلَا عَلَى اعْتِبَارِ الْأَزْمَانِ وَالْحَالَاتِ.

«الْأَخْلَاقُ كُلُّهَا مَجْمُوعَةٌ مِنْ جَمِيعِ أَقْطَارِهَا فِي مُحَمَّدٍ ﷺ»

فَإِذَا نَظَرْتَ إِلَى سَيِّدِ الْكَائِنَاتِ؛ وَجَدْتَ الْأَخْلَاقَ كُلَّهَا مَجْمُوعَةً بِجَمْعِهَا مِنْ جَمِيعِ أَقْطَارِهَا فِي مُحَمَّدٍ ﷺ.

وَمَجَالُ الْعَظَمَةِ فِيهِ جَعَلَتْ أَقْطَابَ الْقَائِمِينَ عَلَى عَظَمَتِهِ بِمُفْرَدِهَا مُنْحَازَةً إِلَيْهِ دَائِرَةً فِي فَلَكِهِ وَحَوْلَهُ ﷺ؛ فَتَجِدُ عُمَرَ بَعْدَ أَبِي بَكْرٍ، مَعَ عُثْمَانَ، وَعَلِيٍّ، وَطَلْحَةَ، وَالزُّبَيْرِ، وَعَبْدِ الرَّحْمَنِ، وَسَعِيدِ بْنِ زَيْدٍ؛ تَجِدُ الصَّحَابَةَ مِمَّنْ شَهِدَ الْعَقَبَةَ، وَمِمَّنْ شَهِدَ بَدْرًا، وَمِمَّنْ شَهِدَ بَيْعَةَ الرِّضْوَانِ، تَجِدُ الصَّحَابَةَ مِمَّن كَانَ سَابِقًا إِلَى دِينِ اللَّـهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ فِيهِ أَوَّلًا، تَجِدُ الصَّحَابَةَ -رِضْوَانُ اللَّـهِ عَلَيْهِمْ- تَجِدُ كُلًّا فِيهِ مِنْ مَجَالِ الْعَظَمَةِ مَا قَدْ تَفَرَّدَ بِهِ؛ فَهَذَا أَبُو بَكْرٍ نَمُوذَجٌ قَائِمٌ بِذَاتِهِ، وَهَذَا عُمَرُ نَمُوذَجٌ قَائِمٌ بِذَاتِهِ، وَهَذَا عُثْمَانُ نَمُوذَجٌ قَائِمٌ بِذَاتِهِ، وَهَذَا عَلِيٌّ.. وَهَكَذَا، فِي كُلٍّ مِنْ هَؤُلَاءِ عَظَمَةٌ مُتَفَرِّدَةٌ وَقَعَتْ عَلَى مَا يُوَازِيها، لَا مَا يُسَاوِيها، وَلَا مَا يُمَاثِلُهَا، وَلَا مَا يُنَاظِرُهَا فِي رَسُولِ اللَّـهِ، فَاجْتَمَعَ هَذَا كُلُّهُ فِيهِ؛ فَأَيُّ كَمَالٍ؟!

وَالْمَرْءُ يُحَاوِلُ إِذَا وَضَعَ يَدَهُ عَلَى مَوْطِنِ الْخَلَلِ فِيهِ -فِي قَلْبِهِ-، فِي قَلْبِهِ؛ لِأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ لَمَّا قَالَ: «**إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ**» دَلَّ عَلَى أَنَّهُ يَجِبُ أَنْ يُهْتَمَّ بِالْقَلْبِ فَوْقَ الِاهْتِمَامِ بِالْجَسَدِ: أَنْ يُفَتَّشَ فِيهِ، وَأَنْ يُبْحَثَ فِي أَحْوَالِهِ وَتَقَلُّبَاتِهِ؛ حَتَّى يَسْتَطِيعَ الْإِنْسَانُ أَنْ يَعْلَمَ أَيْنَ الْخَلَلُ، وَحَتَّى يَدْرِيَ مِنْ أَيْنَ يَبْدَأُ الْإِصْلَاحَ فِي الْقَلْبِ الَّذِي تَدَاعَى -أَوْ أَوْشَكَ عَلَى التَّدَاعِي-، فِي الْقَلْبِ الَّذِي تَصَدَّعَ، فَشَارَفَ التَّهَالُكَ مُتَهَدِّمًا؛ حَتَّى يَسْتَطِيعَ الْإِنْسَانُ أَنْ يَعْلَمَ أَيْنَ هُوَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ.

النَّبِيُّ ﷺ كُلُّ ذَلِكَ مَجْمُوعٌ فِيهِ ﷺ-؛ فَأَيُّ عَظَمَةٍ؟!

لَا يُمْكِنُ أَنْ تَتَصَوَّرَهُ، إِنْ شِئْتَ الْكَمَالَ فِي كُلِّ خَصْلَةٍ مَحْمُودَةٍ عَلَى أَتَمِّ مَا تَكُونُ فِي بَشَرٍ؛ فَهِيَ عَلَى رَسُولِ اللَّـهِ قَائِمَةٌ مَاثِلَةٌ بَائِنَةٌ ظَاهِرَةٌ -بَائِنَةٌ مِنَ الظُّهُورِ، لَا مِنَ الْبَيْنِ وَالْبُعْدِ، وَإِنَّمَا مِنَ الظُّهُورِ؛ فَقَدْ بَانَتْ فِيهِ، لَا مِنْهُ وَلَا عَنْهُ ﷺ-(١).

«وَظِيفَةُ الدِّينِ فِي الْحَيَاةِ»

إِنَّمَا وَظِيفَةُ الدِّينِ فِي الْحَيَاةِ: أَنْ يُغَيِّرَ الْمَرْءَ مِمَّا هُوَ عَلَيْهِ مِنْ ضَلَالٍ وَانْحِرَافٍ، وَسُوءِ سِيرَةٍ، وَسُوءِ طَوِيَّةٍ، وَسُوءِ قَصْدٍ، يُغَيِّرَهُ الدِّينُ إِلَى مَا يُحِبُّهُ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ وَيَرْضَاهُ بَاطِنًا وَظَاهِرًا.
فَإِذَا كَانَ عَاجِزًا عَنِ التَّغْيِيرِ؛ فَقُلْ لِي بِرَبِّكَ: فَأَيَّ شَيْءٍ أَفَادَهُ دِيْنُ اللهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ؟!
وَبِأَيِّ شَيْءٍ مِنْ دِيْنِ اللهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ اسْتَفَادَ وَانْتَفَعَ؟!

«أَصْحَابُ النَّبِيِّ -رِضْوَانُ اللهِ عَلَيْهِمْ- أَكْرَمُ الْخَلْقِ عِنْدَ اللهِ بَعْدَ الْأَنْبِيَاءِ»

النَّبِيُّ ﷺ كَانَ أَصْحَابُهُ -رِضْوَانُ اللهِ عَلَيْهِمْ- أَكْرَمَ الْخَلْقِ عِنْدَ اللهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ بَعْدَ الْأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ.
كَانَ الصَّحَابَةُ يَتَأَثَّرُونَ مُحَمَّدًا ﷺ، وَيَتَتَبَّعُونَ أَحْوَالَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ، وَرَضِيَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ عَنْهُمْ-.

---

(١)«من خطبة: بين الحياة والموت – الجمعة ١١ من شعبان ١٤٢٨هـ/ ٢٠٠٧/٨/٢٤م».

عَلَى الْمَرْءِ أَنْ يُصْلِحَ مَا أَفْسَدَهُ، وَعَلَى الْإِنْسَانِ أَنْ يَصِلَ مَا قَطَعَهُ، وَعَلَى الْمَرْءِ أَنْ يَكُونَ مُتَوَقِّيًا حَذِرًا؛ فَإِنَّ التَّقْوَى كَمَا بَيَّنَ أُبَيٌّ -رِضْوَانُ اللهِ عَلَيْهِ- لِلْفَارُوقِ عُمَرَ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وَأَرْضَاهُ- إِذْ يَسْأَلُهُ وَهُوَ الْفَارُوقُ؛ فَيَقُولُ: يَا أُبَيُّ؛ مَا التَّقْوَى؟ فَيَقُولُ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ؛ أَمَا سِرْتَ فِي طَرِيقٍ ذِي شَوْكٍ؟ قَالَ: بَلَى. قَالَ: مَا صَنَعْتَ؟ قَالَ: شَمَّرْتُ وَاجْتَهَدْتُ. قَالَ: فَتِلْكَ التَّقْوَى.

فَانْظُر إِلَى هَذَا الصَّحَابِيِّ الْجَلِيلِ -الَّذِي هُوَ أَقْرَأُ أُمَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ-: كَيْفَ نَوَّرَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ بَصِيرَتَهُ، وَأَلْقَى اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ النُّورَ عَلَى لِسَانِهِ، وَحَمَلَ عُمَرَ -رِضْوَانُ اللهِ عَلَيْهِ-؛ حَمَلَهُ مِنْ وَادِي الْمَعَانِي إِلَى وَادِي الْمَبَانِي، وَأَخَذَ بِيَدِهِ -رِضْوَانُ اللهِ عَلَيْهِمَا- إِلَى وَسِيلَةٍ تَوْضِيحِيَّةٍ تَعْلِيمِيَّةٍ ظَاهِرَةٍ بِأَمْرٍ حِسِّيٍّ مَعْلُومٍ مُشَاهَدٍ -بَلْ هُوَ مُجَرَّبٌ-؛ لِأَنَّهُ سَأَلَهُ

عَمَّا يَصْنَعُ عِنْدَمَا يَسِيرُ فِي طَرِيقٍ ذِي شَوْكٍ، فَقَرَّرَهُ بَدْءًا:

أَمَا سِرْتَ فِي طَرِيقٍ ذِي شَوْكٍ؟

«دَرْبُ الْحَيَاةِ مَلِيءٌ بِأَشْوَاكِهَا»

هَذَا دَرْبُ الْحَيَاةِ مَلِيءٌ بِأَشْوَاكِهَا، مَلِيءٌ بِأَشْوَاكِ الْحَيَاةِ فِي التَّعَامُلِ مَعَ الخَلْقِ، فِي التَّعَامُلِ مَعَ الخَلْقِ المُفْضِي حَتْمًا إِلَى شَحْنَاءَ لَا يُحِبُّهَا اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ وَلَا يَرْضَاهَا، إِلَى أَحْقَادٍ وَأَحْسَادٍ، إِلَى هُمُومٍ وَغُمُومٍ، إِلَى ظُلْمٍ وَطُغْيَانٍ وَعُدْوَانٍ.

وَكَذَا التَّعَامُلُ مَعَ الْبَشَرِ، كَمَا قَالَ الشَّاعِرُ الْأَوَّلُ:

عَوَى الذِّئْبُ فَاسْتَأْنَسْتُ بِالذِّئْبِ إِذْ عَوَى
وَصَـــوَّتَ إِنْسَـــانٌ فَـكِـدتُّ أَطِيــرُ

هَكَذَا، هَكَذَا فِي دَرْبِ الْحَيَاةِ، فِي أَشْوَاكِهَا؛ فَعَلَى الْمَرْءِ أَنْ يَكُونَ مُتَوَقِّيًا، وَأَنْ يُعْطِيَ كُلَّ ذِي حَقٍّ حَقَّهُ، وَأَنْ يَأْخُذَ بِزِمَامِ الْقَلْبِ بِيَدٍ مِنْ حَدِيدٍ؛ حَتَّى يُقِيمَهُ عَلَى صِرَاطِ رَبِّنَا الْحَمِيدِ؛ حَتَّى لَا يَزِلَّ وَلَا يَضِلَّ، وَحَتَّى لَا يَأْخُذَ الهَوَى بِزِمَامِ قَلْبِهِ، فَيُطَوِّحَ بِهِ فِي مَطَارِحَ لَا تَلِيقُ بِمُؤْمِنٍ أَبَدًا؛ فَضْلًا عَنْ أَنْ يَكُونَ مُحْسِنًا، فَضْلًا عَنْ أَنْ يَكُونَ لِلْغُفْرَانِ رَاجِيًا.

فَهَذَا هَذَا -عِبَادَ اللهِ!-.

فَاللَّهُمَّ طَهِّرْنَا وَبَرِّئْنَا مِنَ الشِّرْكِ ظَاهِرًا وَبَاطِنًا.
اللَّهُمَّ طَهِّرْنَا مِنَ الشَّحْنَاءِ ظَاهِرًا وَبَاطِنًا.
وَصَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ عَلَى نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ ﷺ(١).

---

(١)«مِنْ خُطْبَةِ: مَا صَحَّ فِي لَيْلَةِ النِّصْفِ مِنْ شَعْبَانَ».

«المَوْعِظَةُ الخَامِسَةُ وَالعِشْرونَ»

«تَوَقَّفْ!! فَإِنَّ الحَيَاةَ فُرْصَةٌ وَاحِدَةٌ لَا تَتَكَرَّرُ»

إنَّ الْحَمْدَ لِلَّهِ نَحْمَدُهُ، وَنَسْتَعِينُهُ وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِاللَّـه مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللَّـهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَا هَادِيَ لَهُ.

وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّـهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ.

وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ -صَلَّى اللَّـهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ-.

أَمَّا بَعْدُ:

فَإِنَّ أَصْدَقَ الْحَدِيثِ كِتَابُ اللَّـهِ، وَخَيْرَ الْهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّدٍ -صَلَّى اللَّـهُ عَلَيْهِ وآلِهِ وَسَلَّمَ-، وَشَرَّ الْأُمُورِ مُحْدَثَاتُهَا، وَكُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ، وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ، وَكُلَّ ضَلَالَةٍ فِي النَّارِ.

أَمَّا بَعْدُ:

فإنَّ السَّواءَ النفسيَّ أَمْرٌ عزيزٌ في البَّشَرِ، قد تَحْيَى حَيَاتَكَ كُلَّهَا لا تَرَى رَجُلًا سويًّا قد حَصَّلَ السَّواءَ النَّفْسيَّ كما ينبغي أنْ يُحصِّلَهُ، البَشَرُ دائمًا يحيَونَ في الأكاذيب، يستمرئونَها، ويُبغِضِونَ الحقائقَ، ويُبغِضُونَ مَن يُواجِهُهُم بها؛ لأنَّ الإنسانَ يُشارِكُ في صُنْعِ نفسيتِهِ، وفي تهيئةِ خلفيتِهِ العقليةِ والفِكريةِ.

كثيرًا مِن الأمورِ؛ لا ينفردُ أمرٌ واحدٌ بتشكيلِ نَفْسيةِ المرءِ، وإنَّمَا يشاركُ في صُنْعِ هذه النَّفْسيةِ أطرافٌ كثيرةٌ، وهذه الأطرافُ قد تكونُ مُتعارِضَةً، فيقعُ الصِّرَاعُ النَّفسيُّ على المستوى الشخصيِّ، ورُبَّمَا أَدَّى إلى كثيرٍ مِن الأمراضِ التي لا تُنْظَرُ ولا تُحَسُّ، السببُ في ذلك: أنَّ الإنسانَ لا يُحَدِّدُ طريقَهُ برويَّةٍ وفِكْرٍ وعقلٍ، وإنَّمَا يجدُ نَفْسَهُ في مجتمعٍ ما؛ في

زمانٍ ما؛ في ظروفٍ ما؛ في وقتٍ ما؛ على هيئةٍ ما، خُلِقَا لأبويْن لم يخترهُمَا، وفي ظروفٍ اجتماعيةٍ وعِلميةٍ واقتصاديةٍ لَم يُحَدِّدهَا، ثم يمضي في الحياةِ، ويَظلُّ ماضيًا فيها على حَسَبِ النُّقْطةِ التي بَدَأَ مِنْهَا، قد تكونُ البدايةُ غَيْرَ صحيحةٍ، فَكُلَّمَا أَمْعَنَ واجتهدَ في السَّيْرِ؛ ابْتَعَدَ عن الغايةِ.

والأمرُ يسيرٌ، لو أننا الآنَ نُريدُ أنْ نَقِفَ مِن أجلِ الصلاةِ؛ نتوجهُ إلى قِبْلَةِ اللهِ -جلَّ وَعَلَا-، لو أَخَذْنَا خَطًّا مِن النُّقطةِ التي نَقِفُ عليها -خَطًّا مُستقيمًا- يَصِلُ إلى سواءِ الكعبةِ، مع أنَّ ذلك لا يلزمُنَا بالتَّوجُّهِ إلى عينِهَا ما دُمْنَا لا نراها، ولَكِن نتوجهُ إلى جهتِهَا، على كلِّ حال؛ لو أنَّنَا أخذنا خَطًّا مُستقيمًا مِن النقطةِ التي نقفُ فيها مُهيِّئِينَ أَنْفُسنَا إلى الصلاةِ، مُتوجهينَ إلى قِبْلَةِ اللهِ، وهذا الخَطُّ المستقيمُ يبدأُ مِن بين أرجُلِنَا إلى سواءِ الكعبةِ المُشَرَّفَةِ، فانحرَفْنَا في بدايةِ الوقوفِ عن هذا الخَطِّ المستقيمِ الذي يَصِلُ إلى سواءِ الغايةِ التي نَتغيَّاهَا، انحرافُنَا عن هذا الخَطِّ درجةً واحدةً مِن الدرجاتِ الهندسيةِ المعروفةِ؛ كلَّمَا أَمْعَنَّا في السَّيرِ ابتعدْنَا عن الغايةِ، إذن البدايةُ لا يَتوقفُ المرءُ حينًا يسيرًا للنَّظَرِ فيها، وإنما يَمْضِي في طريقِهِ.

قد تكونُ بدأتَ بدايةً خاطئة، وُضِعْتَ في مكانٍ ما لم تُفَكِّر فيه، ولم تَلْتَفِتْ إلى عواقبِهِ ونتائجِهِ، الدليلُ على ذلك: أَنَّكَ رُبَّمَا لا تَعرفُ أحدًا في هذا الكَوْنِ غَيَّرَ مَسَارَ حياتِهِ بعد نظرٍ وفِكْرٍ ورَوِيَّةٍ، وأَخَذَ يتأملُ في حالِهِ ومآلِهِ، ثم تَبيَّنَ خَطَأ ما هو عليه؛ فَغَيَّرَ مَسَارَ حياتِهِ، أنت لا تَعْلَمُ مِن هؤلاءِ البَّشَرِ إلَّا أنهم يَمْضُونَ فيما وُجِدُوا فيه جَادِّينَ في تحصيلِ ما تَوَهَّمُوه؛ مع أنَّ هذا لا يكونُ إلَّا خيالًا وسَرَابًا.

النبيُّ ﷺ دَلَّنَا على أَمْرٍ ما، وهذا الأمرُ قد نُخالفُهُ كثيرًا -بَلْ نحن نُخالِفُهُ كثيرًا-، نَهَى النبيُّ -صلى الله عليه وعلى آله وسلم- أنْ يُضْرَبَ الصغيرُ على الصَّلاةِ إذا تَرَكَهَا حتى يَصِلَ إلى عَشْرَةِ سنوات: «**مُرُوا أولادَكُم بِالصَّلاةِ لِسَبْعٍ، واضْرِبُوهُم عَليهَا** -على تَرْكِهَا- **لِعَشْرٍ**».

فَمَنَعَ النبيُّ ﷺ الأمْرَ بالصلاةِ أَمْرًا جَازِمًا؛ لأنهُ لا يَلْزَمُهُ الصلاةَ، وليست بفَرْضٍ عليه، وإنَّمَا ينبغِي أنْ يُعَوَّدَ على ذلك؛ ولَكِنَّهُ يُؤْمَرُ أَمْرًا رفيقًا فيه ترغيبٌ وترهيبٌ؛ لا يَصِلُ إلى حَدِّ الضَّرْبِ، ولَكِن لا يُضْرَبُ إلَّا إذا بَلَغَ عَشْرَ سنواتٍ.

يقولُ النَّفْسِيُّونَ: إنهُ لا عُصَابَ في الكِبَرِ إلَّا بعُصَابٍ في الصِّغَرِ، يعني: لَن تجِدَ أحدًا أُصيبَ بالاكتئابِ أو بالفِصَامِ أو بالجنونِ أو بالهَلَاوِسِ السمعيةِ أو البصريةِ أو الحِسيَّةِ، بأيِّ مرضٍ نفسيٍّ؛ لن يُصَابَ به على كِبَرٍ إلَّا وقد بَدَأَت الإصابةُ به في الصِّغَرِ -في أيِّ سِنٍّ إلى سِتِّ سنوات-، فلا عُصَابَ في الكِبَرِ إلَّا بِعُصَابٍ في الصِّغَرِ؛ لذلك يُرْجِعُونَ ذلك إلى الخلفيَّةِ القديمةِ في حالِ الطفولةِ، الناسُ يَحْيَونَ دائمًا في الأوهامِ والأكاذيبِ، ويأخذونَ بِمَا يُسَمَّى بالحِيَلِ الدِّفَاعيَّةِ؛ مِن أَجْلِ أَلَّا ينكسرَ أمامَ نَفْسِهِ وأمامَ مُجتمعِهِ.

مِن الحِيَلِ النَّفسيةِ: شيءٌ معروفٌ، وهو التبريرُ، وكذلك مِن الحِيَلِ النَّفسيةِ: الإسْقَاط، وهو أَمْرٌ معروفٌ أيضًا، التبريرُ يعرفُهُ النَّاسُ جميعًا، ويضربونَ عليه المَثَل؛ ولَكنَّهُم لا يلتفتونَ إلى معناه، ولا يجتهدونَ في معرفةِ مَغْزَاه؛ حتى لا يأخذوا بتلكَ الحيلة الدِّفَاعيَّةِ مع وقوعِهِم في الأخطاءِ، فَيُبَرِّرُونَ لأَنْفُسِهِم أخطائَهُم.

تَذْكُرُونَ قِصَّةَ الثَّعْلَبِ الذي أرادَ أنْ يَتحصلَ على قِطْفِ العِنَبِ، وكان عاليًا، فأخذا يَثِبُ مِن أَجْلِ أنْ يُحَصِّلهُ، فَلَم يَبْلُغْهُ، ففي النهايةِ قالَ: هو حَامِض، فهذا تبريرٌ، تَجِدُ هذا كثيرًا عند الطلابِ مَثَلًا إذا مَا تَحَصَّلُوا على الثانوية، ثم تَقَدَّمُوا إلى كليةٍ مِن الكُليَّاتِ التي تتطلبُ مُقَدَّراتٍ وقُدُرَاتٍ خاصة، ويكونُ حريصًا غايةَ الحِرْصِ على الالتحاقِ بِهَا؛ فَيَفْشَلُ، فيقولُ إذا ما أُخْبِرَ بِفَشَلِهِ: تعلمونَ لو أنني قُبِلْتُ فيها؛ ما دَخَلْتُهَا، هل هذه كليَّة؟ هل هذا مُستقبل؟

هذا تبرير، وهو يحاولُ جاهدًا ألَّا ينكسرَ أمامَ نَفْسِهِ.

الناسُ في الجُملةِ يَحيَونَ في الأكاذيبِ، لا يُواجِهُونَ الحقائقَ، وإذا وَاجَههُم أحدٌ بالحقيقةِ عارية؛ فإنَّهُم يُبغضونَهُ ويُحاربونَهُ، مع أنَّ الحقيقةَ لا يُمكنُ أنْ يَمْتريَ فيها أَحَدٌ.

أيضًا: الإسقاطُ، وتَعْجَبُ غايةَ العَجَبِ عندما تجدُهُ في الحياةِ، ولا تكونُ مُطَّلِعًا على خلفيتِهِ ومغزاهُ، أبٌ قاسٍ فيه صَرَامَةٌ وخُشونةٌ وعُنْف؛ فَيَقْسُو على وَلَدِهِ قَسْوَةً مُفْرِطَةً مِنْ غيرِ ما مُبَرِّرٍ، وَعَمٌّ أليفٌ شفيقٌ رحيمٌ ودودٌ، يَحْنُو على ابنِ أخيهِ أكثرَ مِمَّا يحنو عليه أبوه، فماذا تَجِدُ؟

تَجِدُ الولدَ الذي يَقْسُو عليه أبوهُ؛ يَطْعَنُ ويَذُمُّ عَمَّهُ، هذا إسقاطٌ، هو لا يريدُ أنْ يَذُمَّ عَمَّهُ الذي يَحْنُو عليه ويرحمُهُ ويَوَدُّهُ، وإنَّمَا يريدُ بالذَّمِ وبالقَدْحِ أبَاهُ؛ ولكنَّهُ لا يُواجِهُ نَفْسَهُ؛ فماذا يصنعُ؟!

يُنْزِلُ سُخْطَهُ كُلَّهُ ونِقْمَتَهُ على عَمِّهِ الذي يرحمُهُ، هذا إسقاطٌ، نحنُ نفعلُ هذا طوالَ الوقتِ، الناسُ لا يُحِبُّونَ الحقيقةَ، وإذا وَاجَهَهُم أَحَدٌ بالحقيقةِ؛ أَبْغضوهُ كمَا يُبغضونَ الحقيقة.

مِن الحقائقِ الكُبْرَى في هذا الوجودِ: الموتُ، فإذا قُلْتَ لإنسانٍ: ستموت؛ بل أنتَ مَيِّت كما قالَ اللهُ -تباركَ وتَعَالَى- لِنَبيِّهِ: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ﴾؛ يعني: ستموتُ، وسيموتونَ، هذه حقيقةٌ لا يَمْتَرِي فيها أَحَدٌ، وكلُّ النَّاسِ يتأكدونَ غايةَ التَّأكُّدِ مِن هذه الحقيقةِ، ومع ذلك يُبغضونَهَا، ويُبْغِضُونَ مَن يُذَكِّرُهُم ويُواجِهُهُم بها، وإذا وُوجِهُوا بها فَتَذَكَّرُوهَا؛ لم يَعْملوا لَهَا، مع أنَّ اللهَ -تباركَ وتعالى- وَاجَهَ بِهَا نَبيَّهُ ومُصْطَفَاهُ، وأَحَبُّ الخَلْقِ إليه وأَشْرَفُ خَلْقِ اللهِ -جَلَّ وعَلَا-؛ فقال: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ﴾.

كثيرٌ مِن الأمورِ تبدأُ بدايةً خاطئةً، فيجبُ على الإنسانِ أنْ يتوقفَ:

لماذا أنتَ في هذا المَسَارِ؟

لماذا أنت في هذا السبيل؟

ما الذي أَوْجَدَكَ في هذا المجالِ الذي أنت فيه؟

لماذا تأخذُ بهذه الحِرْفَةِ؟ ولماذا تَمْتَهِنُ هذه المِهْنَة؟

ولماذا تتعاملُ مع الناسِ بهذا الأسلوبِ؟

ولماذا تُحَصِّلُ غاياتِكَ بهذه الأساليب؟

ينبغي على الإنسانِ أنْ يتوقفَ؛ لأنكَ لم تَبْدَأْ بِدَايةً اختياريةً، وإنَّمَا فُرِضَ عليكَ ذلك فَرْضًا، ولم تَتَوَقَّفْ مِن أَجْلِ أنْ تُرَاجِعَ، واللهُ ربُّ العالمينَ قد أَرْسَلَ إلينا نَبيَّهُ الكريم -صلى اللهُ عليه وآلِهِ وسلم- يُذَكِّرنَا بالحقائقِ، بِضَعْفِ الإنسانِ، فالإنسانُ ضعيفٌ، وخُلِقَ الإنسانُ مِن ضَعْفٍ، ويَحْيَى في الضَّعْفِ، ويموتُ ضعيفًا، ويُبْعَثُ يومَ القيامةِ بِلَا حَوْلٍ ولا حِيلة.

الإنسانُ لا يستطيعُ أبدًا أنْ يُواجِهَ نَفْسَهُ بِضَعْفِهِ، هل تَجِدُ مُتَكبرًا قَط يُقِرُّ بِضَعْفِ نَفْسهُ، وأنه لا حَوْلَ له و لا حيلة؟! مع أنَّ هذه حقيقةٌ لا يستطيعُ أنْ يفعلَ شيء؛ بل إنهُ لو حَاوَلَ أنْ يُثْبِتَ لِنَفْسِهِ قوتَهُ وقدرتَهُ بشيءٍ مِن ذَاتِهِ؛ بأنْ يرفعَ يَدَهُ مَثَلًا هكذا لَيْلًا طويلًا!! لا يستطيعُ، فإذا كان لا يستطيعُ السيطرةَ على عضوٍ مِن أعضائِهِ؛ فكيف بجَسدِهِ كلِّهِ؟! فكيف بمُستقبَلِهِ؟! فكيف بمستقبلِ الناسِ مِن حولِهِ؟!

ينبغي علينا أيُّها الأَحبَّة أنْ نَتَرَوَّى قليلًا؛ فإنَّ الحياةَ فرصةٌ واحدةٌ لا تتكررُ، وإذا مَضَت فَلَن تَعُودَ، والذي يَمْضِي مِنْهَا مِن غيرِ مَا نَفْعٍ ولا ثَمَرَةٍ ولا نتيجةٍ يُحَصِّلُهَا الإنسانُ، هذا هَدَرٌ ضَائِعٌ؛ بل إنهُ يكونُ في الجُملةِ على مَن ضَيَّعَهُ.

ستموتُ، حَتْمًا ستموت، هل يُمكنُ أنْ تُمَارِي في هذا؟!

مَن الذي يستطيعُ أنْ يقولَ أنهُ خَالِدٌ لن يموت؟!

سيموت.

فماذا تصنعُ؟!

منذُ أنْ وُلِدْتَ إلى يومِ لقاءِ رَبِّكَ زمانٌ محدودٌ، مسافةٌ زمنيَّةٌ لا تَمْتَدُّ طُولًا، ولَكِنْ يُمكنُ أنْ تَتَّسِعَ عَرْضًا بالبركةِ في العُمُرِ، بالبركةِ في الآثارِ، بِحُسْنِ الذِّكْرِ بَعْدَ الموتِ، بِمَا يَترُكُهُ الإنسانُ مِمَّا يدعو له به النَّاسُ الذين عَايَشَهُم وعَاصَرَهُم؛ بَلْ مَن لَم يُعَاصِرهُ مِمَّن يأتي بَعْدَهُ.

أُتْرُكْ أَثَرًا فِي الحيَاةِ يَذكُرُكَ بِه النَّاسُ بَعدَ أَنْ تَمضِيَ مِن هَذِهِ الحَيَاةِ...

لَا تَتْرُكْ أَثَرًا سَيِّئًا يَفْرَحُ النَّاسُ بِموتِكَ، وَبِتَخَلُّصِ الحيَاةِ مِنْكَ، وَيَقُولُونَ: كَانَ شَرًّا يَمضِي عَلَى الأَرضِ؛ وَلَكِنْ لِيَبكِيَ عَلَيكَ مَن يَبكِي بَعدَ أَنْ تَمُوتَ؛ لِأَنَّهُ يُحِسُّ أَنَّهُ فَقَدَ بِفَقْدِكَ بَعضَهُ، لَا أَنَّهُ تَخَلَّصَ مِن شَرٍّ كَانَ يَنبَغِي أَنْ يُزَالَ مِنَ الحيَاةِ.

الفُرصَةُ سَانِحَةٌ، وَالأَمرُ يَسِيرٌ، وَدَعْكَ مِنَ التَّهويلِ وَالتَّعقِيدِ؛ فَإِنَّ اللهَ لَم يَجْعَلِ الحُجَّةَ القَائمَةَ علَى البَشَرِ فِي الأَرضِ شَيئًا عَسِيرًا لَا يُنَال، وَلَا أَمرًا صَعْبًا لَا يُفهَم؛ بَلْ إِنَّ هَذا الأَمرَ مِن أَيسَرِ الأُمُورِ، وَإِلَّا مَا قَامَتْ حُجَّةُ اللهِ عَلَى خَلْقِهِ فِي أَرضِهِ!!

الأَمْرُ يَسِيرٌ، لَا تُعَقِّدِ الأُمُورَ، فَالعِلمُ قَرِيبُ المُتَنَاوَلِ، سَهلٌ دَانِي القِطَافِ، يَسْتَطِيعُ الإِنسَانُ أَنْ يُحَصِّلَ أصُولَه؛ لِأَنَّ العِلْمَ نُقطَةٌ كَثَّرَهَا الجَاهِلُون!!

دَعُوكُمْ مِنْ شَقْشَقَةِ الكَلَامِ، وَتَطوِيلِ البَيَانِ، وَالهَذَرِ الفَارِغِ الذِي لَا حَصِيلَةَ مِن تَحتِهِ، وَانظُرْ فِيمَا فَرَضَ اللهُ عَلَيكَ، وَمَا لِأَجلِهِ خَلَقَكَ اللهُ، فَحَصِّلْهُ وَأَقبِل عَلَيهِ، وأَقبِل عَلَى شَأنِكَ كَمَا أَمَرَ بِذَلِكَ نَبِيُّكَ ﷺ.

سَتَمُوتُ وَحْدَكَ، وَتُبْعَثُ وَحْدَك، وَتُسْأَلُ بَينَ يَدَي اللهِ وَحْدَك...

وَسَوْفُ تُحَاسَبُ عَلَى مَا أَظْهَرتَ وَمَا أَضْمَرت، وَسَوفُ تُحَاسَبُ عَلَى مَا قَدَّمتَ وَمَا أَخَّرت.

وَمَعلُومٌ أَنَّ الإِنسَانَ سَيَقِفُ بَينَ يَدَيْ رَبِّهِ -تَبَارَكَ وَتَعَالَى- كَمَا وَلَدَتْهُ أُمُّهُ، لَا يَخفَى عَلَى اللهِ مِنهُ شَيء، وَكُلُّ مَا قَدَّمَ فِي هَذِهِ الحَياة -فِي الفُرصَةِ التِي أَعطَاهُ اللهُ إِيَّاهَا- مَسطُورٌ مَكتُوبٌ ﴿أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ﴾؛ لِأَنَّهُ كَانَ يَظُنُّ أَنَّهُ لَا يُحصَى عَلَيهِ شَيء!!

بَل إِنَّ اللهَ سَيَسْتَنطِقُ الأَعضَاءَ؛ لِكَي تَنْطِقَ بِمَا عَمِلَ الإِنسَانُ فِي هَذِهِ الحَيَاة، وَمَا اقتَرفَهُ وَمَا اجتَنَاهُ؛ لِأَنَّ الإِنسَانَ سَيُدَافِعُ عَن نَفسِهِ أَمَامَ الله، وَاللهُ لَا تَخفَى عَلَيهِ خَافِيَة، وَلَكِنَّ الإِنسَانَ سَيَقِفُ يُدَافِعُ عَن نَفسِهِ أَمَامَ اللهِ عَمَّا اقتَرَفَتْ يَدَاهُ!!

فَيَقُولُ اللهُ رَبُّ العَالمِينَ: سَأَجعَلُ عَلَيكَ اليَومَ شَاهِدًا مِن نَفْسِك، فَمَا ظَلَمَهُ، وَإِنَّمَا عَدَلَ فِيهِ غَايَةَ العَدلِ، وَهُوَ -تَبَارَكَ وَتَعَالَى- عَلَى كُلِّ شَيءٍ قَدِيرٌ.

يَختِمُ عَلَى فَمِهِ، وَيَأمُرُ أَعضَاءَهُ بِأَنْ تَنطِقَ بِمَا عَمِلَتْ فِي هَذِهِ الحَيَاة، وَمَا اقتَرَفَتْ مِن السَّيِّئاتِ وَالخَطَايَا وَالذُّنُوبِ، ثُمَّ بَعْدَ ذَلِكَ يُنْطِقُهُ اللهُ -تَبَارَكَ وَتَعَالَى-، فَيُقبِلُ عَلَى أَعضَائِهِ لَائِمًا يَقُولُ: وَيحَكُنَّ! عَنكُنَّ كُنتُ أُنَاظِر!!

فَتَقُولُ أَعضَاؤُهُ وَجَوارِحُهُ: ﴿أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾.

يَنبَغِي أَنْ تُغَيِّرَ مِن حَيَاتِك، لَا تَسْتَسْلِمْ، طعَامُك وَشَرَابُك...

لمَاذَا أَنتَ سَمِينٌ بَدِينٌ مِن غَيرِ مَا مُبَرِّر؟!

لمَاذَا؟ سَوفَ تُوزَنُ عِندَ اللهِ -تَبَارَكَ وَتَعَالَى- لَحمًا وَشَحمًا؟!

«**إِنَّ اللهَ يُبْغِضُ الحَبْرَ السَّمِينَ**».

لمَاذَا تُسرِفُ فِي الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ، وَفِي الكَلامِ وَالمَنَام؟!

لمَاذَا لَا تُغَيِّرُ حَيَاتَك؟!

لمَاذَا لَا تَتَوَقَّف مِن أَجلِ أَن تُرَاجِعَ مَا كَان؟ وَمِن أَجلِ أَنْ تَنظُرَ فِيمَا هُوَ آت؟!

مِن أَجلِ أَنْ تُبَدِّلَ مَسَارًا خَاطِئًا سِرتَ فِيهِ وَأَنتَ مُمْعِنٌ فِي السَّيرِ فِيهِ، وَكُلُّ لَحَظَةٍ تَمضِي فِي هَذِهِ الطَّرِيق فَإِنَّهَا تُوَصِّلُكَ إِلَى الخَرَابِ وَالدَّمَارِ وَالبَوَارِ!!

تَوَقَّف وَتَأَمَّل فِي أَخلَاقِكَ وَطِبَاعِكَ؛ فَإِنَّكَ تَجِدُ الغَضُوبَ إِذَا مَا رَاجَعتَهُ وَقُلتَ لَهُ: هَذَا لَا يَجمُلُ بِكَ، أَنتَ رَجُلٌ عَاقِلٌ مُتَّزِنٌ، وَإِذَا مَا غَضِبتَ؛ فَإِنَّكَ لَا تَدرِي مَا يَخرُجُ مِن فَمِك، لَوْ أَنَّكَ نَظَرْتَ فِي مِرآةٍ فِي حَالِ غَضَبِكَ؛ لَأَبغَضْتَ نَفسَكَ؛ كَالشَّيطَانِ فَائِرَ الرَّأسِ، مُنتَفِضَ البَدَنِ، لَا تَكَادُ تَستَقِرُّ عَلَى حَالٍ، اتَّقِ اللهَ!!

سَيَقُولُ لَكَ: هَذَا طَبعِي، فَقَد خُلِقْتُ غَضُوبًا.

نَعَم؛ وَقَدْ نَزَلَ الشَّرْعُ مِنَ السَّمَاءِ لِيُغَيِّرَ الطِّبَاعَ، فَحُجَّتُكَ غَيرُ مَقبُولَةٍ.

يَنبَغِي عَلَينَا؛ أَنْ نَجتَهِدَ فِي تَغيِيرِ مَا نَحنُ فِيهِ بَعدَ أَنْ نَنظُرَ فِيهِ بِرَوِيَّةٍ وَرِفقٍ، وَأَنْ نَعلَمَ أَنَّ المُستَقبَلَ الحَقِيقِيَّ هُوَ مَا يَأتِي، لَا مَا مَضَى، وَلَا مَا نَتَخَيَّلُهُ وَنَتَوَهَّمُهُ.

وَصَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ عَلَى نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ ﷺ(١).

---

(١)«مُحَاضَرَة: تَوَقَّفْ!! فَإِنَّ الحَيَاةَ فُرْصَةٌ وَاحِدَةٌ لَا تَتَكَرَّرُ».

«المَوْعِظَةُ السَّادِسَةُ والعِشْرُونَ»

«عِيشُوا الوَحْيَ المَعْصُومَ»

إِنَّ الْحَمْدَ لِلَّهِ نَحْمَدُهُ، وَنَسْتَعِينُهُ وَنَسْتَغْفِرُه، وَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللَّهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يُضْلِلْ فَلا هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَلَّا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ ﷺ. أَمَّا بَعْدُ:

فَإِنَّ أَصْدَقَ الْحَدِيثِ كِتَابُ اللَّهِ، وَخَيْرَ الْهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَشَرَّ الْأُمُورِ مُحْدَثَاتُهَا، وَكُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ، وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ، وَكُلَّ ضَلَالَةٍ فِي النَّارِ.

أَمَّا بَعْدُ:

«دِينُ اللهِ مَحْفُوظٌ»

فَإِنَّ اللَّهَ –تَبَارَكَ وَتَعَالَى- خَلَقَ الخَلْقَ لِعِبَادَتِهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَقَامَ عَلَيْهِمُ الحُجَّةَ، وَقَطَعَ عَنْهُمُ العُذْرَ؛ بِإِرْسَالِ الرُّسُل وَإِنْزَالِ الكُتُب، وَقَدْ أَرْسَلَ اللَّهُ –تَبَارَكَ وَتَعَالَى- إِلَى كُلِّ قَوْمٍ رَسُولًا ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فاطر: ٢٤]؛ لِكَيْ لَا يَقُومَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ –تَبَارَكَ وَتَعَالَى- يَوْمَ القِيَامَةِ حُجَّةٌ، فَيَقُولُونَ: مَا جَاءَنَا مِنْ نَذِيرٍ.

وَخَتَمَ اللَّهُ –تَبَارَكَ وَتَعَالَى- الأُمَمَ بِأُمَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَخَتَمَ النَّبِيِّينَ وَالمُرسَلِينَ بِسَيِّدِهِم وَمُقَدَّمِهِم وَخَاتَمِهِم مُحَمَّدٍ ﷺ، وَكَانَ كُلُّ رَسُولٍ يُرْسَلُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّة، وَأُرْسِلَ النَّبِيُّ ﷺ إِلَى الإِنْسِ وَالجِنِّ فِي عُمُومِ الزَّمَانِ وَعُمُومِ المَكَانِ، فَأَقَامَ اللَّهُ –تَبَارَكَ وَتَعَالَى- بِهِ الحُجَّةَ، وَقَطَعَ اللَّهُ –تَبَارَكَ وَتَعَالَى- بِهِ المَعْذِرَة.

وَلَمَّا كَانَت رِسَالَةُ الإِسْلَامِ آخِرَ بَلاغَاتِ السَّمَاءِ إِلَى أَهْلِ الأَرْض؛ كَانَ حَتْمًا أَنْ تَكُونَ مَحْفُوظَةً قَائِمَةً دَائِمَةً إِلَى أَنْ يَرِثَ اللَّهُ الأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا، وَتَوَلَّى اللَّهُ –تَبَارَكَ وَتَعَالَى- حِفْظَ الوَحْيِ بِنَفْسِهِ، وَلَمْ يَسْتَحْفِظ عَلَيْهِ أَحَدًا مِنْ خَلْقِهِ، وَكَانَت الأُمَمُ قَبْلَنَا يُسْتَحْفَظُونَ عَلَى وَحْيِ اللَّهِ –تَبَارَكَ وَتَعَالَى- إِلَيْهِم؛ فَبَدَّلُوهُ، وَحَرَّفُوهُ، وَزَادُوا فِيهِ، وَنَقَصُوا مِنْهُ، فَتَوَلَّى اللَّهُ –تَبَارَكَ وَتَعَالَى- حِفْظَ الرِّسَالَةِ الخَاتِمَة، فَتَوَلَّى حِفْظَ القُرآنِ بِنَفْسِهِ، وَيَشْمَلُ ذَلِكَ حِفْظَ السُّنَّة؛ لِأَنَّ القُرآنَ هُوَ المُبَيَّنْ، وَلِأَنَّ السُّنَّةَ هِيَ المُبَيِّن، وَلَوْ أَنَّ اللَّهَ –جَلَّ وَعَلَا- حَفِظَ المُبَيَّنَ، وَلَمْ يَحْفَظِ المُبَيِّن؛ لَأَحَالَنَا عَلَى مَا لَا يُمْكِنُ أَنْ نَفْهَمَهُ، وَلَا أَنْ نَسْتَوعِبَ مَعَانِيَهُ.

يَعْنِي: إِذَا قَالَ اللَّهُ –تَبَارَكَ وَتَعَالَى- لَنَا: ﴿وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١٩٦]، وَقَالَ لَنَا: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ [البقرة: ٤٣]، فَهَذَا مُبَيَّن؛ تَأْتِي السُّنَّةُ مِنْ أَجْلِ أَنْ تُبَيِّنَهُ.

لَوْ حَفِظَ اللَّهُ –تَبَارَكَ وَتَعَالَى- المُبَيَّنَ، وَلَمْ يَحْفَظْ لَنَا المُبَيِّن؛ فَإِنَّنَا حِينَئِذٍ نُحَالُ عَلَى مَا لَا يُمْكِنُ أَنْ نَفْهَمَهُ.

فَنَقُولُ: إِذَا لَمْ يَحْفَظ لَنَا السُّنَّة؛ كَيْفَ نُصَلِّ؟ وَكَيْفَ نُزَكِّي؟ وَكَيْفَ نَحُجُّ؟ وَكَيْفَ نَعْتَمِرُ؟ إِلَى آخِرِ ذَلِكَ مِنْ هَذِهِ التَّكْلِيفَات؟

إِذَنْ يَقُولُ اللَّهُ –جَلَّ وَعَلَا-: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩].

وَالذِّكْرُ هُوَ القُرآنُ بِالقَصْدِ الأَوَّلِ، وَيَشْمَلُ السُّنَّةَ أَيْضًا بِفَضْلِ اللَّهِ –تَبَارَكَ وَتَعَالَى-؛ ذَلِكَ لِأَنَّهُ كَانَ حَتْمًا لِإِقَامَةِ الحُجَّة عَلَى الخَلْقِ فِي الأَرْضِ؛ مِنْ حِفْظِ الذِّكْرِ وَالوَحْيِ الذِي يُقِيمُ تِلْكَ الحُجَّة.

«الوَحْيُ هُوَ رُوحُ العَالَمِ وَنُورُهُ وَحَيَاتُهُ»

وَالوَحْيُ هُوَ رُوحُ العَالَمِ وَنُورُهُ وَحَيَاتُهُ، وَإِذَا خَلَا العَالَمُ مِنَ الرُّوحِ وَالنُّورِ وَالحَيَاةِ؛ أَقَامَ اللَّهُ تَعَالَى السَّاعَة؛ لِأَنَّ القُرآنَ يُرْفَعُ بَيْنَ يَدَي السَّاعَةِ مِنَ الصُّدُورِ وَمِنَ السُّطُورِ، فَيُصْبِحُ النَّاسُ وَلَيْسَ فِي الأَرْضِ آيَةٌ مِنْ كَلَامِ اللَّهِ -جَلَّ وَعَلَا-، وَذَلِكَ بَيْنَ يَدَي السَّاعَة، وَحِينَئِذٍ -عِنْدَمَا يَخْلُو العَالَمُ مِنَ الحَيَاةِ وَالنُّورِ وَمَادَّةِ هَذَا الوُجُودِ الحَقّ-؛ فَإِنَّ اللَّهَ -تَبَارَكَ وَتَعَالَى- يُقِيمُ السَّاعَةَ حِينَئذ.

إِذَنْ؛ الوَحْيُ هُوَ نُورُ العَالَمِ وَحَيَاتُهُ وَهِدَايَتُهُ، وَعَلَى قَدْرِ تَمَسُّكِ الإِنْسَانِ بِهَذَا النُّورِ وَالحَيَاةِ وَالهُدَى يَكُونُ تَحْقِيقُهُ لِلْقَصْدِ الَّذِي لِأَجْلِهِ خَلَقَهُ اللَّهُ -تَبَارَكَ وَتَعَالَى-، فَإِنَّ اللَّهَ -تَبَارَكَ وَتَعَالَى- خَلَقَنَا لِغَايَةٍ، وَهَذِهِ الغَايَةُ مُبَيَّنَةٌ فِي الوَحْيِ المَعْصُومِ، وَإِذَا مَا عَاشَ النَّاسُ بِهَذَا الوَحْيِ؛ سَعِدُوا فِي الحَيَاةِ، وَتَجَنَّبُوا سُبُلَ الشَّقَاءِ فِي الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ، وَلَا حَيَاةَ لِهَذَا العَالَمِ إِلَّا بِأَنْ يَتَمَسَّكَ بِالوَحْيِ.

الشَّيْطَانُ فِي مَعْرَكَتِهِ مَعَ الإِنْسَانِ حَرِيصٌ تَمَامَ الحِرْصِ عَلَى أَنْ يَجْعَلَ النَّاسَ عَائِشِينَ بِنَقِيضِ الوَحْي؛ لِأَنَّهُ إِمَّا وَحيٌ وَإِمَّا نَقِيضُه، فَإِمَّا أَنْ تَحْيَا بِالوَحْيِ، وَإِمَّا أَنْ تَحْيَا بِنَقِيضِ الوَحْي.

أَمَّا مَنْ اتَّبَعَ الوَحْيَ؛ فَهُوَ مُتَّبِعٌ للَّهِ -تَبَارَكَ وَتَعَالَى- وَلِرَسُولِهِ، وَأَمَّا مَنْ فَارَقَ الوَحْيَ؛ فَهُوَ مُتَّبِعٌ لِلشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ؛ لِأَنَّهُ إِمَّا وَحْيٌ وَإِمَّا نَقِيضُ الوَحْي.

«عِيشُوا بِالوَحْيِ»

وَالَّذِي يُرِيدُهُ اللَّهُ -تَبَارَكَ وَتَعَالَى- مِنَّا هُوَ: «**أَنْ نَحْيَا بِالوَحْيِ**»، وَهَذِهِ الجُمْلَة لَوْ أَنَّكَ أَخَذْتَ مَعْنَاهَا الصَّحِيح، وَجَعَلْتَهُ فِي حَيَاتِكِ نِبْرَاسًا وَمَنْهَاجًا، وَحَقَّقْتَهُ فِي ذَاتِكَ وَفِي رُوحِكَ وَفِي نَفْسِكَ وَفِي جَسَدِكَ وَفِي مَنْ حَوْلَكَ، هَذِهِ الجُمْلَةُ تُورِثُكَ السَّعَادَةَ دُنْيَا وَآخِرَة، وَتُجَنِّبُكَ الشَّقَاءَ وَالتَّعَاسَةَ دُنْيَا وَآخِرَة، وَهِيَ: «**عِشْ بِالوَحْيِ**».

يَقُولُ سُفْيَانُ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى-: «إِنْ اسْتَطَعْتَ أَلَّا تَحُكَّ جِلْدَكَ بِظُفُرِكَ إِلَّا بِأَثَرٍ وَسُنَّةٍ فَافْعَل».

مَعْنَى هَذَا: أَنْ تَكُونَ عَائِشًا بِالوَحْيِ.

مَاذَا قَالَ اللَّهُ فِي هَذَا الأَمْرِ؟

وَمَاذَا قَالَ الرَّسُولُ ﷺ فِي هَذَا الشَّأْنِ؟

ثُمَّ تَتَّبِع ذَلِكَ، إِنْ جَانَبْتَهُ فَأَنْتَ عَائِشٌ بِنَقِيضِ الوَحْيِ.

النَّبِيُّ ﷺ أَرْسَلَهُ اللَّهُ -تَبَارَكَ وَتَعَالَى- بِكُلِّ مَا يَنْفَعُنَا؛ يَأْمُرُنَا بِهِ مِنْ أُمُورِ الدُّنْيَا وَأُمُورِ الدِّينِ، وَأَرْسَلَهُ اللَّهُ -تَبَارَكَ وَتَعَالَى- مُحَذِّرًا وَمُنْذِرًا مِنَ اتِّبَاعِ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ، وَمِنَ اتِّخَاذِ سُبُلِ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ مَنْهَجًا وَطَرِيقًا وَسَبِيلًا، وَبَيَّنَ النَّبِيُّ ﷺ كُلَّ شَيءٍ مِمَّا فِيهِ سَعَادَةُ العَبْدِ مِنْ أُمُورِ الدُّنْيَا وَمِنْ أُمُورِ الآخِرَة.

قَدْ قِيلَ لِسَلْمَان -قَالَ لَهُ حَبْرٌ يَهُودِيٌّ-: «عَلَّمَكُم نَبِيُّكُم كُلَّ شَيءٍ حَتَّى الخِرَاءَةَ؟!

-يَعْنِي: حَتَّى كَيْفَ يَقْضِي الإِنْسَانُ حَاجَتَهُ-

قَالَ: نَعَمْ، أَمَرَنَا النَّبِيُّ ﷺ أَلَّا نَسْتَقْبِلَ القِبْلَةَ وَلَا نَسْتَدْبِرَهَا -يَعْنِي: عِنْدَ قَضَاءِ الحَاجَةِ-، وَأَلَّا نَسْتَجْمِرَ بِعَظْمٍ وَلَا بِرَجِيعٍ».

فَبَيَّنَ النَّبِيُّ ﷺ كَيْفَ يَقْضِي الإِنْسَانُ حَاجَتَه، أَفَيُبَيِّنُ هَذَا وَيَتْرُكُ مَا هُوَ فَوْقَهُ مِنْ أُمُورِ الاعْتِقَادِ، وَمِنْ أُمُورِ العِبَادَةِ، وَمِنْ أُمُورِ المُعَامَلَةِ، وَمِنْ أُمُورِ الأَخْلَاقِ وَالسُّلُوك؟!

هَذَا مِمَّا لَا يَقْبَلُهُ عَقْل!!

فَبَيَّنَ النَّبِيُّ ﷺ كُلَّ شَيْءٍ مِمَّا يَنْفَعُنَا فِي الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ، وَكُلَّمَا اسْتَكْثَرَ المَرْءُ مِنْ مَعْرِفَةِ مَا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ؛ زَادَ فَلَاحُهُ وَقَلَّ طَلَاحُهُ، وَازْدَادَ خَيْرُهُ وَانْتَفَى شَرُّهُ، وَهَذَا كَمَا يَكُونُ كَذَلِكَ؛ فَعَكْسُهُ عَلَى عَكْسِهِ وَضِدِّهِ، كُلَّمَا ابْتَعَدَ الإِنسَانُ عَنِ الوَحْيِ المَعْصُومِ إِلَى زِبَالَاتِ الأَفْكَارِ، وَإِلَى قِمَامَاتِ الآرَاءِ، وَإِلَى مَا يَأْخُذُ بِهِ النَّاسُ مِنْ مُوَاضَعَاتِهِم وَعَادَاتِهِم وَمُعْتَقَدَاتِهِم مِمَّا تَرَبَّوْا عَلَيهِ وَلَمْ يُرَاجِعُوهُ، لِأَنَّهُم لَمْ يَتَلَقُّوهُ تَلَقِّيًا صَحِيحًا، وَلَمْ يَتَعَلَّمُوا الدِّينَ تَعْلِيمًا مُنَظَّمًا، فَمَا عِنْدَهُم مَحْضُ تَشْوِيش، يَأْخُذُ مِنْ هَاهُنَا عِبَارَةً وَمِنْ هَاهُنَا حُكْمًا، وَدِينُ اللَّهِ -تَبَارَكَ وَتَعَالَى- كَالجَسَدِ الحَيِّ.

جَعَلَ اللَّهُ -تَبَارَكَ وَتَعَالَى- لِلْجَسَدِ الإِنْسَانِيِّ الحَيِّ رَأْسًا وَجِذْعًا وَأَطْرَافًا، وَجَعَلَ اللَّهُ -تَبَارَكَ وَتَعَالَى- لِلْعَيْنَيْنِ مَوْضِعَهُمَا، وَلِلْأُذُنَيْنِ فِي الرَّأْسِ مَوْضِعَهُمَا، وَجَعَلَ الإِنْسَانَ قَائِمًا عَلَى طَرَفَيْهِ السُّفْلِيَّين، وَجَعَلَ كُلَّ شَيْءٍ فِي مَوْضِعِهِ.

لَوْ أَنَّ إِنْسَانًا تَصَوَّرَ أَنَّهُ يُعِيدُ هَذَا التَّشْكِيلَ فِي كَائِنٍ إِنْسَانِي؛ فَيَجْعَلُ عَيْنَيْهِ فِي قَفَاهُ، وَيَجْعَلُ أُذُنَيْهِ فِي أَعْلَى رَأْسِهِ، وَيَجْعَلُ طَرَفَيْهِ العُلْوِيَّين فِي مَكَانِ طَرَفَيْهِ السُّفْلِيَّين وَبالعَكْسِ، لَوْ أَنَّهُ فَعَلَ ذَلِكَ؛ مَا تَحَصَّلَ عَلَى كَائِنٍ يُمْكِنُ أَنْ يُؤَدِّيَ أَدَاءً صَحِيحًا أَيَّ أَمْرٍ مِنَ الأُمُورِ الَّتِي بِهَا حَيَاتُهُ وَمَعَاشُهُ.

فَكَمَا جَعَلَ اللَّهُ -تَبَارَكَ وَتَعَالَى- هَذَا الإِنْسَان عَلَى هَذَا النَّحْوِ البَدِيعِ مِنَ التَّسْوِيَةِ؛ خَلَقَهُ، فَسَوَّاهُ، فَعَدَلَهُ، فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَه، كَذَلِكَ الشَّأْنُ فِيمَا يَتَعَلَّقُ بِالإِسْلَامِ العَظِيمِ.

فِي الإِسلَامِ مَا هُوَ مِثلُ القَلْبِ فِي الإِنسَانِ، وَفِي الإِسلَامِ مَا هُوَ مِثْلُ المُخِّ فِي الكَائِنِ الإِنْسَانِيِّ، وَمَا هُوَ مِثْلُ العَيْنَيْن، وَلِكُلِّ عُضْوٍ مِنْ هَذِهِ الأَعضَاءِ فِي الجَسَدِ الإِنْسَانِيِّ قِيمَتُهُ وَوَظِيفَتُهُ، وَلَا يُقَدَّمُ عَلَى مَا هُوَ فَوْقَهُ بِالقِيمَةِ وَبِالوَظِيفَةِ، فَمَثَلًا: لَا يُمْكِنُ أَنْ تُقَارِنَ العَيْنَ بِالظُّفرِ، لَا يُمْكِنُ أَنْ يُقَارِنَ الإِنْسَانُ القَلْبَ بِالشَّعْرِ، فَكُلُّ هَذِهِ الأَشْيَاء لَا مُقَارَنَةَ لَهَا، كَذَلِكَ فِي الدِّينِ.

«أَهَمِّيَّةُ الدَّعْوَةِ إِلَى التَّوْحِيدِ»

النَّاسُ أَحْيَانًا يَتَمَسَّكُونَ بِمَا يُسَاوِي قُلَامَةَ الظُّفُرِ فِي الإِنْسَانِ الحَيِّ، وَيَتْرُكُونَ مَا يُوَازِي القَلْبَ وَالرُّوحَ وَالعَقْلَ وَالنَّفْسَ؛ لِأَنَّهُم يَخْلِطُونَ، وَهَذَا مَعِيبٌ جِدًّا؛ لِأَنَّهُم يَتَحَصَّلُونَ فِي النِّهَايَةِ عَلَى إِسْلَامٍ مُشَوَّشٍ مُشَوَّهٍ، لَيْسَ هُوَ الَّذِي أَرَادَهُ اللَّهُ -تَبَارَكَ وَتَعَالَى- مِنْ خَلْقِهِ.

فَكَمَا أَنَّ الإِنْسَانَ يَحْيَا بِقَلْبِهِ، وَالقَلْبُ مِلْكُ هَذَا الجَسَدِ الإِنْسَانِيِّ، وَالأَعْضَاءُ كُلُّهَا كَأَنَّمَا هِيَ مِنْ جُنُودِهِ، تَأْتَمِرُ بِأَمْرِهِ، كَذَلِكَ فِي الإِسْلَامِ العَظِيمِ قَلْبُهُ وَرُوحُهُ وَحَقِيقَتُهُ؛ تُوْحِيدُ اللَّهِ رَبِّ العَالمِين.

فَمَنْ لَمْ يُحَقِّقْ هَذَا، وَأَخَذَ بِمَا هُوَ دُونَهُ؛ فَهُوَ تَمَامًا كَالَّذِي يُقَدِّمُ الظُّفُرَ عَلَى القَلْبِ، الشَّعْرَ عَلَى المُخِّ وَالعَقْلِ!! فَهَذَا يَأْتِي بِشَيْءٍ مُشَوَّهٍ لَا يُمْكِنُ أَنْ يَنْتَظِمَ مِنْهُ مَا يَنْفَعُهُ لَا دُنْيَا وَلَا آخِرَة.

لِذَلِكَ بَدَأَ كُلُّ نَبِيٍّ وَكُلُّ رَسُولٍ قَوْمَهُ بِأَنْ يَأْمُرَهُم بِأَنْ يُوَحِّدُوا اللَّهَ -تَبَارَكَ وَتَعَالَى- ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ﴾، فَيَبْدَأُ بِهَذَا قَبْلَ كُلِّ شَيء.

وَالنَّبِيُّ ﷺ لمَّا أَرْسَلَ مُعَاذًا إِلَى أَهْلِ اليَمَنِ مِنْ أَجْلِ أَنْ يُعَلِّمَهُم دِينَ اللَّهِ -جَلَّ وَعَلَا-، وَأَنْ يَدْعُوَ مَنْ لَمْ يُسْلِم مِنْهُم إِلَى الدِّينِ الحَقِّ؛ قَالَ:

«**إِنَّكَ تَأْتِي قَوْمًا مِنْ أَهْلِ الكِتَاب، فَلْيَكُنْ أَوَّلَ مَا تَدْعُوهُم إِلَيْهِ: شَهَادَةَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّه وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّه** -لَا تَبْدَأْ بِمَا هُوَ قَبْلَ هَذَا الأَصْلِ الأَصِيل-، **فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوكَ لِذَلِكَ؛ فَأَعْلِمْهُمْ أَنَّ اللَّهَ فَرَضَ عَلَيْهِم فِي اليَوْمِ وَاللَّيْلَةِ خَمْسَ صَلَوَات، فَإِنْ هُمْ أَجَابُوكَ لِذَلِكَ وَأَطَاعُوكَ فِيهِ؛ فَأَعْلِمْهُم أَنَّ اللَّهَ فَرَضَ عَلَيْهِم فِي أَمْوَالِهِم صَدَقَةً تُؤْخَذُ مِنْ أَغْنِيَائِهِم وَتُرَدُّ عَلَى فُقَرَائِهِم،** قَالَ: **وَإِيَّاكَ وَكَرَائِمَ أَمْوَالِهِم، وَاتَّقِ دَعْوَةَ المَظْلُومِ؛ فَإِنَّهُ لَيْسَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ اللَّهِ حِجَاب**».

فِي الحَدِيثِ مَعَانٍ كَثِيرَةٌ جِدًّا، وَلَكِنَّ الَّذِي نُرِيدُهُ هَاهُنَا -وَكُلُّ الحَدِيثِ مُرَادٌ- هُوَ قَوْلُهُ: «**فَلْيَكُن أَوَّلَ مَا تَدْعُوهُم إِلَيْهِ؛ شَهَادَةُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّه، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّه**».

وَ(لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّه) هِيَ الكَلِمَةُ الطَّيِّبَةُ، لِأَجْلِهَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ، وَلِأَجْلِهَا قَامَتِ المَعْرَكَةُ بَيْنَ جُنْدِ الرَّحْمَنِ وَجُنْدِ الشَّيْطَانِ.

مِنْ أَجْلِ (لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّه) خَلَقَ اللَّهُ الجَنَّةَ وَالنَّارَ، مِنْ أَجْلِ (لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّه) أَنْزَلَ اللَّهُ الكُتُبَ، وَأَرْسَلَ اللَّهُ الرُّسُلَ، مِنْ أَجْلِ (لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّه) يُقِيمُ اللَّهُ -تَبَارَكَ وَتَعَالَى- السَّاعَةَ، وَتُنْصَبُ المَوَازِينُ، وَتَتَطَايَرُ الصُّحُفُ، فَآخِذٌ بِيَمِينِهِ، وَآخِذٌ بِشِمَالِهِ مِنْ وَرَاءِ ظَهْرِهِ.

مِنْ أَجْلِهَا يُضْرَبُ الصِّرَاطُ عَلَى مَتْنِ -أَيِّ: عَلَى ظَهْرِ- النَّارِ؛ فَنَاجٍ مَخْدُوشٌ، وَنَاجٍ يَطِيرُ طَيَرَانًا، وَنَاجٍ كَالبَرْقِ، وَنَاجٍ كَأَجَاوِيدِ الخَيْلِ، وَنَاجٍ يَعْدُو عَدْوًا، وَنَاجٍ عَلَى الصِّرَاطِ يَحْبُو حَبْوًا، وَنُورُهُ فِي إِبْهَامِ قَدَمِهِ يُضِيءُ مَرَّةً وَيُطْفَأُ مَرَّة، فَإِذَا أَضَاءَ تَحَرَّكَ، وَإِذَا مَا أُطْفِئَ وَقَف، وَالنَّارُ تَحْتَهُ، وَعَلَى جَانِبَيِ الصِّرَاطِ كَلَالِيبُ مِنْ حَدِيدٍ مَعْقُوفٍ -الكُلُّوبُ: هُوَ الحَدِيدَةُ الَّتِي يُنْشَلُ بِهَا اللَحْمُ-، فَعَلَى جَانِبَيِ الصِّرَاطِ كَلَالِيب تَخْطَفُ النَّاسَ خَطْفًا عَلَى حَسَبِ مَا أَتَوْا بِهِ مِنَ المَعَاصِي؛ مِنْ أَجْلِ أَنْ يُهَذَّبُوا، وَأَنْ يُنَقَّوْا، وَأَنْ يُطَهَّرُوا؛ لِأَنَّ الجَنَّةَ هِيَ دَارُ الطَّيِّبِ المَحْضِ، هِيَ دَارُ السَّلَام، هِيَ بَيْتُ اللَّهِ -تَبَارَكَ وَتَعَالَى- فِي الآخِرَةِ، يَأْوِي إِلَيْهَا كُلُّ طَيِّب، فَلَا يَدْخُلُهَا إِلَّا الطَّيِّبُ المَحْضُ.

فَمَنْ خَلَّطَ؛ فَإِمَّا أَنْ يُعَذِّبَهُ اللَّهُ -تَبَارَكَ وَتَعَالَى- بِتَخْلِيطِهِ مِنْ أَجْلِ أَنْ يُهَذَّبَ، وَمِنْ أَجْلِ أَنْ يُصَفَّى، وَمِنْ أَجْلِ أَنْ يَعُودَ طَيِّبًا مَحْضًا؛ لِيُجَاوِرَ اللَّهَ -تَبَارَكَ وَتَعَالَى- فِي جَنَّتِهِ، وَإِمَّا أَنْ يَعْفُوَ اللَّهُ -تَبَارَكَ وَتَعَالَى- عَنْهُ حَتَّى يَصِيرَ مُطَهَّرًا.

فَمِنْ أَجْلِ هَذَا كُلِّهِ؛ خَلَقَ اللَّهُ -تَبَارَكَ وَتَعَالَى- الخَلْقَ، وَأَتَى بِهَذَا كُلِّهِ مِنْ أَمْرِهِ وَخَلْقِهِ؛ مِنْ أَجْلِ (لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّه)، وَهِيَ أَوَّلُ مَا دَعَا إِلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ -ﷺ-، فَكَانَ يَدُورُ عَلَى النَّاسِ فِي الأَسْوَاقِ وَفِي مُنْتَدَيَاتِهِم يَقُولُ لَهُم: «**أَيُّهَا النَّاسُ؛ قُولُوا: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ تُفْلِحُوا**».

وَكَثِيرٌ مِنَ المُسْلِمِينَ لَا يَعْلَمُ مَعْنَى (لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّه)، وَلَا نَجَاةَ لَهُ إِلَّا بِعِلْمِ مَعْنَاهَا، وَالعَمَلِ بِمُقْتَضَاهَا، وَالإِتْيَانِ بِشُرُوطِهَا، وَاجْتِنَابِ نَوَاقِضِهَا.

فَإِذَا كَانَ لَا يَعْلَمُ مَعْنَى (لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّه)؛ فَكَيْفَ يَعْمَلُ بِمُقْتَضَى مَا هُوَ بِهِ جَاهِلٌ؟ وَكَيْفَ يُحَقِّقُ شُرُوطَ مَا لَا يَعْلَمُهُ؟ وَكَيْفَ يَجْتَنِبُ نَوَاقِضَ شَيْءٍ لَا يَدْرِي عَنْهُ شَيْئًا؟!

لَا بُدَّ مِنْ أَنْ يَعْلَمَ الإِنْسَانُ مَعْنَى (لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّه).

(لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّه): لَا مَعْبُودَ بِحَقٍّ إِلَّا اللَّه، وَهَذَا يَقْتَضِي أَنْ يَصْرِفَ الإِنْسَانُ كُلَّ أَلْوَانِ العِبَادَةِ الظَّاهِرَةِ وَالبَاطِنَةِ للَّهِ، لِأَنَّ لِلْقَلْبِ عِبَادَاتٍ مِنَ الخَوْفِ، وَالحُبِّ، وَالخُشُوعِ، وَالرَّجَاءِ، وَالإِنَابَةِ، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا يَتَعَلَّقُ بِعِبَادَاتِ القُلُوبِ.

وَلِلِّسَانِ عِبادَاتُهُ؛ مِنَ الذِّكْرِ وَالتِّلَاوَةِ وَمَا أَشْبَه؛ كَالأَمْرِ بِالمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ المُنْكَرِ، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ.

وَلِلْجَوَارِحِ أَيْضًا عِبَادَاتُهَا، فَإِذَا أَتَى الإِنْسَانُ بِشَيْءٍ مِنْ أَلْوَانِ العِبَادَةِ صَارِفَهُ إِلَى غَيْرِ اللَّهِ -جَلَّ وَعَلَا-؛ فَقَدْ أَشْرَكَ بِاللَّهِ؛ لِأَنَّ اللَّهَ -تَبَارَكَ وَتَعَالَى- خَلَقَهُ، خَلَقَهُ وَحْدَهُ لَمْ يُشَارِكْهُ أَحَدٌ فِي خَلْقِهِ، وَهُوَ وَحْدَهُ الَّذِي يَرْزُقُهُ، وَهُوَ وَحْدَهُ الَّذِي يَكْلَؤُهُ وَيَحْفَظُهُ.

وَالإِنْسَانُ فِي الحَيَاةِ لَوْ أَنَّهُ كَانَ مُنْصِفًا؛ لَعَلِمَ أَنَّهُ لَا يَجُوزُ أَبَدًا وَلَا يَجْمُلُ أَنْ يُصْرَفَ شَيءٌ مِنْ أَلْوَانِ العِبَادَةِ لِغَيْرِ اللَّهِ -تَبَارَكَ وَتَعَالَى-؛ لِأَنَّ الإِنْسَانَ لَا يَرْضَى مِنْ خَادِمِهِ فَضْلًا عَنْ عَبْدِهِ الَّذِي يَمْلِكُهُ، لَا يَرْضَى الإِنْسَانُ مِنْ أَجِيرٍ عِنْدَهُ أَنْ يَأْكُلَ خَيْرَهُ، وَأَنْ يَخْدُمَ غَيْرَهُ.

يَعْنِي: لَوْ أَنَّكَ اسْتَأْجَرْتَ إِنْسَانًا عَلَى أَنْ يُؤَدِّيَ إِلَيْكَ عَمَلًا -مَنْفَعَةً- فِي نَظِيرِ أَجْرٍ، فَكَانَ أَجِيرًا عِنْدَكَ فِي عَمَلٍ بِذَاتِهِ لِقَاءَ مَا اتَّفَقْتُمَا عَلَيهِ، فَأَخَذَ مِنْكَ المَالَ، وَأَخَذَ يَعْمَلُ لِغَيْرِكَ، ثُمَّ جَاءَ آخِرَ النَّهَارِ مِنْ أَجْلِ أَنْ يَقُولَ لَكَ: قَدْ أَدَّيْتُهُ، إِنْ لَمْ يَكُنْ أَخَذَ أَجْرَهُ؛ فَهُوَ يُطَالِبُكَ بِأَجْرِهِ، أَنْتَ لَنْ تَقْبَلَ مِنْهُ ذَلِكَ!!

فَاللَّهُ رَبُّ العَالَمِينَ خَلَقَكَ، وَأَنْتَ تَرْضَى لِرَبِّكَ مَا لَا تَرْضَاهُ لِنَفْسِكَ مِنْ أَجِيرِكَ وَمِنْ وَلَدِكَ!!

فَأَنْتَ لَا تَقْبَلُ مِنْ وَلَدِكَ أَنْ يَأْكُلَ خُبْزَكَ وَأَنْ يَعْصِيَ أَمْرَكَ، وَتَشْكُوهُ إِلَى جَمِيعِ النَّاسِ، تَقُولُ: يَعْصِينِي وَهُوَ وَلَدٌ عَاقٌّ لَا بِرَّ فِيهِ، وَأَنَا أُنْفِقُ وَأَفْعَلُ وَأَفْعَلُ، وَأَكْلَأُ وَأَحْفَظُ، وَقَدْ رَبَّيْتُ وَكَبَّرْتُ، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا تَسْمَعُهُ مِنْ كَثِيرٍ مِنَ النَّاسِ -نَسْأَلُ اللَّهَ أَنْ يَهْدِيَنَا أَجْمَعِين إِلَى الصِّرَاطِ المُسْتَقِيم-.

فَلَا تَقْبَلُ مِنْ وَلَدِكَ أَنْ يَأْكُلَ خُبْزَكَ وَأَنْ يَعْصِيَ أَمْرَكَ، وَأَنْ يَكُونَ مَعَكَ تَحْتَ سَقْفٍ وَاحِدٍ، وَهُوَ جَادٌّ فِي مَعْصِيَةِ أَمْرِكَ وَالتَّمَرُّدِ عَلَيْك لَا يُطِيعُكَ، فَأَنْتَ لَا تَقْبَلُ مِنْهُ ذَلِكَ وَمَا خَلَقْتَهُ، وَمَا أَنْتَ بِالَّذِي تَرْزُقُهُ؛ بَلِ الَّذِي يَرْزُقُكَ وَيَرْزُقُهُ هُوَ اللَّهُ، وَالَّذِي يَكْلَؤُكَ وَيَحْفَظُكَ وَيَكْلَؤُهُ وَيَحْفَظُهُ هُوَ اللَّهُ، وَمَعَ ذَلِكَ فَأَنْتَ لَا تَقْبَلُ مِنْهُ ذَلِكَ!! وَتَرْضَى ذَلِكَ مِنكَ لِرَبِّكَ، هُوَ الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ وَيَرْزُقُكَ!!.

هَذَا عَيْبٌ كَبِير، بَلْ إِنَّهُ لَيْسَ مِنَ المُرُوءَةِ فِي شَيْءٍ، هَذَا أَمْرٌ هُوَ شِرْكٌ مَحْضٌ، أَنْ يَصْرِفَ الإِنْسَانُ شَيئًا مِنْ أَلْوَانِ الطَّاعَةِ لِغَيْرِ اللَّهِ.

وَمِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ بِنَا: أَنْ جَعَلَ الدِّينَ مُيَسَّرًا، فَقَاعِدَةُ الدِّينِ العُظْمَى هِيَ: «**نَفْيُ الحَرَجِ**»، رَفَعَ اللَّهُ -تَبَارَكَ وَتَعَالَى- الحَرَجَ وَالمَشَقَّةَ عَنْ هَذَا الدِّين، وَكُلَّمَا وُجِدَتِ الضَّرُورَةُ جَاءَ التَّخْفِيفُ؛ فَإِنَّ الإِنْسَانَ إِذَا كَانَ مُسَافِرًا أَوْ كَانَ مَرِيضًا؛ فَإِنَّهُ لَا يُطَالَبُ بِالصِّيَامِ، وَإِنَّمَا يُفْطِرُ عَلَى أَنْ يَقْضِيَ فِيمَا بَعْدُ، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ أَلْوَانِ التَّيْسِيرَاتِ فِي هَذَا الدِّينِ العَظِيمِ، الَّذِي يَشْرُفُ المَرْءُ غَايَةَ الشَّرَفِ بِأَنْ يَكُونَ مُنْتَسِبًا إِلَيْهِ، وَمَا أَخَذَ ذَلِكَ بِمَلْكِهِ، وَإِنَّمَا الهَادِي هُوَ اللَّهُ، وَالمُوَفِّقُ هُوَ اللَّهُ.

نَسْأَلُ اللَّهَ أَنْ يُفَهِّمَنَا دِينَنَا، وَأَنْ يَرْزُقَنَا مَعْرِفَةَ حَقِيقَتِهِ، وَأَنْ يُمَسِّكَنَا بِهِ ظَاهِرًا وَبَاطِنًا، وَأَنْ يَهْدِيَنَا وَالمُسْلِمِينَ أَجْمَعِينَ فِي مَشَارِقِ الأَرْضِ وَمَغَارِبِهَا إِلَى الحَقِّ وَالهُدَى وَالصِّرَاطِ المُسْتَقِيمِ، وَصَلَّى اللَّهُ وَسَلَّمَ عَلَى نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَأَصحَابِهِ أَجمَعِينَ(١).

---

(١)«محاضرة: عِيشُوا الوَحْيَ المَعْصُومَ - الخميس ٢٣ من ربيع الأول ١٤٣٨ هـ الموافق ٢٠١٦/١٢/٢٢ م».

«المَوْعِظَةُ السَّابِعَةُ وَالعِشْرونَ»

«الْعَفْوُ وَكَظْمُ الغَيْظِ»

إنَّ الْحَمْدَ لِلَّهِ نَحْمَدُهُ، وَنَسْتَعِينُهُ وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِاللَّـهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللَّـهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَا هَادِيَ لَهُ.

وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّـهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ.

وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ ﷺ.

أَمَّا بَعْدُ:

«لِينُ الجَانِبِ وَالعَفْوُ سَبَبُ الأُلْفَةِ وَالمَحَبَّةِ»

فَقَد قَالَ اللهُ -جَلَّ وَعَلَا-: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

أي: بِرَحْمَةِ اللهِ لك ولأصحابِكَ مَنَّ اللهُ عَلَيْكَ أَنْ أَلَنْتَ لَهُم جَانِبَكَ، وَخَفَضْتَ لَهُم جَنَاحَكَ، وَتَرَقَّقْتَ عَلَيْهِم، وَحَسَّنْتَ لَهُم خُلُقَكَ، فَاجْتَمَعُوا عَلَيْكَ وَأَحَبُّوكَ، وامْتَثَلُوا أَمْرَكَ.

﴿وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا﴾ أي: سَيِّئَ الخُلُقِ ﴿غَلِيظَ الْقَلْبِ﴾ أي: قَاسِيَهُ، ﴿لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾؛ لأَنَّ هَذَا يُنَفِّرُهُم وَيُبَغِّضُهم لِمَن قَامَ به هذا الخُلُقُ السَّيِّءُ.

فالأخلاقُ الحَسَنَةُ مِن المُقَدَّمِ في الدِّينِ، تَجْذِبُ النَّاسَ إلى دينِ رَبِّ العَالَمِينَ، وَتُرَغِّبُهُم فيه، مع ما لصاحبِهِ مِن المَدْحِ والثَّوَابِ الخَاصِّ، والأخلاقُ السَّيِّئَةُ مِن المُقَدَّمِ في الدينِ تُنَفِّرُ النَّاسَ عن الدينِ، وتُبَغِّضُهُم إليه، مع ما لصاحِبِهَا مِن الذَّمِّ والعِقَابِ الخَاصِّ، فهذا الرسولُ المَعصومُ يقولُ اللهُ له ما يقول؛ فكيف بِغَيْرِهِ؟!

أليس مِن أَوْجَبِ الوَاجِبَاتِ، وأَهَمِّ المُهِمَّاتِ: الاقتداءُ بأخلاقِهِ الكريمةِ، ومعاملةُ النَّاسِ بِمَا يُعَامِلُهُم به ﷺ، مِن اللينِ وحُسْنِ الخُلُقِ والتَّأليفِ، امْتِثَالًا لأمرِ اللهِ، وَجَذْبًا لِعِبَادِ اللهِ لدينِ اللهِ.

ثُمَّ أَمَرَهُ اللهُ تَعَالَى بِأَنْ يَعْفُوَ عنهم ما صَدَرَ منهم مِن التَّقْصِيرِ في حَقِّهِ ﷺ، ويَسْتَغْفِرَ لَهُم في التقصيرِ في حَقِّ اللهِ، فَيَجْمَعُ بين العَفْوِ والإِحْسَانِ.

﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ أي: الأمور التي تَحْتَاجُ إلى استشارةٍ وَنَظَرٍ وَفِكْرٍ؛ فَإِنَّ في الاستشارةِ مِن الفَوَائِدِ والمَصَالِحِ الدينيةِ والدنيويةِ ما لا يُمْكِنُ حَصْرُهُ.

«عَفْوُ النَّبِيِّ ﷺ، وَحِلْمُهُ، وَرَحْمَتُهُ»

وَعَن عَائِشَةَ -رَضِيَ اللهُ عَنهَا- قَالَت: «مَا ضَرَبَ رَسُولُ اللهِ ﷺ شَيْئًا قَطُّ بِيَدِهِ، وَلَا امْرَأَةً وَلَا خَادِمًا، إِلَّا أَنْ يُجَاهِدَ فِي سَبِيلِ اللهِ، وَمَا نِيلَ مِنْهُ شَيْءٌ قَطُّ فَيَنْتَقِمَ مِنْ صَاحِبِهِ إِلَّا أَنْ يُنْتَهَكَ شَيْءٌ مِنْ مَحَارِمِ اللهِ، فَيَنْتَقِمَ للهِ -عَزَّ وَجَلَّ-». أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ.

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- قَالَ: قَالَ رَسولُ اللهِ ﷺ: «**مَا رُزِقَ عَبْدٌ خَيْرًا لَه وَلَا أَوْسَعَ مِنَ الصَّبْرِ**». أَخْرَجَهُ الحَاكِمُ، وَصَحَّحَهُ الأَلْبَانِيُّ.

وَعَنْ عَائِشَةَ -رَضِيَ اللهُ عَنْهَا-: «أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ مَكْتُوبٌ فِي الإِنْجِيلِ: لَا فَظٌّ، وَلَا غَلِيظٌ، وَلَا صَخَّابٌ بِالْأَسْوَاقِ، وَلَا يَجْزِي بِالسَّيِّئَةِ مِثْلَهَا، بَلْ يَعْفُو وَيَصْفَحُ». أَخْرَجَهُ الحَاكِمُ وابنُ عَسَاكِر، وَحَسَّنَهُ الألبانِيُّ في «السِّلْسِلَةِ الصَّحِيحَةِ».

قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «**مَا زَادَ اللهُ عَبْدًا بِعَفْوٍ إِلَّا عِزًّا**»، وَقَد عُلِمَ بِالتَّجْرِبَةِ والوجُودِ.

فِي الصَّفْحِ والعَفْوِ والحِلْمِ مِن الحَلَاوَةِ والطمأنِينَةِ والسَّكِينَةِ، وَشَرَفِ النَّفْسِ، وَعِزِّهَا وَرِفْعَتِهَا عن تَشَفِّيهَا بِالانْتِقَامِ مَا لَيْسَ شَيْءٌ مِنْهُ فِي المُقَابَلَةِ والانْتِقَامِ(١).

«أَخْلَاقُ السَّلَفِ وَنَمَاذِجُ فِي العَفْوِ»

فقَدْ شَتَمَ رجُلٌ عُمَرَ بنَ ذَرّ -رحمَةُ اللهِ عليه-، فقالَ له عُمَرُ: « يا هذا؛ إنِّي قد أَمَتُّ مُشاتمةَ الرجالِ صغيرًا فلن أُحييَهَا كبيرًا، وأنا لا أكافئُ مَن عصى اللهَ فيَّ بأكثرَ مِن أنْ أُطيعَ اللهَ فيه».

وجاء رجُلٌ إلى عليِّ بن الحُسين -رضوان اللهِ عليهما-، فقالَ: إنَّ فلانًا شتمَكَ.

فقال: اذهب بنا إليه.

فأخذَ بيدِهِ حتى صارَ بين يديْهِ، فأقبلَ عليه، والرجُلُ الذي نقلَ يظُنُّ أنهُ ما ذهبَ إلَّا مِن أجلِ المعاقبةِ، فلمَّا صارَ عندهُ، أقبلَ عليٌّ عليه فقال: «يا أخي إنْ كُنتَ صادقًا؛ فغفرَ اللهُ لي، وإنْ كنتَ كاذبًا؛ فغفرَ اللهُ لك».

وهذا رجُلٌ مِن أهلِ العلمِ لا تغيبُ عنه أسبابُ انفعالِهِ حالَ انفعالِهِ لحظةً واحدةً في مجلسِ العلمِ وهو فيه رأسٌ، عُبيد اللهِ بن الحسن العنبريِّ يُسألُ في مجلسِ العلمِ سؤالًا، ووردَت المسألةُ، فأخطأَ حين الجوابِ، وغلَطَ في الإجابةِ، فكان ماذا؟!!

لا شيء، ومَن الذي لا يَغْلَطُ خطأَ المسألة بعد المسألةِ لا يُدركُ فيها صوابًا، ولا يفتحُ اللهُ ربُّ العالمين إلى الإجابةِ فيها بابًا، فكان ماذا؟!! لا شيء.

---

(١) «من خطبة: التسامح بين المسلمين - الجمعة ١١ من جمادى الآخرة ١٤٣٨هـ الموافق ١٠-٣-٢٠١٧م».

فلمَّا بُيِّنَ له غَلَطُهُ؛ نكَّسَ رأسَهُ ساعةً، ثم رفعَ رأسَهُ فقال: «إذن؛ أعودُ إلى الحقِّ وأنا صاغرٌ، ولأنْ أكونَ ذَنَبًا في الحقِّ أحبُّ إليَّ مِن أنْ أكونَ رأسًا في الباطلِ»(١).

والربيعُ بن سليمان لَمَّا دَخَلَ على الشافعيِّ -رحمهُ اللهُ تعالى- يعودُهُ في مَرَضِهِ، وكانَ الشافعيُّ مِرَاضًا، وكانت البواسيرُ النازفةُ سببَ موتِهِ -رحمهُ اللهُ تعالى-، حتى إنه كانَ يركبُ البَغْلة فيمتلئ خُفُّهُ مِن الدمِ النازفِ مِن البواسير -رحمهُ اللهُ رحمةً واسعةً-، فَدَخَلَ عليه الربيعُ يعودُهُ في مَرَضِهِ، وكانَ الشافعيُّ له مُحِبًّا؛ حتى إنه قال فيه لَمَّا مَرِضَ:

مَرِضَ الحبيبُ فعُدْتُهُ *** فَمرِضْتُ مِن حُزْنِي عَليهِ

شُفِيَ الحـبيبُ فَعَادنِي *** فبَرِئْتُ مِـن نَظـرِي إليهِ

فَلَمَّا دَخَلَ عليه الرَّبيعُ دَعَا لهُ؛ فَقَالَ له: قَوَّى اللهُ ضَعْفَكَ يَا إِمَام.

فَقَالَ الشافعيُّ -والشافعيُّ مِمَّن تُؤخذُ عنهم اللغة كما قال المُتقدِّمونَ مِن أهلِ اللغةِ؛ حتى إنَّ الجاحظَ -وهو مَن هو في مسائل اللغةِ والأدبِ، وهو مُعتزِليٌّ صاحبُ فِرْقَةٍ، كانت له جماعةٌ كالجماعاتِ الحاضرة، كانت له فِرْقَةٌ مُعتزِليَّةٌ يُقال لها «الجاحظية»، وهذا مذكورٌ في كُتُبِ المِلَلِ والنِّحَلِ-، الجاحظُ يقول: نظرتُ في كُتُبِ المُتكلمينَ في العِلْمِ، فَلَم أَرَ أَبْلَغَ ولا أَفْصَحَ من المُطَّلَبِيِّ -يعني الإمامَ الشافعيَّ- كأنَّ لسانَهُ ينثُرُ الدُّرَّ -يقولُ عن الإمامِ الشافعيِّ، الجاحظ هو الذيِّ يقول-، يقول عن الشافعيِّ الإمام -رحمهُ اللهُ-: كأنَّ لسانَهُ ينثُر الدُّرَّ، الآن عندنا أقوامٌ يتمدَّحونَ بالعِيِّ والفَهَاهَةِ ويُعيِّرونَ مَن آتاهُ اللهُ فصاحةً، فيقولونَ: هذا مُتكلِّفٌ؛ هذا مُتقعِّرٌ، هذا كذا، وهم لا يفهمون! حَمْقَى.

---

(١) «مقطع بعنوان: حُسْنُ الخُلُقِ وخطورةِ الكلمةِ من سلسلة القول المبين».

يقول الجاحظُ عن الشافعيِّ: كأنَّ لسانَهُ ينثُر الدُّرَّ، فَلَمَّا دَخَلَ عليه الربيعُ فقال: قَوَّى اللهُ ضَعْفَكَ يا إمام؛ ابتسَمَ وقال: لو قَوَّى ضَعْفِي قَتَلَنِي.

قال: فما أقول؟

قال: تقولُ: قَوَّى اللهُ قُوَّتَكَ، وَأَضْعَفَ اللهُ ضَعْفَكَ، أَمَّا أَنْ تقولَ: قوَّى اللهُ ضَعْفَكَ؛ فمعنى ذلك أنه سيَقتُلُنِي بضَعْفِي.

قال: لو قَوَّى ضَعْفِي قَتَلَنِي.

قال: فما أقول؟

قال: تقول: أَضْعَفَ اللهُ ضَعْفَكَ، وَقَوَّى اللهُ قُوَّتَكَ.

قال: واللهِ ما أردتُ إلا الخير.

فقال: يا ربيع؛ والله لو شَتمتني لَعَلِمْتُ أنك مَا أَرَدَّتَ إلا الخير.

مِن عظيمِ ثِقَتِهِ به، ومِن جليلِ محبّتِهِ له.

هل تستطيعُ أنتَ اليوم أنْ تقولَ هذا لأحدٍ؟! **تقول:** لو شتمتني؛ لَعَلِمْتُ أنكَ ما أَرَدَّتَ إلَّا الخير؟!!

أصحابُ الحقوقِ تُجْحَدُ حقوقُهُم؛ فإنَّ الأبَ إذا لم يُوفِّر له بعضَ ما طَلَبَ وليس له فيه حق؛ جَحَدَهُ وَجَحَدَ فَضْلَهُ، والمُعَلِّمُ إذا اشتدَّ بِقَسْوةٍ على بعضِ طُلَّابِهِ ليُرَبِّيَهُ وليُؤدِّبهُ؛ انقلبَ له، وانقلبَ عليه، وصارَ له عدوًّا، وانحازَ إلى صَفِّ أعدائِهِ، وصَارَ فيه طَاعِنًا، هذا عصرٌ فيه مِن العجائبِ ما لا يعلمُهُ إلَّا الله! هذا عصرُ الجحودِ! فَقَلَّ مَن اعترفَ بِنِعْمَةٍ أو شَكَرَ على فَضْلٍ، هذا عصرُ الجحودِ في جميعِ المجالاتِ حتى في العِلْمِ، فنسألُ اللهَ -تبارك وتعالى- أنْ يُوزِعَنَا شُكْرَ نِعْمَتِهِ، إنهُ على كلِّ شيءٍ قدير(١).

(١) «مقطع: أين نحن مِن أخلاقِ السَّلَف».

«مِثَالٌ مَضْرُوبٌ فِي العَفْوِ والإِحْسَانِ»

وَقد تَذَاكَرَ جَمَاعَةٌ فِيمَا بَيْنَهُم آثَارَ مَعْنِ بنِ زَائِدَة، وَهُوَ مِنْ أَشْهَرِ أَجْوَادِ العَرَبِ، أَدْرَكَ العَصْرَيْن الأُمَوِيَّ وَالعَبَّاسِيَّ، وَوَلَّاهُ المَنْصُورُ إِمَارَة (سِجِسْتَان)، فَأَقَامَ بِهَا، ثُمَّ قُتِلَ بِهَا غِيلَةً سَنَةَ إِحْدَى وَخَمْسِينَ وَمِئَة (١٥١هـ)، وَثَبَتْ عَلَيْهِ خَوارِجُ وَهُوَ يَحْتَجِمُ فَقَتَلُوهُ.

تَذَاكَرَ جَمَاعَةٌ فِيمَا بَيْنَهُم آثَارَ مَعْنٍ وَأَخْبَارَ كَرَمِهِ، مُعْجَبِينَ بِمَا هُوَ عَلَيْهِ مِنَ التُّؤَدَةِ وَوَفْرَةِ الحِلْمِ وَلِينِ الجَانِبِ، وَغَالَوْا فِي ذَلِكَ كَثِيرًا، فَقَامَ أَعْرَابِيٌّ وَأَخَذَ عَلَى نَفْسِهِ أَنْ يُغْضِبَهُ، فَأَنْكَرُوا عَلَيْهِ، وَوَعَدُوهُ مِئَةَ بَعِيرٍ إِذَا هُوَ فَعَلَ ذَلِكَ.

فَعَمَدَ الأَعْرَابِيُّ إِلَى بَعِيرٍ فَسَلَخَهُ وَارْتَدَى بِإِهَابِهِ –وَالإِهَابُ: الجِلْدُ مَا لَمْ يُدْبَغ-، وَاحْتَذَى بِبَعْضِهِ –وَاحْتَذَى: أَيْ انْتَعَلَ بِبَعْضِهِ-، جَاعِلًا بَاطِنَهُ ظَاهِرًا، وَدَخَلَ عَلَى مَعْنٍ بِصُورَتِهِ تِلْكَ، وَأَنْشَأَ الرَّجُلُ يَقُولُ:

أَتَذْكُرُ إِذْ لِحَافُكَ جِلْدُ شَاةٍ ... وَإِذْ نَعْلَاكَ مِنْ جِلْدِ البَعِيرِ

قَالَ مَعْنٌ: أَذْكُرُهُ وَلَا أَنْسَاهُ.

فَقَالَ الأَعْرَابِيُّ: فَسُبْحَانَ الَّذِي أَعْطَاكَ مُلْكًا ... وَعَلَّمَكَ الجُلُوسَ عَلَى السَّرِيرِ

فَقَالَ مَعْنٌ: إِنَّ اللَّهَ يُعِزُّ مَنْ يَشَاءُ، وَيُذِلُّ مَنْ يَشَاء.

فَقَالَ الأَعْرَابِيُّ: فَلَسْتُ مُسَلِّمًا إِنْ عِشْتُ دَهْرًا ... عَلَى مَعْنٍ بِتَسْلِيمِ الأَمِيرِ

فَقَالَ مَعْنٌ: السَّلَامُ خَيْرٌ، وَلَيْسَ فِي تَرْكِهِ ضَيْر.

فَقَالَ الأَعْرَابِيُّ: سَأَرْحَلُ عَنْ بِلَادٍ أَنْتَ فِيهَا ... وَلَوْ جَارَ الزَّمَانُ عَلَى الفَقِيرِ

فَقَالَ مَعْنٌ: إِنْ جَاوَرْتَنَا فَمَرْحَبًا بِالإِقَامَةِ، وَإِنْ جَاوَزْتَنَا فَمَصْحُوبًا بِالسَّلَامَةِ.

فَقَالَ الأَعْرَابِيُّ: فَجُدْ لِي يَا ابْنَ نَاقِصةٍ بِمَالٍ ... فَإِنِّي قَدْ عَزَمْتُ عَلَى المَسِيرِ

-قَالَ: يَا ابْنَ نَاقِصَةٍ، بِدَلًا مِنْ: ابْنِ زَائِدَةٍ؛ احْتِقَارًا لَهُ-

فَجُدْ لِي يَا ابْنَ نَاقِصةٍ بِمَالٍ ... فَإِنِّي قَدْ عَزَمْتُ عَلَى المَسِيرِ

فَقَالَ مَعْنٌ: أَعْطُوهُ أَلْفَ دِينَارٍ تُخَفِّفُ عَنْهُ مَشَاقَّ الأَسْفَارِ.

فَأَخَذَهَا وَقَالَ: قَلِيلٌ مَا أَتَيْتَ بِهِ وَإِنِّي ... لَأَطْمَعُ مِنْكَ فِي المَالِ الكَثِيرِ

فَثَنِّ فَقَدْ آتَاكَ الملك عَفْوًا ... بِلَا عَقْلٍ وَلَا رَأْيٍ مُنِيرِ

فَقَالَ مَعْنٌ: أَعْطُوهُ أَلْفًا ثَانِيَةً؛ كَيْ يَكُونَ عَنَّا رَاضِيًا.

فَتَقَدَّمَ الأَعْرَابِيُّ إِلَيْهِ، وَقَبَّلَ الأَرْضَ بَيْنَ يَدَيْهِ، وَقَالَ:

سَأَلْتُ اللَّهَ أَنْ يُبْقِيكَ دَهْرًا ... فَمَا لَكَ فِي البَرِيَّةِ مِنْ نَظِيرِ

فَمِنْكَ الجُودُ وَالإِفْضَالُ حَقًّا ... وَفَيْضُ يَدَيْكَ كَالبَحْرِ الغَزِيرِ

فَقَالَ مَعْنٌ: أَعْطَيْنَاهُ عَلَى هَجْوِنَا أَلْفَيْنِ، فَلْيُعْطَ أَرْبَعَةً عَلَى مَدْحِنَا.

فَقَالَ الأَعْرَابِيُّ: بِأَبِي أَيُّهَا الأَمِيرُ وَنَفْسِي؛ فَأَنْتَ نَسِيجُ وَحْدَكَ فِي الحِلْمِ، وَنَادِرَةُ دَهْرِكَ فِي الجُودِ، وَلَقَدْ كُنْتُ فِي صِفَاتِكَ بَيْنَ مُصَدِّقٍ وَمُكَذِّب، فَلَمَّا بَلَوْتُكَ صَغَّرَ الخُبْرُ الخَبَرَ، وَأَذْهَبَ ضَعْفَ الشَّكِ قُوَّةُ اليَقِين، وَمَا بَعَثَنِي عَلَى مَا فَعَلْتُ إِلَّا مِئَةُ بَعِيرٍ جُعِلَتْ لِي عَلَى إِغْضَابِكَ.

فَقَالَ لَهُ مَعْنٌ: لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكَ، وَوَصَلَهُ بِمِئَتَي بَعِيرٍ، نِصْفُهَا لِلرِّهَانِ، وَالنِّصْفُ الآخَرُ لَهُ.

فَانْصَرَفَ الأَعْرَابِيُّ دَاعِيًا لَهُ، شَاكِرًا لِهِبَاتِهِ، مُعْجَبًا بِأَنَاتِهِ.

وَقَدْ خَرَجَ مَعْنُ بنُ زَائِدَةَ فِي جَمَاعَةٍ مِنْ خَوَاصِّهِ لِلصَّيْدِ، فَاعْتَرَضَهُم قَطِيعٌ مِنْ ظِبَاءٍ؛ فَتَفَرَّقُوا فِي طَلَبِهِ، وَانْفَرَدَ مَعْنٌ خَلْفَ ظَبْيٍ حَتَّى انْقَطَعَ عَنْ أَصْحَابِهِ، فَلَمَّا ظَفِرَ بِهِ؛ نَزَلَ فَذَبَحَهُ، فَرَأَى شَيْخًا مُقْبِلًا مِنَ البَرِّيَّةِ عَلَى حِمَارٍ، فَرَكِبَ فَرَسَهُ وَاسْتَقْبَلَهُ، فَسَلَّمَ عَلَيْهِ، فَقَالَ: مِنْ أَيْنَ وَإِلَى أَيْن؟

قَالَ: أَتَيْتُ مِنْ أَرْضٍ لهَا عِشْرُونَ سَنَةً مُجْدِبَة، وَقَدْ أَخْصَبَت فِي هَذِهِ السَّنَة، فَزَرَعْتُهَا مَقْثَأَةً –وَالمَقْثَأَةُ: مَوْضِعُ القِثَّاء- ،فَأَخْرَجَت القِثَّاءَ فِي غَيْرِ أَوَانٍ، فَجَمَعْتُ مِنْهَا مَا اسْتَحْسَنْتُهُ، وَقَصَدْتُ بِهِ مَعْنَ بنَ زَائِدَة؛ لِكَرَمِهِ المَشْكُور، وَفَضْلِهِ المَشْهُور، وَمَعْرُوفِهِ المَأْثُور، وَإِحْسَانِهِ المَوْفُور.

فَقَالَ لَهُ مَعْنٌ: وَكَمْ أَمَّلْتَ مِنْهُ؟

قَالَ: أَلْفَ دِينَارٍ.

قَالَ: فَإِنْ قَالَ لَكَ: كَثِير؟

قَال: خَمْسَ مِئَة.

قَالَ: فَإِنْ قَالَ لَكَ: كَثِير؟

قَالَ: ثَلَاثَ مِئَة.

قَالَ: فَإِنْ قَالَ لَكَ: كَثِير؟

قَالَ: مِئَة.

فَمَا زَالَ بِهِ حَتَّى قَالَ: لَا أَقَلَّ مِنَ الثَّلَاثِين.

قَالَ لَهُ مَعْنٌ: فَإِنْ قَالَ لَكَ: كَثِير؟

قَالَ الأَعْرَابِيُّ –وَهُوَ لَا يَعْرِفُهُ-: أُدْخِلُ قَوائِمَ حِمَارِي فِي عَيْنِهِ، وَأَرْجِعُ إِلَى أَهْلِي خَائِبًا.

فَضَحِكَ مَعْنٌ، وَسَاقَ جَوَادَهُ حَتَّى لَحِقَ بِأَصْحَابِهِ، وَنَزَلَ فِي مَنْزِلِهِ، وَقَالَ لِحَاجِبِهِ: إِذَا أَتَاكَ شَيْخٌ عَلَى حِمَارٍ بِقِثَّاء فَادْخُل بِهِ عَلَيَّ، فَأَتَى الرَّجُلُ بَعْدَ سَاعَةٍ، فَلَمَّا دَخَلَ عَلَيْهِ لَمْ يَعْرِفْهُ؛ لِهَيْبَتِهِ وَجَلَالِهِ، وَكَثْرَةِ حَشَمِهِ وَخَدَمِهِ، وَهُوَ مُتَصَدِّرٌ فِي دَسْتِهِ –وَالدَّسْتُ: صَدْرُ البَيْتِ-، وَالخَدَمُ قِيَامٌ عَنْ يَمِينِهِ وَشِمَالِهِ وَبَيْنَ يَدَيْه، فَلَمَّا سَلَّمَ عَلَيْهِ الأَعْرَابِيُّ، قَالَ لَهُ: مَا الَّذِي أَتَى بِكَ يَا أَخَا العَرَب؟

قَالَ: أَمَّلْتُ فَضْلَ الأَمِيرِ، وَأَتَيْتُهُ بِقِثَّاءٍ فِي غَيْرِ أَوَانٍ.

فَقَالَ: كَمْ أَمَّلْتَ فِينَا؟

قَالَ: أَلْفَ دِينَارٍ.

قَالَ: كَثِير.

فَقَالَ الأَعْرَابِيُّ فِي نَفْسِهِ: وَاللَّهِ لَقَدْ كَانَ ذَلِكَ الرَّجُلُ شُؤْمًا عَلَيَّ، ثُمَّ قَالَ: خَمْسَ مِئَةِ دِينَارٍ.

قَالَ: كَثِير.

فَمَا زَالَ بِهِ إِلَى أَنْ قَالَ: خَمْسِينَ دِينَارًا.

فَقَالَ لَهُ: كَثِير.

فَقَالَ: لَا أَقَلّ مِنَ الثَّلَاثِين.

فَضَحِكَ مَعْنٌ، فَعَلِمَ الأَعْرَابِيُّ أَنَّهُ صَاحِبُهُ، فَقَالَ: يَا سَيِّدِي؛ إِنْ لَمْ تُجِبْ إِلَى الثَّلَاثِين؛ فَالحِمَارُ مَرْبُوطٌ بِالبَابِ!

وَهَا هُوَ ذَا مَعْنٌ جَالِسٌ، فَضَحِكَ مَعْنٌ حَتَّى اسْتَلْقَى عَلَى فِرَاشِهِ، ثُمَّ دَعَا بَوَكِيلِهِ، فَقَالَ: أَعْطِهِ أَلْفًا، وَخَمْسَ مِئَةٍ، وَثَلَاثَ مِئَةٍ، وَمِئَةً، وَخَمْسِينَ، وَثَلَاثِينَ، وَدَعِ الحِمَارَ مَكَانَهُ.

كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ لَوْ كَانَ ابْنَ زَائِدَة؛ فَقِيلَ لَهُ: يَا ابْنَ نَاقِصَة، قَالَ:

وَلَنْ يُحْفَظَ العِرْضُ الشَّرِيفُ مِنَ الأَذَى   حَتَّى يُرَاقَ عَلَى جَوَانِبُهُ الدَّمُ

وَتَقُومُ المَعْرَكَةُ!!

وَقَدْ يَكُونُ غَيْرَ قَادِرٍ عَلَى إِنْفَاذِ العِقَابِ، وَلَكِنْ هَذَا هُوَ الحِلْمُ؛ لِأَنَّ مَعْنًا كَانَ قَادِرًا عَلَى إِنْفَاذِ العِقَابِ لَوْ أَرَاد؛ بَلْ عَلَى إِنْفَاذِ أَشَدِّ عِقَابٍ(١).

---

(١)«من خطبة: تفجير الكنائس وقتل الأبرياء - الجمعة ١٧ من رجب ١٤٣٨هـ الموافق ١٤-٤-٢٠١٧م».

«كَظْمُ الْغَيْظِ»

قَالَ السَّعْدِيُّ -رَحِمَهُ اللهُ- فِي «تَفْسِيرِهِ»: قَالَ -جَلَّ وَعَلَا-: ﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ (١٣٣) الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (١٣٤)﴾ [آل عمران: ١٣٣-١٣٤].

أَمَرَهُم اللهُ تَعَالَى بِالمُسارعةِ إلى مغفرتِهِ، وإدراكِ جَنَّتِهِ التي عَرْضُهَا السماواتُ والأرضُ، فكيف بِطُولِهَا التي أَعَدَّهَا اللهُ تَعَالَى للمُتَّقِينَ؟!! فَهُم أَهْلُهَا، وأعمالُ التَّقوى هي المُوصِلَةُ إليها، ثُمَّ وَصَفَ المُتقينَ وأعمالَهُم، فقال: ﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ﴾ أي: في حالِ عُسْرِهِم ويُسْرِهِم، إنْ أَيْسَرُوا أَكْثَرُوا مِن النَّفَقَةِ، وإنْ أَعْسَرُوا لم يَحْتَقِرُوا مِن المَعروفِ شَيْئًا ولو قَلَّ.

﴿وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ﴾ أي: إذا حَصَلَ لَهُم مِن غيرِهِم أَذِيَّةٌ تُوجِبُ غَيْظَهُم -وهو امتلاء قلوبِهِم مِن الحَنَقِ المُوجِبِ للانتقامِ بالقَوْلِ والفِعْلِ-؛ هؤلاء لا يعملونَ بِمُقْتَضَى الطِّبَاعِ البشريةِ؛ بَلْ يَكْظِمُونَ ما في القلوبِ مِن الغَيْظِ، ويَصْبِرُونَ عن مُقَابَلَةِ المُسِيءِ إليهم.

﴿وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ﴾ يَدْخُلُ في العفوِ عن النَّاسِ: العَفْوُ عن كُلِّ مَن أَسَاءَ إليك بِقَوْلٍ أو فِعْلٍ، والعَفْوُ أَبْلَغُ مِن الكَظْمِ؛ لأَنَّ العَفْوَ تَرْكُ المُؤاخذةِ مع السَّمَاحَةِ عن المُسِيءِ، وهذا إنما يكونُ مِمَّن تَحَلَّى بالأخلاقِ الجميلةِ، وتَخَلَّى مِن الأخلاقِ الرذِيلَةِ.

وهذا إنما يكونُ مِمَّن تَاجَرَ مع اللهِ، وَعَفَا عن عبادِ اللهِ رحمةً بهم، وإحسانًا إليهم، وكراهةً لِحُصُولِ الشَّرِّ عليهم، ولِيَعْفُوَ اللهُ عنه، ويكون أَجْرُهُ على رَبِّهِ الكريم، لا على العَبْدِ الفَقِيرِ، كَمَا قَالَ -جَلَّ وَعَلَا-: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللهِ﴾.

ثُمَّ ذَكَرَ حَالَةً أَعَمَّ مِن غَيْرِهَا، وأَحْسَنَ وَأَعْلَى وَأَجَلَّ، وهي الإحسانُ، فقالَ تَعَالَى: ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ والإحسانُ نَوْعَانِ:

١*الإحسانُ في عبادةِ الخَالِقِ.

٢*والإحسانُ إلى المَخْلُوقِ.

*فالإحسانُ في عبادةِ الخَالِقِ فَسَّرَهَا النبيُّ ﷺ كما في «الصحيح» فقال: «**أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَم تَكُن تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ**».

*وأمَّا الإحسانُ إلى المَخلوقِ؛ فهو إيصالُ النَّفْعِ الدِّينيِّ والدُّنْيَوِيِّ إليهم، وَدَفْعُ الشَّرِّ الدينيِّ والدنيويِّ عنهم، فَيَدْخُلُ في ذلك: أَمْرُهُم بالمعروفِ، وَنَهْيُهُم عن المُنْكَرِ، وتَعليمُ جَاهِلِهِم، وَوَعْظُ غَافِلِهِم، والنَّصِيحَةُ لعَامَّتِهِم وخَاصَّتِهِم، والسَّعْيُ في جَمْعِ كلمتِهِم، وإيصالُ الصَّدَقَاتِ والنَّفَقَاتِ الوَاجِبَةِ والمُسْتَحَبَّةِ إليهم، على اختلافِ أحوالِهِم وتَبَايُنِ أوصافِهِم، فَيَدْخُلُ في ذلك: بَذْلُ النّدَى، وَكَفُّ الأَذَى، واحتمالُ الأَذَى، كَمَا وَصَفَ اللهُ به المُتَّقِينَ في هذه الآياتِ، فَمَن قَامَ بهذه الأمورِ؛ فَقَد قَامَ بِحَقِّ اللهِ وَحَقِّ عِبَادِهِ.

عَنْ جَابِرٍ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ-: أَنَّهُ غَزَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قِبَلَ نَجْدٍ، فَلَمَّا قَفَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَفَلَ مَعَهُ -أي: رَجَعَ مَعَهُ-، فَأَدْرَكَتْهُمُ الْقَائِلَةُ فِي وَادٍ كَثِيرِ الْعِضَاهِ -وَالْعِضَاهُ: نوعٌ من أنواعِ الشَّجَرِ-، فَنَزَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَتَفَرَّقَ النَّاسُ فِي الْعِضَاهِ، يَسْتَظِلُّونَ بِالشَّجَرِ، وَنَزَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ تَحْتَ سَمُرَةٍ، فَعَلَّقَ بِهَا سَيْفَهُ.

قَالَ جَابِرٌ: فَنِمْنَا نَوْمَةً، ثُمَّ إِذَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَدْعُونَا، فَجِئْنَاهُ، فَإِذَا عِنْدَهُ أَعْرَابِيٌّ جَالِسٌ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**إِنَّ هَذَا اخْتَرَطَ سَيْفِي وَأَنَا نَائِمٌ، فَاسْتَيْقَظْتُ وَهُوَ فِي يَدِهِ صَلْتًا، فَقَالَ لِي: مَنْ يَمْنَعُكَ مِنِّي؟ قُلْتُ: اللَّهُ، فَهَا هُوَ ذَا جَالِسٌ، ثُمَّ لَمْ يُعَاقِبْهُ رَسُولُ اللَّهِ (ص)**». متفقٌ عليه.

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ-، قَالَ: «كُنْتُ أَمْشِي مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَعَلَيْهِ بُرْدٌ نَجْرَانِيٌّ غَلِيظُ الْحَاشِيَةِ، فَأَدْرَكَهُ أَعْرَابِيٌّ، فَجَبَذَهُ بِرِدَائِهِ جَبْذَةً شَدِيدَةً، نَظَرْتُ إِلَى صَفْحَةِ عُنُقِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَقَدْ أَثَّرَتْ بِهِ حَاشِيَةُ الرِّدَاءِ مِنْ شِدَّةِ جَبْذَتِهِ، ثُمَّ قَالَ: يَا مُحَمَّدُ، مُرْ لِي مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي عِنْدَكَ، فَالْتَفَتَ إِلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَضَحِكَ، ثُمَّ أَمَرَ لَهُ بِعَطَاءٍ». متفقٌ عليه(١). **جَبَذَهُ:** جَذَبَهُ.

«لَا تَغْضَبْ»

قَالَ الحسن البَصْرِيُّ -رَحِمَهُ اللهُ-: «مِنْ عَلَامَاتِ الْمُسْلِمِ: قُوَّةٌ فِي دِينٍ، وَحَزْمٌ فِي لِينٍ، وَإِيمَانٌ فِي يَقِينٍ، وَعِلْمٌ فِي حِلْمٍ، وَكَيْسٌ فِي رِفْقٍ، وَإِعْطَاءٌ فِي حَقٍّ، وَقَصْدٌ فِي غِنًى، وَتَجَمُّلٌ فِي فَاقَةٍ، وَإِحْسَانٌ فِي قُدْرَةٍ، وَصَبْرٌ فِي شِدَّةٍ، لَا يَغْلِبُهُ الْغَضَبُ، وَلَا تَجْمَحُ بِهِ الْحَمِيَّةُ، وَلَا تَغْلِبُهُ شَهْوَةٌ، وَلَا تَفْضَحُهُ بِطْنُهُ، وَلَا يَسْتَخِفُّهُ حِرْصُهُ، وَلَا تَقْصُرُ بِهِ نِيَّتُهُ، فَيَنْصُرُ الْمَظْلُومَ، وَيَرْحَمُ الضَّعِيفَ، وَلَا يَبْخَلُ وَلَا يُبَذِّرُ، وَلَا يُسْرِفُ وَلَا يُقَتِّرُ، يَغْفِرُ إِذَا ظُلِمَ، وَيَعْفُو عَنِ الْجَاهِلِ، نَفْسُهُ مِنْهُ فِي عَنَاءٍ، وَالنَّاسُ مِنْهُ فِي رِضَاءٍ رَخَاءٍ».

لَا يَغْلِبُهُ الْغَضَبُ، وَلَا تَجْمَحُ بِهِ الْحَمِيَّةُ.. فهذه صفحةٌ من الحكمةِ.

ينفعلُ الرجلُ انفعالَهُ، ويثورُ ثورتَهُ، ويغضبُ غضبتَهُ، لا يدري لماذا؟!! هذا هو الجحيمُ، لا غضبَ بلا سببٍ؛ ولكنْ نادرًا ما يكونُ السببُ مقبولًا؛ فضلًا عن أنْ يكونَ السببُ وجيهًا؛ لأنه لا يكونُ وجيهًا إلَّا إذا كان مقبولًا، فغضبٌ بسببٍ أيِّ سببٍ؛ غيرَ أنه كَلَا سببٍ، إذ هو غيرُ مقبولٍ؛ فضلًا عن أنْ يكونَ وجيهًا.

وَصَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ عَلَى نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ ﷺ(٢).

---

(١)«من خطبة: التسامح بين المسلمين - الجمعة ١١ من جمادى الآخرة ١٤٣٨هـ الموافق ١٠-٣-٢٠١٧م».

(٢)«مقطع بعنوان: حُسْنُ الخُلُقِ وخطورةِ الكلمةِ من سلسلة القول المبين».

«المَوْعِظَةُ الثَّامِنَةُ وَالعِشْرُونَ»

«الاسْتِغْفَـــــارُ وَالتَّوْبَةُ»

«الأَمْرُ بِالاسْتِغْفَارِ فِي القُرْآنِ وَثَمَرَاتُهُ»

فَقَدْ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَاسْتَغْفِرِ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [النساء: ١٠٦].

وَاسْتَغْفِرِ اللَّهَ مِمَّا هَمَمْتَ بِهِ، مِمَّا يُعَدُّ بِالنِّسْبَةِ لِمَنْصِبِكَ الرَّفِيعِ ذَنْبًا؛ يَغْفِرُ اللهُ لَكَ، إِنَّ اللهَ كَانَ كَثِيرَ السَّتْرِ لِذُنُوبِ عِبَادِهِ، دَائِمَ الرَّحْمَةِ بِعِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ، وَالْأَمْرُ فِي ظَاهِرِهِ لِلنَّبِيِّ ﷺ، وَهُوَ فِي عُمُومِهِ لِكُلِّ أُمَّتِهِ، وَلِكُلِّ قَاضٍ يَفْصِلُ بَيْنَ النَّاسِ(١).

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [النساء: ١١٠].

وَمَنْ يَعْمَلْ عَمَلًا سَيِّئًا مِنَ الصَّغَائِرِ أَوِ الْكَبَائِرِ؛ يُدْرِكِ النَّاسُ قُبْحَهُ، وَيَسُوؤُهُمْ أَنْ يَرْتَكِبَهُ، أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ بِارْتِكَابِ الْمَعَاصِي فِيمَا يَخْتَصُّ بِهِ، ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللهَ مِنْ ذُنُوبِهِ وَظُلْمِ نَفْسِهِ بِمَعْصِيَةِ رَبِّهِ، مَعَ النَّدَمِ وَالْعَزْمِ عَلَى الِاسْتِقَامَةِ؛ يَجِدِ اللهَ كَثِيرَ السَّتْرِ لَهُ، دَائِمَ الرَّحْمَةِ بِهِ، يَعْفُو عَنْ جَمِيعِ الذُّنُوبِ الْكَبَائِرِ وَالصَّغَائِرِ(٢).

---

(١)«القراءة والتعليق على مختصر تفسير القرآن [سورة النساء: ١٠٦]».

(٢)«القراءة والتعليق على مختصر تفسير القرآن [سورة النساء: ١٠٦]».

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ ﴾ [هود: ٣].

وَاطْلُبُوا مِنْ رَبِّكُمُ السَّتْرَ لِسَالِفِ ذُنُوبِكُمْ، ثُمَّ ارْجِعُوا إِلَيْهِ بِالطَّاعَةِ فِي الْمُسْتَقْبَلِ، إِنَّكُمْ إِذَا فَعَلْتُمْ مَا أُمِرْتُمْ بِهِ مِنَ الاِسْتِغْفَارِ وَالتَّوْبَةِ، وَأَخْلَصْتُمُ الْعِبَادَةَ للهِ سُبْحَانَهُ؛ بَسَطَ عَلَيْكُمْ مِنَ الدُّنْيَا وَأَسْبَابِ الرِّزْقِ مَا تَعِيشُونَ بِهِ فِي أَمْنٍ وَسَعَةٍ وَخَيْرٍ إِلَى حِينِ المَوْتِ، وَإِلَى وَقْتِ انْقِضَاءِ آجَالِكُمْ، وَيُعْطِي كُلَّ ذِي زِيَادَةٍ مِنْ إِيمَانٍ وَعَمَلٍ صَالِحٍ فِي الدُّنْيَا أَجْرَهُ وَثَوَابَهُ فِي الآخِرَةِ، وَإِنْ تُدِيرُوا ظُهُورَكُمْ كَافِرِينَ، غَيْرَ مُسْتَجِيبِينَ لِمَا أَدْعُوكُمْ إِلَيْهِ مِنَ الْهُدَى؛ فَقُلْ لَهُمْ يَا رَسُولَ اللهِ: إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ النَّارِ فِي الآخِرَةِ(١).

«كَثْرَةُ اسْتِغْفَارِ النَّبِيِّ ﷺ، وَأَمْرُهُ الْأُمَّةَ بِهِ»

عَنْ شَدَّادِ بْنِ أَوْسٍ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ: «**سَيِّدُ الِاسْتِغْفَارِ: اللَّهُمَّ أَنْتَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، خَلَقْتَنِي وَأَنَا عَبْدُكَ، وَأَنَا عَلَى عَهْدِكَ وَوَعْدِكَ مَا اسْتَطَعْتُ، أَبُوءُ لَكَ بِنِعْمَتِكَ عَلَيَّ وَأَبُوءُ لَكَ بِذَنْبِي، فَاغْفِرْ لِي؛ فَإِنَّهُ لَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ، أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ مَا صَنَعْتُ.**

إِذَا قَالَ ذَلِكَ حِينَ يُمْسِي فَمَاتَ دَخَلَ الْجَنَّةَ، أَوْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ، وَإِذَا قَالَ حِينَ يُصْبِحُ فَمَاتَ مِنْ يَوْمِهِ مِثْلَهُ».

الحديثُ صَحِيحٌ، أخرجه البخاريُّ –رحمه الله-؛ وَلَكِنْ بِغَيْرِ هَذَا اللَّفْظِ بِتَغْيِيرٍ يَسِيرٍ فِيهِ.

هَذَا سَيِّدُ الِاسْتِغْفَارِ، فَهُوَ أَكْثَرُ نَفْعًا لِمَنْ يَسْتَغْفِرُ بِهَذِهِ الصِّيغَةِ، فَلَا بُدَّ أَنْ يُرَاعِيَ المَرْءُ ذلك؛ فَإِنَّ النبيَّ ﷺ يَحْرِص على جَوامِعِ الكَلِمِ، كَانَ النبيُّ ﷺ يَحْرِص على جَوامِعِ الكَلِمِ.

---

(١)«القراءة والتعليق على مختصر تفسير القرآن [سورة هود: ٣]».

«**سَيِّدُ الِاسْتِغْفَارِ**»؛ لِأَنَّ المَرْءَ يُمْكِنُ أنْ يَسْتَغْفِرَ هَكَذَا، يَقُولُ: «أَسْتَغْفِرُ اللّٰهَ»، وَيُمْكِنُ أنْ يَقُولَ: «أَسْتَغْفِرُ اللّٰهَ العَظِيمَ»، فأَتَى بِاسْمٍ مِنْ أَسماءِ اللهِ مُتَضَمِّنٍ لِصِفَةٍ مِنْ صفاتِ رَبِّنَا، وَهِيَ العَظَمَةُ؛ فَلَا شَكَّ أَنَّ هذا أَعْلَى مِنَ الأَوَّلِ.

فَإِذَا قال: «**أَسْتَغْفِرُ اللهَ العَظِيمَ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الحَيَّ القَيُّومَ، وَأَتُوبُ إِلَيْهِ**»، **لَوْ كانتْ ذُنُوبُهُ مِثْلَ زَبَدِ البَحْرِ؛ غَفَرَ اللهُ لَهُ**، كَمَا قال الرسولُ ﷺ، فَهَذِهِ الصِّيغَةُ أَعْلَى.

فَإِذَا أَتَى بِسَيِّدِ الاستغفارِ: «**اللَّهُمَّ أَنْتَ رَبِّي...**»؛ كان أَعْلَى وَأَجَلَّ، إِذَا قَالَهَا -وهي مِنْ أذكارِ الصَّبَاحِ- بِالصَّبَاحِ، فَمَاتَ مِنْ يَوْمِهِ قَبْلَ المَسَاءِ؛ دَخَلَ الجَنَّةَ، وَهِيَ أيضًا مِنْ أذكارِ المَسَاءِ، فإذا قَالَهَا مِنْ لَيْلَتِهِ، فَمَاتَ مِنْ لَيْلَتِهِ قَبْلَ أَنْ يُصْبِحَ؛ دَخَلَ الجَنَّةَ؛ لِمَا تَضَمَّنَ الحَدِيثُ مِنَ المَعَانِي الجَلِيلَةِ.

«**وَأَنَا عَلَى عَهْدِكَ وَوَعْدِكَ مَا اسْتَطَعْتُ**»؛ أي: أنَا على ما عَاهَدْتُكَ عليه مِنَ الإيمانِ بِكَ، وإِخْلَاصِ الطاعَةِ لَكَ، والتَّوَكُّلِ عَلَيْكَ مُقِيمٌ مَا اسْتَطَعْتُ.

«**أَبُوءُ لَكَ**»؛ أي: أَعْتَرِفُ.

«**أَبُوءُ لَكَ بِنِعْمَتِكَ عَلَيَّ، وَأَبُوءُ لَكَ بِذَنْبِي**»: وهذا فيه جَنَاحَا السُّلُوكِ إِلَى اللهِ تعالى؛ لأنَّ السَّالِكَ إلى اللهِ تَعَالَى يَسْلُكُ بِجَنَاحَيْنِ:

أَحدُهُمَا: مُطَالَعَةُ المِنَّةِ.

الثاني: مُطَالَعَةُ عَيْبِ النَّفْسِ.

«**أَبُوءُ لَكَ بِنِعْمَتِكَ عَلَيَّ، وَأَبُوءُ لَكَ بِذَنْبِي**»: الذَّنْبُ ذَنْبِي، والتَّقْصِيرُ تَقْصِيرِي، والإِثْمُ مِنِّي، والنِّعْمَةُ مِنْكَ، والتَّفَضُّلُ والغُفْرَانُ مِنْكَ وَحْدَكَ، فَأَسْنَدَ إليهِ كُلَّ ما هُوَ لَهُ أَهْلٌ.

مِنْ شروطِ الِاسْتِغْفَارِ: صِحَّةُ النِّيَّةِ؛ لقولِهِ: «**مُوقِنًا بها**» فِي لَفْظٍ فِي «الصحِيحِ».

«**مَنْ مات مُوقِنًا بِهَا**»؛ أيْ: مُخْلِصًا للهِ مِنْ قَلْبِهِ، مُصَدِّقًا بِثَوَابِهَا.

مَا يُؤْخَذُ مِنَ الحَدِيثِ:

١*الحَثُّ على الِاسْتِغْفَارِ، وَبَيَانُ عَظِيمِ فَضْلِهِ.

٢*الإِقْرَارُ للهِ وَحْدَهُ بِالْإِلَهِيَّةِ وَالعُبُودِيَّةِ.

٣*الِاسْتِعَاذَةُ مِنْ شَرِّ مَا جَنَى العَبْدُ عَلَى نَفْسِهِ.

٤*إِضَافَةُ النَّعْمَاءِ إلى مُوجِدِهَا والمُنْعِمِ بها، وإِضَافَةُ الذَّنْبِ إِلَى نَفْسِهِ.

٥*التَّوَجُّهُ إلى اللهِ، والْأَدَبُ مَعَ اللهِ –عَزَّ وَجَلَّ-، والتَّأَدُّبُ في الدُّعَاءِ، وعَدَمُ التَّجَاوُزِ والِاعْتِدَاءِ.

عَنِ ابْنِ عُمَرَ قال: إِنَّا كُنَّا لَنَعُدُّ فِي المَجْلِسِ للنَّبِيِّ ﷺ: «**رَبِّ اغْفِرْ لِي وَتُبْ عَلَيَّ، إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ**» مِئَةَ مَرَّةٍ. أخرجه أحمدُ، وأبو دَاوُدَ، والتِّرْمِذِيُّ، وابْنُ مَاجَه، وصححه الألبانيُّ في «الصحيحةِ».

قولُهُ ﷺ: «**رَبِّ اغْفِرْ لِي**»: استغفارُ الأنبياءِ، دَلَّ عليه ما كَانَ مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ؛ فإِنَّ الأنبياءَ –عليهِمُ الصلاةُ والسلامُ- كَانُوا يُكْثِرُونَ مِنَ الِاسْتِغْفَارِ؛ لِإِظْهَارِ العُبُودِيَّةِ لِلْعَزِيزِ القَهَّارِ، وكَذَا بِالِاعْتِرَافِ بالعَجْزِ والقُصُورِ عَمَّا وَجَبَ عليهِمْ مِنْ أَدَاءِ حَقِّ الخَلَّاقِ العَظِيمِ، وَلِتَعْلِيمِ أُمَمِهِمْ ما ينبغي عَلَيْهِمْ مِنَ المَذَلَّةِ والخُضُوعِ والرُّكُونِ إلى اللهِ –تبارك وتعالى-، والخُلُوصِ مِنْ حَظِّ النَّفْسِ، وَمِنَ الرُّكُونِ إليها.

«**رَبِّ اغْفِرْ لِي وَتُبْ عَلَيَّ**»؛ أَيْ: ارْجِعْ عَلَيَّ بالرحمةِ، وَوَفِّقْنِي لِلتَّوْبَةِ، أَوِ اقْبَلْ تَوْبَتِي.

«**إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ**»: ومِنَ المعلومِ: أنه مما ينبغي في الدُّعَاءِ، ومِنَ اسْتِعْمَالِ الأسماءِ الحُسْنَى فِيهِ: أَنْ يَجْتَهِدَ الإنسانُ في الإتيانِ بما يُنَاسِبُ ما يَطْلُبُ مِنَ الأسماءِ الحُسْنَى، فإذا طَلَبَ مِنَ الله –تبارك وتعالى- الرِّزْقَ؛ قال: اللَّهُمَّ ارزُقْنِي يا رَزَّاقُ يا كَرِيمُ، وإذا طَلَبَ مِنَ اللهِ تعالى الحِفْظَ؛ قَدَّمَ بَيْنَ يَدَيْ ذلِكَ بِذِكْرِ اسْمِ اللهِ «الحَفِيظُ»؛ يَا حَفِيظُ احْفَظْنِي مِنْ بَيْنِ يَدَيَّ وَمِنْ خَلْفِي، وَعَنْ يَمِينِي وَعَنْ شِمَالِي وَمِنْ فَوْقِي، وَأَعُوذُ بِعَظَمَتِكَ أَنْ أُغْتَالَ مِنْ تَحْتِي.

يا قَوِيُّ قَوِّنِي.

يَا عَلِيمُ عَلِّمْنِي.

فَالنَّبِيُّ ﷺ ذَكَرَ ما يُنَاسِبُ المَقَامَ في الطَّلَبِ فيما يَتَعَلَّقُ بالأَسْمَاءِ الحُسْنَى، فقالَ ﷺ مُسْتَغْفِرًا وَرَاجِعًا إِلَى اللهِ ومُنِيبًا إليه: «**رَبِّ اغْفِرْ لِي وَتُبْ عليَّ، إنكَ أنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ**».

قال ﷺ: «**واللهِ إِنِّي لَأَسْتَغْفِرُ اللهَ وَأَتُوبُ إِلَيْهِ فِي اليَوْمِ أَكْثَرَ مِنْ سَبْعِينَ مَرَّةً**». أخرجه البخاري.

وفي رِوَايَةٍ: «**تُوبُوا إِلَى اللهِ؛ فَإِنِّي أَتُوبُ إِلَيْهِ كُلَّ يَوْمٍ مِئَةَ مَرَّةٍ**». أخرجه مسلم.

فكَانَ ﷺ كَمَا دَلَّ هذا الحَدِيثُ يُكْثِرُ مِنَ الِاسْتِغْفَارِ والتَّوْبَةِ إلى اللهِ؛ شُكْرًا على مَا أَنْعَمَ عليْهِ مِنَ النِّعَمِ الكَثِيرَةِ الَّتِي لَا تُحْصَى(١).

---

(١)«مختصر من شرح كتاب «الأدب المفرد» من ص ٢٦٩٨-٢٧٠٦».

«التَّوْبَةُ الصَّادِقَةُ وَشُرُوطُهَا»

عِبَادَ اللهِ؛ إِنَّ العَمَلَ مَطْلُوبٌ أَصْلًا فِي دِينِ اللَّهِ –تبارك وتعالى- وأَسَاسه، وأَمَّا الكَلَامُ فَكَثِيرٌ، إِنَّ الكَلَامَ كَثِيرٌ، وَلَا يُعْتَدُّ مِنَ الكَلَامِ إِلَّا بما صَدَّقَهُ العَمَلُ، وإِلَّا فَهُوَ وَبَالٌ على المُتَكَلِّمِ بِهِ وَعَلَى السَّامِعِهِ أيضًا؛ لأَنَّ السَّامِعَ مَتَى مَا عَلِمَ فَقَدْ أُلْزِمَ، والإِلزَامُ حَتْمٌ ووجوبٌ، وَإِذَنْ؛ فَيَنْبَغِي علينا أَنْ نَعُودَ إِلَى الأصلِ؛ أَنْ نَتُوبَ والتَّوبةُ أَوْبَةٌ، والتَّوبةُ رَجعَةٌ وعودةٌ، وأَنْ تكونَ للّه خالصةً، فهذا شرطُها الأَولُ أن تكونَ التوبةُ للّه-للّه–ربِّ العالمِينَ-؛

لأنه المُسْتَحِقُّ بِأَنْ يُتَابَ إليهِ، ولأَنَّه هو الذي يَتُوبُ على التَّائِبِينَ.

وأَنِينُ التَّائِبِينَ...أنِينُ المُخطِئِينَ...أَنِينُ المُجْتَرِحِينَ لِلسَّيِّئَاتِ والذُّنُوبِ أَحَبُّ إِلَى اللهِ -ربِّ العَالَمِينَ- مِنْ زَجَلِ المُسَبِّحِينَ فِي أَجْوَافِ اللَّيَالِي، أَنِينُ التَّائِبِينَ أَحَبُّ إِلَى اللهِ–رَبِّ العَالَمِينَ- مِنْ زَجَلِ المُسَبِّحِينَ.

وفِي حَدِيثٍ عِنْدَ عَبْدِ الرَّزَّاقِ –رحمةُ الله عليهِ-«فِي مُصنَّفِهِ» يَحكِي فيهِ النَّبِيُّ ﷺ عن أغلَى قَطرَةٍ تكونُ، «**وإِنَّ قطرةً من دمعٍ لتُطفِئُ بحارًا من نيرانٍ**» كما قال النبيُّ العَدْنَانُ ﷺ.

ولَكِنْ أينَ هي؟! أفَمَا إذَا عَصَرَ الإِنسَانُ حَجَرًا بَضَّ دَمْعًا؟!

أَفَمَا إِذَا سَحَقَ الإِنسَانُ جُلمُودَ صَخرٍ؛ سَالَ مَاءًا؟! مِنْ أَينَ؟!

اللَّهُمَّ ارْزُقْنَا أَعْيُنًا بَاكِيَةً مِنْ جَلَالِ خَشْيَتِكَ يَا ربَّ العَالمِينَ.

الإِخْلاصُ للَّهِ -جلَّ وعَلا- والإِقْلاعُ الفَوْرِيُّ عَمَّا هو عليهِ مِنْ هذهِ الذُّنُوبِ المُلَوِّثَاتِ؛ لأَنَّ اللَّهَ -رَبَّ العَالَمِينَ- أَرَادَنَا طَاهِرِينَ، وهو يُحِبُّ المُطَّهِّرِينَ.

فاللَّهُ رَبُّ العَالمِينَ لا يَقْبَلُ المُدَنَّسِينَ ولا المُتَدَنِّسِينَ ولا المُدَنِّسِينَ؛ كلُّ ذلك مردودٌ عندَ ربِّ العَالَمِينَ، وعلى المَرءِ أن يَندَمَ، وأن يَبكِي على ما أجْرَمَ.

وخُذْها إليكَ نَصِيحةً؛ ائتِ بورقةٍ بيضاءَ، أو إنْ شِئتَ فَسَوداءَ طَوْرًا وبيضاءَ طَوْرًا آخر، أو إنْ شِئتَ فأتِ بورقَتينِ بسَوداءَ وبَيضاءَ، فأمَّا السَّوداءُ؛ فاجعلها لحسنَاتِكَ، واكتُبْ عليْها بالبَيَاضِ رقُومًا، وأمَّا البَيْضَاءُ؛ فخُطَّ فيها سَوادَ سيئاتِكَ، واجلِسْ وحْدَكَ بَيْنَكَ وبين ربِّكَ، واستَعرِض حياتَكَ مُنذُ راهَقْتَ الحُلُمَ، مُنذُ شَرَعَ القَلَمُ يكتُبُ عَليكَ ما هُنالِكَ من المَأثَمِ والمَغرَمِ، وما أنتَ بهِ مُكَلَّفٌ، وما قد اجْتَرَحْتَهُ، وما أتيتَ بهِ أيْضًا من إحسانٍ.

اقْعُد هُنَالِكَ فِي خَلوَةٍ لَا جَلوَةَ فِيهَا؛ إِلَّا لِقَلْبٍ عَلَى عَطَاءِ وَعَطْفِ رَبٍّ، وَأَقْبِلْ عَلَيْهِ مُنِيبًا خَاشِعًا مُتَبَتِّلًا وَسَبِّحْ مَعِي ربًّا ودُودًا -سُبْحَانَ رَبِّيَ الوَدُود-، وَأَقْبِلْ عَلَيْهِ، وَتَأَمَّل في المَاضِي البَغِيضِ، مَاضٍ بَغِيضٍ!! أَتَحْسَبُ أَنَّ مَا اجْتَرَحْتَ قَد ذَهَبَ هَبَاءً، وَأَنَّهُ لَيْسَ عَلَيْكَ مَسْتُورًا، وَأَنَّك لَسْتَ عَنْهُ مَسْئُولًا؟! هَيْهَاتَ! ﴿إِنَّا كنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنْتُم تعْمَلُونَ﴾

نُسْخَةً كَأَنَّمَا قَدْ طُبِعَتْ طَبْعًا؛ مِنْ أَعْمَالٍ مُرْهِقَاتٍ لِكَاهِلِ الطَّاعةِ؛ بل هي داقَّةٌ لعُنُقِها وقَاسِمَةٌ لِظَهْرِها، وكلُّ ذلك يَأْتِي، وآخذٌ كتَابَهُ بيمِينهِ يقولُ: ﴿هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ﴾ بفرحةٍ، تَمتَدُّ هكذا إلى أبْعَدِ ما يكونُ في المَوقِفِ بُعْدًا: ﴿هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ﴾ وتَأْتِي هَاءُ السَّكْتِ هَهُنا «كِتَابِيَه» هكذا، فَيُبْدَأُ بِهَا وَهِيَ مِنْ أَقْصَى الحَلْقِ، ويُنتَهى بها وهي في أَقْصَاهُ: ﴿ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ﴾ [الحاقة: ١٩].

وأمَّا الآخَرُ؛ فَآخِذٌ بِشِمَالِهِ مِنْ وَرَاءِ ظَهْرِهِ: ﴿يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ﴾ خَطْفًا ﴿يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ * وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ﴾ [الحاقة: ٢٦] بِنَدَمٍ باهِظٍ للحِسِّ والقَلبِ والفُؤَادِ؛ وأين هو النَّدَمُ؟! نَدَمٌ ببُكاءٍ، وأين البُكاءُ؟!

يا لَحَسْرةَ القَلبِ الذي صَارَ صَخْرًا، ويَا حَسْرةَ الكَبِدِ التي عادَتْ حَجَرًا.

اللّهُمَّ اكْشِفْ الحِجَابَ، وارْفَعِ الحُجُبَ، وأَزِلِ الغِشَاوَةَ عن أَعْيُنِنَا يَا رَبَّ العَالَمِينَ.

النَّبِيُّ ﷺ يَقولُ: «**النَّدَمُ تَوبَة**»، ولكنْ أين هو؟

والمَرْءُ يَعُدُّ سَيِّئَاتِهِ حَسَنَاتٍ، ويَجْعَلُ تَهْرِيجَهُ وتَهوِيشَهُ جِهادًا في سَبِيلِ اللّه، أيُّ خَلْقٍ وَأَيُّ قَلْبٍ لِمَوَازِينِ دِينٍ هو مُعتَدِلُ المَوَازِينِ، قائِمٌ على الجَادَّةِ لا يَرِيم، فَأَيُّ عبَثٍ، وأيُّ لَعِبٍ، وأيُّ طُغيَانٍ في أمرٍ لا يَنبَغِي أنْ يُمَسَّ في دينِ اللَّهِ ربِّ العالمينَ؟!!

ولَكِنْ النَّدَمُ تَوْبةٌ؛ فاللّهُمَّ مُنَّ بها يا رب العَالَمِينَ، فالإقلاعُ عن الذَّنبِ، والنَّدمُ، والعَزْمُ بالجَزْمِ على ألَّا يَعُودَ المَرءُ إلى ذلك أبدًا، لا أنْ يكونَ على نِيَّةٍ مشْلُولَةٍ مفْكُوكَةِ الأَعضاءِ مُغمِضًا، فكأنه يُغضِي حينًا ليَستجدَّ له عَزمٌ على مُعاوَدةِ الذُّنُوبِ؛ فأيُّ عَزمٍ هذا؟! هو عزمٌ مَحْلُولٌ، فيا للّه أين العَزمُ؟! وأين نَجِدُه؟! فاللّهم مُنَّ بهِ يا ربَّ العَالَمِينَ، وأن تقع في هذه البَحْبُوحةِ في النَّفَسِ الخَارجِ الدَّاخلِ في هذه الحركةِ قبل يُشَلَّ اللِّسانُ، وتَتَوقَّف الأَعضاءُ قبلَ أن يَعودَ المَرءُ إلى التُّرابِ، نعم؛ ينبغي أن تَأتِيَ التَّوبةُ في وقتِها المضرُوبِ.

فأمَّا على المُسْتَوَى الإنسَانِي؛ فَقَبْلَ أَنْ تَبْلُغَ الرُّوحُ الحُلْقُومَ.

وأنت هَهُنَا لَم تَبلُغْ رُوحُكَ حُلْقُومَهَا، وَلَم تَصِلْ بَعْدُ إِلَى ذِرْوَتِها، فَبَابُ التَّوبَةِ مَا زَالَ مَفتُوحاً، وَأَمَّا فِي عُمُومِ الجِنْسِ الإِنْسَانِيِّ؛ فَحَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِن مَغْرِبِهَا، وقَبْلَ ذَلِكَ البَابُ مَفْتُوحٌ، والأَمْرُ مِنَ الرَّبِّ نَازِلٌ بِخَيْرٍ، ولا يَنْزِلُ مِنْهُ إلا الخَيرُ(١).

«إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ»

عَلَى العَبْدِ أَنْ يَجْتَهِدَ فِي الاسْتِغْفَارِ وَالتَّوْبَةِ عِنْدَ الوقُوعِ فِي المَعَاصِي وَالمَعَائِبِ.

وَعَلَى المُؤمِنِ أَنْ يَجْتَهِدَ فِي تَحْقِيقِ العِلْمِ وَالإِيمَانِ، وَلْيَتَّخِذِ اللهَ هَادِيًا وَنَصِيرًا وَحَاكِمًا وَوَلِيًّا؛ فَإِنَّهُ نِعْمَ المَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ، وَكَفَى بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا.

فَيَا مَن عَزَمَ السَّفَرَ إِلَى اللهِ وَالدَّارِ الآخِرَةِ؛ قَد رُفِعَ لَكَ عَلَمٌ فَشَمِّرْ إِلَيْهِ، فَقَد أَمْكَنَ التَّشْمِيرَ، وَاجْعَل سَيْرَكَ بَيْنَ مُطَالَعَةِ مِنَّتِهِ، وَمُشَاهَدَةِ عَيْبِ النَّفْسِ وَالعَمَلِ وَالتَّقْصِيرِ، فَمَا أَبْقَى مَشْهَدُ النِّعْمَةِ وَالذَّنْبِ لِلْمُحْسِنِ مِن حَسَنَةٍ؛ يَقُولُ: هَذِهِ مُنجِيَتِي مِن عَذَابِ السَّعِيرِ، وَمَا المُعَوَّلُ إِلَّا عَلَى عَفْوِهِ وَمَغْفِرَتِهِ؛ فَكُلُّ أَحَدٍ إِلَيْهَا فَقِير، أَبُوءُ لَكَ بِنِعْمَتِكَ عَلَيَّ، وَأَبُوأُ بِذَنْبِي؛ فَاغْفِر لِي، أَنَا المُذْنِبُ المسْكِينُ، وَأَنْتَ الرَّحِيمُ الغَفُورُ.

---

(١) «من خطبة: رمضان وأنين التائبين - الجمعة ٢٥ رمضان ١٤٢٦هـ، ٢٨-١٠-٢٠٠٥م».

مَا تُسَاوِي أَعْمَالُكَ لَوْ سَلِمَت مِمَّا يُبْطِلُهَا أَدْنَى نِعْمَةٍ مِن نِعَمِهِ عَلَيْكَ، وَأَنْتَ مُرْتَهَنٌ بِشُكْرِهَا مِن حِينِ أَرْسَلَ بِهَا إِلَيْكَ؛ فَهَلْ رَعَيْتَهَا بِاللهِ حَقَّ رِعَايَتِهَا وَهِي فِي تَصْرِيفِكَ وَطَوْعَ يَدَيْكَ؟!

فَتَعَلَّقْ بِحَبْلِ الرَّجَاءِ، وَادْخُلْ مِنْ بَابِ التَّوْبَةِ وَالعَمَلِ الصَّالِحِ، إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ.

نَهَجَ للعبدِ طريقَ النَّجَاةِ، وفَتَحَ له أبوابَها، وعَرَّفَهُ طُرُقَ تحصيلِ السعادةِ، وأَعْطَاهُ أسبابَها، وحَذَّرَهُ مِنْ وَبَالِ معصيتِهِ، وأَشْهَدَهُ على نفسِه وعلى غيرِهِ شُؤْمَهَا وعِقَابَها، وقال: «إنْ أَطَعْتَ فَبِفَضْلِي، وأنا أَشْكُر، وإنْ عَصَيْتَ فَبِقَضَائِي، وأنا أَغْفِر»، إِنَّ رَبَّنَا لَغفُورٌ شَكُورٌ.
وأَزَاحَ عنِ العبدِ العِلَل، وأَمَرَهُ أنْ يَسْتَعِيذَ به مِنَ العَجْزِ والكسلِ، ووَعَدَهُ أنْ يَشْكُرَ له القليلَ مِنَ العملِ، ويَغْفِرَ له الكثيرَ مِنَ الزَّلَلِ، إِنَّ رَبَّنَا لَغفُورٌ شَكُورٌ. أعطاه ما يَشْكُرُ عليه، ثم يَشْكُرُهُ على إحسانِهِ إلى نفسِهِ، لا على إحسانِهِ إليه، ووَعَدَهُ على إحسانِهِ لِنَفْسِهِ أنْ يُحْسِنَ جزاءَهُ ويُقَرِّبَهُ لَدَيْهِ، وأنْ يَغْفِرَ له خَطَايَاهُ إذا تاب منها ولا يَفْضَحَهُ بَيْنَ يَدَيْهِ، إِنَّ رَبَّنَا لَغفُورٌ شَكُورٌ.
وَثِقَتْ بِعَفْوِهِ هَفَوَاتُ المُذْنِبِينَ فَوَسِعَها، وعَكَفَتْ بِكَرَمِهِ آمَالُ المُحْسِنِينَ فما قَطَعَ طَمَعَها، وخَرَّقَتِ السَّبْعَ الطِّبَاقَ دَعَوَاتُ التائِبِينَ والسائلينَ فَسَمِعَها، ووَسِعَ الخلائقَ عَفْوُهُ ومغفرتُهُ ورِزْقُه، فـ﴿مَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا﴾، إِنَّ رَبَّنَا لَغفُورٌ شَكُورٌ.
يَجُودُ على عَبِيدِهِ بالنَّوَالِ قَبْلَ السؤال، ويُعْطِي سائِلَهُ ومُؤَمِّلَهُ فَوْقَ ما تَعَلَّقَتْ به منهمُ الآمَالُ، ويغفرُ لِمَنْ تاب إليه ولو بَلَغَتْ ذنُوبُهُ عَدَدَ الأمواجِ والحَصَى والترابِ والرِّمَالِ، إِنَّ رَبَّنَا لَغفُورٌ شَكُورٌ.
أَرْحَمُ بِعِبَادِهِ مِنَ الوالدةِ بِوَلَدِها، وأَفْرَحُ بتوبةِ التائِبِ مِنَ الفَاقِدِ لِرَاحلتِهِ التي عليها طعامُهُ وشَرَابُهُ في الأرضِ المُهْلِكَةِ إذا وَجَدَهَا، وأَشْكَرُ للقليلِ مِنْ جميعِ خَلْقِهِ، فمَنْ تَقَرَّبَ إليه بِمِثْقَالِ ذرةٍ مِنَ الخيرِ شَكَرَهَا وحَمِدَهَا، إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ.

تَعَرَّفَ إلى عبادِهِ بأسمائِهِ وصفاتِهِ، وتَحَبَّبَ إليهم بِحِلْمِهِ وآلَائِهِ، ولَمْ تَمْنَعْهُ مَعَاصِيهِمْ بِأَنْ جَادَ عليهم بآلَائِهِ، ووَعَدَ مَنْ تابَ إليه وأَحْسَنَ طاعتَهُ بمغفرةِ ذنوبِهِ يومَ لقائِهِ، إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ.

السعادةُ كلُّها في طاعتِهِ، والأَرْبَاحُ كُلُّها في مُعَامَلَتِه، والمِحَنُ والبَلَايَا كُلُّها في معصيتِه ومُخَالَفَتِه، فليس للعبدِ أَنْفَعُ مِنْ شُكْرِهِ وتوبتِهِ، إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ. أَفَاضَ على خلقِهِ النعمةَ، وكَتَبَ على نفسِهِ الرحمةَ، وضَمَّنَ الكتابَ الذي كَتَبَه: «إِنَّ رحمتَهُ تَغْلِبُ غضَبَهُ»، إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ.

يُطَاعُ فَيَشْكُرُ، وطاعتُهُ مِنْ توفيقِهِ وفَضْلِهِ، ويُعْصَى فَيَحْلُمُ، ومعصيةُ العبدِ مِنْ ظُلْمِه وجهلِهِ، ويتوبُ إليه فاعِلُ القَبِيحِ فَيَغْفِرُ له؛ حتى كأنه لَمْ يَكُنْ قَطُّ مِنْ أهلِهِ، إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ.

الحسنةُ عندَهُ بعَشْرَةِ أَمْثَالِهَا، أو يُضَاعِفُها بلا عَدَدٍ ولا حُسْبَان، والسيئةُ عندَهُ بواحِدَةٍ، ومَصِيرُها إلى العَفْوِ والغُفْرَان، وبابُ التوبةِ مفتوحٌ لَدَيْهِ منذُ خَلَقَ السماواتِ والأرضَ إلى آخِرِ الزمانِ، إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ.

بابُهُ الكَرِيمُ مُنَاخُ الآمَالِ، ومَحَطُّ الأَوْزَارِ، وسماءُ عَطَايَاهُ لا تُقْلِعُ عَنِ الغَيْثِ؛ بل هي مِدْرَارٌ، ويَمِينُهُ مَلْأَى لا تَغِيضُهَا نفقةٌ، سَحَّاءُ الليلَ والنهارَ، إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ.

لا يَلْقَى وَصَايَاهُ إلا الصابرون، ولا يَفُوزُ بِعَطَايَاهُ إلا الشاكرون، ولا يَهْلِكُ عليهِ إلا الهَالِكُون، ولا يَشْقَى بِعَذَابِهِ إلا المُتَمَرِّدُون، إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ.

فَإِيَّاكَ أَيُّهَا المُتَمَرِّدُ أَنْ يَأْخُذَكَ على غِرَّةٍ فإنه غَيُور، وإذا أَقَمْتَ على معصيتِهِ وهو يَمُدُّكَ بنعمتِهِ فاحْذَرْ؛ فإنه لم يُهْمِلْكَ؛ لكنه صَبُور.

وبُشْرَاكَ أَيُّهَا التائِبُ بِمَغْفِرَتِهِ ورحمتِهِ، إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ.

مَنْ عَلِمَ أَنَّ الرَّبَّ شَكُورٌ؛ تَنَوَّعَ في مُعَامَلَتِه، ومَنْ عَلِمَ أنه واسعُ المغفرةِ؛ تَعَلَّقَ بِأَذْيَالِ مَغْفِرَتِه، ومَنْ عَلِمَ أَنَّ رَحْمَتَهُ سَبَقَتْ غَضَبَهُ؛ لَمْ يَيْأَسْ مِنْ رَحْمَتِه، إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ.

مَنْ تَعَلَّقَ بصِفَةٍ مِنْ صفاتِهِ؛ أَخَذَتْهُ بِيَدِهِ حتى تُدْخِلَهُ عليه، ومَنْ سَارَ إليه بأسمائِهِ الحُسْنَى؛ وَصَلَ إليه، ومَنْ أَحَبَّهُ؛ أَحَبَّ أسماءَهُ وصفاتِهِ، وكانت آثَرَ شيءٍ لَدَيْهِ.

حياةُ القلوبِ في مَعْرِفَتِهِ ومَحَبَّتِه، وكَمَالُ الجَوَارِحِ في التَّقَرُّبِ إليهِ بِطَاعَتِهِ، والقِيَامِ بِخِدْمَتِهِ، وكمالُ الأَلْسِنَةِ بِذِكْرِهِ والثَّنَاءِ عليهِ بأوصافِ مَدْحِهِ، فَأَهْلُ شُكْرِهِ أَهْلُ زِيَادَتِهِ، وأَهْلُ ذِكْرِه أهلُ مُجَالَسَتِه، وأهلُ طاعتِهِ أهلُ كَرَامَتِه، وأهلُ مَعْصِيَتِهِ لا يُقَنِّطُهُمْ مِنْ رَحْمَتِه، إنْ تَابُوا فهو حَبِيبُهُمْ، وإن لَمْ يَتُوبُوا فهو طَبِيبُهُمْ، يَبْتَلِيهِمْ بأنواعِ المصائبِ؛ لِيُكَفِّرَ عنهُمُ الخَطَايَا، ولِيُطَهِّرَهُمْ مِنَ المَعَائِبِ، إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ.

والأسماءُ الحُسْنَى والصِّفَاتُ العُلَا مُقْتَضِيَةٌ لِآثَارِهَا مِنَ العُبُودِيَّةِ والأمْرِ اقْتِضَاءَها لآثارِهَا مِنَ الخَلْقِ والتَّكْوِينِ، فَلِكُلِّ صِفَةٍ عُبُودِيَّةٌ خَاصَّةٌ هِيَ مِنْ مُوجِبَاتِهَا ومُقْتَضَيَاتِهَا –أَيْ: مِنْ مُوجِبَاتِ العِلْمِ بِهَا، والتَّحَقُّقِ بِمَعْرِفَتِهَا-، وهذا مُطَّرِدٌ في جميعِ أنواعِ العُبُوديةِ التي على القلبِ والجَوَارِحِ.

فَعِلْمُ العَبْدِ بِتَفَرُّدِ الرَّبِّ تعالى بالضُّرِّ والنَّفْعِ، والعَطَاءِ والمَنْعِ، والخَلْقِ والرِّزْقِ، والإِحْيَاءِ والإِمَاتَةِ، يُثْمِرُ لَهُ عُبُودِيَّةَ التَّوَكُّلِ عليْهِ بَاطِنًا، ولَوَازِمَ التَّوَكُّلِ وَثَمَرَاتِهِ ظَاهِرًا.

وعِلْمُهُ بِسَمْعِهِ تعالى وبَصَرِهِ وعِلْمِهِ، وأَنَّهُ لَا يَخْفَى عليه مِثْقَالُ ذَرَّةٍ في السَّمَوَاتِ والأرضِ، وأنه يَعْلَمُ السِّرَّ وأَخْفَى، ويَعْلَمُ خَائِنَةَ الأَعْيُنِ وما تُخْفِي الصُّدُورُ، يُثْمِرُ له حِفْظَ لِسَانِهِ وجَوَارِحِهِ وخَطَرَاتِ قَلْبِهِ عنْ كُلِّ ما لا يُرْضِي اللهَ، وأنْ يَجْعَلَ تَعَلُّقَ هذه الأعضاءِ بما يُحِبُّهُ اللهُ وَيَرْضَاهُ؛ فَيُثْمِرُ له ذلك الحَيَاءَ بَاطِنًا، ويُثْمِرُ له الحَيَاءُ اجْتِنَابَ المُحَرَّمَاتِ والقَبَائِحِ.

ومَعْرِفَتُهُ بِغِنَاهُ وجُودِهِ وكَرَمِهِ وَبِرِّهِ وإحسانِهِ ووَاسِعِ رَحْمَتِهِ، تُوجِبُ له سَعَةَ الرَّجَاءِ، ويُثْمِرُ له ذلك مِنْ أنواعِ العبوديةِ الظاهرةِ والبَاطِنَةِ بِحَسَبِ مَعْرِفَتِهِ وعِلْمِهِ.

وكذلك مَعْرِفَتُهُ بِجَلَالِ اللهِ وعَظَمَتِهِ وعِزِّهِ، تُثْمِرُ له الخُضُوعَ والاِسْتِكَانَةَ والمَحَبَّةَ، وتُثْمِرُ له تلك الأحوالُ البَاطِنَةُ أَنْوَاعًا مِنَ العُبُودِيَّةِ الظَّاهِرَةِ؛ هي مُوجِبَاتُهَا، وكذلك عِلْمُهُ بِكَمَالِهِ وجَمَالِهِ وصِفَاتِهِ العُلَى؛ يُوجِبُ له مَحَبَّةً خَاصَّةً بِمَنْزِلَةِ أنواعِ العبودِيَّةِ، فَرَجَعَتِ العُبُودِيَّةُ كُلُّها إلى مُقْتَضَى الأسماءِ والصِّفَاتِ، وارْتَبَطَتْ بها ارْتِبَاطَ الخَلْقِ بها.

فَخَلْقُهُ سبحانه وأَمْرُهُ هُوَ مُوجِبُ أسمائِهِ وصِفَاتِهِ في العَالَمِ وآثَارِها وَمُقْتَضَيَاتِها؛ لأنه لا يَتَزَيَّنُ مِنْ عبادِهِ بِطَاعَتِهِمْ، ولا تَشِينُهُ مَعْصِيَتُهُمْ، وتَأَمَّلْ قولَهُ ﷺ في الحديثِ الصحيحِ الذي يَرْوِيهِ عن رَبِّهِ -تبارك وتعالى-: «يَا عِبَادِي؛ إِنَّكُمْ لَنْ تَبْلُغُوا ضَرِّي فَتَضُرُّونِي، وَلَنْ تَبْلُغُوا نَفْعِي فَتَنْفَعُونِي»، ذَكَرَ هذا عَقِبَ قَوْلِهِ: «يَا عِبَادِي؛ إِنَّكُمْ تُخْطِئُونَ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، وَأَنَا أَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا؛ فَاسْتَغْفِرُونِي أَغْفِرْ لَكُمْ».

فَتَضَمَّنَ ذلك أنَّ ما يَفْعَلُهُ تعالى بِهِمْ؛ مِنْ غُفْرَانِ زَلَّاتِهِمْ، وإِجَابَةِ دَعَوَاتِهِمْ، وتَفْرِيجِ كُرُبَاتِهِمْ؛ ليس لِجَلْبِ منفعةٍ منهم، ولا لِدَفْعِ مَضَرَّةٍ يَتَوَقَّعُهَا منهم؛ كما هو عَادَةُ المَخْلُوقِ الذي يَنْفَعُ غَيْرَهُ لِيُكَافِئَهُ بِنَفْعٍ مِثْلِهِ، أَوْ لِيَدْفَعَ عنه ضَرَرًا، فالرَّبُّ تعالى لَمْ يُحْسِنْ إلى عِبَادِهِ لِيُكَافِئُوهُ، ولا لِيَدْفَعُوا عنه ضَرَرًا.

فقال –جلَّ وعلا-: «لَنْ تَبْلُغُوا نَفْعِي فَتَنْفَعُونِي، لَنْ تَبْلُغُوا ضَرِّي فَتَضُرُّونِي، إِنِّي لَسْتُ إذا هَدَيْتُ مُسْتَهْدِيَكُمْ، وأَطْعَمْتُ مُسْتَطْعِمَكُمْ، وكَسَوْتُ مُسْتَكْسِيَكُمْ، وأَرْوَيْتُ مُسْتَسْقِيَكُمْ، وكَفَيْتُ مُسْتَكْفِيَكُمْ، وغَفَرْتُ لِمُسْتَغْفِرِكُمْ، بالذِي أَطْلُبُ مِنْكُمْ أَنْ تَنْفَعُونِي أَوْ تَدْفَعُوا عَنِّي ضَرَرًا؛ فإنَّكُمْ لنْ تَبْلغوا ذلك وأنَا الغَنِيُّ الحَمِيدُ، فكيف والخَلْقُ عاجِزُونَ عما يَقْدِرُونَ عليه مِنَ الأفعالِ إِلَّا بِإِقْدَارِهِ وتَيْسِيرِهِ وخَلْقِهِ؛ فكيف بما لا يَقْدِرُونَ عليه؟! فكيفَ يَبْلُغُونَ نَفْعَ الغَنِيِّ الصَّمَدِ الذي يَمْتَنِعُ في حَقِّهِ أَنْ يَسْتَجْلِبَ مِنْ غَيْرِهِ نَفْعًا، أو يَسْتَدْفِعَ منه ضَرَرًا؛ بَلْ ذلك مُسْتَحِيلٌ في حَقِّه؟(١)

«من كتاب: عدةُ الصَّابرينَ وذخيرةُ الشَّاكرِينَ لابنِ القيِّم -رحمهُ اللهُ-».

---

(١)«من خطبة: عَرَفْتَ فَالْزَم - ٢٨ من جمادى الأولى ١٤٣٣ الموافق ٢٠-٤-٢٠١٢م».

ثُمَّ ذَكَرَ بَعْدَ هذا قَوْلَهُ: «يَا عِبَادِي؛ لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ، وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ، كَانُوا عَلَى أَتْقَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ؛ مَا زَادَ ذَلِكَ فِي مُلْكِــي شَيْئًا، يَا عِبَادِي؛ لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ، وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ؛ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِـنْ مُلْكِي شَيْئًا»(١).

اللَّهُمَّ يَا رَبَّ العَالَمِينَ، يا أَكْرَمَ الأَكْرَمِينَ، يا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ، يا ذَا القُوَّةِ المَتِينَ، تُبْ عَلَيْنَا تَوْبَةً نَصُوحًا، اللَّهُمَّ تُبْ علينا تَوْبَةً نَصُوحًا، اللَّهُمَّ تُبْ عَلَيْنَا تَوْبَةً نَصُوحًا، اللَّهُمَّ تُبْ علينا لِنَتُوبَ، تُبْ عَلَيْنَا لِنَتُوبَ، تُبْ علينا لِنَتُوبَ، اللَّهُمَّ تُبْ عَلَيْنَا لِنَتُوبَ، تُبْ علينا لِنَتُوبَ، اللَّهُمَّ تُبْ علينا لِنَتُوبَ، اللَّهُمَّ تُبْ عَلَيْنَا، تُبْ علينا، تُبْ علينا، اللَّهُمَّ اغْفِرْ لنا وَارْحَمْنَا، اِغْفِرْ لنَا وارْحَمْنَا، اِغْفِرْ لَنَا مَا قَدَّمْنَا، ومَا أَخَّرْنَا، وَمَا أَسْرَرْنَا، ومَا أَعْلَنَّا، ومَا أَنْتَ أَعْلَمُ بِهِ مِنَّا.

وَصَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ عَلَى نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ ﷺ(٢).

---

(١)«من خطبة: عَرَفْتَ فَالزَم - ٢٨ من جمادى الأولى ١٤٣٣ الموافق ٢٠-٤-٢٠١٢م».

(٢)«من خطبة: رمضان وأنين التائبين - الجمعة ٢٥ رمضان ١٤٢٦هـ، ٢٨-١٠-٢٠٠٥م».

«المَوْعِظَةُ التَّاسِعَةُ وَالعِشْرُونَ»

«التَّعَاوُنُ عَلَى البِرِّ وَالتَّقْوَى»

إنَّ الْحَمْدَ لِلَّهِ نَحْمَدُهُ، وَنَسْتَعِينُهُ وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِاللَّـهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللَّـهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَا هَادِيَ لَهُ.

وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّـهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ.

وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ ﷺ.

أَمَّا بَعْدُ:

فَقَدْ قَالَ العَلَّامَةُ السَّعْدِيُّ -رَحِمَهُ اللهُ- فِي «وُجُوبِ التَّعَاوُنِ بَيْنَ المُسْلِمِينَ»: قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [سورة المائدة: الآية ٢].

فالبِرُّ: اسْمٌ جامعٌ لِكُلِّ ما أَمَرَ اللهُ به ورَسُولُهُ، وأَحَبَّهُ اللهُ وَرَسُولُهُ، مِنَ التَّحَقُّقِ بِعَقَائِدِ الدِّينِ وأَخْلَاقِهِ، والعَمَلِ بآدَابِهِ وأقوالِهِ وأفعالِهِ، مِنَ الشَّرَائِعِ الظَّاهِرَةِ والبَاطِنَةِ، ومِنَ القِيَامِ بِحُقُوقِ اللهِ وحُقُوقِ عِبَادِهِ، ومِنَ التَّعَاوُنِ على الجِهَادِ في سَبِيلِهِ إِجْمَالًا وتَفْصِيلًا، فَكُلُّ هذا داخِلٌ في التَّعَاوُنِ على البِرِّ.

ومِنَ التَّعَاوُنِ على التَّقْوَى: التَّعَاوُنُ على اجْتِنَابِ وتَوَقِّي ما نَهَى اللهُ ورَسُولُهُ عنه مِنَ الفَوَاحِشِ الظاهِرَةِ والبَاطِنَةِ، ومِنَ الإِثْمِ والبَغْيِ بغَيْرِ الحَقِّ، والقولِ على اللهِ بِلَا عِلْمٍ؛ بَلْ على تَرْكِ الكُفْرِ والفُسُوقِ والعِصْيَانِ(١).

---

(١)«التعليقُ على رسالة: «وُجُوبُ التَّعَاوِنِ بَيْنَ المُسْلِمِينَ».

«الأَمْرُ فِي القُرْآنِ بِالتَّعَاوُنِ عَلَى البِرِّ وَالتَّقْوَى»

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [سورة المائدة: ٢].

وتَعَاوَنُوا أَيُّهَا المُؤْمِنُونَ على فِعْلِ الخَيْرَاتِ الَّتِي هِيَ مِنْ مَرْتَبَةِ البِرِّ، وتَعَاوَنُوا على القِيَامِ بِمُقْتَضَيَاتِ مَرْتَبَةِ التَّقْوَى التي تَتَحَقَّقُ لَكُمْ بِفِعْلِ الواجِبَاتِ، وتَرْكِ المُحَرَّمَاتِ، ولا يُعِنْ بعضُكم بَعْضًا على تَرْكِ ما أَمَرَ اللهُ بِفِعْلِهِ، وفِعْلِ ما أَمَرَ بِتَرْكِهِ، ومُجَاوَزَةِ حُدُودِ اللهِ، واتَّقُوا اللهَ، واحْذَرُوا أنْ تَتْرُكُوا ما أَمَرَكُمْ به، أوْ تَرْتَكِبُوا ما نَهَاكُمُ اللهُ عنه، إنَّ اللهَ شَدِيدُ العِقَابِ لِمَنْ خَالَفَ أَمْرَهُ(١).

وَقَالَ اللهُ -جَلَّ وَعَلَا-: بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿وَالْعَصْرِ (١) إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ (٢) إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ (٣)﴾

﴿وَالْعَصْرِ (١) إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ (٢)﴾: أَقْسَمَ اللهُ سبحانه بالوَقْتِ الذي يَمُرُّ بِهِ عُمْرُ الإِنْسَانِ، ويَجْرِي مِنْ غَيْبِ المُسْتَقْبَلِ إلى غَيْبِ المَاضِي، ولا يَنْتَفِعُ منه إلا لَحْظَةَ الحَاضِرِ إذا انْتَفَعَ مِنْهُ لِآخِرَتِهِ.

إنَّ الإنسانَ لَفِي خُسْرَانِ نُقْصَانٍ بِتَضْيِيعِ عُمْرِهِ فِي معصيةِ اللهِ، واشْتِغَالِهِ بِالدُّنْيَا، واسْتِغْرَاقِهِ فِي طَلَبِهَا ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ (٣)﴾ إِلَّا الذين اسْتَثْنَاهُمُ اللهُ مِنْ عُمُومِ الإنسانِ الذي هُوَ فِي خُسْرٍ، وهُمُ الذين تَحَقَّقُوا بِأَرْبَعِ صِفَاتٍ:

---

(١)«القراءة والتعليق على مختصر تفسير القرآن [سورة المائدة: ٢]».

***الصِّفَةُ الأُولَى**: الذين آمَنُوا بِالْأَرْكَانِ الإِيمَانِيَّةِ السِّتَّةِ إيمَانًا صَحِيحًا صَادِقًا، وهذه الصِّفَةُ عُنْوَانُ الِارْتِقَاءِ الفِكْرِيِّ والتَّصْمِيمِ الإِرَادِيِّ حَوْلَ القَضَايَا الإِيمَانِيَّةِ الكُبْرَى.

***والصِّفَةُ الثانِيَةُ**: عَمِلُوا الصالحاتِ التي تَشْمَلُ كُلَّ عَمَلٍ مِنْ أعمالِ الخيرِ التي يَدْفَعُ إليها الإِيمَانُ، ويَدْعُو إليها ويَحُثُّ عليها الإِسْلَامُ، وهذه الصِّفَةُ عُنْوَانُ الِارْتِقَاءِ السُّلُوكِيِّ في الحَيَاةِ.

***والصِّفَةُ الثالِثَةُ**: أَوْصَى بَعْضُ المُؤْمِنِينَ بَعْضًا بالتَّمَسُّكِ بالحَقِّ اعْتِقَادًا وقَوْلًا وعَمَلًا، وهو يَشْمَلُ الأَمْرَ بالمعروفِ، والنَّهْيَ عَنِ المُنْكَرِ، والنَّصِيحَةَ العَامَّةَ، والدَّعْوَةَ إلى اللهِ، والتَّوَاصِي بالحَقِّ يَخْدُمُ رُكْنَ الإِيمَانِ، ومَا يَسْتَدْعِيهِ مِنْ كُلِّ قَضِيَّةِ حَقٍّ.

***والصِّفَةُ الرابِعَةُ**: أَوْصَى بعضُهم بعضًا بالصبرِ على الطاعَاتِ، والصَّبْرِ عَنِ المُحَرَّمَاتِ، والصبرِ على البَلَاءِ والمَصَائِبِ، وتَحَمُّلِ الأَذَى في سَبِيلِ اللهِ، والثَّبَاتِ على ذلك، والتَّوَاصِي بالصَّبْرِ يَخْدُمُ رُكْنَ العَمَلِ الصَّالِحِ، وذلك لِأَنَّ الأَعْمَالَ الصالِحَةَ لا يَقُومُ بها الإِنْسَانُ إذا لَمْ يَكُنْ عِنْدَهُ مِنَ الصَّبْرِ ما يَحْمِلُ بِهِ عِبْءَ مُخَالَفَةِ أَهْوَاءِ النَّفْسِ وشَهَوَاتِهَا(١).

«النَّبِيُّ ﷺ أَمَرَ المُؤْمِنِينَ أَنْ يَكُونُوا كَالْجَسَدِ الوَاحِدِ»

النَّبِيُّ ﷺ أَمَرَكُمْ بِالتَّوَادِّ: «**مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادِّهِمْ وَتَرَاحُمِهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ كَمَثَلِ الْجَسَدِ الْوَاحِدِ؛ إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالسَّهَرِ وَالْحُمَّى**»(٢).

---

(١)«القراءة والتعليق على مختصر تفسير القرآن [سورة العصر]».

(٢)«خطبة عيد الفطر لعام ١٤٣٦هـ.. خوارج العصر - الجمعة ١ من شوال ١٤٣٦هـ الموافق ١٧-٧-٢٠١٥م»

«الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ»

مِنْ حُقُوقِ المُسْلِمِ عَلَى المُسْلِمِ: كَفُّ الْأَذَى عَنْهُ:

فَإِنَّ فِي أَذِيَّةِ المُسْلِمِينَ إِثْمًا عَظِيمًا، قَالَ اللهُ -جَلَّ وَعَلَا-: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا﴾ [الأحزاب: ٥٨].

والغَالِبُ أَنَّ مَنْ تَسَلَّطَ عَلَى أَخِيهِ بِأَذًى؛ فَإِنَّ اللهَ يَنْتَقِمُ مِنْهُ فِي الدُّنْيَا قَبْلَ الآخِرَةِ، وقَدْ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**لَا تَبَاغَضُوا، وَلَا تَدَابَرُوا، وَكُونُوا عِبَادَ اللَّهِ إِخْوَانًا، الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ، لَا يَظْلِمُهُ، وَلَا يَخْذُلُهُ، وَلَا يَحْقِرُهُ، بِحَسْبِ امْرِئٍ مِنَ الشَّرِّ أَنْ يَحْقِرَ أَخَاهُ الْمُسْلِمَ، كُلُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ حَرَامٌ؛ دَمُهُ، وَمَالُهُ، وَعِرْضُهُ**».

وحُقُوقُ المُسْلِمِ على المُسْلِمِ كَثِيرَةٌ، ولَكِنْ يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ المعْنَى الجَامِعُ لهذه الحُقُوقِ كلِّهَا قَوْلَ الرَّسُولِ ﷺ: «**الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ**»، فإنَّه متى قَامَ بِمُقْتَضَى هذه الأُخُوَةِ؛ اجْتَهَدَ أَنْ يَتَحَرَّى لَهُ الخَيْرَ كُلَّهُ، وَأَنْ يَجْتَنِبَ كُلَّ مَا يَضُرُّهُ(١).

«تَرْغِيبُ النَّبِيِّ ﷺ فِي التَّعَاوُنِ لِقَضَاءِ حَوَائِجِ المُسْلِمِينَ»

والرَّسُولُ ﷺ يُرَغِّبُ فِي قَضَاءِ حَوَائِجِ المُسْلِمِينَ، وَفِي إِدْخَالِ السُّرُورِ عَلَيْهِمْ، ويُبَيِّنُ النَّبِيُّ ﷺ أَنَّ الإِنْسَانَ إِذَا أَحْسَنَ إِلَى أَخِيهِ؛ أَحْسَنَ اللهُ إِلَيْهِ، وَإِذَا مَا سَعَى فِي حَاجَةِ أَخِيهِ؛ فَإِنَّ اللهَ -تبارك وتعالى- يَقْضِي حَوَائِجَهُ، وإذا ما شَفَعَ لِأَخٍ مِنْ إِخْوَانِهِ فِي أَمْرٍ مِنَ الأُمُورِ التي يَتَحَصَّلُ مِنْ وَرَائِهَا على نَفْعٍ، أَوْ يَسْتَدْفِعُ بِهَا ضُرًّا؛ فإنه لا يَجُوزُ لَهُ أَنْ يَتَحَصَّلَ مِنْ أَخِيهِ عَلَى نَفْعٍ؛ ولَوْ بِهَدِيَّةٍ يُهْدِيهَا إليه، فَإِذَا شَفَعَ لِأَخِيهِ، فَأَهْدَى أَخُوهُ إِلَيْهِ بَعْدَ الشَّفَاعَةِ المَقْبُولَةِ؛ فإنَّهُ يَكُونُ قَدْ وَلَجَ في بابٍ مِنْ أَوْسَعِ أَبْوَابِ الرِّبَا.

---

(١)«من خطبة: عقبات في طريق الداعي إلى الله».

«أَجْرٌ عَظِيمٌ لِمَنْ فَرَّجَ كُرُبَاتِ المُسْلِمِينَ»

عَنِ ابْنِ عُمَرَ -رضي الله عنهما-، أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قال: «**المسلمُ أخو المسلمِ، لا يَظْلِمُهُ، ولا يُسْلِمُهُ، مَن كان في حاجةِ أخيه؛ كان اللهُ في حاجتِهِ، ومَن فرَّجَ عن مُسْلِمٍ كُرْبَةً؛ فرَّجَ اللهُ عنه بها كُرْبَةً مِن كُرَبِ يومِ القيامةِ**»، وشَتَّانَ مَا بَيْنَ كُرْبَةِ الدُّنْيَا وكُرْبَةِ الآخِرَةِ، فَهَذَا عَطَاءٌ مِنْ صَاحِبِ العَطَاءِ والفَضْلِ: «**فرَّجَ اللهُ عَنْهُ بِهَا كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ يَوْمِ القِيَامَةِ، ومَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا سَتَرَهُ اللهُ يَوْمَ القِيَامَةِ**». هَذَا حَدِيثٌ مُتَّفَقٌ على صِحَّتِهِ.

«**فمَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا سَتَرَهُ اللهُ يَوْمَ القِيَامَةِ**»، ومَنْ فَضَحَ مُسْلِمًا أَوْ سَعَى في فُضُوحِهِ؛ فَضَحَهُ اللهُ -تبارك وتعالى- في الدنيا وعلى رؤوسِ الأشهادِ يوم القيامة.

«**يا مَعْشَرَ مَنْ آمَنَ بِلِسَانِهِ ولَمْ يَدْخُلِ الإيمَانُ في قَلْبِهِ؛ لا تَغْتَابُوا المُسْلِمِينَ، ولا تَتَبَّعُوا عَوْرَاتِهِم، فإنَّ مَنْ تَتَبَّعَ عَوْرَةَ أَخِيهِ؛ تَتَبَّعَ اللهُ عَوْرَتَهُ، ومَنْ تَتَبَّعَ اللهُ عورتَهُ؛ فَضَحَهُ وَلَوْ فِي جَوْفِ بَيْتِهِ**».

ويُبَيِّنُ لنا النَّبِيُّ ﷺ في حَدِيثٍ حَسَنٍ، فَيَقُولُ: «**ومَنْ مَشَى مَعَ مَظْلُومٍ حَتَّى يُثْبِتَ لَهُ حَقَّهُ؛ ثَبَّتَ اللهُ قدَمَيْهِ على الصِّرَاطِ يَوْمَ تَزُولُ الأَقْدَامُ**».

وعن أبي هُرَيْرَةَ -رضي اللهُ عنه- كما في «صَحِيحِ مسلمٍ» وغيرِهِ: «**مَنْ نَفَّسَ عَنْ مُسْلِمٍ كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ الدُّنْيَا؛ نَفَّسَ اللَّهُ عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَمَنْ يَسَّرَ عَلَى مُعْسِرٍ فِي الدُّنْيَا؛ يَسَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَمَنْ سَتَرَ عَلَى مُسْلِمٍ فِي الدُّنْيَا؛ سَتَرَ اللَّهُ عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَاللَّهُ فِي عَوْنِ الْعَبْدِ مَا كَانَ الْعَبْدُ فِي عَوْنِ أَخِيهِ**».

«قَضَاءُ حَوَائِجِ المُسْلِمِينَ سَبَبٌ في تَقْيِيدِ النِّعَمِ لَدَى العَبْدِ»

وعَنْ عبدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو -رضي اللهُ عنهما- قال: قال رسولُ اللهِ ﷺ: «**إنَّ للهِ عندَ أقوامٍ نِعَمًا أقرَّهَا عندَهُم** -يعني: جَعَلَهَا ثَابِتَةً عِنْدَهُم-؛ **ما كانُوا في حَوَائِجِ المسلمينَ ما لم يَمَلُّوهُم، فإذا مَلُّوهُم نقلَهَا اللهُ إلى غيرِهِم**». وهذا حديثٌ حَسَنٌ أخرجَهُ الطبرانيُّ في «المُعجمِ الكبيرِ».

وهو حَدِيثٌ مُهِمٌّ جِدًّا: «**إنَّ للهِ عندَ أقوامٍ نِعَمًا أقرَّهَا عندَهُم؛ ما كانُوا في حوائِجِ المسلمينَ ما لم يَمَلُّوهُم**»: فهَذِهِ النِّعَمُ التي جَعَلَهَا اللهُ -تبارك وتعالى- عندَ أَقْوَامٍ إنما جَعَلَهَا مِنْ أَجْلِ أَنْ يَقْضُوا بها حَوَائِجَ المُسْلِمِينَ، بِشَرْطِ أَلَّا يَمَلُّوا مِنَ المسلمينَ ومِن طَلَبِهِم، وألَّا يُصِيبَهُمُ المَلَلُ في قَضَاءِ حَوَائِجِ إخوانِهِم بِنِعَمِ اللهِ الَّتِي عِنْدَهُمْ؛ لِأَنَّ اللهَ إنما جَعَلَ تلك النِّعَمَ عِنْدَ أُولَئِكَ الأَقْوَامِ مِنْ أَجْلِ أَنْ يَقْضُوا بِهَا حَوَائِجَ المُسْلِمِينَ «**ما لَمْ يَمَلُّوهُم، فَإِذَا مَلُّوهُمْ نَقَلَهَا اللهُ إِلَى غَيْرِهِم**».

وعَنْ عبدِ اللهِ بْنِ عُمَرَ -رضي اللهُ عنهما- قال: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «**إنَّ للهِ أَقْوَامًا اخْتَصَّهُمْ بالنِّعَمِ لِمَنَافِعِ العِبَادِ، يُقِرُّهُمْ فِيهَا مَا بَذَلُوهَا، فإذا مَنَعُوهَا نَزَعَهَا مِنْهُمْ فَحَوَّلَهَا إِلَى غَيْرِهِم**». وهذا حَدِيثٌ حَسَنٌ.

وفي هذا الحَدِيثِ يُبَيِّنُ لنا نَبِيُّنَا ﷺ أَنَّ أَقْوَامًا اخْتَصَّهُمُ اللهُ -تبارك وتعالى- بالنِّعَمِ لِيَكُونُوا سَاعِينَ في مَنَافِعِ عِبَادِهِ في أَرْضِهِ، ويُقِرُّ اللهُ -تبارك وتعالى- هؤلاء القَوْمَ في تِلْكَ النِّعَمِ ما بَذَلُوهَا لِعِبَادِهِ في أَرضِهِ، فإذا مَنَعُوا النِّعَمَ أَنْ تُبْذَلَ لِأَصْحَابِ الحَاجَاتِ، وَفِي قَضَاءِ حَوَائِجِ المُسْلِمِينَ؛ نَزَعَ اللهُ -تبارك وتعالى- النِّعَمَ عن أُولَئِكَ القَوْمِ الَّذِينَ اخْتَصَّهُمْ بالنِّعَمِ لِمَنَافِعِ العِبَادِ، فَحَولَّهَا إلى غَيْرِهِم.

وهذا أَمْرٌ يَتَعَلَّقُ بِقُدْرَةِ اللهِ -تبارك وتعالى- ومَشِيئَتِهِ؛ لِأَنَّ الذي يُعْطَى الْيَوْمَ يُمْكِنُ أنْ يَكُونَ مُعْطِيًا غَدًا، والذي يَأْخُذُ اليَوْمَ يُمكِنُ أنْ يَكُونَ مُعْطِيًا في غَدٍ، والذي يَكُونُ له اليَدُ العُلْيَا في يَوْمٍ؛ يُمْكِنُ أنْ تَكُونَ يَدُهُ السُّفْلَى في يَوْمٍ؛ لِأَنَّ اللهَ -تبارك وتعالى- يَرْفَعُ ويَخْفِضُ، واللهُ رَبُّ العَالَمِينَ يُعِزُّ ويُذِلُّ.

ولَيْسَ أَحَدٌ بمُسْتَحِقٍّ لِنِعْمَةٍ يُوَصِّلُهَا اللهُ -تبارك وتعالى- إِلَيْهِ، وإنما هُوَ مَحْضُ جُودٍ لا بَذْلُ مَجْهُودٍ، واللهُ -تبارك وتعالى- هو الذي يُعْطِي، وهُوَ الَّذِي يُؤْتِي البِرَّ مَنْ يَشَاءُ بِرَحْمَتِهِ، فَيَجْعَلُ ذلك الخَيْرَ عِنْدَ أَقْوَامٍ، فَإِنْ شَكَرُوا نِعْمَةَ اللهِ -تبارك وتعالى- عليهم؛ زادَهُمُ اللهُ -تبارك وتعالى- إِنْعَامًا، وثَبَّتَ النِّعَمَ لَدَيْهِمْ.

وإذا مَا جَحَدُوها فَلَمْ يَبْذُلُوهَا فِي حَوَائِجِ المُسْلِمِينَ، ولَمْ يُرَاعُوا أَنَّ اللهَ -تبارك وتعالى- لَمْ يَخْتَصَّهُمْ بِتِلْكَ النِّعَمِ لِأُمُورٍ جَعَلَهَا اللهُ -تبارك وتعالى- مُتَعَلِّقَةً بالمُسْتَضْعَفِينَ في أَرْضِهِ، إذا لم يُرَاعُوا ذلك، وظَنُّوا أَنَّها إِنَّما كانَتْ بِاسْتِحْقَاقٍ عِنْدَهُمْ؛ فَشَأْنُهُمْ كَشَأْنِ ذلك الرَّجُلِ الذي ظَنَّ أنَّ اللهَ -تبارك وتعالى- إنما آتَاهُ وأَعْطَاهُ على عِلْمٍ عِنْدَهُ، وأَنَّهُ بقُدُرَاتِهِ قَدْ تَحَصَّلَ على ما تَحَصَّلَ عليه، فَنَزَعَ اللهُ -تبارك وتعالى- عَنْهُ النِّعْمَةَ، وخَسَفَ به وبِدَارِهِ الأَرْضَ، فَهُوَ يَتَجَلْجَلُ فِيهَا إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ.

ويُحَذِّرُ النَّبِيُّ ﷺ ويُنْذِرُ، ويُبَيِّنُ لَنَا ﷺ هَذَا الأَمْرَ الكَبِيرَ، فَيَقُولُ ﷺ: «**ما مِنْ عَبْدٍ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِ نِعْمَةً فَأَسْبَغَهَا عليه، ثم جَعَلَ مِنْ حَوَائِجِ النَّاسِ إِلَيْهِ فَتَبَرَّمَ؛ فَقَدْ عَرَّضَ تِلْكَ النِّعْمَةَ لِلزَّوَالِ**».

يَتَبَرَّمُ مِنَ الناسِ ويَرُدُّهُم، ولا يُحْسِنُ اسْتِقْبَالَهُمْ، وإنما يُصِيبُهُ المَلَلُ، فَيُعْرِضُ عنهم، ويُغْلِظُ في الكَلَامِ الوَاصِلِ إليهم، ويَخْشُنُ في مُعَامَلَتِهِ مع الخَلْقِ في أَرْضِ اللهِ -جلَّ وعلا-؛ فقَدْ عَرَّضَ تلك النِّعْمَةَ لِلزَّوَالِ؛ لِأَنَّ اللهَ -تبارك وتعالى- إِنَّمَا جَعَلَهُ مُوَصِّلًا للنِّعْمَةِ إلى الخَلْقِ في الأَرْضِ.

ولَمْ يَجْعَلِ اللهُ -جَلَّتْ قُدْرَتُهُ- ذلك على عِلْمٍ عِنْدَ ذلك العَبْدِ، وإنما جَعَلَ اللهُ رَبُّ العَالَمِينَ ذَلِكَ الأَمْرَ مَحْضَ بَذْلٍ لِلْجُودِ مِنْ لَدُنْهُ -جلَّ وَعَلَا-، وهو صَاحِبُ البِرِّ، فإذا تبرَّمَ مِنْ حَوَائِجِ الناسِ، وإذا مَا تَمَلْمَلَ مِنْ قَضَاءِ حَوَائِجِ الخلقِ؛ فقَدْ عَرَّضَ تلك النِّعْمَةَ لِلزَّوَالِ.

وعن زَيْدِ بْنِ ثَابِتٍ -رضي الله عنه-، عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ قال: «**لَا يَزَالُ اللهُ فِي حَاجَةِ العَبْدِ مَا دَامَ فِي حَاجَةِ أَخِيهِ**».

يَقُولُ النَّبِيُّ ﷺ: «**عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ صَدَقَةٌ**».

قِيلَ: أَرَأَيْتَ إِنْ لَمْ يَجِدْ؟

قَالَ: «**يَعْتَمِلُ بِيَدَهِ، فَيَنْفَعُ نَفْسَهُ، وَيَتَصَدَّقُ**».

قَالَ: أَرَأَيْتَ إِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ؟

قَالَ: «**يُعِينُ ذَا الْحَاجَةِ الْمَلْهُوفَ**».

قَالَ: قِيلَ لَهُ: أَرَأَيْتَ إِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ؟

قَالَ: «**يَأْمُرُ بِالْمَعْرُوفِ أَوِ الخَيْرِ**».

قَالَ: أَرَأَيْتَ إِنْ لَمْ يَفْعَلْ؟

قَالَ: «**يُمْسِكُ عَنِ الشَّرِّ؛ فَإِنَّهَا صَدَقَةٌ**».

حتى إذا مَا أَمْسَكَ الإِنْسَانُ عَنِ الشَّرِّ؛ فَقَدْ أتَى بالصَّدَقَةِ، إذا لَمْ يَسْتَطِعْ أَنْ يَأْمُرَ بالمَعْرُوفِ وَأَنْ يَنْهَى عَنِ المُنْكَرِ، وإذا لَمْ يَسْتَطِعْ أَنْ يُعِينَ ذَا الحَاجَةِ المَلْهُوفَ، وإذا لَمْ يَسْتَطِعْ أَنْ يَعْتَمِلَ بِيَدِهِ، فَيَنْفَعُ اللهُ -تبارك وتعالى- به ذَاتَهُ، ويَتَصَدَّقُ على خَلْقِ اللهِ؛ فَعَلَيْهِ أَنْ يُمْسِكَ عَنِ الشَّرِّ؛ فإنها صدقةٌ، فمَنْ أَمْسَكَ عَنِ الشَّرِّ؛ فقَد تَصَدَّقَ كما قالَ الرَّسُولُ ﷺ في هذا الحَدِيثِ المُتَّفَقِ على صِحَّتِهِ(١).

«أَفْضَلُ الأَعْمَالِ: إِدْخَالُ السُّرُورِ عَلى المُؤْمِنِ»

وعَنِ النَّبِيِّ ﷺ: «**أَفْضَلُ الأَعْمَالِ: إِدْخَالُ السُّرُورِ عَلَى المُؤْمِنِ، كَسَوْتَ عَوْرَتَهُ، أَوْ أَشْبَعْتَ جَوْعَتَهُ، أَوْ قَضَيْتَ لَهُ حَاجَةً**».

النَّبِيُّ ﷺ يَجْعَلُ في قِمَّةِ الأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ، وفي قِمَّةِ الأَعْمَالِ المَقْبُولَةِ عِنْدَ اللهِ -تبارك وتعالى-: إِدْخَالَ السُّرُورِ على المُؤْمِنِ: «**كَسَوْتَ عَوْرَتَهُ، أو أَشْبَعْتَ جَوْعَتَهُ، أو قَضَيْتَ له حاجةً**»، وذَكَرَ النَّبِيُّ ﷺ الحَاجَةَ مُنَكَّرَةً؛ لِيَدُلَّ عَلَى أَيِّ حَاجَةٍ قُضِيَتْ، قَضَيْتَ له حَاجَةً بمُطْلَقِ الحَاجَةِ.

فَيَقُولُ النَّبِيُّ ﷺ: «**أَحَبُّ الأَعْمَالِ إلى اللهِ -عزَّ وجلَّ-: سُرُورٌ تُدْخِلُهُ على مسلمٍ، أو تَكْشِفُ عنهُ كُربَةً، أو تَطْرُدُ عنه جَزَعًا، أو تَقْضِي عنهُ دَيْنًا**».

وذَكَرَ الرسولُ ﷺ أَمْرًا عَظِيمًا جِدًّا، لو تَأَمَّلَ الإنْسَانُ فِيهِ تَأَمُّلًا صَحِيحًا؛ لَعَلِمَ أنَّ الأَعْمَالَ تَتَفَاوَتُ مَرَاتِبُهَا عِنْدَ اللهِ -تبارك وتعالى-، وأَنَّ اللهَ -جلَّ وعلا- لَمْ يَجْعَلِ الأَعْمَالَ الصَّالِحَةَ مَقْصُورَةً عَلَى أُمُورٍ بِعَيْنِهَا، وإنما جَعَلَ الخَيْرَ شَائِعًا في أَعْمَالِ البِرِّ والصَّلَاحِ.

---

(١)«من درس: السعي في قضاءِ حاجةِ الآخرين».

جَاءَ رَجُلٌ إلى رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَقَالَ: يا رَسُولَ اللهِ؛ أَيُّ النَّاسِ أَحَبُّ إِلَى اللهِ؟ وَأَيُّ الأَعْمَالِ أَحَبُّ إِلَى اللهِ؟

فقالَ ﷺ: «**أَحَبُّ النَّاسِ إلى اللهِ: أَنْفَعُهُمْ لِلنَّاسِ، وأَحَبُّ الأعمالِ إلى اللهِ -عزَّ وجلَّ-: سُرُورٌ تُدْخِلُهُ على مُسْلِمٍ، تَكْشِفُ عنه كُرْبَةً، أو تَقْضِي عنه دَيْنًا، أَوْ تَطْرُدُ عنه جُوعًا**».

«اللهُ لا يُخْزِي مَنْ يُسَاعِدُ النَّاسَ»

عِنْدَمَا رَجَعَ النَّبِيُّ ﷺ وَقَد أُوحِيَ إليه أَوَّل مَرَّةٍ، وَرَجَعَ يقولُ: «**زَمِّلُونِي زَمِّلُونِي**»، قالَ: «**إِنِّي أَخْشَى أَنْ يَكُونَ قَد أَصَابَنِي شَيءٌ**».

قالت خَدِيجَةُ -رَضِيَ اللهُ عَنْهَا-: «لا واللهِ، لا يُصِيبُكَ شَرٌّ أَبَدًا، إِنَّكَ لَتَقْرِي الضَّيْفَ، وَتَحْمِلُ الكَلَّ، وَتَكْسِبُ المَعْدُومَ، وَتَصِلُ الرَّحِمَ، واللهِ لا يُخْزِيكَ اللهُ أَبَدًا».

عِنْدَنَا دَلَالَتَانِ:

***الدَّلَالَةُ الأُولَى**: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كانَتْ أَخْلَاقُهُ لا تَصَنُّعَ فيها، لأنَّ اللهَ -تبارك وتعالى- كما أَخْبَرَ عن أَخْلَاقِهِ، جَعَلَهَا في الذِّرْوَةِ العُلْيَا مِن سُمُوِّ الأخلاقِ، وجَلَالِهَا وكَمَالِهَا وَبَهَائِهَا: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤]، والتعبيرُ بـ «عَلَى» وَهِيَ الاسْتِعْلَاءُ، فهو على الخُلُقِ العظيمِ ﷺ، كأنه يَعْلُوهُ وَيَفُوقُهُ، ﴿وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ ﷺ، فَكَانَ هَذَا مِمَّا طَبَعَ اللهُ على نَبِيِّهِ ﷺ، وَكَمَّلَهُ به، فَكَانَ في بيتِهِ -وفي البيتِ تَبْدُو أَخْلَاقُ الرَّجُلِ- كان على أَحْسَنِ مَا يَكُونُ مِن الخُلُقِ، فهذه دلالةٌ.

***والدلالةُ الثانية**: أنَّ صَنَائِعَ المَعْرُوفِ تَقِي مَصَارِعَ السُّوءِ، وأَنَّ الإنسانَ إذا كانَ مُحْسِنًا قَوْلًا وَفِعْلًا واعتقادًا؛ حَفِظَهُ اللهُ رَبُّ العَالَمِينَ عِنْدَ نُزُولِ المُلِمَّاتِ، فَصَنَائِعُ المعروفِ تَقِي مَصَارِعَ السُّوءِ.

قَالَت: «لا واللهِ، لا يُخْزِيكَ اللهُ أَبَدًا»، ثُمَّ ذَكَرَتِ العِلَّةَ: «إِنَّكَ لَتَحْمَلُ الكَلَّ، وَتَكْسِبُ المَعْدُومَ، وَتَصِلُ الرَّحِمَ، وتُعِينُ على نَوَائِبِ الدَّهْرِ»، إِذَنْ؛ مَا دُمْتَ كذلك؛ فإنه لا يُمْكِنُ بِحَالٍ أَبَدًا أنْ يُصِيبَكَ شَيْءٌ، أَوْ أَنْ يُخْزِيكَ اللهُ –عَزَّ وَجَلَّ-، أو أنْ يَتَخَلَّى عَنْكَ، ﷺ(١).

«المُوَاسَاةُ بِالمَالِ وَأَثَرُهَا في التَّكَافُلِ الاِجْتِمَاعِيِّ بَيْنَ المُسْلِمِينَ»

الصَّدَقَةُ المُسْتَحَبَّةُ الَّتِي لَيْسَت بِمَفْرُوضَةٍ؛ تُشْرَعُ في كُلِّ وَقْتٍ، لِإِطْلَاقِ الحَثِّ عليها في الكِتَابِ والسُّنَّةِ، ولِلتَّرْغِيبِ فيها:

قال تعالى: ﴿وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ﴾ [البقرة: ١٧٧].

وقال تعالى: ﴿وَأَن تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ [البقرة: ٢٨٠].

في «الصحيحين» من حديث أبي هريرة –رضي اللهُ عنه-: «**سَبْعَةٌ يُظِلُّهُم اللهُ يومَ القيامَةِ في ظِلِّهِ**، ذَكَرَ مِنْهُم: **وَرَجُلٌ تَصَدَّقَ بِصَدَقَةٍ فَأَخْفَاهَا؛ حَتَّى لَا تَعْلَمَ شِمَالُهُ مَا صَنَعَت يَمِينُهُ**».

***وَصَدَقَةُ السِّرِّ أَفْضَلُ؛ لقولِهِ تَعَالَى:** ﴿وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ [البقرة: ٢٧١]؛ لأَنَّهُ أَبْعَدُ عن الرِّيَاءِ إِلَّا أَنْ يَتَرَتَّبَ على إِظْهَارِ الصَّدَقَةِ وإعلانِهَا مَصْلَحَةٌ رَاجِحَةٌ مِنَ اقْتِدَاءِ النَّاسِ به.

وَيَجِبُ أَنْ تَكُونَ طَيِّبَةً بها نَفْسُهُ، غَيْرَ مُمْتَنٍّ بها على المُحْتَاجِ، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالْأَذَىٰ﴾ [البقرة: ٢٦٤].

---

(١)«شرح معارج القبول: محاضرة: ٧٧».

***والصَّدَقَةُ في حَالِ الصِّحَّةِ أَفْضَلُ:**

قالَ ﷺ لَمَّا سُئِلَ: أيُّ الصَّدَقَةِ أَفْضَلُ؟

قال: «**أَنْ تَصَدَّقَ وَأَنْتَ صَحِيحٌ شَحِيحٌ تَخْشَى الْفَقْرَ وَتَأْمُلُ الْغِنَى**». مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ.

***والصَّدَقَةُ في أوقاتِ الحَاجَةِ أَفْضَلُ:**

قالَ تعالى: ﴿أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ (١٤) يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ (١٥) أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ (١٦)﴾ [البلد: ١٤-١٦].

*كمَا أنَّ الصَّدَقَةَ على الأَقَارِبِ والجِيرَانِ أَفْضَلُ مِنْهَا على الأَبْعَدِينَ؛ فَقَدْ أَوْصَى اللهُ بالأَقَارِبِ، وَجَعَلَ لَهُم حقًّا على قَرِيبِهِم في كَثِيرٍ مِنَ الآيَاتِ؛ كقولِهِ تَعَالَى: ﴿وَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ﴾ [الإسراء: ٢٦].

وقالَ النبيُّ ﷺ: «**الصَّدَقَةُ على المِسْكِينِ صَدَقَةٌ، وعلى ذِي الرَّحِمِ اثْنَتَان؛ صَدَقَةٌ وَصِلَةٌ**». رَوَاهُ الخَمْسَةُ وغيرُهُم مِن حديثِ سَلْمَانَ الضَّبِّيِّ -رضي اللهُ عنه-، وَحَسَّنَهُ الترمذيُّ وغيرُهُ، وفي «الصَّحِيحَيْنِ»: «**أَجْرَانِ؛ أَجْرُ القَرَابَةِ، وَأَجْرُ الصَّدَقَةِ**».

فَاعْلَمْ أَنَّ فِي المَالِ حُقُوقًا سِوَى الزَّكَاةِ:

*نَحْوَ مُوَاسَاةِ القَرَابَةِ وَصِلَةِ إِخْوَانِكَ.

*وإِعْطَاءِ سَائِلٍ.

*وإِعَارَةِ مُحْتَاجٍ.

*وإِنْذَارِ مُعْسِرٍ.

*وإِقْرَاضِ مُقْتَرِضٍ.

قالَ تَعَالَى: ﴿وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾ [الذاريات: ١٩].

*ويجبُ إطعامُ الجائعِ، وَقِرَى الضَّيْفِ، وَكِسْوَةُ العَارِي، وَسَقْيُ الظَّمْآن؛ بَل ذَهَبَ الإمامُ مَالِكٌ -رحمهُ اللهُ- إلى أنهُ يَجِبُ على المُسلمينَ فِدَاءُ أَسْرَاهُمْ؛ وَإِنِ اسْتَغْرَقَ ذلك أَمْوَالُهُم كُلُّهَا.

*كما أنه يُشْرَعُ لِمَنْ حَصَلَ على مَالٍ وبحَضْرَتِهِ أُنَاسٌ مِن الفُقَرَاءِ والمَسَاكين أنْ يَتَصَدَّقَ عَلَيْهِمْ مِنْ ذَلِكَ المَالِ المُكْتَسَبِ؛ قالَ تَعَالَى: ﴿وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ﴾ [الأنعام: ١٤١]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُو الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينُ فَارْزُقُوهُم مِّنْهُ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾ [النساء: ٨].

هَذِهِ كُلُّهَا مِنْ مَحَاسِنِ دِينِ الإِسْلَامِ العَظِيمِ؛ لِأَنَّهُ دِينُ المُوَاسَاةِ والرَّحْمَةِ، دِينُ التَّعَاوُنِ والتَّآخِي فِي اللهِ، فَمَا أَجْمَلَهُ!! وَمَا أَجَلَّهُ!! وَمَا أَحْكَمَ تَشْرِيعَهُ!!(١)

«لَوْ أَخَذْنَا بِتَعَالِيمِ النَّبِيِّ ﷺ وَأَخْلَاقِهِ؛ لَاسْتَقَامَتِ الحَيَاةُ»

النَّبِيُّ ﷺ يُرْشِدُنَا إِلَى أَمْثَالِ هَذِهِ التَّعَالِيمِ؛ مِنْ أَجْلِ أَنْ تَنْضَبِطَ العَلَاقَاتُ بَيْنَ المُسْلِمِينَ، وَحَتَّى نَخْرُجَ إِذَا مَا أَخَذْنَا بِهَا مِنْ هَذِهِ الحَيْرَةِ المُظْلِمَةِ، وَمِنْ هَذَا الجُلْمُودِ الأَصَمِّ مِنَ الهَمِّ؛ حَتَّى نَسْتَطِيعَ أَنْ نَعُودَ بَشَرًا أَسْوِيَاءَ كَمَا خَلَقَنَا اللهُ -تبارك وتعالى-، وَحَتَّى تَعُودَ العَلَاقَاتُ السَّوِيَّةُ بَيْنَنَا كَمَا يَنْبَغِي أَنْ تَكُونَ بَيْنَنَا العَلَاقَاتُ السَّوِيَّةُ عَلَى مُقْتَضَى المَحَبَّةِ الدِّينِيَّةِ والمَوَدَّةِ الإِسْلَامِيَّةِ الَّتِي جَاءَ بِهَا خَيْرُ البَرِيَّةِ ﷺ.

---

(١) «باختصار من: شرح الجوهرة الفريدة محاضرة ٢٣».

نَسْأَلُ اللهَ -جَلَّتْ قُدْرَتُهُ وَتَقَدَّسَتْ أَسْمَاؤُهُ- أَنْ يَهْدِيَنَا لِأَحْسَنِ الأَخْلَاقِ، لَا يَهْدِي لِأَحْسَنِهَا إِلَّا هُوَ، وأَنْ يُجَنِّبَنَا وَيَصْرِفَ عَنَّا سَيِّءَ الأَخْلَاقِ، لَا يَصْرِفُ عَنَّا سَيِّئَهَا إِلَّا هُوَ، إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، وبِالإِجَابَةِ جَدِيرٌ.

وَصَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ عَلَى نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَأَصحَابِهِ أَجمَعِينَ(١).

---

(١)«من درس: السعي في قضاءِ حاجةِ الآخرين».

«المَوْعِظَةُ الثَّلَاثُونَ»

«الـــرِّضَـــــــــا»

إنَّ الْحَمْدَ لِلَّهِ نَحْمَدُهُ، وَنَسْتَعِينُهُ وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِاللَّـه مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللَّـهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَا هَادِيَ لَهُ.

وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّـهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ.

وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ ﷺ.

أَمَّا بَعْدُ:

«نَعِيمُ الدُّنْيَا فِي رِضَا القَلْبِ عَنِ اللهِ تَعَالَى وَأَقْدَارِهِ»

أَخْرَجَ التِّرْمِذِيُّ وَابْنُ مَاجَه بِسَنَدَيْهِمَا عَنْ أَنَسٍ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ-: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «**إِنَّ عِظَمَ الجَزَاءِ مَعَ عِظَمِ البَلَاءِ، وَإِنَّ اللهَ إِذَا أَحَبَّ قَوْمًا ابْتَلَاهُم، فَمَنْ رَضِيَ فَلَهُ الرِّضَا، وَمَنْ سَخِطَ فَلَهُ السَّخَطُ**».

إِنَّ عِظَمَ الجَزَاءِ مَعَ عِظَمِ البَلَاءِ، وَإِنَّ اللهَ إِذَا أَحَبَّ قَوْمًا ابْتَلَاهُم؛ لِأَنَّهُ خَلَقَهُم لِيُمَحِّصَهُم، وَأَنْشَأَهُم وَبَرَاهُم لِيَخْتَبِرَهُم، فَمُحْسِنٌ وَمُسِيءٌ، وَبَرٌّ وَفَاجِرٌ، وَمُؤمِنٌ وَكَافِرٌ، وَمُقْبِلٌ عَلَيْهِ وَمُدْبِرٌ عَنْهُ، فَمَا خَلَقَهُم فِي الحَيَاةِ لِيُنَعِّمَهُم، وَمَا فِي الحَيَاةِ مِنَ النَّعِيمِ فَإِنَّهُ مِن جِنْسِ نَعِيمِ الآخِرَةِ، فَآلَ النَّعِيمُ كُلُّهُ إِلَى نَعِيمِ الآخِرَةِ، فَنَعِيمُ الدُّنْيَا فِي سُكُونِ القَلْبِ إِلَى اللهِ، وَرِضَا الفُؤَادِ عَنِ اللهِ، وَانْطِرَاحِ العَبْدِ بَيْنَ يَدَيْ سَيِّدِهِ وَمَوْلَاهُ، فَمَهْمَا وَجَدَ مِن لَذَّةٍ وَرِضًا؛ فَذَلِكَ لَيْسَ مِنَ الحَيَاةِ الدُّنْيَا، وَإِنَّمَا هُوَ مِن نَعِيمِ الآخِرَةِ(١).

---

(١)«من خطبة: لا تَحْزَنْ - الجمعة ٢١ من محرم ١٤٣٣هـ الموافق ١٦-١٢-٢٠١٢م».

«اسْتَعْمِلِ الرِّضَا جُهْدَكَ، وَلَا تَدَعِ الرِّضَا يَسْتَعْمِلُكَ»

قَالَ بَعْضُ السَّلَفِ: «اسْتَعْمِلِ الرِّضَا جُهْدَكَ، وَلَا تَدَعِ الرِّضَا يَسْتَعْمِلُكِ، فَتَكُونَ مَحْجُوبًا بِلَذَّتِهِ وَرُؤْيَتِهِ عَنْ حَقِيقَةِ مَا تُطَالِعُ.

إِيَّاكُم وَاسْتِحْلَاءِ الطَّاعَاتِ؛ فَإِنَّهَا سُمُومٌ قَاتِلَاتٌ.

اسْتَعْمِلِ الرِّضَا جُهْدَكَ، وَلَا تَدَعِ الرِّضَا يَسْتَعْمِلُكَ، أَيْ: لَا يَكُونُ عَمَلُكَ لِأَجْلِ حُصُولِ حَلَاوَةِ الرِّضَا؛ بِحَيْثُ تَكُونُ هِيَ الْبَاعِثَةَ لَكَ عَلَيْهِ، بَلِ اجْعَلْهُ آلَةً لَكَ وَسَبَبًا مُوصِلًا إِلَى قَصْدِكَ وَمَطْلُوبِكَ، فَتَكُونَ مُسْتَعْمِلًا لَهُ، لَا أَنَّهُ مُسْتَعْمِلٌ لَكَ.

«الرِّضَا بِاللهِ تَعَالَى وَعَنْهُ، وَثَمَرَاتُهُ»

الرِّضَا بِاللهِ تَعَالَى رَبًّا فَرْضٌ؛ بَلْ هُوَ مِنْ آكَدِ الْفُرُوضِ بِاتِّفَاقِ الْأُمَّةِ، فَمَنْ لَمْ يَرْضَ بِهِ رَبًّا؛ لَمْ يَصِحَّ لَهُ إِسْلَامٌ وَلَا عَمَلٌ وَلَا حَالٌ .

وَأَمَّا الرِّضَا بِقَضَائِهِ؛ فَأَكْثَرُ النَّاسِ عَلَى أَنَّهُ مُسْتَحَبٌّ، وَلَيْسَ بِوَاجِبٍ، وَقِيلَ: بَلْ هُوَ وَاجِبٌ، وَهُمَا قَوْلَانِ فِي مَذْهَبِ أَحْمَدَ.

ففرق بين الرضا به والرضا بقضائه، فأما الرضا به ربًّا؛ فواجب وفرض، ومن لم يرض بالله ربًّا؛ فليس إلى الإسلام بسبب، وأما الرضا بقضائه؛ فإنه مستحب وليس بواجب؛ رحمة من الله بخلقه، وقال بعض أهل العلم: بل الرضا بقضائه واجب، وَهُمَا قَوْلَانِ فِي مَذْهَبِ أَحْمَدَ.

فَالْفَرْقُ بَيْنَ الدَّرَجَتَيْنِ فَرْقُ مَا بَيْنَ الْفَرْضِ وَالنَّدْبِ، وَفِي الْحَدِيثِ الْإِلَهِيِّ الصَّحِيحِ يَقُولُ اللَّهُ -عَزَّ وَجَلَّ-: «**مَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِمِثْلِ أَدَاءِ مَا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ**». فَدَلَّ عَلَى أَنَّ التَّقَرُّبَ إِلَيْهِ سُبْحَانَهُ بِأَدَاءِ فَرَائِضِهِ أَفْضَلُ وَأَعْلَى مِنَ التَّقَرُّبِ إِلَيْهِ بِالنَّوَافِلِ .

وَأَيْضًا: فَإِنَّ الرِّضَا بِهِ رَبًّا يَتَضَمَّنُ الرِّضَا عَنْهُ، وَيَسْتَلْزِمُهُ؛ فَإِنَّ الرِّضَا بِرُبُوبِيَّتِهِ: هُوَ رِضَا الْعَبْدِ بِمَا يَأْمُرُهُ بِهِ، وَيَنْهَاهُ عَنْهُ، وَيَقْسِمُهُ لَهُ وَيُقَدِّرُهُ عَلَيْهِ، وَيُعْطِيهِ إِيَّاهُ، وَيَمْنَعُهُ مِنْهُ، فَمَتَى لَمْ يَرْضَ بِذَلِكَ كُلِّهِ؛ لَمْ يَكُنْ قَدْ رَضِيَ بِهِ رَبًّا مِنْ جَمِيعِ الْوُجُوهِ، وَإِنْ كَانَ رَاضِيًا بِهِ رَبًّا مِنْ بَعْضِهَا، فَالرِّضَا بِهِ رَبًّا مِنْ كُلِّ وَجْهٍ يَسْتَلْزِمُ الرِّضَا عَنْهُ، وَيَتَضَمَّنُهُ بِلَا رَيْبٍ.

وَأَيْضًا: فَالرِّضَا بِهِ رَبًّا مُتَعَلِّقٌ بِذَاتِهِ، وَصِفَاتِهِ وَأَسْمَائِهِ، وَرُبُوبِيَّتِهِ الْعَامَّةِ وَالْخَاصَّةِ، فَهُوَ الرِّضَا بِهِ خَالِقًا وَمُدَبِّرًا، وَآمِرًا وَنَاهِيًا، وَمَالِكًا، وَمُعْطِيًا وَمَانِعًا، وَحَكَمًا، وَوَكِيلًا وَوَلِيًّا، وَنَاصِرًا وَمُعِينًا، وَكَافِيًا وَحَسِيبًا وَرَقِيبًا، وَمُبْتَلِيًا وَمُعَافِيًا، وَقَابِضًا وَبَاسِطًا، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ صِفَاتِ رُبُوبِيَّتِهِ .

وَأَمَّا الرِّضَا عَنْهُ؛ فَهُوَ رِضَا الْعَبْدِ بِمَا يَفْعَلُهُ بِهِ، وَيُعْطِيهِ إِيَّاهُ؛ وَلِهَذَا إِنَّمَا جَاءَ فِي الثَّوَابِ وَالْجَزَاءِ؛ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً﴾ فَهَذَا بِرِضَاهَا عَنْهُ لِمَا حَصَلَ لَهَا مِنْ كَرَامَتِهِ، وَكَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ﴾.

وَالرِّضَا بِهِ أَصْلُ الرِّضَا عَنْهُ، وَالرِّضَا عَنْهُ ثَمَرَةُ الرِّضَا بِهِ .

فَاللَّهُمَّ ارْزُقْنَا الرِّضَا بِكَ وَعَنْكَ، وَارْضَ عَنَّا يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ.

وَسِرُّ الْمَسْأَلَةِ: أَنَّ الرِّضَا بِهِ مُتَعَلِّقٌ بِأَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ، وَالرِّضَا عَنْهُ مُتَعَلِّقٌ بِثَوَابِهِ وَجَزَائِهِ.

والنَّبِيُّ ﷺ عَلَّقَ ذَوْقَ طَعْمِ الْإِيمَانِ بِمَنْ رَضِيَ بِاللَّهِ رَبًّا، وَلَمْ يُعَلِّقْهُ بِمَنْ رَضِيَ عَنْهُ، كَمَا قَالَ ﷺ: «**ذَاقَ طَعْمَ الْإِيمَانِ مَنْ رَضِيَ بِاللَّهِ رَبًّا، وَبِالْإِسْلَامِ دِينًا، وَبِمُحَمَّدٍ ﷺ رَسُولًا**»، فَجَعَلَ الرِّضَا بِهِ قَرِينَ الرِّضَا بِدِينِهِ وَنَبِيِّهِ، وَهَذِهِ الثَّلَاثَةُ هِيَ أُصُولُ الْإِسْلَامِ الَّتِي لَا يَقُومُ إِلَّا بِهَا وَعَلَيْهَا.

فَالرِّضَا بِهِ رَبًّا يَتَضَمَّنُ تَوْحِيدَهُ وَعِبَادَتَهُ، وَالْإِنَابَةَ إِلَيْهِ، وَالتَّوَكُّلَ عَلَيْهِ، وَخَوْفَهُ وَرَجَاءَهُ وَمَحَبَّتَهُ، وَالصَّبْرَ لَهُ وَبِهِ، وَالشُّكْرَ عَلَى نَعْمَائِهِ؛ بَلْ يَتَضَمَّنُ رُؤْيَةَ كُلِّ مَا مِنْهُ نِعْمَةً وَإِحْسَانًا؛ وَإِنْ سَاءَ عَبْدَهُ، فَالرِّضَا بِهِ يَتَضَمَّنُ شَهَادَةَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَالرِّضَا بِمُحَمَّدٍ رَسُولًا يَتَضَمَّنُ شَهَادَةَ أَنْ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، وَالرِّضَا بِالْإِسْلَامِ دِينًا يَتَضَمَّنُ الْتِزَامَ عُبُودِيَّتِهِ، وَطَاعَتَهُ وَطَاعَةَ رَسُولِهِ، فَجَمَعَتْ هَذِهِ الثَّلَاثَةُ الدِّينَ كُلَّهُ.

وَأَيْضًا: فَالرِّضَا بِهِ رَبًّا يَتَضَمَّنُ اتِّخَاذَهُ مَعْبُودًا دُونَ مَا سِوَاهُ، وَاتِّخَاذَهُ وَلِيًّا وَمَعْبُودًا، وَإِبْطَالَ عِبَادَةِ كُلِّ مَا سِوَاهُ، وَقَدْ قَالَ تَعَالَى لِرَسُولِهِ ﷺ: ﴿أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا﴾، وَقَالَ: ﴿أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا﴾، وَقَالَ: ﴿قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ﴾، فَهَذَا هُوَ عَيْنُ الرِّضَا بِهِ رَبًّا.

جَعَلَ حَقِيقَةَ الرِّضَا بِهِ رَبًّا: أَنْ يَسْخَطَ عِبَادَةَ مَا دُونَهُ، فَمَتَى سَخِطَ الْعَبْدُ عِبَادَةَ مَا سِوَى اللَّهِ مِنَ الْآلِهَةِ الْبَاطِلَةِ، حُبًّا وَخَوْفًا، وَرَجَاءً وَتَعْظِيمًا، وَإِجْلَالًا؛ فَقَدْ تَحَقَّقَ بِالرِّضَا بِهِ رَبًّا، الَّذِي هُوَ قُطْبُ رَحَى الْإِسْلَامِ .

وَإِنَّمَا كَانَ قُطْبَ رَحَى الدِّينِ؛ لِأَنَّ جَمِيعَ الْعَقَائِدِ وَالْأَعْمَالِ وَالْأَحْوَالِ إِنَّمَا تَنْبَنِي عَلَى تَوْحِيدِ اللَّهِ -عَزَّ وَجَلَّ- فِي الْعِبَادَةِ، وَسُخْطِ عِبَادَةِ مَا سِوَاهُ، فَمَنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ هَذَا الْقُطْبُ؛ لَمْ يَكُنْ لَهُ رَحًى تَدُورُ عَلَيْهِ، وَمَنْ حَصَلَ لَهُ هَذَا الْقُطْبُ؛ ثَبَتَتْ لَهُ الرَّحَى الَّتِي تَدُورُ عَلَيْهِ، فَيَخْرُجُ حِينَئِذٍ مِنْ دَائِرَةِ الشِّرْكِ إِلَى دَائِرَةِ الْإِسْلَامِ، فَتَدُورُ رَحَى إِسْلَامِهِ وَإِيمَانِهِ عَلَى قُطْبِهَا الثَّابِتِ اللَّازِمِ .

وَأَيْضًا: فَإِنَّهُ جَعَلَ حُصُولَ هَذِهِ الدَّرَجَةِ مِنَ الرِّضَا مَوْقُوفًا عَلَى كَوْنِ الْمَرْضِيِّ بِهِ رَبًّا سُبْحَانَهُ أَحَبَّ إِلَى الْعَبْدِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ، وَأَوْلَى الْأَشْيَاءِ بِالتَّعْظِيمِ، وَأَحَقَّ الْأَشْيَاءِ بِالطَّاعَةِ، وَمَعْلُومٌ أَنَّ هَذَا يَجْمَعُ قَوَاعِدَ الْعُبُودِيَّةِ، وَيُنَظِّمُ فُرُوعَهَا وَشُعَبَهَا.

وَلَمَّا كَانَتِ الْمَحَبَّةُ التَّامَّةُ: مَيْلَ الْقَلْبِ بِكُلِّيَّتِهِ إِلَى الْمَحْبُوبِ؛ كَانَ ذَلِكَ الْمَيْلُ حَامِلًا عَلَى طَاعَتِهِ وَتَعْظِيمِهِ، وَكُلَّمَا كَانَ الْمَيْلُ أَقْوَى؛ كَانَتِ الطَّاعَةُ أَتَمَّ، وَالتَّعْظِيمُ أَوْفَرَ، وَهَذَا الْمَيْلُ يُلَازِمُ الْإِيمَانَ؛ بَلْ هُوَ رُوحُ الْإِيمَانِ وَلُبُّهُ، فَأَيُّ شَيْءٍ يَكُونُ أَعْلَى مِنْ أَمْرٍ يَتَضَمَّنُ أَنْ يَكُونَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ أَحَبَّ الْأَشْيَاءِ إِلَى الْعَبْدِ، وَأَوْلَى الْأَشْيَاءِ بِالتَّعْظِيمِ، وَأَحَقَّ الْأَشْيَاءِ بِالطَّاعَةِ؟!

وَبِهَذَا يَجِدُ الْعَبْدُ حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ، كَمَا فِي الصَّحِيحِ عَنْهُ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «**ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ: مَنْ كَانَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا، وَمَنْ كَانَ يُحِبُّ الْمَرْءَ لَا يُحِبُّهُ إِلَّا لِلَّهِ، وَمَنْ كَانَ يَكْرَهُ أَنْ يَرْجِعَ إِلَى الْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْقَذَهُ اللَّهُ مِنْهُ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُلْقَى فِي النَّارِ**».

فَعَلَّقَ ذَوْقَ الْإِيمَانِ بِالرِّضَا بِاللَّهِ رَبًّا، وَعَلَّقَ وُجُودَ حَلَاوَتِهِ بِمَا هُوَ مَوْقُوفٌ عَلَيْهِ، وَلَا يَتِمُّ إِلَّا بِهِ، وَهُوَ كَوْنُهُ سُبْحَانَهُ أَحَبَّ الْأَشْيَاءِ إِلَى الْعَبْدِ هُوَ وَرَسُولُهُ.

وَلَمَّا كَانَ هَذَا الْحُبُّ التَّامُّ، وَالْإِخْلَاصُ -الَّذِي هُوَ ثَمَرَتُهُ- أَعْلَى مِنْ مُجَرَّدِ الرِّضَا بِرُبُوبِيَّتِهِ سُبْحَانَهُ؛ كَانَتْ ثَمَرَتُهُ أَعْلَى، وَهُوَ وَجْدُ حَلَاوَةِ الْإِيمَانِ، وَثَمَرَةُ الرِّضَا: ذَوْقُ طَعْمِ الْإِيمَانِ، فَهَذَا وَجْدٌ لِحَلَاوَةٍ، وَذَاكَ ذَوْقُ طَعْمٍ، وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ.

«مِن كِتَابِ: مَدَارِجِ السَّالِكِينَ بَيْنَ مَنَازِلِ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ»

وَهُوَ الْمَسْئُولُ وَحْدَهُ أَنْ يَرْزُقَنَا الرِّضَا بِهِ وَعَنْهُ، وَأَنْ يَرْزُقَنَا الرِّضَا بِرَسُولِهِ ﷺ نَبِيًّا وَرَسُولًا، وَبِالْإِسْلَامِ دِينًا، وَأَنْ يُحْيِيَنَا مُؤْمِنِينَ، وَأَنْ يَتَوَفَّانَا مُؤْمِنِينَ، وَأَنْ يُلْحِقَنَا بِالصَّالِحِينَ(١).

---

(١)«مِن خُطْبَةِ: مَنْزِلَةُ الرِّضَا - الجمعة ٢٠ من جمادى الآخرة ١٤٣٣هـ الموافق ١١-٥-٢٠١٢م».

«أَسْبَابُ رِضَا القَلْبِ وَشَرْحِ الصَّدْرِ»

إنَّ مِن أَعْظَمِ أَسْبَابِ شَرْحِ الصَّدْرِ: التَّوْحِيد، وَعَلَى حَسَبِ كَمَالِهِ وَقُوَّتِهِ وَزِيَادَتِهِ يَكُونُ انْشِرَاحُ صَدْرِ صَاحِبِهِ؛ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ﴾ [الزمر: ٢٢]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ﴾ [الأنعام: ١٢٥].

فَالْهُدَى وَالتَّوْحِيدُ مِنْ أَعْظَمِ أَسْبَابِ شَرْحِ الصّدْرِ، وَالشِّرْكُ وَالضَّلَالُ مِنْ أَعْظَمِ أَسْبَابِ ضِيقِ الصَّدْرِ وَانْحِرَاجِهِ.

وَمِنْ أَسْبَابِ شَرْحِ الصَّدْرِ: النُّورُ الَّذِي يَقْذِفُهُ اللَّهُ فِي قَلْبِ الْعَبْدِ، وَهُوَ نُورُ الْإِيمَانِ؛ فَإِنَّهُ يَشْرَحُ الصَّدْرَ وَيُوسِّعُهُ، وَيُفْرِحُ الْقَلْبَ، فَإِذَا فُقِدَ هَذَا النُّورُ مِنْ قَلْبِ الْعَبْدِ؛ ضَاقَ وَأصابه الحَرَجُ، وَصَارَ فِي أَضْيَقِ سِجْنٍ وَأَصْعَبِهِ.

وَمِنْ أَسْبَابِ شَرْحِ الصَّدْرِ: الْعِلْمُ، فَإِنَّهُ يَشْرَحُ الصَّدْرَ وَيُوسِّعُهُ؛ حَتَّى يَكُونَ أَوْسَعَ مِنَ الدُّنْيَا، وَالْجَهْلُ يُورِثُ الصدر الضِّيقَ وَالْحَصْرَ وَالْحَبْسَ، فَكُلَّمَا اتَّسَعَ عِلْمُ الْعَبْدِ انْشَرَحَ صَدْرُهُ وَاتَّسَعَ، وَلَيْسَ هَذَا لِكُلِّ عِلْمٍ، بَلْ لِلْعِلْمِ الْمَوْرُوثِ عَنِ الرَّسُولِ ﷺ، وَهُوَ الْعِلْمُ النَّافِعُ، فَأَهْلُ العلم النَّافع أَشْرَحُ النَّاسِ صَدْرًا، وَأَوْسَعُهُمْ قُلُوبًا، وَأَحْسَنُهُمْ أَخْلَاقًا، وَأَطْيَبُهُمْ عَيْشًا، وَأَنْعَمُهُم مَعِيشَةً، وَأَقَرُّهُم عَيْنًا .

وَمِنْ أَسْبَابِ شَرْحِ الصَّدْرِ: الْإِنَابَةُ إِلَى اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وَمَحَبَّتُهُ بِكُلِّ الْقَلْبِ، وَالْإِقْبَالُ عَلَيْهِ، وَالتَّنَعُّمُ بِعِبَادَتِهِ، فَلَا شَيْءَ أَشْرَحُ لِصَدْرِ الْعَبْدِ مِنْ ذَلِكَ؛ حَتَّى إِنَّهُ لَيَقُولُ أَحْيَانًا: «إِنْ كُنْتُ فِي الْجَنَّةِ فِي مِثْلِ هَذِهِ الْحَالَةِ؛ فَإِنِّي إِذًا فِي عَيْشٍ طَيِّبٍ».

وَلِلْمَحَبَّةِ تَأْثِيرٌ عَجِيبٌ فِي انْشِرَاحِ الصَّدْرِ وَطِيبِ النَّفْسِ وَنَعِيمِ الْقَلْبِ، لَا يَعْرِفُهُ إِلَّا مَنْ أحسَّ بِهِ، وَكُلَّمَا كَانَتِ الْمَحَبَّةُ أَقْوَى وَأَشَدَّ؛ كَانَ الصَّدْرُ أَفْسَحَ وَأَشْرَحَ، وَلَا يَضِيقُ إِلَّا عِنْدَ رُؤْيَةِ الْبَطَّالِينَ الْفَارِغِينَ مِنْ هَذَا الشَّأْنِ، فَرُؤْيَتُهُمْ قَذَى عَيْنِهِ، وَمُخَالَطَتُهُمْ حُمَّى رُوحِهِ.

وَمِنْ أَعْظَمِ أَسْبَابِ ضِيقِ الصَّدْرِ: الْإِعْرَاضُ عَنِ اللَّهِ تَعَالَى، وَتَعَلُّقُ الْقَلْبِ بِغَيْرِهِ، وَالْغَفْلَةُ عَنْ ذِكْرِهِ، وَمَحَبَّةُ سِوَاهُ؛ فَإِنَّ مَنْ أَحَبَّ شَيْئًا غَيْرَ اللَّهِ؛ عذَّبه الله به لا محالة، وَسُجِنَ قَلْبُهُ فِي مَحَبَّةِ ذَلِكَ الَّذي أحبّه مع الله، فَمَا فِي الْأَرْضِ أَشْقَى مِنْهُ، وَلَا أَكْسَفُ بَالًا، وَلَا أَنْكَدُ عَيْشًا، وَلَا أَتْعَبُ قَلْبًا.

فَهُمَا مَحَبَّتَانِ:

مَحَبَّةٌ هِيَ جَنَّةُ الدُّنْيَا، وَسُرُورُ النَّفْسِ، وَلَذَّةُ الْقَلْبِ، وَنَعِيمُ الرُّوحِ وَغِذَاؤُهَا وَدَوَاؤُهَا؛ بَلْ حَيَاتُهَا وَقُرَّةُ عَيْنِهَا، وَهِيَ مَحَبَّةُ اللَّهِ وَحْدَهُ بِكُلِّ الْقَلْبِ، وَانْجِذَابُ قُوَى الْمَيْلِ وَالْإِرَادَةِ، وَالْمَحَبَّةُ كُلُّهَا إِلَيْهِ.

وَمَحَبَّةٌ هِيَ عَذَابُ الرُّوحِ، وَغَمُّ النَّفْسِ، وَسِجْنُ الْقَلْبِ، وَضِيقُ الصَّدْرِ، وَهِيَ سَبَبُ الْأَلَمِ وَالنَّكَدِ وَالْعَنَاءِ، وَهِيَ مَحَبَّةُ مَا سِوَى الله سُبْحَانَهُ.

وَمِنْ أَسْبَابِ شَرْحِ الصَّدْرِ: دَوَامُ ذِكْرِهِ عَلَى كُلِّ حَالٍ، وَفِي كُلِّ مَوْطِنٍ، فَلِلذِّكْرِ تَأْثِيرٌ عَجِيبٌ فِي انْشِرَاحِ الصَّدْرِ وَنَعِيمِ الْقَلْبِ، وَلِلْغَفْلَةِ تَأْثِيرٌ عَجِيبٌ فِي ضِيقِهِ وَحَبْسِهِ وَعَذَابِهِ.

وَمِنْ أَسْبَابِ شَرْحِ الصَّدْرِ: الْإِحْسَانُ إِلَى الْخَلْقِ وَنَفْعُهُمْ بِمَا يُمْكِنُهُ مِنَ الْمَالِ وَالْجَاهِ وَالنَّفْعِ بِالْبَدَنِ وَأَنْوَاعِ الْإِحْسَانِ، فَإِنَّ الْكَرِيمَ الْمُحْسِنَ أَشْرَحُ النَّاسِ صَدْرًا، وَأَطْيَبُهُمْ نَفْسًا، وَأَنْعَمُهُمْ قَلْبًا، وَالْبَخِيلُ الَّذِي لَيْسَ فِيهِ إِحْسَانٌ أَضْيَقُ النَّاسِ صَدْرًا، وَأَنْكَدُهُمْ عَيْشًا، وَأَعْظَمُهُمْ همًّا وَغَمًّا.

وَلِذَلِكَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ضَارِبًا المَثَلَ لِلْبَخِيلِ وَالْمُتَصَدِّقِ كَمَا فِي «الصَّحِيحِين»: «**كَمَثَلِ رَجُلَيْنِ عَلَيْهِمَا جُنَّتَانِ مِنْ حَدِيدٍ، كُلَّمَا هَمَّ الْمُتَصَدِّقُ بِصَدَقَةٍ اتَّسَعَتْ عَلَيْهِ وَانْبَسَطَتْ حَتَّى يَجُرَّ ثِيَابَهُ وَيُعْفِيَ أَثَرَهُ، وَكُلَّمَا هَمَّ الْبَخِيلُ بِالصَّدَقَةِ لَزِمَتْ كُلُّ حَلْقَةٍ مَكَانَهَا وَلَمْ تَتَّسِعْ عَلَيْهِ**». فَهَذَا مَثَلُ انْشِرَاحِ صَدْرِ الْمُؤْمِنِ الْمُتَصَدِّقِ، وَانْفِسَاحِ قَلْبِهِ، وَمَثَلُ ضِيقِ صَدْرِ الْبَخِيلِ، وَانْحِصَارِ قَلْبِهِ.

وَمِنْ أَعْظَمِ أَسْبَابِ شَرْحِ الصَّدْرِ: إِخْرَاجُ دَغَلِ الْقَلْبِ مِنَ الصِّفَاتِ الْمَذْمُومَةِ الَّتِي تُوجِبُ ضِيقَهُ وَعَذَابَهُ، وَتَحُولُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ حُصُولِ الْبُرْءِ؛ فَإِنَّ الْإِنْسَانَ إِذَا أَتَى الْأَسْبَابَ الَّتِي تَشْرَحُ صَدْرَهُ، وَلَمْ يُخْرِجْ تِلْكَ الْأَوْصَافَ الْمَذْمُومَةَ مِنْ قَلْبِهِ؛ لَمْ يَحْظَ مِنَ انْشِرَاحِ صَدْرِهِ بِطَائِلٍ، وَغَايَتُهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ مَادَّتَانِ تَعْتَوِرَانِ عَلَى قَلْبِهِ، وَهُوَ لِلْمَادَّةِ الْغَالِبَةِ عَلَيْهِ مِنْهُمَا.

وَمِن أَسْبَابِ شَرْحِ الصَّدْرِ: تَرْكُ فُضُولِ النَّظَرِ وَالْكَلَامِ وَالِاسْتِمَاعِ وَالْمُخَالَطَةِ وَالْأَكْلِ وَالنَّوْمِ؛ فَإِنَّ هَذِهِ الْفُضُولَ تَسْتَحِيلُ آلَامًا وَغُمُومًا، وَتستحيل هُمُومًا فِي الْقَلْبِ تَحْصُرُهُ، وَتَحْبِسُهُ، وَتُضَيِّقُهُ، وَيَتَعَذَّبُ بِهَا؛ بَلْ غَالِبُ عَذَابِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ مِنْهَا؛ فَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ: مَا أَضْيَقَ صَدْرَ مَنْ ضَرَبَ فِي كُلِّ آفَةٍ مِنْ هَذِهِ الْآفَاتِ بِسَهْمٍ! وَمَا أَنْكَدَ عَيْشَهُ! وَمَا أَسْوَأَ حَالَهُ! وَمَا أَشَدَّ حَصَرِ قَلْبِهِ! وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ: مَا أَنْعَمَ عَيْشَ مَنْ ضَرَبَ فِي كُلِّ خَصْلَةٍ مِنْ تِلْكَ الْخِصَالِ الْمَحْمُودَةِ بِسَهْمٍ، وَكَانَتْ هِمَّتُهُ دَائِرَةً عَلَيْهَا، حَائِمَةً حَوْلَهَا، فَلِهَذَا نَصِيبٌ وَافِرٌ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ﴾ [الِانْفِطَارِ ١٣]، وَلِذَلِكَ نَصِيبٌ وَافِرٌ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ﴾ [الِانْفِطَارِ ١٤]، وَبَيْنَهُمَا مَرَاتِبُ مُتَفَاوِتَةٌ لَا يُحْصِيهَا إِلَّا اللَّهُ -تَبَارَكَ وَتَعَالَى-(١).

«مِنْ كِتَابِ: زَادُ المَعَادِ فِي هَدْيِ خَيْرِ العِبَادِ لابنِ القَيِّمِ -رَحِمَهُ اللَّهُ-».

---

(١)«من خطبة: لا تَحْزَنْ - الجمعة ٢١ من محرم ١٤٣٣هـ الموافق ١٦-١٢-٢٠١٢م».

فَاللَّهُمَّ يَا رَبَّ العَالَمِينَ، وَيَا أَكْرَمَ الأَكْرَمِينَ، وَيَا ذَا القُوَّةِ المَتِين؛ فَهِّمْنَا حَقِيقَةَ الدِّينِ، اللَّهُمَّ فَهِّمْنَا حَقِيقَةَ الدِّينِ، وَارْزُقْنَا العِلْمَ النَّافِعَ وَالعَمَلَ الصَّالِحَ، اللَّهُمَّ ارْزُقْنَا العِلْمَ النَّافِعَ وَالعَمَلَ الصَّالِحَ، وَأَحْيِنَا مُسْلِمِينَ، وَتَوَفَّنَا مُؤمِنِينَ، وَأَحْيِينَا مُسْلِمِينَ، وَتَوَفَّنَا مُؤمِنِينَ، وَأَلْحِقْنَا بِالصَّالِحِينَ.

اللَّهُمَّ جَنِّبْنَا مُضِلَّاتِ الفِتَنِ؛ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ، وَارْزُقْنَا الإِخْلَاصَ وَالصِّدْقَ يَا رَبَّ العَالَمِينَ، اللَّهُمَّ عَافِنَا مِنْ كُلِّ دَاءٍ وَسُوءٍ، وَأَحْسِنْ عَاقِبَتَنَا فِي الأُمُورِ كُلِّهَا، وَأَحْسِنْ لَنَا الخِتَامَ يَا رَبَّ العَالَمِينَ.

وَصَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ عَلَى نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَأَصحَابِهِ أَجْمَعِينَ(١).

---

(١)«مِن خُطْبَةِ: مَنْزِلَةُ الرِّضَا - الجمعة ٢٠ من جمادى الآخرة ١٤٣٣هـ الموافق ١١-٥-٢٠١٢م».

وَالحَمْدُ للهِ رَبِّ العَالَمِينَ

****